البيئـة
من منظور إسلامي

تأليـف

أحمد مبارك سالم سعيد عبد اللّه

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم جائزة زايد

يقول الله تعالى في سورة الروم ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وفي هذا إشارة صريحة من المولى عز وجل إلى أن الإنسان يلعب دوراً هاماً في فساد البيئة في البر والبحر وأنه يدفع ثمناً باهظاً لذلك. وهذا كلامٌ أنزله الله تعالى على قلب نبينا محمد صلى الله عليه وسلم منذ أكثر من ١٤ قرناً، بينما المجتمعات الغربية لم تعترف بدور الإنسان في الدمار البيئي الذي يحدث نتيجة للتغير المناخي إلا في بداية هذا القرن الحادي والعشرون. وبالرغم من أن السياسة والعلاقات الدولية قد لعبت دوراً هاماً في تخلف الإعتراف كل هذه القرون، إلا أننا يجب أن نقر أن الإسلام قد سبق كل الحضارات والأمم في طرح مفاهيم بيئية تربوية تحض المسلم على رعاية البيئة واحترام مكوناتها وحفظ التوازن الذي أوجده الخالق سبحانه وتعالى.

يشتمل الإسلام على سلسلة تعاليم مبنية على قيم لو أمعنا فيها النظر لوجدناها متقدمة على القيم الحديثة لحماية البيئة وتحقيق التنمية المستدامة. قيم المحافظة مثلاً تختص بتوجيه سلوك الأفراد نحو المحافظة على مكونات البـيئة وقيم الاستغلال تتعلق بتوجيه سلوك الأفراد نحو الاستغلال الرشيد للموارد الطبيعية، بينما قيم التكيف والاعتقاد تختص بتوجيه سلوك الأفراد نحو التكيف مع بيئتهم ، ونحو تصحيح معتقداتهم السلبية تجاهها. وربما نضيف إليها القيم الجمالية التي تختص بتوجيه سلوك الإنسان نحو التذوق الجمالي لمكونات البيئة والتنوع البيولوجي واحترام الدور الذي يؤديه كل مخلوق.

وما أكثر الأحاديث النبوية الشريفة التي تحض على نشر الخضرة وترشيد استهلاك الماء والغذاء واحترام مخلوقات اللّٰه الأخرى.

من هذا المنطلق جاء هذا الكتاب، «رعاية البيئة من منظور الاسلام» ، للأستاذ أحمد مبارك سالم من مملكة البحرين الشقيقة، ليزين سلسلة «عالم البيئة» بإضاءة تنير لنا طرقاً يحسبها الكثيرون بعيدة عن دروب البيئة ويساهم بذلك في ازالة الغبار الذي تراكم على تراثنا الإسلامي فكاد أن يمحوه من خارطة العلوم الحديثة.

أود هنا أن أشكر الأستاذ أحمد سالم الذي اجتهد وأوفى على قدر المساحة الزمنية المتاحة له فأخرج لنا هذا العمل الجميل. نسأل الله تعالى أن يجعله نبراساً للباحثين والدارسين وطلاب العلم الشرعي والعلم الحديث وأن يكون بداية لسلسلة من الدراسات والبحوث التي تتناول علاقة الإسلام بالبيئة.

أ. د / محمد أحمد بن فهد

رئيس التحرير

رئيس اللجنة العليا لجائزة زايد

تقديم السلسلة

لا يخفى على أحد أن الدراسات والأبحاث التي غطت جوانب عديدة من الفكر الإسلامي كالإقتصاد والسياسة والحرب والسلم ...الخ، شكلت سيلاً متجدداً منذ ظهور الإسلام واغنت المكتبات بمراجع مثلت عصور مختلفة، وما زالت تتجدد حتى يومنا هذا. وكلما تطورت العلوم والمعارف، صاحبها تسارع في الدراسات والأبحاث التي تربط ذلك التطور بالفكر الاسلامي.

لم تظهر حماية البيئة في مفهومها المعاصر الا بعد الثورة الصناعية، مما أدى الى انعقاد الموتمر العالمي الاول في استوكهلم عام ١٩٧٢ بهدف التصدي لقضايا البيئة على المستوى العالمي. وتكررت هذه المؤتمرات بعد ذلك بمعدل كل عشر سنوات مرة، وولدّت هيئات ومؤسسات ولجان. وكان من البديهي ان يباشر الباحثون المسلمون المساهمة في هذا المضمار، وتسليط الاضواء على الابعاد البيئية في الاسلام. الا ان ذلك ما يزال في بداياته. وما زالت الكتابات والابحاث والمصادر قليلة في هذا المجال. ولكن

الطريق ممهدة ومتسعة لكل من أراد دخول هذا المضمار ليسلط الضوء على جانب او أكثر من جوانب حماية ورعاية البيئة في ظل تعاليم الاسلام، وخاصةً أن هذه التعاليم بدأت مع البدايات الأولى للدعوة الاسلامية.

كتاب الأستاذ احمد مبارك سالم «رعاية البيئة من منظور الاسلام» والذي يشكل الحلقة الثانية عشر من سلسلة «عالم البيئة» يعتبر خطوة مهمة وجادة على هذا الطريق، خاصة وانه تعرض لمفاصل اساسية تلهث الدراسات والابحاث الغربية خلفها، كاعتبار الانسان جزءاً لا يتجزأ من البيئة، وعلاقته بها والانتفاع منها ووجوب حمايتها في السلم والحرب، والتوازن البيئي،والترشيد والاسراف. ويؤكد الكاتب أن ايقاف الكارثة البيئية التي يعاني العالم منها، يمكن أن يتحقق من خلال استثمار حقيقي لمنظورالاسلام في رعاية وحماية البيئة.

من المهم جدا أن يتم طرح هذا الفكر،على المستوى البيئي، في مواجهة تشنج الاعلام الغربي تجاه الاسلام، ومحاولات ربطه المستمرة بالارهاب، والاساءة المتعمدة لصورته الحقيقية. وضرورة التأكيد على الدعوة الى انفتاح حقيقي على قيم ومبادئ حماية ورعاية البيئة في الإسلام، حيث سيجد الغرب حلولاً

حقيقيةً لإنقاذ الكرة الارضية من الإنهيار الذي تتسارع نحوه. هذا إذا كانت السياسات الغربية (ولا أقول الدراسات) جادة في إنقاذ كوكبنا، ولديها النية الصادقة لتقديم المصلحة البشرية على مصالح الشركات والأفراد.

دكتور مهندس سفيان التل

مدير التحرير

المقدمة

الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على من سار على هديه المؤمنون الصادقون، وعلى آله وصحابته الأكرمين المبجلين، وبعد.

فإن مما منّ الله تعالى به على هذه الأمة الأمر الرشيد، الذي حثّ فيه على التحصيل والتجديد، وإمعان البحث لاستخراج الرأي السديد، وهو ما أنبت الحياة المنهجيّة التي تأصّلت فيها معالم التفوق والترشيد؛ لذلك كان تحصيل العلم والحفاوة والاهتمام بالبحث العلمي علامةً بارزةً من علامات التفوق وتقدم الأمم والشعوب، وأنه بذلك لا مناص عن هذا الطريق متى ابتغت الأمة الارتقاء بالذات، وتهذيب التوجهات والممارسات، وذلك على نحو يكفل تقدمها ورقيها نحو المستقبل السعيد.

إن مضمون هذه الدراسة يسعى الباحث من خلاله إلى توضيح مختلف ما يتصل بمفهوم البيئة، وإبراز أهمية الحفاظ عليها في الإسلام وعنايته بها، وما يتصل بمسؤولية الفرد والمجتمع تجاهها، ونتائج إهمالها على الحياة بعامة من خلال دراسات وتطبيقات معاصرة، والتي تم التوصل إليها من خلال استقراء ما تتعرض له البيئة في ظل التحديات العالمية، حيث يتسابق الجميع على الانتفاع من خيرات البيئة دون مراعاة اعتبارات الحماية للبيئة، وذلك دون أدنى مراعاة لواجب الحماية الذي

يتعين بمقابل حق الانتفاع، وهو ما أوقع المجتمع الإنساني في هذه المشاكل والأزمات البيئية التي أدت إلى تدهور البيئة، مما ولّد في المقابل جهود المنظمات الأهلية المعنية بحماية البيئة. ولا شك أن منهجية الإسلام في تحقيق الرعاية للبيئة تربيةً وتهذيباً للسلوك، وتقنيناً وتشريعاً للتنظيمات القانونية جديرة بالتبني لإنقاذ البيئة.

ومع تطور المشاكل التي تعاني منها البيئة نتيجة تفاعل الإنسان مع عناصرها ومكوناتها، فقد أصبحت المشكلة البيئية مشكلة ملحّة، لا سيما في ظل انحراف السلوكيات والممارسات، حيث أصبح الوعي البيئي وممارسة السلوكيات الترشيدية لرعاية البيئة في المجتمعات المتقدمة أكثر حيوية وفعالية من المجتمعات النامية التي تضم المجتمعات الإسلامية ضمن حيزها ونطاقها.

إن الكثافة السكانية وطغيان التنمية الصناعية على التنمية الزراعية كان لها دورٌ كبيرٌ في تفاقم الأزمة في عدد من المجتمعات، وهذا ما حقق المسؤولية على الأفراد والجماعات بضرورة ضبط حق الانتفاع بضوابط من شأنها أن تعيد للدورة الحيوية لعناصر البيئة توازنها ومرونتها التي خلقها الله تعالى عليها، وذلك بما يحفظ حق الإنسان في الحياة في المقام الأول بالعمل على إيجاد بيئة صحية تحفظ له حياته وحياة ما حوله من مخلوقات يعتمد ضمن مقومات حياته على وجودها في غذائه وتنفسه وحركته وسكونه؛ لذلك كان لا بد أن يفقه الإنسان نظرته إلى البيئة من حوله، ولا بد أن يفهم أنه جزء من أجزائها ووصيي وقيّم

عليها، ومسؤول بما يحدثه من تأثير عن توازنها ومرونة دورتها الحيوية في التفاعل بين عناصرها ومكوناتها؛ لذلك كانت الدلالات الشرعية من نصوص واجتهادات فقهية تعتبر كنوزاً إرشادية عظيمةً في رعاية البيئة وحمايتها.

ومع ازدياد الأزمات والمشاكل البيئية جاءت المطالبة بضرورة الإحياء لمختلف جوانب الوعي والتربية البيئية، والتي تختلف فيها المناهج والتصورات، وللإسلام في ذلك منهج يقيم الالتزام بذلك على أساس أنه عبادة من العبادات، وواجب من الواجبات يترتب على الإخلال في أدائه الإثم، ويتعين على صاحبه ومرتكبه العقوبة والتعزير. ولا شك أن معالجة جوانب القصور في فهم تصورات الدين ونظرياته فيما يتصل بالنظرة إلى البيئة، وما يتعلق بحقيقة العلاقة التي ينبغي أن تُستوعب، وأخيراً ما يحقق الحماية للبيئة من التزام بضوابط الشرع وقواعده تربية ووعياً، وتشريعاً وقانوناً، جديرٌ بأن يحيي الجانب الروحي في تهذيب سلوك الإنسان في رعايته للبيئة وعنايته بها من حوله، والرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

تبرز أهمية البحث باعتبار ما يتصل بمحاوره من تنظيم لعلاقة الإنسان بالبيئة انتفاعاً وحماية نظراً لوجود خلل بين حق الانتفاع وما يتصل به من ضوابط، وواجب الحماية وما يتقرر من خلاله من التزامات تجاه البيئة.

إن رعاية البيئة وحمايتها تأتي تحقيقاً لخير الإنسان بحفظ

حياته، فلا يمكن أن يتمتع الإنسان بحق الحياة إلا إذا صان محيطه وتجنب التأثيرات التي يحدثها وتؤدي بالتالي إلى اختلال توازن دورة التفاعل بين العناصر الحيوية وغير الحيوية في البيئة من حوله.

هناك قصورٌ كبير في تفعيل نظرة الإسلام والضوابط المنصوص عليها لرعاية البيئة، فهي كغيرها من مبادئ الدين وضوابطه تفتقد التفعيل في سلوكيات المجتمع المسلم، وهذا ما يشكل إعاقة لإيصالها كمكون فكري إلى الآخر؛ إذ فاقد الشيء لا يعطيه،وعندما يتصل موضوع البحث بحياة الإنسان وبما يتصل بالتوازن فيها انتفاعاً وحماية لما حوله من عناصر، فإن هذا يعد جانباً آخر من الأهمية، هذا فضلاً عما يشكله البحث من معالجة لجوانب تميّز الإنسان وتكريمه عن غيره من المخلوقات التي تعيش معه في الكون، فهو خليفة بأمر الله في أرضه، وصاحب الأمانة والوصاية على البيئة، والأكثر تأثيراً وتأثراً بتفاعلاتها؛ لذلك كان حرياً به أن يهذب سلوكه، وأن ينظم علاقته بما حوله من عناصر ومكونات، ولا شك أن اهتداءه بمبادئ الدين ونظمه في نظرة الإسلام للبيئة ولحقيقة العلاقة بها، وما يتصل بضوابط الانتفاع بمقابلة واجب الحماية جديرةٌ بأن تحقق هذا الهدف المنشود، وهو ما يتصل بمحاور هذه الدراسة المتواضعة.

حـــدود البحـــث

إن هذه الدراسة تؤصّل في مضمونها عدداً من الجوانب النظرية التي تتصل بمنظور الإسلام للبيئة التي سخرها الله تعالى للإنسان

في المقام الأول، فكان أكثر تأثيراً فيها، ولغيره من المخلوقات بعد ذلك فكانت أكثر تأثراً بذلك.

ومن أجل ذلك فإن ما ستنصب عليه الجهود في هذه الدراسة يتمثل بعدد من العناصر التي ستتشكل من خلال تناولها حدود البحث في هذا الموضوع المتعدد الجوانب، حيث تتمثل محاوره في هذه الدراسة بما يلي:

- **النظرة** : إن رؤية الإسلام التي أصلتها المصادر الشرعية تتلخص في نظرتها إلى البيئة ليس باعتبارها جزءاً منفصلاً عن الإنسان، بل باعتبار الإنسان جزءاً لا يتجزأ منها، ووصياً عليها؛ ولذلك فإنه مأمور بأن يرعاها وأن ينتفع بها بما يقيم له حياته من غير إفراط ولا تفريط.

- **العلاقــة** : نظراً لكون الإنسان جزءاً لا يتجزأ من البيئة، وأنه ليس عنصراً منفصلاً عنها، فإن علاقته ستتشكل معها كعلاقة جزء من كل، فهي تتسم بالوحدة والتميز، فهو عنصر يشكل جزءاً من البيئة، وهو متميز في ذات الوقت باعتباره مسؤول عنها نظرا لما ميزه الله تعالى من نعمة العقل والتكليف ثمرة لهذه النعمة، والتي استأثر بها كقدرة عن سائر المخلوقات.

- **الانتفــاع** : وهو حق للإنسان نظراً لكونه جزءاً من البيئة، وحق لسائر المخلوقات التي تعيش من حوله، إلا أن الحصول على هذا الحق

بالنسبة للإنسان باعتبار يقع تحت نطاق التكليف يتمثل بضرورة حفظ البيئة ورعايتها من التلوث، وبضرورة العمل على الانتفاع منها على قدر الحاجة التي تستدعي مختلف جوانب الانتفاع بالبيئة، فهي ملك للإنسانية جيلاً بعد جيل، من لدن آدم (عليه السلام)، وحتى يومنا هذا، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

- **الحماية** : كما أن للإنسان حق الانتفاع بالبيئة وفقاً للضوابط الشرعية المرعية، فإن عليه التزام بواجب حمايتها؛ إذ الالتزام بهذا الواجب يقرر الحفظ لذلك الحق، ومن دون الالتزام بهذا الواجب لا يمكن أن يتحقق ذلك الحق؛ لذلك كان من الضرورة بمكان الالتزام بالضوابط المقررة لممارسة حق الانتفاع، والتي لا يمكن أن يتحقق الالتزام بها مالم يدرك الإنسان منظور الإسلام وأبعاد فلسفته لحماية البيئة كما عرضها القرآن، وكما تُستقرأ من خلال السنة المعصومة، وكما استقرت في اجتهادات أهل الفقه، وهذا ما يستدعي إرساء هذا الواجب بوسيلتين، فأما الأولى منهما فهي ذات بعدٍ أخلاقيٍ تهذيبي، وأما الثانية فهي ذات بعدٍ إلزاميٍ تعزيري.

الصعوبات التي واجهت الباحث والجهد المبذول

إن تناول معالجة منظور الإسلام في حماية ورعاية البيئة يعتبر تناولاً حديثاً إلى حد ما، فالدراسات المطروحة فيه لا يتجاوز عمرها العقدين الماضيين من القرن الماضي، وأغلبها تم تناولها مع بداية الألفية الجديدة، ولعل ذلك كان تفاعلاً مع الاهتمام بمشاكل البيئة منذ السبعينيات من القرن

الماضي، أي منذ مؤتمر استوكهولم الذي انعقد في العام ١٩٧٢ الذي دعا القائمون عليه من مختلف ممثلي العالم إلى مزيدٍ من الإجراءات لحماية البيئة ورعايتها احتواء للكوارث والأزمات المتجددة.

ومن أجل ذلك فإن الدراسات التي تناولت معالجة شرعية لمنظور الإسلام للبيئة دراسات قليلة، وهناك جزء كبير منها يصنّف ضمن الدراسات العلمية البحتة، حيث يتم معالجة منظور الإسلام لرعاية البيئة فيها دون استقراء وتعمّق .

وبذلك فإن الصعوبات التي واجهت إعداد هذا البحث كانت متمثلة بقلة المصادر، مما استلزم من الباحث فضلاً عن الاعتماد على ما قرره أهل الفكر من معالجات لهذا المفهوم من منظور الإسلام، إلى العمل على استقراء النصوص وتحليلها والاعتماد على ما قرره أهل التفسير في الكثير من النصوص القرآنية.

ونظراً لقلة المصادر فقد قام الباحث فضلاً عن الاعتماد على المصادر المتاحة في بلده بزيارة العديد من المكتبات في القاهرة، هذا فضلاً عن زيارته لمكتبة الإسكندرية التي وجد فيها عدداً من المصادر التي تتناول معالجة للموضوع، وكل ذلك ابتغاء لإثراء البحث وتنويع مصادره.

مصادر البحث وتوثيقه

هناك العديد من الدراسات التي طرقت هذا الموضوع بالبحث والتحليل، وهي في الحقيقة دراسات في غالبها منهجية ومؤطّرة في تناولها

لمختلف القضايا التي تطرح في هذا المضمار الفكري؛ لذلك كان لزاماً على الباحث بعد هذا الاستقراء في العديد من الكتابات أن يعتمد على مصادر متخصصة في تحليل هذه المسألة تحليلاً ينطلق من معطيات الواقع، ويرسم استراتيجيات للمستقبل، ومن أبرز ما تم الاعتماد عليه في هذه الدراسة.

- دراسة بعنوان: (قضايا البيئة من منظور إسلامي) لعبد المجيد عمر النجار: والتي قام معدها من خلالها بمعالجةٍ متعمقة للنصوص الشرعية فيما يتصل بنظرة الإسلام للبيئة ولعلاقة الإنسان بها، وما يتصل بحق الارتفاق بالبيئة، ووجوب تحري الرفق الاستهلاكي والصياني للبيئة باعتبارها أمانة تقع تحت مسؤولية الإنسان، وقد تم الاعتماد على ما ورد في هذه الدراسة من معالجات، وتمت إضافة مسائل رأى الباحث وضعها ضمن المحاور التي تم الاعتماد عليها من خلال المعلومات المستقاة من هذه الدراسة.

- دراسة بعنوان: (البيئة والإنسان – رؤية إسلامية) لزين الدين عبد المقصود: والتي عرض من خلالها مؤلفها الكثير من المحاور التي تتصل بالمعالجة الشرعية للبيئة من خلال ما عرضته النصوص القرآنية والأحاديث النبوية.

- دراسة بعنوان: (الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام؟) لزكي حسين زيدان: والتي تم من خلال

ما طرح ضمن محاورها تحليل واستقاء العديد من المعلومات التي عالج من خلالها المؤلف ما قررته التطبيقات الفقهية للمذاهب الأربعة في تنظيم علاقة الإنسان بالبيئة من حوله، وهو ما تم الاعتماد عليه كمعلومة في هذه الدراسة

- دراسة بعنوان: (رعاية البيئة في شريعة الإسلام) ليوسف القرضاوي: وهي دراسة أصلها ورقة قدمها المؤلف في مؤتمر من المؤتمرات التي تتصل بمعالجة مفهوم البيئة من منظور الإسلام، حيث تم فيها استعراض العديد من المحاور التي تبين الدقة المتناهية لرعاية الإسلام لبيئة الإنسان، وما يتصل برقي المبادئ التي قررتها الشريعة السمحاء في تنظيم حق الانتفاع وواجب الحماية بمختلف عناصر البيئة.

- دراسة بعنوان: (الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية البيئة) لمحمد صالح العادلي: والتي تناول فيها مؤلفها معالجة قانونية لما يتصل بواجب الحماية للبيئة، والتي تعتبر العنصر الذي يتكامل مع عنصر التربية البيئية، حيث عرض الكاتب باعتباره متخصصاً في القانون لعدد من الأبعاد والمقتضيات التي يمكن أن ترتكز عليها المنظومة القانونية لحماية البيئة من منظور الإسلام.

أما توثيق البحث فقد تم بحيث يتم الإيعاز إلى المصدر تفصيلا في أسفل الصفحة (الهامش)، كما تتم الإشارة إليه بعد ذلك في آخر الدراسة ضمن مصادر للبحث وفقاً للترتيب الأبجدي ووفق تصنيف

معين. أما بالنسبة للمعلومات التي تستقى من الإنترنت فيتم بيان كاتب المادة وتاريخ الدخول إلى الموقع كل على حدة.

منهجية البحث

تم الاعتماد في هذا البحث من أجل تقصي الحقائق حول مختلف المسائل المتصلة بصلب الموضوع على ما تقرر من قواعد بحثية في المنهج الوصفي التحليلي، والتي تتطلب الحصول على نصوص معتبرة تتناول جوهر الموضوع، والقيام بوصف تلك النصوص، والتركيز على عدد من عناصر النص لتحليل التوجهات في فهمها؛ وذلك بغرض مقارنته مع غيره للاتصال بالرأي والتحليل الأكثر وجاهة في ذلك.

ومن الجدير بالذكر أن هذه المنهجية هي أحدث منهجيات البحث العلمي المتبعة في مجالات الدراسات الاجتماعية، وغايتها استخراج الأقوال والتعميمات اعتماداً على تحليل العبارة كما وردت في النص، وهو ما يعني إبراز الدلالة المباشرة للنص.

وهناك مجالان للتحليل الوصفي، فأما أولهما فهو التحليل الكمي، وهو الذي يعتمد على المقاييس الإحصائية المعروفة، حيث يبني الباحث على تحليل العبارات عدداً من الإحصاءات ليستخرج منها نتائج رقمية وفق ما يراه مناسباً من المقاييس الإحصائية.

أما التحليل الكيفي فيعتمد فيه الباحث على قدراته العقلية في استنباط الأحكام من خلال النصوص والاجتهادات، والعمل على إدراك

مدلولاتها القريبة والبعيدة، وشرح تلك المدلولات وضمها إلى بعضها البعض، واستخراج الأشباه والنظائر، ثم الخروج بنتائج وتعميمات نهائية من المقاصد الكبرى والاتجاهات الأساسية الكامنة على المستوى الفكري الذي قام بتحليله. وقد كان هذا الخيار الثاني هو الأنسب للأخذ به في هذه الدراسة.

مشكلة البحث

لقد أدى تأخر المسلمين في تحصيل العلوم الإنسانية والعلمية في ظل تقدم الغرب وتطويرهم لهذه العلوم إلى غياب التأصيل المعتمد على ما قرره الدين من مبادئ ومرتكزات، وهذا ما جعل الكثير من العلوم – ومنها العلوم البيئية – ترتكز على المبادئ التي أقام عليها المتفوقون في دراسة هذه العلوم بعيداً عن أسس ومبادئ الدين، بل أقاموها على ما يتناقض مع قواعد الدين وتعاليمه، وهذا ما جر آلة البحث في الفكر الإسلامي إلى العمل على عرض ما توصلت إليه هذه العلوم من نتائج والعمل على ربطها بما قررته قواعد الدين؛ لذلك كان من الضرورة في هذا المقام العمل على استقراء قواعد وتعاليم الدين ومعالجاته لمختلف المسائل المتصلة بمواضيع هذه الدراسة؛ وذلك بغرض عرض نتائج هذه العلوم والانطلاق في النظرة إليها والتعامل معها وفق منظور الدين الذي جعل المولى عز وجل تعاليمه إرشاداً يحكم سلوكيات الإنسان؛ وذلك حتى لا ينحرف به عقله عن جادة الصواب ومقتضيات العقل السليم، وما يتقرر من خلاله اكتساب المنافع التي لا يعلمها إلا الرب الخالق لهذا

العقل؛ فالصانع أعلم بما يصلح من شأن مصنوعاته ويحفظ على الإنسان إنسانيته التي كرّمه الله تعالى بها.

ثم إن الأزمة البيئية اليوم ترجع في أسبابها إلى علاقة ذات معالم سلبية بين الإنسان والبيئة، وذلك يرجع إلى الخلل بين الانتفاع بالحق المتصل بتسخير هذه البيئة للإنسان، وما يتصل بواجب الحماية المتمثل بالالتزام بضوابط الانتفاع واتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيق واجب الحماية والرعاية للبيئة، فهناك جانبان يعكسان القصور في ذلك، فأما الأول منهما فيتمثل في ضعف التفعيل لاستثمار هذه الدلالات والتوجيهات في واقع المجتمعات الإسلامية، ويترتب على هذا الجانب من القصور قصور في نقل رؤية الإسلام لهذه الرؤية، وهذا ما يستلزم مزيداً من الجهود لتجاوز هذا القصور.

والتساؤل الذي يمكن أن يثار في هذه الدراسة... هل يمكن رسم تاريخ البيئة من منظور الإسلام إذا اعتبرنا العنصر العقدي في التحليل؟، وهل لهذا الأمر تأثير على تصور الإنسان للكون واستغلاله لموارده؟ ... أو بعبارة أدق، هل رسمت للإنسان علاقة محددة بالكون قبل أن يودع فيه، أم أن عليه أن ينسجها عبر اكتشافه العلمي التدريجي لعلاقته بالكون من خلال ما يستجد في حياته من مخترعات؟

الدراسات السابقة والإضافة العلمية

إن الدراسات والمعالجات السابقة لموضوع البحث تكاد تتشابه في

محاورها التي تتناولها، وما سيتم في هذه الدراسة حتى تشكل إضافة بمشيئة اللّه تعالى لما سبقها من دراسات في هذا المضمار يتمثل في تحليلٍ لعددٍ من الجوانب التي تتصل بالموضوع مما لم يرد في الدراسات السابقة، هذا فضلاً عن محاولة طرح وتنسيق أبعادٍ مختلفة لم يجدها الباحث مجتمعة في دراسة من الدراسات السابقة.

ومن الجدير بالذكر أن هناك بعض الدراسات السابقة لهذا الموضوع إما أن تكون دراسات سطحية ترد ضمن معالجات علمية بحتة لمفهوم البيئة، وهي معالجات فضلاً عن سطحيتها فهي ليست بالتحليل المعمّق الذي يمكن أن يحقق استقراءً تاماً لمنظور الإسلام في ذلك، وإما دراسات تعتبر متعمقة في هذا المضمار، والتي أبرز أصحابها تحليلاً معمقاً للكثير من الجوانب التي تتصل بنظرة الإسلام للبيئة ولما يتصل بعلاقة الإنسان بها، وما يتصل بضوابط الانتفاع بها، والجهود المبذولة في هذا المجال، وهو ما أفاد الباحث حقيقةً في بناء الكثير من المحاور التي يعتقد أن فيها إثراءً لما بذله أهل الفكر في هذا الموضوع، ويتمنى من اللّه العلي القدير أن يشكل جهده المبذول – جمعاً وتحليلاً – إضافة لما سبق من تحليل لهذا الموضوع في الدراسات السابقة، هذا فضلاً عن أنها دراسة في حجمها لا تقارن بما قبلها من دراسات، فلعل ما بذل فيها من جهد أن يجعلها مرجعاً متكاملاً لمختلف المحاور التي تتصل بمنظور الإسلام في حماية البيئة من حيث ضرورة رعايتها، والتأمل في جمالها، واللّه سبحانه وتعالى من وراء القصد، وهو يهدي إلى سواء السبيل.

المسلمات الأساسية في البحث

لما كانت هذه الدراسة تحوي ضمن محاورها معالجةً شرعيةً لمنظور الإسلام في علاقة الإنسان ببيئته بين حق الانتفاع وواجب الحماية، فإن ما يتقرر ضمن محاورها يتمثل في معالجات لمسلمات وليس لفرضيات يختبرها الباحث ليقيس مدى صحتها من خطئها؛ لذلك اتجهت المعالجة في هذه الدراسة من خلال تحليل عدد من المسلمات الأساسية التي تمثل أبرزها بما يلي:

- تنطلق نظرة الإنسان للبيئة من منظور الإسلام من خلال رؤية تختلف جذرياً عن غيرها مما تقره المذاهب الوضعية، ولا شك أن لذلك أثره على علاقة الإنسان بالبيئة.

- تقوم علاقة الإنسان ببيئته على اعتبار أنه جزءٌ متميزٌ من أجزائها وليس جزءاً منفصلا عنها، ومن خلال ذلك فإنه ينبغي أن تقوم رعايته لها على أساس الوصاية والقوامة التي تقتضي الالتزام بالواجب تجاهها قبل تحصيل الحق والمنفعة حتى تبقى قابليتها للانتفاع حالاً ومستقبلاً، وذلك باعتباره العنصر الأكثر تأثيراً وتأثراً بين المكونات والعناصر الأخرى.

- يحكم منظور الإسلام ممثلاً بقواعده وأحكامه انتفاع الإنسان وارتفاقه بالبيئة، وبذلك فإن أي ممارسة ينطلق من خلالها الإنسان في انتفاعه من عملية تسخير الله تعالى للبيئة له ينبغي

أن تكون ملتزمة بهذه الضوابط وفق منظور المصلحة المقرر في الشريعة الإسلامية.

- لقد هيئ الله تعالى البيئة كاملة متكاملة لسد حاجة الإنسان الآنية والمستقبلية، وما تعاني منه البيئة من مشكلة ندرة جزئية ناتج عن ضعف العدالة في توزيع خيراتها ومقدراتها، واستنزاف مواردها بداعٍ ومن دون داعٍ، .
- يرتبط منظور الإسلام في الحفاظ على البيئة ورعايتها بتوازنٍ مرنٍ يراعي بالضرورة بقاء منفعة البيئة ومصلحة الإنسان الآنية والمستقبلية جيلاً بعد جيل.
- إن احتواء الكارثة البيئية التي يعاني منها العالم يتحقق من خلال الاستثمار الحقيقي لمنظور الإسلام في رعاية وحماية البيئة.

ترتيب الفصول والمباحث والمطالب

تحقيقاً لأهداف البحث ومقتضياته فإنه سوف يتم تقسيم البحث إلى ثلاثة أبواب، **سيتم في الأول منها** تناول عددٍ من المحاور كمدخل لدراسة البيئة من منظور إسلام، ففي الفصل الأول الذي سيتم تقسيمه إلى مبحثين استعراض لمفهوم البيئة ومكوناتها. أما الفصل الثاني فسيتم من خلاله تناول الإنسان كعنصر متفاعل مع البيئة. وفي الفصل الثالث

الذي سيتم تقسيمه إلى ثلاثة مباحث سيتم تناول علاقة الإنسان ببيئتة، وما يتصل بذلك من استقراء لطبيعة هذه العلاقة وبنائها من منظور الدين، وما يرتبط بها من أبعاد ومقتضيات.

أما الباب الثاني فسيتم فيه تناول حق الانتفاع بالبيئة من منظور الإسلام، حيث سيقسم إلى فصلين سيتم في الأول منهما تناول دلائل الانتفاع ومواطنه وفق ما قررته نصوص الدين، أما الفصل الثاني فسيتم تقسيمه إلى مبحثين نتناول في الأول منهما ما يتصل بضابطا الانتفاع المتمثلين بنظافة البيئة البشرية ووقايتها من التلوث ومشكلة الإسراف وأبعادها، وما يتصل بذلك من معالجات سيتم من خلالها تناول مسألة ندرة العناصر البيئية، وما يتصل بتحقيق الأمن الغذائي.

أما الباب الثالث والأخير الذي سيتم تقسيمه إلى ثلاثة فصول فسيتم فيه تناول واجب الحماية للبيئة من منظور الإسلام، حيث سيتم في الفصل الأول الذي سيقسم إلى ثلاثة مباحث تناول التأصيل الشرعي لواجب الحماية، وما يتعلق بفلسفة الإسلام في حماية البيئة، والتوازن البيئي في القرآن الكريم، وما يتصل بالمنهج النبوي وحماية البيئة، وأخيراً التطبيقات الفقهية لحماية البيئة.

وفي الفصل الثاني والثالث من هذا الباب سيتم تناول أداتين يمكن من خلالهما تعزيز ضابطي الانتفاع اللذين سبق تناولهما في الباب السابق، واللذان من شأنهما أن يعززا جانب التهذيب في السلوك البشري كممارسة أخلاقية متمثلاً بالتربية البيئية، وكجانب تعزيري

متمثلاً بالحماية التشريعية فيما ترتكز عليه من أبعاد ومقتضيات مؤصّلة ضمن مبادئ الشريعة وقواعدها، وذلك في جانبيها الإقليمي والدولي على حد سواء.

وفي الختام نسأل الله تعالى التوفيق في القول والعمل، وأن تنتفع الأمة بهذا الجهد المتواضع المبذول، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الباب الأول

مدخل لدراسة البيئة
من منظور إسلامي

الباب الأول

مدخل لدراسة البيئة من منظور إسلامي

تعد دراسة البيئة من منظور إسلامي من الدراسات التي لا تقل شأناً عن أي موضوع حيوي آخر لا سيما في ظل التحديات المعاصرة التي تهدد البيئة متمثلةً باستشراء التلوث، فهي من منظور الإسلام تعتبر أمانة استودعها الله الإنسان الذي يعتبر خليفة لله في أرضه؛ وذلك حتى يقوّم حياته بما خلقه لنفعه وخدمته فيها، وحتى تستمر عجلة الحياة تسير في توازن رباني بديع.

إلا أن هذه الحقيقة التي تعبر عما يصطلح عليه ب»التوازن البيئي « في علم البيئة، وهو تفاعل عناصرها على نحو ما خلقه الله تعالى عليه أخذت في التلاشي شيئاً فشيئاً منذ أن تأزّمت العلاقة بين البيئة والإنسان، وذلك مع تطور آلة العقل التي اختص الله بها هذا الإنسان،، وذلك حتى أصبح توازن البيئة يعاني من الاختلال.

إن البيئة أمانة في يد الإنسان استأمنه الله تعالى عليها، وأمره أن يحافظ عليها وعلى توازنها في جميع الأحوال مراعاة لمصلحته، وألا تؤدي به أطماعه إلى تدمير نفسه وحياته وما يقتات به نتيجة لأطماعه، وأن يكون ملتزماً بالتوازن فيما يفعّلة من أجل التنمية والتعمير، وفيما يسعى إليه من أجل الحفاظ على البيئة؛ إذ المحافظة عليها ما هو إلا محافظة

على وجود الإنسان وعلى مقومات معيشته من ماء وهواء وغذاء، وعلى الأجواء التي تحيط من حوله حتى تكون ملائمة لأن يعيش فيها.

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق الأرض واستعمر الإنسان فيها، جعل هناك توازناً وميزاناً في العلاقة بين هذه البيئة وهذا الإنسان، فالبيئة تعطي الإنسان بميزان معين، وذلك في مقابل معيّن تحصل عليه منه، والإنسان يعطي البيئة بمقدار معيّن، وينتظر أن يجني منها محصوله في كل موسم، أو صيده من البحر، وما إلى ذلك من الأمور.

إن البيئة التي يعيش فيها الإنسان هي مهد وجوده، ومُرتَفق حياته في مطالبه المادية وكثير من مطالبه الروحية، وحامل تاريخه منذ نشأته وعلى مر أجياله، ووعاء مستقبله إلى نهاية وجوده، وهي فوق كل ذلك المسرح الذي يؤدي عليه ما كُلف به من مهمة الخلافة التي هي غاية خلقه.

وأول اهتمام من قبل الإنسان بالبيئة كان اهتماماً عملياً يتمثل في سعيه للارتفاق منها بما يحفظ حياته غذاء وكساء ومأوى، التقاطاً لما تجود به من ذلك مجاناً بادئ الأمر، وتدجيناً لحيوانها واستزراعاً لنباتها بعد ذلك، ثم تصنيعاً لمعادنها التصنيع البسيط في مراحل لاحقة، وظل ذلك الاهتمام العملي متصاعداً مع تطوّر الحياة إلى أن وصل الذروة في عهد الثورة الصناعية التي نعيش الآن الطور الأكبر من أطوارها.

إن اهتمام الإنسان اهتمامًا نظرياً بالبيئة لم ينشأ إلا متأخراً كثيراً على اهتمامه العملي بها، حيث بدأ منذ وقت مبكر من حياته يرصد

الموجودات والمظاهر البيئية من حوله، ويحاول أن يجد لها تفسيراً في تصورات أسطورية لتلك الموجودات والمظاهر يبتدعها الخيال، ثم تطور ذلك إلى تفسير بتصورات فلسفية من تأملات العقل تعاقبت حلقاتها عبر الزمن، وكانت أثناء ذلك كله تنزل الأديان السماوية.

وهناك تاريخ طويل لاهتمام الإنسان بالبيئة عملياً ونظرياً يمتد على طول تاريخ الإنسان نفسه، وإن اختلفت حلقاته وتطورت باختلاف مراحل الحياة وأطوارها، ولكن هذا الاهتمام بالبيئة ظل زماناً طويلاً ضمن النسيج الثقافي العام للإنسان يتصرف به في تعامله السلوكي مع البيئة وفي تفسيره النظري لها ضمن ما يتصرف به في جملة حياته سلوكياً ونظرياً دون أن يُفرد له في المنظومة المعرفية فرع خاص مثل سائر فروع المعرفة الأخرى.

إن الاهتمام بالبيئة قد شهد تطوراً نوعياً، حيث بدأ هذا العلم يستقل بنفسه عما كان عليه من سريان في النسيج الثقافي العام ليتشكل فرعاً معرفياً خاصاً له قوامه وأصوله وقواعده وقضاياه مثل سائر فروع العلم الأخرى، وذلك في تواصل مع تلك الفروع العلمية بحسب قربها منه وبعدها عنه في طبيعتها، وفي تواصل أيضاً مع ذلك النسيج الثقافي، ولكن من موقع متميز غير الموقع الذي كان فيه الاهتمام بالبيئة سارياً فيه على غير تميز معرفي، وذلك العلم هو ما أصبح يُعرف بعلم البيئة (Ecology).

وإذا كانت الأسباب في تطور الاهتمام بالبيئة إلى أن أصبح علماً مستقلاً أسباباً متعددة، فإن من أكبر تلك الأسباب في استقلاله وتطوره

هو ما أحدثته الثورة الصناعية على مدى القرنين الماضيين بالأخص من أثر سلبي في البيئة الطبيعية جزاء الاستنزاف لمواردها، والتغيير في بنيتها والتدخل في نظامها، مما نشأ عنه ظواهر من الاختلال في التوازن، ومظاهر من التلوث في الكثير من المرافق الضرورية للحياة، وقد ظلت تلك الظواهر وهذه المظاهر تتكاثر في أنواعها وتتفاقم في أحجامها باطراد.

لقد تطور العلم الذي يُعنى بالبيئة نظرا للاهتمام المؤسسي به من خلال المؤسسات التي تُعنى بالبيئة رسمية كانت أو أهلية بفعل ما أصبح الإنسان يستشعره من خطر الفناء لما أصاب البيئة التي هي موئل حياته وشرط وجوده من خراب متفاقم، حيث نهض هذا الإنسان يبحث الأمر في علم مستقل ليركز العناية بأمر هذا الخطر الداهم: رصداً للظواهر، وبحثاً عن الروابط والعلاقات، واستكشافاً للأسباب، واستشرافاً للحلول التي عسى أن تثني مسيرة الانزلاق إلى الدمار البيئي، فيعود الأمر إلى نصابه من العافية البيئية بإعادة التوازن إلى البيئة التي ظلت عليها البيئة منذ عرفها الإنسان في نشأته الأولى، لينجز عليها مهمته التي اقتضت منه حمايتها باعتبار استئمانه عليها.

إن كل تصرف إنساني في البيئة إنما تكون آثاره فيها صلاحاً وفساداً محكومةٌ بتصوره الثقافي في عنصرين أساسيين:

- **أولهما**: التصور الثقافي دينياً أو فلسفياً لحقيقة البيئة في ذاتها من حيث وضعها الوجودي ضمن منظومة الوجود العام

التي تعكسها المخلوقات في تفاعلها، وعلاقتها بأطراف تلك المنظومة في نشأتها وصيرورتها.

- **وثانيهما:** التصور الثقافي دينياً أو فلسفياً أيضاً لعلاقة الإنسان بالبيئة من حيث الائتلاف الذي يمثل قدرة الإنسان على التعايش والاختلاف بينهما الذي يمثل عكس ذلك، ومن حيث تبادل الأثر والتأثير فيما هو كائن، وفيما ينبغي أن يكون، فهذان التصوران الثقافيان هما الموجهان الأساسيان لكل أثر إنساني في البيئة من جراء ما يمكن أن يكون لمساعيه فيها من صلاح وفساد.

إن الإسلام باعتباره ديناً يملك رؤية شاملة للوجود وللإنسان وللحياة، وباعتباره ديناً قامت على أساس رؤيته تلك حضارةٌ واقعيةٌ مشهودة، تكونت منه ثقافة نظرية وواقعية يمكن أن يسهم إسهاماً ثرياً في معالجة قضايا البيئة على وجه من الشمول والتكامل، من شأنه أن يدفع إلى إنضاج الوعي بأهمية رعاية البيئة في معالجة تلك القضايا منذ أصبح علم البيئة علماً مستقلاً، وذلك على الأخص باستكمال ما بدا ناقصاً من القضايا في ذلك العلم المستقل.

ولا نقصد بهذه الإسهام المساهمة في البحث البيئي ما يتعلق بالجانب العلمي التجريبي الدقيق، أو بالجانب العلمي الإجرائي ذي الطابع الفني، فذلك ليس شأناً من شؤون المعالجة الدينية، وإنما نقصد بتلك المساهمة ما يتعلق بالأخص بالجانب الثقافي في قضايا البيئة الذي

يعني الوعي العلمي بكيفية حمايتها ورعايتها، حيث تبادل التأثر والتأثير والفعل والانفعال، وفي ذلك التصور أيضاً توجيه عملي لآلية تعامل الإنسان مع البيئة، وذلك فيما يتعلق بنشاطه فيها من أجل الانتفاع بمرافقها، أو فيما يتعلق بالحفاظ عليها من أن ينالها الفساد.

إن الإنسان كعنصر متفاعل معها له أشكاله وأنماطه السلوكية في تفاعله معها، وهذا ما جعل العلاقة بينهما وطيدة لا تنفك، وهو ما حتّم بداهة أن تشتمل الأحكام الشرعية الإسلامية - والتي إنما نزلت لتنظم العلاقات – مشتملة على الكثير من التوجيهات الربانية، والإرشادات النبوية، والتخريجات الفقهية، وما قررته الشريعة السمحاء من فلسفة في نظرتها لمنظومة الحماية لهذه الأمانة التي استرعانا اللّه إياها، فهو الذي خلقها وأبدع في توازنها كي تكون في خدمة الإنسان متى كان في خدمتها بالحفاظ عليها وحمايتها من التدمير والاستغلال السيئ.

ولعل هذا الطرح لقضايا البيئة من وجهة إسلامية يُسهم في إثراء الدراسات التي تُعنى بالبيئة وبحمايتها الذي يشغل اليوم عقول الكثير من الدارسين من أجل التصدي لخطر الدمار الذي تتعرض له البيئة، والذي ينذر بمصير قاتم للإنسان، ولو نجح هذا الطرح في توجيه الفكر البيئي نحو اعتبار ذلك العامل الثقافي، وإدخاله عنصراً أساسياً في البحوث البيئية، فإن الفكر الإسلامي يكون قد أسدى خدمة في هذا المجال.

الفصل الأول

مفهوم البيئة ومكوناتها وعناصرها

الفصل الأول

مفهوم البيئة ومكوناتها وعناصرها

لما كانت البيئة تعبر في مدلولها عما يحيط بالإنسان من محيط، فقد صرفها أهل الفكر في كثير من مصنفاتهم إلى مختلف ما يحيط بالإنسان من بيئة محسوسة أو معنوية، فأهل التربية من التربويين والمتخصصين في العلوم الاجتماعية يطلقونها على ما يحيط بالإنسان من مؤثرات يكون لها دور في تكوين عاداته وسلوكياته، وأهل العلم والتجربة من المتخصصين في العلوم التجريبية يعتبرونها ذلك الواقع المحسوس الذي يحيط بالإنسان فيتنفس هواءها، ويشرب من ماءها، ويأكل من خيراتها حتى يبقى على قيد الحياة.

ولما كانت البيئة تأخذ في تناولها هذين البعدين، فإن ما سينصب عليه جهد التناول في هذا المقام إنما سيتم من خلاله استقراء الأبعاد التي نشأت مع تطور علاقة الإنسان بهذا الواقع المحسوس المحيط به، والذي هيّأه المولى عز وجل حتى يكون صالحاً لحياة سائر المخلوقات وعلى رأسهم الإنسان الذي أعطاه الله الريادة والقيادة ليكون خليفته في أرضه التي هيئها لمعيشته ومعيشة كل ما يتصل بحياته على نحو مباشر أو غير مباشر.

ومن أجل ذلك فإن لمفهوم البيئة أبعاداً يتعين تسليط الضوء عليه

حتى يتحقق الإدراك المستوعب لذاتها وجوهرها، وحقيقتها وماهيتها، وبذلك يتحقق إدراك يستوعب هذه الحقيقة وهذا الجوهر لما يحيط بالإنسان والإنسانية منذ نشأتها وحتى فنائها عند تحقق إرادة العزيز الجبار.

ولما كانت البيئة كيان يحتوي على عناصر ومركبات تتكامل في تفاعلها وتأقلمها خدمة للإنسان ولما خلقه الله تعالى في هذه الأرض من مخلوقات حية، فإن المعرفة لعناصر هذه البيئة جديرٌ بأن يبرز لنا جانباً أكبر من الإيضاح من أجل التعرف على هذا الكيان الذي أحاط بالإنسان، وهيّئه الله لخدمته، وجعل تفريطه وتقصيره في حمايته نظراً لتعسفه في الانتفاع به وسيلة ونتيجته لدماره وهَلَكَتِه.

المبحث الأول

مفهــوم البيـئـة

إن البيئة وفق مفهومها مختلف الأبعاد لم تعد تلك النطاق الضيق الذي يحيط بالإنسان في العصر الحجري الذي عاش على الأرض في تلك العهود، بل أصبحت ذات مفهوم له من الدلالات ما جعل دراسة ما يتصل بالبيئة علماً يدرّس في أعرق الجامعات، وتبرم من أجله الاتفاقات الدولية؛ لذلك فإن مفهوم البيئة لم يعد مفهوماً مبسطاً، بل أصبح مفهوماً يتسع ليستوعب الكثير من المسائل التي تتصل بحياة الإنسان، وقد أصبح ما يحدث من انتهاكات في حق هذا المحيط في البلدان التي تقع في الشمال يؤثر على محيط البلدان التي تقع في الجنوب، وما يحدث من انتهاكات في هذا المحيط في البلدان التي تقع في الشرق يؤثر على محيط تلك البلدان التي تقع في الغرب وهكذا، كما لا بد كذلك من معرفة البعد القانوني والتشريعي الذي يقع ضمن الإطار الداخلي والدولي، حيث لم يعد مجدياً في ظل الانتهاكات التي تقع على البيئة الاكتفاء بالقواعد التربوية والأخلاقية في حماية هذا المحيط، وهذا ما استلزم معالجة قانونية للعلاقة التي تكون بين الإنسان وبين هذا المحيط.

إن البيئة كمفهوم عام هي الإطار أو الظروف المحيطة التي تؤثر في حياة الكائنات ونموّها، وتحصل منها على المقوّمات الأساسية لحياتها،

ويأتي الإنسان على رأس هذه الكائنات الحية، كما تشمل أيضا علاقة الإنسان بالإنسان التي نظمتها المؤسسات الاجتماعية والعادات والأخلاق والقيم والأديان.

إن البيئة هي كنف الوجود البشري في سيره إلى مولاه، ومطية حاجاته ومهد معتقداته وآثاره، وموئل سعيه لدنياه وأخراه، ورصيد رزقه من السماء والأرض يتوارثه أباً عن جد، وجيلاً عن جيل. كما أن البيئة سكة الإنسان نحو غاية خلقه في مناكبها يعبد ربه، ومسرح خلافته في طاعته ومعصيته، ومستودع حضارته وآماله، ومتحف معارفه، وساحة حربه وسلمه.

وبذلك فإن البيئة الحيوية التي تحيط بالإنسان وتؤثر فيه اتسع مفهومها ليشمل العديد من النطاقات والأبعاد التي ترتبط في معالجتها لهذه المفهوم سواء في بعده العلمي أو بعده الإجرائي.

أولاً - البعد اللغوي والاصطلاحي :

إن البيئة لفظ معهود في اللغة، ولكن منذ بعض الزمن أصبح لهذا اللفظ مدلول جديدٌ يحمل أبعاداً غير البعد اللغوي البسيط الذي كان حمله، بل إن هذه الأبعاد ظلت هي نفسها تتزايد وتتوسع بين الحين والآخر، وأما علم البيئة فإنه مصطلح جديد وضع لعلم جديد[1].

(١) النجار – عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، وهو كتاب منشور على الموقع الإلكتروني لوقفية الشيخ علي بن عبدالله آل ثاني من غير ترقيم للصفحات: www.sheikhali-waqfia.org.qa.

وبالنظر في البعد اللغوي لمفهوم البيئة فإنه يتضح بأن المصطلح مأخوذ من لفظ «تبوّأ» بمعنى نزل، و«بوّأه» منزلا بمعنى هيّأه ومكّن له فيه [1].

وقد ذكر الزبيدي في تاج العروس بأن لفظ « البيئة « بكسر الباء هو بيت النحل في الجبل، كما أنه كذلك يأتي بمعنى الحالة، حيث يقال إنه لحسن البيئة [2].

وفي القرآن الكريم يقول المولى جل في علاه: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ﴾ [3].

أي اتخذوا لهم الدار وهي المدينة المنورة بيئة أي منزلاً، والمدينة أوسع نطاقاً من المنازل التي يسكنها الناس.

وقد أخذ هذا المعنى اللغوي للبيئة ليُحمل معنى اصطلاحياً يعني منزلاً للإنسان أوسع وأكثر شمولاً من ذلك المعنى اللغوي، فأصبحت البيئة تعني المنزل الكبير للإنسان الذي يشمل كل ما له علاقة بممارسة

---

(١) الرازي – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، ط: ١٩٩٣، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ص ٢٨.

(٢) الزبيدي – محب الدين أبي الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، شرح تاج العروس من جواهر القاموس، ط: ١، دار إحياء التراث العربي، المطبعة الخيرية، القاهرة – مصر، ص ٤٦ – ٤٧.

(٣) الحشر ٩.

نشاطه، بل كل ما له علاقة بحياته من موجودات أرضية وفضائية، سواء كانت متمثلة في أفراد وأنواع أو في أنظمة وأوضاع، حتى ليصح القول إنها أصبحت تعني كل المجال الذي يعيش فيه الإنسان [١].

وقد تكوّن هذا المفهوم الاصطلاحي العام بالتدرج، بحيث كان يتوسع مدلوله بإضافة عناصر جديدة إليه شيئاً فشيئاً حتى أصبح على هذا النحو من الشمول، وذلك نتيجة لما كان يكتشف تباعاً من أثر تلك العناصر في حياة الإنسان، وفي مجموع الحياة البيئية عموماً، فكلما تبين أن عنصراً جديداً له أثر في دورة الحياة أضيف عنصراً في مفهوم البيئة.

وربما كانت البداية في هذا المفهوم تتجه إلى اعتبار البيئة المكانية وما هو أكثر ملازمة لها من سواكن الجماد والنبات، ثم توسعت إلى البيئة الحيوانية، ثم إلى العناصر الغازية والضوئية، ثم إلى الأنظمة والتوازنات التي تحكم كل تلك العناصر، ثم إلى المنشآت التي شيدها الإنسان على الأرض، وهكذا انتهى الأمر إلى أن عرّف المؤتمر العالمي للبيئة الذي انعقد في ستوكهولم سنة ١٩٧٢ البيئة بأنها: (كل شيء يحيط بالإنسان)، وربما قيل في تعريفها تفصيلاً لهذا الإجمال إنها: (الإطار الذي يعيش فيه الإنسان ويحصل منه على مقومات حياته من غذاء وكساء ودواء ومأوى، ويمارس فيه علاقاته مع أقرانه من بني الإنسان)، وربما قيل في تعريفها أيضاً إنها: (الوسط أو المجال المكاني الذي يعيش فيه الإنسان بما يضم من ظاهرات طبيعية وبشرية يتأثر بها

(١) النجار – عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

ويؤثر فيها)، علماً بأن التعريف الاصطلاحي للبيئة ظل متغيراً بعض التغير بحسب التوسع الذي طرأ على مفهومها كما ألمحنا إليه.

وقد حُمِّل هذا المعنى الاصطلاحي للفظ البيئة في اللغة العربية ليوضع بإزاء المصطلح الأجنبي (environment = environnement) الذي استخدمه العالم الفرنسي (سانت هيلر = St–Heliere) في القرن قبل الماضي سنة ١٨٣٥ دالاً به على المحيط الذي تعيش فيه الكائنات الحية، ومبيناً الرابطة الشديدة بين تلك الكائنات الحية وبين المحيط الذي تعيش فيه، ومن ثم أصبح هذا المصطلح في اللغة الأجنبية يعني (مجموعة الظروف والمؤثرات الخارجية التي لها تأثير في حياة الكائنات بما فيها الإنسان)، فلما أصبح ذلك اللفظ الأجنبي منذ ذلك الحين يحمل دلالة اصطلاحية على المحيط الذي تعيش فيه الحياة عامة والإنسان خاصة من حيث التأثير فيها أطلق في اللغة العربية لفظ البيئة اصطلاحاً على ذلك المعنى حينما أصبح مفهوماً متداولاً بين أهلها لما أصبحوا مشاركين في الفكر البيئي الحديث [١].

وبذلك فإن للبعد اللغوي للمعنى دلالة وفق ما قرره النص القرآني، وذلك فيما قرره أهل اللغة في قواميس اللغة العربية من أن كلمة بيئة تعني مكان الإقامة أو المنزل أو المحيط، فكل مكان يتبوّأ ويحل فيه الإنسان وينزله يعتبر بيئة له، وبهذا المعنى فإن البيئة تشمل المحيط الحيوي الذي يتضمن مختلف عناصر البيئة المحيطة الذي تحيط بالإنسان من كل جانب على وجه الأرض.

---

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

ثانياً - البعد الفلسفي والعقدي :

مما لا شك فيه أن الإسلام باعتباره ديناً ينظم حياة الإنسان ممن آمن به أو لم يؤمن، فإن أي أمر من أمور الدنيا ينبغي أن يقوّم نظرة وممارسة على ما قررته قواعد الدين التي شرعها الشارع الحكيم الذي هو أعلم بمصالح البلاد والعباد.

• **أهمية معرفة البعد الفلسفي والعقدي للبيئة:** إن الدراسات الحديثة لما قامت دون الالتزام بهذا الخط الملتزم بالبعد الفلسفية والعقدي للبيئة حوّلت الدراسات الاجتماعية والنفسية في الغرب، وقبل ذلك الدراسات الكونية إلى أسباب ونتائج مادية، وذلك باعتبار أن الدين يقيد حرية الإنسان بضوابط شرعية تحكم سلوكه، وأن السير في الصورة التي رسمها لتعامله مع البيئة لا تحقق له أن يبذل طاقاته القصوى في بناء الحضارة وفق ما قررته النصوص من توجيهات في صناعة علاقة الإنسان بالبيئة.

ويذكر عبد الرحمن جيرة أن مما ساعد أوربا ممثلة في أبحاث علمائها أن دين أوربا ليست له أطماع علمية، فليس في الكتاب المقدس ما يدعو إلى العلم أو التمسك بالنظريات العلمية أو حتى احترام العلماء وتقدير النتائج التي يتوصلون إليها، بل الموجود يكاد يكون عكس ذلك. ومن هنا لم يجد المتحدثون عن البيئة في الكتاب المقدس ما يسند نظرتهم، أو يقدم لهم تفسيراً مقبولاً لمشاكلهم البيئية؛ ولهذا عندما تخلّت أوربا عن دينها وأخذت بأسباب العلم أظهرت العداء للكنيسة،

وحاول رجال العلم الاقتصاص منها بعد أن حجرت على عقولهم فترة طويلة من الزمن، والبديل الذي اعتمدوا عليه هو نظريات علمية لا تضع لخالق الكون وزناً، مثل: النظرية الماركسية والوجودية كنظرية فلسفية لها انعكاسات علمية.

إن أهمية معرفة هذا البعد وإدراك ملامحه ترجع إلى أن عدم وضع الدين في الاعتبار، أو وضعه في منزلة متأخرة عند الحديث عن المشاكل البيئية يفقدنا المقدرة على الرؤية الصحيحة النافذة التي تمكّننا من التحليل الدقيق؛ وذلك لأن البيئة ليست مادية بل مادية وروحية.

لقد كان لدور علماء الشرق والمتمثل في النقل عن الغرب بسلبياته وإيجابياته الأثر في ضياع وجهة النظر التي تعبر عن المفهوم الإسلامي الصحيح الذي تمسك بثوابت الدين، حيث انقسم المسلمون عندما انتقلت هذه القضية إلى بلادهم إلى طائفتين، حيث أخذت طائفة منهم برأي الغرب وطبقته على الإسلام بحجة أننا لن ننهض كأمة إلا إذا فهمنا الإسلام، وقد كان الداعي إلى توجههم ما كان عليه الداعي من توجه أولئك القوم عندما توجه إلى اكتشاف العلم بمعزل عن الدين الذي لم يتضمن معالجات للظواهر العلمية، ولعل توجههم هذا لم يكن بعد استقراء لنصوص الشريعة الغراء لمعرفة ما إذا كانت قد تضمنت مثل هذه المعالجات أم لا.

أما الطائفة الأخرى فقد رأت أن تتمسك بمبادئها لإيمانها بأنه لا تعارض بين الإسلام والعلم الحديث، بل العلم في المستقبل القريب

والبعيد على السواء، وقد حرص كثيرون من أتباع هذه الجماعة على بيان أن القرآن الكريم ليس بكتاب نظريات علمية، وإنما هو كتاب هداية وتوجيه للعقائد والسلوك، ولكنه يشير إلى بعض الحقائق العلمية، ولا يتعارض مع أية حقيقة علمية.

وقد انقسمت هذه الطائفة إلى ما بين من يقصر الدين على الجانب الروحي، ويعتبر أن من الجناية إقحام الدين في ميادين بعيدة عن الروح، وبين طائفة اعتاد كثيرون من المتحدثين عن البيئة بمجالاتها المتعددة أن يطوّروا الحديث عن تعاليم الإسلام المتعلقة بالبيئة ومشاكلها، وذلك لربطهم المتوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي على حد سواء [1].

وأيا ما كان توجه كل من الطائفتين فإن الإسلام دين يجمع في مختلف معالجاته بين المادة والروح، ولا بد من معرفة نظرة الإسلام لما يحيط بالإنسان، ولا بد من التعريف بهذه النظرة، ولكن ذلك ليس على أساس أن القرآن الكريم والنصوص النبوية جاءت لتعرض حقائق ونظريات علمية، بل لا بد من التعريف بما عرضته هذه النصوص من حقائق ونظريات لتأكيد مصداقية الدين وربانيته باعتباره من عند الله تعالى، وأنه ليس مذهباً أو نظرية قابلة للفشل، بل هو دين جاء لينظم حياة الإنسان، وصلاحيته في ذلك لكل زمان ومكان.

إن الإسلام بمفهومه الصحيح يشمل علم البيئة بجميع عناصره

(١) جيرة – عبد الرحمن، الإسلام والبيئة، ط: ١، ١٤٢٠ – ٢٠٠٠، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة – مصر، ص ٣٣.

بالإضافة إلى ما فوق البيئة، وما قبل التاريخ الإنساني، وما بعد الحياة الدنيا، وهو بذلك يحوي سجل الوجود من ألفه إلى يائه، فالبيئة هي كتاب الله المنظور، والقرآن الكريم هو كتاب الله المقروء، والتطابق بين الشيئين يشهد بعظمة الخالق الذي أحسن كل شيء صنعا.

ولما كان الإسلام لا يهتم بالجزئيات العلمية إلا بالقدر الذي يرسم لنا طريق البحث ومواصلة الاستكشاف، فإنه لن يحيط البشر بالعلوم والمعارف التي يضمها القرآن الكريم، فإذا انكشف للعلماء جزئية علمية ظنوها نهاية العلوم والمعارف، إلا أنها سرعان ما تصبح فكرة قديمة بعد ظهور جزئيات علمية أشد عمقاً وأكبر حجماً تجعل الجزئية الأولى أمراً تافهاً [١].

• **ملامح البعد الفلسفي والعقدي للبيئة** : إن البعد الفلسفي والعقدي للبيئة في منظور الإسلام يختلف جذرياً عما هو مقرر في المذاهب المادية الوضعية باعتباره يوازن بين المادة والروح، والتي لم ترتكز تحليلاتها ونتائجها على الدين مما جعلها تتصل بحقائق تتعارض مع المبادئ الكلية للدين، وهذا ما استلزم ضرورة استقراء النصوص الشرعية من أجل الوقوف على الآليات والضوابط التي يمكن استخلاصها من نصوص الشريعة والاجتهادات التي جرت حولها من الفقهاء قديما، وهي تحتاج ومن دون شك إلى مزيد من التحليل والاستقراء والتجديد لتتلائم مع معطيات الواقع.

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٥.

إن البيئة باعتبارها جزءًا من الكون الأكبر ليست قائمة بذاتها، لا في وجودها ابتداء، ولا في مسيرتها الوجودية بعد ذلك، وإنما هي أثر معلول لوجود آخر باعتبارها من موجودات الله تعالى يختلف عنها اختلافاً كلياً في كل شيء، وهي وجود غيبي أنشأها الله تعالى أول مرة، ثم هو يرعاها ويدبر أمرها طيلة وجودها بعد ذلك، ذلكم هو الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾[1].

ويتقرر من خلال هذا البعد أنه إذا كان الوجود البيئي وجوداً ظاهراً محسوساً، والوجود الغيبي خفياً غير محسوس، إلا أن هذا الوجود الغيبي له ظهور بيّن في البيئة المحسوسة نفسها، بل في كل عنصر من عناصرها، وفي كل هيئة من هيئاتها، ولكنه ظهور غير محسوس، وإنما هو مضمّن فيها بما هي أثر له في الخلق والتدبير، بحيث يتجلى ذلك الأثر فيها تجلياً تصبح به شاهدة على ذلك الوجود الغيبي، بل تصبح به هي ذاتها شهادة قائمة على ذلك الوجود ناطقة به، فالله تعالى خالق الوجود وهو المدبر له جل في علاه.

وعندما تكون البيئة شاهدة على الوجود الغيبي في كل مظاهرها، فإن الناظر فيها ابتغاء معرفة حقيقتها سوف يقف في كل صغيرة وكبيرة منها على تلك الشهادة بالوجود الغيبي، وحينئذٍ فإنه لا مناص من أن يأخذ بعين الاعتبار في تقدير تلك الحقيقة عنصر الشهادة هذا لينتهي إلى أن هذه البيئة ليست حقيقتها منحصرة في ذاتها المادية، وإنما هي

---

(١) يونس ٣.

شاملة أيضاً لمعنى الشهادة فيها على وجود آخر غيبي، فيكون إذاً في حقيقة البيئة بعدان أساسيان: بعد مادي ظاهر يُدرك بالحواس، وبعد روحي يتعلق بالمعتقد الغيبي ويُدرك بقوى النفس، وهما بعدان متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر في تصور تلك الحقيقة، حتى إذا رأى الرائي عنصراً من عناصر البيئة أو تعامل معه بضرب من السلوك لا يراه أو يتعامل معه إلا على أساس أنه كائن ذو بعدين مادي محسوس وروحي عقدي.

وقد جاء القرآن الكريم والحديث الشريف يبدءان القول ويعيدان في هذا البعد العقدي للبيئة، حتى إنه يكاد لا يرد فيهما ذكر لها في جملتها أو في تفاصيلها إلا كان المعنى العقدي حاضراً فيها بوجه أو بآخر من وجوه الأثر، مما يبين أن العنصر العقدي في حقيقة البيئة كما تقررها التعاليم الإسلامية هو عنصر أساسي فيها مثل العنصر المادي وليس مجرد معنى عارض من معانيها. ونذكر في ذلك على سبيل المثال قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ * وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ * وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾(١). فهذه المشاهد البيئية إنما عُرضت في كمها وكيفها عرضاً يجمع في تقرير حقيقتها بين ظاهرها المادي وبين بعدها العقدي المتمثل في شهادتها على وجود الله تعالى ووحدانيته، ويكاد يطّرد هذا الأمر في كل ما ذُكر من مشاهد البيئة في القرآن الكريم والحديث الشريف. وعلى

(١) الجاثية: ٣- ٥.

كثرة المقامات في ذلك وتنوعها ترجع معاني الشهادة العقدية للبيئة إلى معنيين أساسيين: الشهادة بوجود الله وصفاته، والشهادة بوجود الحياة الأخرى، فالبيئة موجود وموجدها هو الله تعالى، ووجودها دليل على وجود حياة أخرى غير هذه الحياة التي نعيشها.

-شهادة البيئة بالألوهية: يحرص القرآن الكريم حرصاً شديداً على أن يعرض مشاهد البيئة عرضاً تكون فيه شاهدة بالألوهية، بحيث يقف الناظر فيها على التجلي الإلهي في كل أحوالها، في كمها وكيفها، وفي حركتها وسكونها، وفي فرديتها وتجمعها، وبحيث يتعامل معها الإنسان وهو يمارسها بالتمثل المعرفي أو بالمزاولة الحسية على أنها مشاهد يكون الحضور الإلهي فيها عنصراً أساسياً يؤخذ بعين الاعتبار في كل من التمثل والمزاولة على حد سواء المتمثلان بالتفاعل الكوني وفق ما قدره المولى عز وجل من تدبير، والتجلي الإلهي في مظاهر البيئة الشاهد بالألوهية على أن هذه البيئة لها خالق مبدع يصوره البيان القرآني والحديثي في شهادته على مستويات متعددة من الأحوال التي تكون عليها، وتعود تلك المستويات في معرض تعددها إلى أمرين أساسيين: الشهادة بالوجود على القدرة، والشهادة بالصفات على الإبداع في الخلق.

١ . **الشهادة بالوجود الإلهي** : يقترن الظاهر المادي للبيئة في التصور الإسلامي بشهادة دائمة يشهدها بوجود الله تعالى، وهي شهادة يرتبط فيها مجمل الوجود البيئي بالوجود الإلهي ارتباطاً علياً لا تُرى فيه البيئة إلا معلولاً دالاً على علة هي وجود الله تعالى في غير انفكاك، بحيث

يرتبط دوماً وجودها بوجوده، ويُقرأ دوماً وجوده في وجودها، وذلك على مختلف الأوضاع التي تكون عليها، ومن مختلف الجهات التي يُنظر منها إليها، سواء في وجودها ابتداء، أو في حركة التحول التي تمر بها، أو في الغاية التي تسير إليها، ففي كل تلك الأحوال تكون البيئة دائمة الشهادة على وجوده تعالى، بحيث لا يراها الرائي، ولا يتصورها المتصور إلا يكون وجود الله جزءاً من رؤيتها وتصورها. فالبيئة شاهدة بالوجود الإلهي في ابتداء وجودها متمثلاً في وجود مكوناتها في بعدها الكمي على سبيل الإجمال كما يصوره قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ﴾[1]، وعلى سبيل التفصيل كما يصوره قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ۞ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ﴾[3]، كما أنها شاهد به في بعدها الكيفي متمثلاً في النسب والأوضاع التي تكون عليها مثلما يبدو في وجود قانون الزوجية الذي بُني عليه الوجود البيئي كله، وهو ما يبينه قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۞ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[4]، فالبيئة إذاً في أبعادها الكمية والكيفية شاهدة بالوجود الإلهي، بحيث يكون هذا الوجود فيها عنصراً أساسياً من عناصر حقيقتها.

---

(١) الشورى ٢٩.

(٢) الواقعة ٦٨ – ٦٩.

(٣) الشورى ٧١ – ٧٢.

(٤) الذاريات ٤٩ – ٥٠.

وهي شاهدة كذلك بالوجود الإلهي فيما يطرأ عليها من الحركة التي تتبدل فيها أوضاعها وتتحول فيها هيئاتها، سواء تمثل ذلك في حركاتها الظاهرية التي تتحول فيها مكونات البيئة من مكان إلى مكان كما في قوله تعالى في حركة الشمس: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾[1]. أو في حركتها الداخلية التي تستحيل فيها تلك المكونات البيئية من هيئة إلى هيئة، وينشأ بها بعضها من بعض كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾[2].فأيما حركة تطرأ في البيئة فإنها تكون شاهدة بوجوده تعالى، بحيث لا تُرى تلك البيئة في حركتها خارجية أو داخلية إلا ووجود الله تعالى حاضر فيها، فيكون إذاً ذلك الوجود عنصراً من عناصر حقيقتها. والبيئة شاهدة بالوجود الإلهي فيما تبدو عليه من مسيرة أفرادها تفصيلاً ومسيرتها في مجموعها إجمالاً من منزع غائي، سواء تمثل ذلك المنزع فيما يقوم فيه كل فرد من أفراد البيئة وكل وضع من أوضاعها بدور معين لأجل غاية معينة كما يصوره قوله تعالى: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[3]. بمعنى (خلق الأشياء ثم هدى إلى ما خلقهم من أجله من الغايات)، أو تمثل ذلك المنزع الغائي في السيرورة البيئية الشاملة التي تمثلها حركة البيئة في تفعالها نحو غاية موحدة هي استيعاب الحياة الإنسانية وحفظها وتنميتها كما يبينه قوله

(١) يس ٣٨.

(٢) الحج ٦٣.

(٣) طه ٥٠.

تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾[1]. فهذه الغائية البيئية الجزئية والشاملة التي تعبر عنها نظرة الإنسان تشهد بوجوده تعالى، بحيث لا تحصل في الذهن صورة لمشاهد البيئة إلا يكون وجود الله تعالى حاضراً فيها بشهادة تلك الغائية، كما كان حاضراً بشهادة الحركة وشهادة الوجود الابتدائي منذ بداية الخلق.

٢ . **الشهادة بالصفات الإلهية** : كما يشهد الظاهر المادي للبيئة بالوجود الإلهي شهادة دائمة، فإنه يشهد بصفاته تعالى شهادة دائمة أيضاً، فما من مشهد من مشاهد البيئة إلا تتجلى فيه صفات لله بحيث تتراءى فيه للناظر جزءاً أساسياً من حقيقته لتنتهي تلك المشاهد جميعاً إلى أن يكون مجمل الوجود البيئي في مكوناته الفردية وفي هيئته العامة محفلاً شاهداً بصفاته تعالى.

وإذا كانت مجمل صفاته تعالى تتجلى في مشاهد البيئة، فإن صفة وحدانيته تبدو أكثر تجلياً فيها من غيرها، فكل شيء في البيئة يشهد بأن القائم عليها المدبر لأمرها هو موجود واحد لا يشاركه في ذلك شيء. وقد جاء القرآن الكريم يعرض الوجود البيئي في مختلف المقامات عرضاً تستبين فيه وحدانية الله تعالى بأركانها المختلفة بحيث تستقر حقيقة الوحدانية في ذهن القارئ من مجمل تلك الأركان حقيقة عقدية ملازمة للصورة المادية لمشاهد البيئة لا تنفصل عنها.

---

(١) البقرة ٢٢.

ومن ذلك العرض القرآني ما جاء من تصوير للبيئة في انسجام عناصرها وتكامل مكوناتها ووحدة نظامها على أنها شاهدة بذلك كله على وحدانية خالقها ومدبر أمرها، وذلك على مقتضى أن وحدة النظام تشهد بوحدانية المنظم ووحدة التدبير بوحدانية المدبر، وهو ما يبينه قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ﴾[1].، فمجموع ما في البيئة من مكونات أرضية وسماوية تعمل في انسجام لا يداخله تفاوت أي اضطراب وخلل، وكلما تأمل الإنسان في النظام البيئي الذي تمثله تفاعلات العناصر البيئية وأعاد النظر استبانت له هذه الحقيقة التي سيقت في الآية مساق الشهادة على وحدانية الله تعالى ليصبح المشهد البيئي جامعاً في حقيقته بين العنصري المادي والعنصر الروحيمتمثلاً في هذه الوحدانية الإلهية، ولتصبح صورته في الذهن مطابقة لما هو عليه في الواقع في الجمع بين هذين العنصرين. ومن معاني الوحدانية المقترنة بمشاهد البيئة وحدانية الملك، فالكون كله والبيئة التي هي جزء منه ليس لها من مالك سوى الله تعالى وحده، وهو ما جاء في قوله تعالى: ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ﴾[2]. فكل ما في البيئة من المقدرات إنما هو مملوك لله وحده لا يشاركه في ذلك أحد، والإنسان لا يملك من ذلك على وجه الحقيقة شيئاً، وإنما هو مستخلف في هذه البيئة مؤتمن عليها، يمارس عليها نشاطها بمقتضى ذلك الاستخلاف وذلك الائتمان

(١) الملك ٣.

(٢) المائدة ١٢٠.

من قبل المالك الحقيقي وليس بمقتضى التملك، وهو المعنى المضمن في قوله تعالى: ﴿ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ﴾[1]. فالإنفاق من مُقدرات البيئة بأي وجه من وجوه الإنفاق إنما هو إنفاق المأمورين من قِبل مستخلفهم عليها وليس إنفاق المالكين الحقيقيين.

ولما كانت الملكية الحقيقية للبيئة إنما هي ملكية الله وحده، فإن استخلاف الإنسان فيها كان استخلافاً جماعياً مشتركاً بحيث لا يستأثر بعض الناس دون بعض بالاستخلاف في مرافق البيئة وخاصة تلك المرافق الأساسية، وفي ذلك مزيد تأكيد على وحدانية الله تعالى في تملكه لمقدرات البيئة كلها، ومزيد تأكيد في عرض تلك الوحدانية عنصراً من حقيقة البيئة بتقرير وحدانية الملك، بحيث لا تقع في التصور إلا مقترنة بها، ولا يكون التعامل معها إلا على أساسها.

وكذلك فإن مشاهد البيئة تُعرض في القرآن الكريم قرينة لوحدانية الله تعالى في معبوديته، سواء في تصويرها على أنها خاضعة جميعها للقانون الإلهي وحده فيما يقوم مقام توحيده بالعبادة كما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾[2]. أو في تصويرها على أنها لم تُخلق إلا ليكون الإنسان مستخلفاً فيها ليستعملها في عبادة الله وحده كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم

---

(١) الحديد ٧.

(٢) النور ٤١.

مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ❁ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴾[١]. فالبيئة إذاً شاهدة بوحدانية المعبودية سواء باعتبار ذاتها في خضوعها للقانون الإلهي الذي يمثل إرادة الله تعالى في تفاعلها، أو باعتبار علاقتها بالإنسان فيما سُخرت له ليكون عابداً من خلالها لله وحده، فأصبح إذاً هذا المعنى من معاني الوحدانية مكملاً للمعنيين السابقين لتكون وحدانية الله تعالى متجلية في كل مشهد من مشاهد البيئة وجزءًا من حقيقتها.

وعلى نحو ما تتجلى صفة الوحدانية في مشاهد البيئة كما يعرضها القرآن الكريم، تتجلى صفات أخرى كثيرة يحرص القرآن أيضاً على تضمينها في عرضه لتلك المشاهد إمعاناً في المزج بين العنصر المادي والعنصر الروحي في الصورة التي يُراد أن تستقر في الذهن عن حقيقة البيئة. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى إظهاراً لقدرته: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[٢]. وما جاء في قوله تعالى إظهاراً لرحمته: ﴿فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[٣]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَمِن

(١) الزخرف ١٢ – ١٣.

(٢) النور ٤٥.

(٣) الروم ٥٠.

رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ﴾[١]. وهكذا تكون البيئة في العرض القرآني متضمنة في حقيقتها لصفات الله تعالى كما هي متضمنة لوجوده ليصبح ذلك بعداً روحياً أساسياً فيها إلى جانب بعدها المادي الظاهر، ولتصبح حقيقتها متقومة بذينك العنصرين – المادي والروحي – في المنظور الإسلامي.

- **شهادة البيئة بالآخرة:** من المفاهيم العقدية الأساسية التي ضمنت في حقيقة البيئة لتعزز البعد الروحي فيها عقيدة البعث في الحياة الآخرة، فقد جاءت هذه العقيدة مناط شهادة بيئية في الكثير من مقامات القرآن الكريم التي تعرض مشاهد من البيئة الأرضية تتضمن في منقلبات أحوالها، وفي نشوء بعضها من بعض دلالة على نشوء الحياة في يوم آخر بعد الموت الذي يصيب الأحياء في هذه الدنيا، بحيث ترتبط صورة هذه المشاهد في ظاهرها المادي بمعنى البعث ليصبح معنى سارياً فيها يوسع من حقيقتها في التصور، ولينضاف فيها بذلك بُعد روحي إلى بعدها المادي الظاهر المحسوس. وقد شمل هذا البعد الروحي للبيئة متمثلاً في معنى البعث مختلف المظاهر البيئية في مكوناتها العنصرية من أرض وسماء ونبات وحيوان وليل ونهار، حتى أصبح معنى سارياً في مجمل الوجود البيئي الذي تمثله عناصر البيئة في كل من ظاهره الكمي والكيفي على حد سواء، فذلك كله كان القرآن الكريم يحرص على تضمينه في عرض المشاهد البيئية إن بالتصريح أو بالتلميح حتى غدت رؤية تلك المشاهد تذكر الرائي مباشرة ببعث الناس أحياء في اليوم الآخر

---

(١) القصص ٧٣.

للحساب. ومن مشاهد البيئة التي ضمنها القرآن الكريم معنى البعث على سبيل بيان شهادتها به ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]. وكما تشهد البيئة بالبعث في بعدها الكمي بمثل هذا المظهر، فإنها تشهد به أيضًا في بعدها الكيفي، وذلك بمثل مظهر التعاقب بين الليل والنهار كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[2]. ففي الآية عطف لتعاقب الليل والنهار على الإحياء والإماتة المتضمن لمعنى البعث؛ لأن في تصريف الليل والنهار دلالة على عظيم القدرة والعلم، ودلالة على الانفراد بصفات الإلهية وعلى وقوع البعث.

ومن هذا الشمول في تضمين معنى البعث لمشاهد البيئة، ومن هذا الحرص القرآني على التنبيه إليه يتبين أن هذه العقيدة قائمة في الشهادة البيئية لا يخطئها المتأمل فيها بأدنى تأمل، بحيث تصبح بعدًا من أبعاد تلك المشاهد في التصور البيئي، لتضاف إلى تلك الشهادة بوجود الله تعالى وصفاته التي تنطق بها البيئة في مكوناتها وهيئاتها، فإذا بالصورة التي يبثها القرآن الكريم في الأذهان عن مجمل الوجود البيئي صورة ذات وجهين متكاملين لحقيقة واحدة، وجه مادي هو ظاهر المشهد البيئي في مكوناته وأنظمته، ووجه روحي هو البعد العقدي الذي ينطق به ذلك المشهد الظاهر.

---

(١) فصلت ٣٩.

(٢) المؤمنون ٨٠.

وبذلك فإن صورة البيئة في نظرة تعاليم الإسلام تتسم بخاصية إسلامية لا يوجد لها نظيراً في المذاهب والأديان فيما تناولت به البيئة بالبيان لحقيقتها، لا من حيث ذاتها في عرض تلك الحقيقة، ولا من حيث تأثيرها على السلوك البيئي تبعًا لذلك كما سنبينه بعد حين [١].

ولما كانت ملامح البعد الفلسفي والعقدي متميزة في نظرتها وتعاملها مع البيئة ككيان خلقه الله تعالى لخدمة الإنسان في حاجاته الفسيولوجية المتمثلة بالطعام والشراب، وفي حاجاته الروحية المتمثلة بكونها محلا لتفكره وبناء رؤيته لحقيقة وجوده عليها، وكلا البعدين متوازيين في الضرورة والحاجة، ولا يمكن بناء العلاقة بين الإنسان والبيئة على نحو سليم ما لم تتوازن النظرة إليها بين هذين المحورين.

وبذلك فإن هذه النظرة ثمرتها تتمثله فيما ينعكس من أثر على سلوك الإنسان عند انتفاعه بها وحمايته لها من نفسه، وهو في ذلك يحتاج إلى تحقيق التوازن في انتفاعه بها فيما يحقق حاجاته الحسية أو المعنوية، والتي يعتبر تحقيق التوازن في منظور الإسلام ضمن هذا البعد عبادة من أعظم العبادات.

• **أثر البعد الفلسفي والعقدي في السلوك البيئي:** لما كان البعد الفلسفي والعقدي في تكوين النظرة تجاه البيئة في الإسلام، فإن هذا البعد إنما تتأتى ثمرته عندما ينعكس على السلوك البيئي الذي يعتبر مرتبطاً

---

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

بالتصور النظري في أغلب الأحوال، فإذا كانت صورة البيئة في الذهن تحمل معنى القربى كان تصرف الإنسان هو الحفاظ عليها، أما إذا كانت تحمل معنى المغالبة والصراع كان التصرف يحمل العداء والغلظة.

وإذا كانت البيئة تتضمن معنى روحياً وراء معناها المادي، فإن ذلك الأمر يؤدي إلى أن يتجاوز مجرد الانتفاع بمرافق البيئة لإشباع الغرائز الطبيعية إلى اعتبارات تقوم على التواصل بين الإنسان والبيئة قوامه اللين والعطف والقربى وغيرها من المعاني التي تقتضي التواصل الروحي، ولا يكون فيها للتواصل المادي الصرف مكان.

إن البعد الروحي عندما يصبح ثقافة عامة تتحكم في مجمل التصرف إزاء البيئة فإنه سيثمر موقفاً إنسانياً تحفظ فيه البيئة من أن ينالها الدمار استنزافاً أو تلويثاً في سبيل تحقيق المتعة المادية، وذلك بتمثل ما فيها من الإبداع الإلهي المتجلي في دقة صنعها وجمال مظهرها.

وبذلك فإن الأزمة الراهنة التي تعانيها البيئة في شطرٍ كبيرٍ منها ناجمةٌ عن فقر الحضارة الغربية – التي سببت هذه الأزمة البيئية – من المتاع الروحي بالبيئة، مما أدى إلى الاستنزاف المدمّر لمرافق البيئة باعتبار المتاع المادي بتلك المرافق هو الغاية العليا من الحياة في منظورهم وفلسفتهم، أما المتاع الروحي بالطبيعة فليس له في هذه الحضارة حظ يذكر [1].

(١) السرياني – محمد محمود، المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة، ط:١، ١٤٢٧– ٢٠٠٦، الرياض – السعودية، ص ٢٧٧ .

ولكن وفق ما أرى فإن منظور الإسلام وإن كان يرتكز على بعدين أحدهما روحي والآخر مادي يتعين النظر وبناء العلاقة مع البيئة من خلالهما، فإن تأصيل النظرة من خلال التعريف بصورة العلاقة على أساس التوازن بين هذين البعدين يحتاج إلى تربية بيئية تؤصل جانب العبادة في التعامل مع البيئة انتفاعاً وارتفاقاً، وتفكراً وتأملاً، وهذا ومن دون شك يحتاج إلى جهد في بناء فكر الذات، وطاقة في غرس ذلك في توجه المجتمع وعاداته وسلوكياته.

ولكن لما كان بناء الرؤية للبيئة على هذين المرتكزين للعمل من أجل صناعة تربية بيئية تنطلق من التعبّد في المحافظة على البيئة والانتفاع بها لا يعد كافيا، فإن الحاجة جاءت ملحّة – لا سيما في ظل الانتهاكات التي تتعرض لها البيئة في الواقع المعاصر محلياً وعالمياً –، فقد أصبح من الضرورة بمكان تعزيز الحماية التشريعية لمختلف ما يتصل بقضايا البيئة، والتي نعرّج عليها بالقول بعد تناول البعد الجمالي والتأملي للبيئة.

ثالثاً - البعد الجمالي والتأملي :

إن حقيقة البيئة لا تنحصر فقط في بعدها المادي المحسوس، ولا في بعدها العقدي متمثلاً فيما تتضمن من الدلالة على الغيب، وإنما تتضمن أيضاً بعداً جمالياً كعنصر من عناصر حقيقتها الروحية. فقد حرص القرآن الكريم حرصاً شديداً في عرضه لحقيقة البيئة بمختلف مكوناتها على أن يبرز العنصر الجمالي فيها، قاصداً إلى إظهار ما كونت عليه المادة البيئية في كمها وكيفها من معنى الجمال بحيث تكون صورتها الحاصلة في الذهن

متضمنة لذلك المعنى في واقعها الموضوعي كما هي متضمنة للمعنى المادي من ذرات وأشكال وأثقال، وكما هي متضمنة أيضاً للمعنى الغيبي مثلما بيناه آنفاً، فإذا البيئة في هذا التصوير القرآني حقيقة مركبة من جملة عناصر يحتل الجمال مركزاً أساسياً فيها.

ويلفت الانتباه في التقرير القرآني لعنصر الجمال في البيئة ثلاثة أمور أساسية كان القرآن الكريم يحرص على إبرازها قرينة للصورة الجمالية البيئية، فيما يوحي بأن هذه الأمور سيكون لها الأثر البالغ في تعامل الإنسان مع البيئة تعاملاً سلوكياً، وهو ما يبدو أنه كان الغرض القرآني الأساسي في إبراز هذا المعنى الجمالي في البيئة والتوجيه إليه. وهذه الأمور الثلاثة الملازمة لجمال البيئة في التصوير القرآني هي: (الواقعية، والمتعة الروحية، والعبرة العقدية).

• **واقعية الجمال البيئي** : إن الجمال في البيئة كما يصوره القرآن الكريم هو حقيقة واقعية من حقائق البيئة، وجزء لا يتجزأ منها كذات خلقها اللّه تعالى، وليس مجرد خيال ذهني لا مصداق له في الواقع مثلما تقرر ذلك بعض المذاهب الفلسفية، وحينما يصور جمال البيئة على أنه حقيقة واقعية فإن ذلك من شأنه أن يرفع من قدرها في تصور الإنسان؛ إذ تكون قيمة الجمال خاصية من خصائصها الذاتية وليس أمراً مُضفى عليها من خارجها على سبيل التخيل، وبين الأمرين فارقٌ كبيرٌ فيما يحدثه كل منهما من الأثر النفسي التربوي في التصرف والسلوك البيئي، وهو فارق ما بين التعامل مع قيمة حقيقية واقعية والتعامل مع قيمة خيالية تصنعها الأوهام.

وفي سبيل إبراز معنى الواقعية في جمال البيئة وتأكيده جاء القرآن الكريم يعرض ذلك الجمال في الأوضاع المختلفة للبيئة، إيحاء بأن هذا الجمال لما كان متحققاً في مختلف أوضاع البيئة وأحوالها فإنه إذا يكون حقيقة موضوعية وليس مجرد انطباع ذاتي للمشاهد لها والناظر فيها؛ إذ لما يجد المشاهد الجمال البيئي أمراً ثابتاً مع تغير أوضاع البيئة وأحوالها، فإنه يحصل منه الانطباع بأن ذلك الجمال صفة ملازمة للبيئة وليس عارضاً ذهنياً أضفي عليها من خارجها. وتعود كثرة الأوضاع البيئية التي يتحقق فيها الجمال كما يصوره القرآن الكريم إلى وضعين أساسيين، أما الوضع الأول فهو الوضع الكمي لمشاهد البيئة، ومعناه أن مشاهد البيئة تتضمن قيمة جمالية في أشيائها المفردة إذا نظرت إليها في بعدها الكمي الساكن، فثمرات الأشجار على سبيل المثال وكذلك الجبال وأفراد الناس وأصناف الأنعام في تنوع تمثيلها لمكونات البيئة نباتاً وجماداً وحيواناً وإنساناً تتضمن كلها قيمة جمالية بما تظهر فيه من الألوان الزاهية البادية في تناسق مع اختلافها، وهو ما صوره قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ۞ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴾(١). وأما الوضع الثاني فهو الوضع الكيفي للمشاهد البيئية، ومعناه أن مشاهد البيئة تتضمن قيماً جمالية فيما يتجاوز مادتها المكونة لذواتها الفردية إلى الوضع الكيفي الذي

(١) فاطر ٢٧ – ٢٨.

تكون عليه تلك الأفراد، فهو جمال في الكيفية التي تكون عليها مفردات البيئة يضاف إلى الجمال الذي يكون في مادتها، وذلك سواء بالنظر إليها منفردة أشخاصاً وأنواعاً، أو بالنظر إليها تشكيلات مختلفة من الأشخاص والأنواع تؤلف فيما بينها كيفية تتصف بالجمال. فمفردات البيئة تتصف بالجمال في الكيفية التي تكون فيها أزواجاً، وذلك مثلما يبدو في الزوجية النباتية الناشئة من الأرض الهامدة التي إذا ما نزل عليها الماء ﴿اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1]. والأنعام تتصف بالجمال في الكيفية التي تكون عليها ذاهبة إلى المراح أو إلى المسرح عند استخدامها وعند عدم استخدامها كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2]. كما أن الحدائق المشكلة من شتى الأصناف من النباتات والأشجار والثمار المختلفة والمياه الجارية والعصافير والفراشات تكون متصفة بالجمال جراء الكيفية الناشئة من ذلك التشكيل البديع، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[3]. وهكذا يتبدى الجمال في البيئة أنى اتجهت بنظرك إليها في كمها وكيفها بما يرسخ في التصور الذهني أنه جمال موضوعي من ذات الوجود البيئي نفسه.

• **المتاع الجمالي في البيئة** : ليست البيئة في التصور الإسلامي موئلاً لانتفاع الإنسان انتفاعاً مادياً محسوساً فحسب، وإنما هي أيضاً

(١) الحج ٥.

(٢) النحل ٦.

(٣) النمل ٦٠.

مصدرٌ مهمٌ لغذائه الروحي، فبالإضافة إلى ما تشبع من شوقه إلى الملإ الأعلى باعتباره فطرة طبيعية فيه، وذلك بما تتضمن من الدلالات الغيبية، فإنها تشبع فيه أيضاً الشوق إلى الجمال، فالإنسان مفطور على حاسة جمالية تطلب إشباعاً بالتملي من مشاهد الجمال كما تطلب حواسه المادية إشباعاً بمباشرتها لمطالبها المحسوسة.

وبناء على هذا المعنى جاءت البيئة في التصوير القرآني تتضمن بعداً جمالياً، وجاء هذا التصوير الجمالي يقصد من بين ما يقصد إلى تلبية الشوق الإنساني إلى الجمال، وتحقيق المتعة الروحية بذلك، فإذا البيئة في سياق هذا المعنى تبرز على أنها نعمة من النعم الروحية للإنسان بما تحقق له من متعة الجمال، كما هي نعمة من النعم المادية بما تحقق من متعة الإشباع المادي، وهو ما كان القرآن الكريم يؤكد عليه ويوجه إليه في عرضه البيئي. ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾[1]. ففي التقدير الإلهي للبيئة صناعة جمالية عُبر عنها بالتزيين، وهي صناعة قُصد منها قصداً إمتاع الإنسان كما يفيده التعبير بتنسيب التزيين إلى الناظرين، وكذلك ما جاء في قوله تعالى عن الأنعام: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2]. فقد هُيِّئت هذه الأنعام بصنعة جمالية من أجل الإنسان أن يكون له فيها متاع روحي، وكذلك الأمر في الدواب فقد كان

---

(١) الحجر ٣٠.

(٢) النحل ٦.

من أغراض خلقها متعة الجمال للإنسان، وذلك كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾[1]. فكما خُلقت للمنفعة المادية متمثلة في الركوب وحمل الأثقال خُلقت أيضاً لمنفعة روحية متمثلة في المتعة بما رُكب فيها من جمال الزينة. وليس هذا البيان القرآني في خصوص عرض الجمال البيئي بياناً على سبيل التصوير المجرد لذلك الجمال، وإنما هو عرض فيه توجيه للإنسان على سبيل الحث إلى أن يتوجه إلى مشاهد البيئة توجهاً قاصداً لمزاولة الانتفاع الروحي والتمتع بنعمة الجمال فيها باعتبار ذلك مندرجاً ضمن الابتغاء من فضل الله المعروض في الطبيعة، فذلك الفضل كما هو معروض في المنافع المادية لمرافق البيئة فهو معروض أيضاً في المنافع الروحية ومنها متعة الجمال، وكل ذلك طُلب من الإنسان التوجه إليه بالابتغاء، وجُعل ذلك الابتغاء من مظاهر التقرب إلى الله كما جُعل الصدود عنه من مظاهر الجفاء، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[2].

فالابتغاء من فضل الله في البحر أكلاً من اللحم الطري وتمتعًا بجمال الحلية على حد سواء هو أمر مطلوب من الإنسان لما يفضي إليه من شكر الله تعالى والتقرب إليه، وفي التأكيد على ذلك جاء النكير على

---

(١) النحل ٨.

(٢) النحل ١٤.

من يمنع متعة الجمال كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾[1]. وهكذا يكون العرض القرآني لجمال البيئة عرضاً مقصوداً فيه قصداً التوجيه إلى المتاع الروحي وليس مجرد عرض تصويري، ولذلك أثر بالغ في السلوك البيئي.

• **العبرة العقدية في الجمال البيئي** : لئن كان القرآن الكريم وجه الإنسان في عرضه للجمال البيئي إلى المتعة الروحية بذلك الجمال، فإن ذلك الجمال هو في ذات الوقت يمكن أن يكون عامل إغواء يركن بالإنسان إلى الحضيض المادي بدلاً من أن يسمو به إلى الأفق الروحي، وذلك حينما يُنظر إلى الجمال النظرة السطحية التي لا تتجاوز إثارة الغرائز المادية إلى إثارة الحاسة الجمالية، فإذا هذا الجمال يكون سبباً في الإغراق في الإشباع المادي من حيث كان غرضه التعديل من ذلك الإشباع بتوجيه المتعة إلى الأفق الروحي ليكون التعامل مع البيئة تعاملا ًمتوازناً، وذلك المعنى هو الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[2]. فهذه الزينة الممثلة للجمال البيئي قابلة لأن تذهب بالإنسان إلى العمل الصالح ومن بينه ما يتمثل في السلوك البيئي نفسه، كما هي قابلة لأن تذهب به إلى خلاف ذلك، وهو أمر اقتضى أن يُعرض الجمال البيئي عرضًا تُرشد فيه المتعة الجمالية بما يفضي بها إلى العمل الصالح، ويجنب أيلولتها

---

(١) الأعراف ٣٢.

(٢) الكهف ٧.

إلى الفساد. وقد جاء هذا الترشيد لمتعة الجمال البيئي في القرآن الكريم متمثلاً فيما وُجه إليه عرض ذلك الجمال من وجهة الاعتبار العقدي، فقد كان عرض الجمال البيئي في القرآن الكريم يتضمن في أغلب الأحوال توجيهاً إلى الاعتبار بما في ذلك الجمال من الدلالة على القدرة الإلهية المصورة له، أو التفضل الإلهي المقصود منه، أو الحكمة المتمثلة فيه، أو غير ذلك من معاني العبرة العقدية المختلفة، وذلك حتى تستهوي صور الجمال البيئي الإنسان بما هي موافقة لحاسة الجمال فيه، و(تجذب نظر الناظرين فتوحي إلى ما فيها من آية للمتفكرين تدلهم على ما وراء الأشياء من خالق، وتعرفهم بما له من صفات الكمال والحكمة والإبداع). ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾(١). فالجمال في الحدائق هو صورة جمالية داعية بعجيب صنعها وتناسق عناصرها وألوانها إلى التيقن بوحدانية اللّه تعالى بإدراك عجز كل الآخرين عن إبداع ذلك الجمال، وكذلك ما جاء في قوله تعالى بعد وصف الجمال في الشجار المثمرة حال إثمارها: ﴿انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾(٢). فهذا المشهد الجمالي هو آية دالة عند التأمل فيها على اللّه تعالى وجوداً وصفات، مفضية إلى الإيمان به.

---

(١) النحل ٦.

(٢) الأنعام ٩٩.

وإنما يوجه القرآن الكريم الأنظار إلى الجمال البيئي توجيهاً يرشد إلى المعاني العقدية ليرفع من أثر ذلك الجمال في النفس إلى ما يناسب قيمته الروحية المتعالية، ويحول دون أن يُبتذل بأيلولته إلى سبب لمجرد إشباع شهوة مادية هي من خواص الحيوانية، وذلك كأن يفضي استهواء الجمال في الغزال إلى ذبحه وأكله، أو استهواء الجمال في الشجرة إلى قطعها حطباً للطبخ، فالجمال قيمة روحية فعلها الطبيعي في النفس الإنسانية أن تغذي الروح بمتعة معنوية تسمو بها إلى أفق عليا من الإنسانية، وهل من تلك الأفق ما هو أعلى من الاتجاه وجهة الله تعالى الذي جاء هذا الترشيد القرآني يرشد به انفعال الإنسان بالجمال البيئي؟ ... إنه إذا ضرب رفيع من الارتقاء بأثر الجمال البيئي في النفوس إلى ما ينعكس إيجاباً على سلوك الإنسان إزاء البيئة بتوجيهه وجهة العبرة العقدية عطفًا على توجيهه وجهة المتعة الروحية [١].

وبذلك يتضح بأن البعد الجمالي والتأملي للبيئة يحقق البعد الفلسفي العقدي، ويجعل الإنسان مرتبطاً بهذه البيئة بما يحفظ له جمالها كما خلقها الله عليه، وهو إذا أراد إحداث تغييرات في هذه البيئة فإنما يقوم بذلك بما يعينه ضرورة على تحصيل منافع هذه البيئة والمحافظة عليها.

إن البعد الجمالي للبيئة إنما خلقه الله تعالى عليها لغرضين، فأما الأول فهو ابتغاء تعلّق الإنسان بها باعتبارها مما تأنس إليه النفس، وأما

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

الثاني فهو التفكّر الذي يعد من أعظم العبادات والقربات التي تقرب العبد من الله تعالى. ومتى كانت البيئة محلاً لتأمل الإنسان وتفكّره في جمالها، فإن تعرضها للتدمير والتخريب من قبله يضعف نطاقه في داخل وجدانه، ليحل محل ذلك تعلق ومحبة لهذه البيئة، بل وتشييد وخدمة لها كمرفق حيوي يرتبط بحياته في الجملة والتفصيل.

رابعاً - البعد القانوني والتشريعي:

إذا كان البعد الفلسفي والعقدي بما يعكسه من توازن بين النظرة المادية والروحية من شأنه أن يقوّم سلوكيات الأفراد في تعاملهم مع البيئة، فإن هذا البعد قد يكون له دوراً في تنظيم الانتفاع بالبيئة بما يحفظ جمالها وصلاحيتها لنفع المنتفعين بها، إلا أن من الضرورة بمكان الاتصال بالبعد القانوني والتشريعي لمفهوم البيئة من أجل تحقيق الحماية والصيانة لمكوناتها وعناصرها.

لقد أصبحت البيئة في ظل ما تتعرض له من انتهاكات أدت إلى تدمير جانب كبير منها من القضايا التي تحوز على اهتمام الدول والحكومات، حيث ضمّنت هذه الدول دساتيرها نصوصاً تتعلق بحماية البيئة وتعريفها، وشرّعت القوانين التي تحتوي على عقوبات للمخالفين لهذه القوانين والنظم، حيث لا يكفي التثقيف بالبعد الفلسفي والروحي للبيئة لحمايتها من انتهاكات الإنسان.

في ظل المناخ العلمي والصناعي المتطور الذي ساد العالم في الآونة الأخيرة، كان من الطبيعي أن تصبح البيئة قيمة جديدة ضمن

قيم المجتمع التي يسعى حاليا للحفاظ عليها وحمايتها من كل فعل يشكل إضراراً بها وانتهاكاً لحرمتها، وكان ينبغي أن يعترف بمضمون عام يمثلها كقيمة يسعى النظام القانوني للحفاظ عليها.

ومن خلال استقراء البعد القانوني والتشريعي يتضح بأن هناك عنصرين أساسيين يدخلان في تعريف البيئة المحمية بالقانون، فهناك العناصر الطبيعية، وهناك العناصر المشيّدة التي صنعها الإنسان، ومع ذلك تعتبر جزءاً من الوسط البيئي، وبالتالي فإن هذا المضمون المزدوج للبيئة يوسّع كثيراً من مفهومها القانوني (المحمي بالقانون)، وخاصة أنه قد يكون للوسط البيئي المنشأ بواسطة الإنسان آثار على الوسط البيئي الطبيعي، وبالتالي تأخذ البيئة كقيمة يهتم القانون بتنظيم الانتفاع بها وحمايتها مفهوماً ومضموناً واسعين يشمل الوسط الذي يعيش فيه الإنسان، سواء أكان وسطاً طبيعياً كالماء والهواء والتربة والغابات، أم كان وسطاً من خلق الإنسان كالإنشاءات والمدن والمصانع وخلافه؛ حيث أن كل ذلك يؤثر ويتدخل بصورة مباشرة أو غير مباشرة في حياة الإنسان، حيث تدخّل الإنسان في كل شيء، وأصبحت العناصر الطبيعية مثل: الأنهار والغابات معدلة بالفعل الإنساني؛ ولذلك يمكن القول إن أزمة الإنسان مع بيئته قد بدأت في الظهور عندما اختل التوازن بين هذين العنصرين، وذلك عندما أصبح الوسط الطبيعي يعاني من تدخلات الإنسان التعسفية واستغلاله غير المنضبط، حيث لم يعد قادراً على استيعاب التلوث الذي أحدثه، ولا امتصاص النفايات والفضلات التي خلّفها.

وإذا كان ذلك واعتبرت الحماية البيئية قيمة من قيم المجتمع التي يسعى النظام القانوني بصفة عامة لتأكيدها، فإنه يتعين على المشرّع إدراك أن هذه القيمة هي قيمة مركّبة تتداخل فيها عناصر مختلفة، وبذلك فإنه لا بد من تضافر الجهود للوصول إلى تكوين البيئة كقيمة من القيم التي يسعى القانون للحفاظ عليها.

وبناء على تحديد العناصر، وحسب تحديد كل عنصر يحدد القانون النموذج القانوني الذي يعتبر محلاً للتجريم والعقاب، حيث يحدد القانون نموذج الصور المختلفة التي يمكن أن تكون اعتداء أو إضراراً مباشراً أو غير مباشر بالبيئة، وبالتالي تظهر أهمية تحديد العناصر البيئية المحمية بالقانون وفقا لمفهومها الواسع والشامل [(١)].

وبالنظر إلى القانون الإسلامي في مجال حماية البيئة ورعايتها فإنه يتضح بأنه ليس هناك قانون مكتوب أو عقوبات واردة تقرر أنه عندما تنتهك البيئة ويُعتدى عليها، وهناك عقوبة أخروية يعاقب بها اللّه تعالى من يعتدي على البيئة باعتبارها حقاً للعباد دون وجه حق؛ ذلك أنه مأمور في جميع الأحوال بالالتزام بالانتفاع بها دون الإضرار بمخزونها، وبمراعاة حق غيره فيها قبل مراعاة حقه ونصيبه منها في جميع الأحوال وفي كل الظروف والمستجدات. وهناك من قواعد الدين ما يحفظ لهذه البيئة مكانتها ومقدّراتها، وهي تعتبر ذات قيمة خلقية

(١) أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، التشريعات البيئية، ط: ١، يناير ١٩٩٥، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ص ٢٥.

وتربوية وقيمية وتحتاج إلى أن تصب في قوالب قانونية من شأنها أن تنظم علاقة الإنسان ببيئته.

وينتهي أحمد عبد الوهاب في خاتمة دراسته التي تناول فيها التشريعات البيئية بأن من الضرورة بمكان من أجل تعزيز البعد القانوني لمفهوم البيئة من التأكيد في مختلف الدساتير على أحقية المواطن في بيئة نظيفة وملائمة وصحية للجيل الحالي وللأجيال القادمة، ولا بد من وضع منظومة قانونية متكاملة لتعزيز الحماية البيئية في المجتمع الداخلي. كما أكد كذلك على ضرورة أن تكون الغرامة المدنية الناجمة عن الأضرار البيئية في جميع الأحوال أكبر قدراً من حجم الضرر، أو تتناسب مع مقدار الضرر إلى حد ما، وأن يعترف القانون بأحقية المواطن في إقامة الدعوى الخاصة بأية مشكلة بيئية حتى ولو لم يكن متضرراً منها باعتبار أن الدفاع عن ذلك يشكل حقاً جماعياً من حقوق المجتمع.

إن من الضرورة بمكان الاهتمام بالبعد القانوني للبيئة، حيث لا يمكن الاكتفاء بتعزيز البعد الفلسفي والعقدي من خلال التربية البيئية فحسب، بل لا بد من الاهتمام بهذا الجانب باعتباره نقطة الارتكاز لحماية الانتفاع بالبيئة والحفاظ عليها، ولكن ذلك ينبغي أن يتعزز من خلال التوسيع من نطاق البعد القانوني والتشريعي للمفهوم.

وبذلك فإن تكامل هذه الأبعاد هو الذي من شأنه أن ينظم حق الانتفاع بالبيئة من خلال مختلف النطاقات والمستويات، وهو الذي من شأنه أن يحقق الحماية للبيئة المحيطة بالإنسان، فتربية الإنسان على

أن رعاية البيئة من خلال ما قررته النصوص من ضوابط التعامل معها عبادة من العبادات، من شأنه أن يؤدي إلى انضباط السلوك على وفقه إلى تحقيق الكثير من المكاسب في حماية البيئة والحفاظ عليها. ومن جانب آخر فإن تشريع تجريم الأفعال التي تعد انتهاكا للبيئة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من شأنه أن يحقق حماية مكملة لتلك الحماية التي تعتبر حجر الأساس في بناء منهجية من شأنها أن تنظم الانتفاع والارتفاق بالبيئة وتحميها من عبث العابثين ممن يستغل البيئة استغلالاً سيئاً عند انتفاعه بها.

المبحث الثاني

مكونات البيئة وعناصرها

إن البيئة كما أصبحت علماً متميزاً تشتمل على عدة عناصر متفاعلة لا يكتمل ذلك المعنى إلا بها مجتمعة، وهذه العناصر لئن كانت في الواقع البيئي مكتملة الوجود والتفاعل بالنسبة لبعضها قبل وجود الإنسان، وبالنسبة للبعض الآخر منذ بدأ يمارس حياته على الأرض، إلا أن وجودها في الفكر البيئي طرأ تباعاً بحسب تطور هذا الفكر الذي كلما اكتشف عنصراً بيئياً أضافه إلى مفهوم البيئة، وتناوله بالبحث ضمن البحث البيئي العام.

ويبدو أن الفكر البيئي كان العنصر الأول من عناصر البيئة في اهتمامه، وهو العنصر الطبيعي المادي متمثلاً في الأرض وما يوجد عليها من جماد ونبات وحيوان، والمتمثل أيضاً في القوى الطبيعية من رياح وحرارة وضوء، ثم انضاف إلى ذلك في مرحلة لاحقة ما فعله الإنسان على وجه الأرض من ضروب الإنجازات المختلفة، ثم اتجه الاهتمام قوياً إلى عنصر الأنظمة التي تحكم البيئة متمثلة في حركة التأثر والتأثير بين الموجودات البيئية، وفي الأنساق التي تحفظ توازن البيئة وتحافظ على سواء سيرورتها، وحينما انتهى الفكر البيئي إلى تصور أن البيئة هي كل متكامل يشمل إطارها الكرة الأرضية، وما يؤثر عليها من المكونات الأخرى للكون، وأن محتويات هذا الإطار ليست جامدة كالسلعة في مخزن، بل هي دائمة التفاعل مؤثرة ومتأثرة ضمن أنظمة وأنساق

مقننة، حينما انتهى التصور البيئي إلى ذلك أصبحت عناصر البيئة في الفكر البيئي الحديث تتمثل في أربعة عناصر أساسية، يتضمن كل منها عناصر فرعية مندرجة فيها، وهذه العناصر الأساسية هي التالية:

أولاً - الطبيعة الجامدة :

وهو الأساس الأول للبيئة، ويشمل ثلاثة أنواع من الجمادات: أولها الجمادات الصلبة، وتشمل القشرة الأرضية بمكوناتها المختلفة، وما تتموج عليه من وديان ووهاد، ومن جبال وهضاب، كما يشمل ما على تلك القشرة وما تحتها من الصخور والمعادن الصلبة بأنواعها المختلفة، وما تنحل إليه من العناصر المتعددة التي تقوم بدور أساسي في مجمل التشكيل البيئي الحي منه وغير الحي، وإذا كان ما في الباطن البعيد من الأرض يبدو بعيداً عن أن يكون عنصراً بيئياً، إلا أنه عند التأمل يتبين أن ما في الباطن البعيد له تأثيرات بأنحاء مختلفة على ما في الظاهر الأرضي، إما بالضغط أو بالحرارة أو بالانبجاس المباشر كما في المتفجرات المائية والثورات البركانية، فهي إذا تعد ضمن العناصر المؤثرة في البيئة سواء في وضعها الباطني أو في وضعها الظاهري.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا العنصر بتعابير متعددة تغطي في مجملها أنواع هذا العنصر وأدوارها البيئية، فقد عبر عنه أحياناً بالتراب كما في قوله تعالى: ﴿ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾[1].

---

(١) الكهف ٣.

وأحيانًا بالأرض كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[1]. وأحياناً أخرى باسم معدن من المعادن كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾[2]. وفي كل هذه التعابير إشارة إلى البعد البيئي في العناصر المذكورة متمثلاً في التفاعل بينها وبين الكائنات الحية كما يمثلها الإنسان.

والنوع الثاني هو السوائل على اختلافها، سواء كانت على وجه الأرض أو في باطنها، ويأتي على رأس تلك السوائل الماء الذي قد يكون أيضاً جامداً كما قد يكون متبخراً، وفي كل أحواله يمثل عنصراً بيئياً على درجة عظيمة من الأهمية لما له من الأثر البالغ في مجمل الوجود البيئي كله، فهو العنصر الأساسي للحياة كلها، وهو المؤثر في المناخ تأثيراً كبيراً حتى ليشبه أن يكون العنصر الأكبر في تشكيله وتكييفه عبر دورته بين التجمد والسيولة والتبخر. وإلى هذا العنصر المهم يشير القرآن الكريم في مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[3]. وهو قول يبين بوضوح الأهمية البيئية للماء.

كما أن من السوائل أيضاً الزيوت النفطية المدفونة في بواطن الأرض، فهي عنصر بيئي أصبحت له أهمية كبيرة في التفاعل البيئي منذ استخرج للاستعمال في توليد الطاقة وما نشأ عن ذلك من التلوث،

(١) البقرة ٢٢.

(٢) الحديد ٢٥.

(٣) الأنبياء ٣٠.

وقد يكون له قبل ذلك أيضاً دور في التأثير على سطح الأرض على نحو من الأنحاء ضمن ما للباطن من أثر في الظاهر كما ألمحنا.

أما النوع الثالث فهو الغازات المختلفة التي تكون الغلاف الجوي للأرض، بل قد يكون بعضها متغلغلاً في الأرض نفسها، فالهواء المحيط بالأرض يشتمل على خليط كبير من الغازات ذات الأهمية البالغة في الوجود البيئي، ومن أهم هذه الغازات الأكسجين والهيدروجين والنيتروجين وأكسيد الكربون والأوزون والهليوم، وأنواع أخرى كثيرة، وتترتب الغازات في طبقات أربع تحيط بالأرض هي: (التروبسفير، والستراتسفير، والميزوسفير، والأيونسفير)، ولكل طبقة من هذه الطبقات بما تشتمل عليه من الغازات دور بيئي بما فيها تلك التي تبتعد عن الأرض مئات الكيلومترات، فبعضها يبني المادة الحية، وبعضها يصد الأشعة الضارة، وبعضها يقوم بدور مهم في تعديل المناخ، وكلها تشترك في النظام البيئي العام.

إن هذه الغازات التي تكون الغلاف الجوي المحيط بالأرض هي التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا﴾(١). وذلك لما تقوم به من دور أساسي في حفظ الوجود البيئي، سواء بما توفر من أسباب الحياة وعناصر بنائها، أو بما تصد من مدمرات الشهب والنيازك المتجهة إلى الأرض، ومن محرقات الأشعة الساقطة من الشمس.

---

(١) الأنبياء ٣٢.

ثانيًا - القوى الطبيعية :

ومن العناصر الأساسية المكونة للبيئة عنصر القوى الطبيعية، وهو عنصر ينتمي إلى الطبيعة غير الحية، إلا أن له خصوصية تفرده بالبيان، ويتمثل هذا العنصر البيئي في قوى طبيعية يحدث بعضها من التفاعلات الأرضية، ويرد بعضها الآخر من وراء الكوكب الأرضي لتصنع كلها مكوناً بيئياً بالغ الأهمية ذا وظائف متعددة في الوجود البيئي يتوقف عليها ذلك الوجود في بنيته وتوازنه واستمراره.

ومن أهم مكونات هذا العنصر البيئي قوة الجاذبية، فللأرض جاذبية تجذب بها إلى سطحها كل الموجودات البالغة حداً معيناً من الثقل مما يقع في محيطها إلى مسافات معينة من الفضاء، ولهذه القوة الجاذبة أهمية بالغة في التناسب الوضعي للعناصر البيئية كلها، حتى إننا لو تصورنا انعدامها لانفرط كل ما على وجه الأرض وانخرمت أوضاعه وتلاشى في الفضاء فانخرمت البيئة كلها تبعاً لذلك. ومن هذه القوة الأرضية الجاذبة ما يجعل القمر يدور حول الأرض فيؤثر ذلك الدوران على البيئة بمثل ما يحدث من المد والجزر. والأرض نفسها منجذبة إلى الشمس بقوة جاذبة تجعلها تدور حولها، ولذلك الانجذاب تأثير بيئي بالغ الأهمية، إذ هو الذي يكون به الفعل الشمسي في البيئة على النحو الذي هو عليه، ولو تصورنا انعدامه بل التغير الطفيف في قوته بالزيادة أو النقص لما كان للبيئة وجود أصلاً.

وقد جاءت في القرآن الكريم إشارات كثيرة إلى هذه الطاقة

الجاذبة ودورها البيئي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾[1]. (فهذا الإمساك هو الذي يعبر عنه في علم الهيئة بنظام الجاذبية بحيث لا يعتريه خلل)، وهو يشير إلى القوة التي يكون بها استقرار الأشياء على الأرض، واستقرار الأرض نفسها مع سائر الكواكب الأخرى. وفي الإشارة إلى دور هذه القوة الجاذبة في التفاعل البيئي المهيئ للحياة المنمي لها يقول تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾[2]. فالآية تفيد أن قوة الجاذبية المعبر عنها بإمساك السماء لها الدور الكبير في تهيئة البيئة الأرضية المعبر عنها بالتسخير لحفظ الحياة وتنميتها.

ومن تلك المكونات القوة الحرارية التي تعد عنصراً بيئياً بالغ الأهمية في مجمل الوجود البيئي، فهي أساس في نشأة الحياة وتنميتها، وكذلك في ترتيب البنية المناخية وتنظيم عناصرها من ضغط جوي ودورات مائية وحركات للرياح. والمصدر الأكبر للحرارة هو الأشعة الشمسية الساقطة على الأرض من خلال الغلاف الجوي، فهي إذا مكون بيئي هام قادم من خارج البيئة بمسافات كبيرة. ومن مصادر الطاقة الحرارية في البيئة ما يضطرم به باطن الأرض من المعادن المنصهرة في درجة حرارية عالية، فهذه الحرارة الباطنية يتسرب شيء منها إلى سطح الأرض ليكون لها دور بيئي.

---

(١) فاطر ٤١.

(٢) الحج ٦٥.

وفي الإشارة إلى هذه القوة الحرارية ودورها البيئي جاء قوله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴾[1]. فالوهاج هو الحار المضطرم الاتقاد، والوهج هو حصول الضوء والحر من النار، ووهج الشمس - وهي المقصودة في الآية - يتضمن ما ترسله من حرارة في الفضاء. ولما كان المقام في ذكر هذا الوهج هو مقام المنة على الإنسان بتوفير ظروف الحياة الناعمة له كما يبدو من الآيات السابقة واللاحقة، فإنه يتبين بوضوح المغزى من إيراد لفظ الحرارة في هذا المقام، وهو بيان أن هذه الحرارة عنصر مهم من عناصر التفاعل البيئي الميسر للحياة.

ومنها القوة الضوئية، وهي من العناصر البيئية الهامة، فالضوء هو مصدر الطاقة لجميع الكائنات الحية نباتية وحيوانية، وهو مؤثر فيها التأثير البالغ من حيث بنيتها الفسيولوجية، وكذلك من حيث سلوكياتها التي بها تكون دورة التكاثر من جهة ودورة التوزع المكاني للأحياء على الأرض بالانتشار والتقلص والإقامة والهجرة من جهة أخرى. والمصدر الأساسي للضوء هو الشمس، وذلك ما وردت الإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً ﴾[2]. وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ ﴾[3]. وقد ورد الضياء في الآيتين مورد البيان لما فيه من ضرورة للحياة وجوداً واستمراراً، وهو ملمح بيئي ظاهر.

---

(١) النبأ ١٣.

(٢) يونس ٥.

(٣) القصص ٧٢.

ومنها كذلك قوة الرياح، فهذه القوة لها دور مهم في البيئة بعناصرها الحية وغير الحية على حد سواء، فهي عامل في حتّ التربة وتحريكها على وجه الأرض، ثم نقلها من مكان إلى آخر، وهي عامل في نقل السحب الممطرة ونشرها ليتوزع هطولها على الأماكن. وللرياح دور في إحداث التيارات المائية التي تؤدي إلى توزيع الكائنات الحية في الوسط المائي، كما أن لها دوراً في انتقال وتوزيع وهجرة أنواع كثيرة من الطيور والحشرات، وفي الحياة النباتية تقوم الرياح بدور مهم في نقل اللقاح مما يؤثر في عملية الإخصاب ونشر النباتات وتوزيعها.

وفي الإشارة إلى هذا الدور البيئي المهم للرياح جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ ﴾[1]. كما جاء قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾[2]. وفي الآيتين يبدو جلياً الدور المهم للرياح في التكوين البيئي عناصر ونظامًا باعتباره قوة من القوى الطبيعية ينضاف إلى قوة الجاذبية والحرارة والضوء لتمثل كلها مكوناً من المكونات الأساسية للبيئة.

ثالثاً - الطبيعة الحية :

تمثل الطبيعة الحية عنصراً أساسياً من عناصر البيئة إن لم يكن العنصر المحوري فيها، فالمتأمل في مجمل الوجود البيئي يلاحظ كأنما

(١) الحجر ٢٢.

(٢) فاطر ٩.

كان كله مهيأ بغاية أن يحتضن ويخدم عنصر الحياة فيه، ثم ليخدم نقطة الذروة في ذلك العنصر وهو الكائن الإنساني. والطبيعة الحية هي المتميزة بثلاث ميزات أساسية تعتبر هي مظاهر الحياة، وهي: (الغذاء، والنمو، والتكاثر)، وتتنوع الكائنات التي تتوفر فيها هذه الخصائص إلى ثلاثة أنواع هي: (النبات، والحيوان، والإنسان).

فالنباتات هي الغطاء الذي يكسو قسماً كبيراً من الأرض، وهي أنواع كثيرة تترتب درجات من حيث البساطة والتعقيد في تكويناتها الكمية والكيفية وفي أدوارها البيئية، والوجود النباتي وجود محوري في البيئة، فالنباتات لها دور كبير في دورة الغازات، إذ هي تمتص ثاني أكسيد الكربون وتطرح الأكسجين نهاراً، وتعكس هذه الآية ليلاً، وللنباتات الغابية دور مهم في تشكيل المناخ وفي توزيع الأمطار، وفوق ذلك كله فإن النباتات هو الغذاء الأساسي للحيوان والإنسان.

وفي القرآن الكريم ذكر مشهود للنبات باعتباره عنصراً بيئياً فاعلاً، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى * كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ * وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴾(٢). ففي الآيتين بيان للدور البيئي للنبات متمثلاً في مدخله في الدورة الغذائية للبيئة الحية، ومتمثلا أيضاً في مدخله في الاتزان البيئي العام كما يفيده الوصف بـ (الموزون).

---

(١) طه ٥٣ – ٥٤.

(٢) الحجر ١٩ – ٢٠.

والحيوانات هي أيضاً أنواع مترتبة بعضها فوق بعض في سلم البساطة والتعقيد مكونات وأدواراً، ولكنها تسهم جميعاً في الدورة الحيوية للبيئة، فللحيوانات دور في انتشار الحياة وتوزعها على سطح الأرض، ولها دور في إعادة المواد المكونة للجيف إلى البيئة الأرضية بطريق التحليل من قِبل الحيوانات المحللة لتلك المواد العضوية، مما يوفر القدرة على استمرارية احتضان الحياة، بل إن لها دورٌ أيضاً في الدورة الغازية عن طريق التنفس مما يكون له صلة على نحو من الأنحاء بالتنظيم المناخي.

وفي القرآن الكريم بيان واف للوجود الحيواني في البيئة ودوره البيئي فيها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾(١). وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾(٢). ففي الآيتين معنى التنوع الحيواني، وفيهما التغيير بالبث وهو إشارة إلى التوزع والانتشار على وجه الأرض وفي الفضاء - إذ تنتشر فيه حيوانات لا تُرى بالعين - وفي كل من التنوع والانتشار معنى بيئي يفيد توزع الدورات البيئية بين الكائنات الحية وتكاملها، إذ ذلك لا يكون إلا بالتنوع والانتشار.

والإنسان هو العنصر البيئي الأكبر في الكائنات الحية كلها، بل في مطلق الكائنات البيئية، وذلك سواء من حيث تعقيده التركيبي الذي

---

(١) فاطر ٢٨.

(٢) الشورى ٢٩.

جعله في ذروة الكائنات رفعة، أو من حيث فعاليته البيئية تأثراً وتأثيراً في جانبي الإيجاب والسلب، أو من حيث ما يبدو من أن البيئة مركبة دوائر يخدم بعضها بعضاً، ودائرة الإنسان فيها هي الدائرة التي تنفرد بأن كانت جميع الدوائر الأخرى في خدمتها، وذلك ما يجعل له وضعاً منفرداً في الوجود البيئي، إذ هو كائن بيئي من جهة، وهو من جهة أخرى كائن متميز في وجوده البيئي عن كل الكائنات الأخرى.

وفي القرآن الكريم بيان مستفيض لهذا الوضع البيئي للإنسان في طريق الوحدة مع البيئة والتميز عنها جميعاً، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[١]. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾[٢]. وقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾[٣]. فهذه الآيات تبين الوضع البيئي للإنسان، وذلك على التوالي ابتداء بما هو عليه من وحدة بيئية مع سائر الكائنات؛ إذ هو مكون من تراب مثلما كل عناصر البيئة مكونة منه، ثم بما هيئت عليه البيئة كلها من وضع لأجل خدمته إذ هي خلقت له، ثم بما هو مهيأ به من قدرة فاعلة في البيئة؛ إذ بما تكسب يده يستطيع أن يعمم الفساد البيئي على البر والبحر، كما يستطيع أيضاً بمفهوم المخالفة أن يحافظ على الصلاح فيهما.

---

(١) نوح ١٧.

(٢) البقرة ٢٩.

(٣) الروم ٤١.

رابعاً - البيئة المشيدة :

إن الإنسان لئن كان يُعد عنصراً من عناصر البيئة، إلا أنه يعتبر أيضاً صانعاً لجزء من تلك البيئة، وهو جزء من شأنه أن يكون له تأثير بيئي ينخرط به مع سائر العناصر البيئية الأخرى في التفاعل البيئي الشامل، وهذا العنصر البيئي الذي يصنعه الإنسان هو عنصر طارئ لم يظهر إلا بالتطور الاجتماعي المدني الذي طرأ عليه، وقد ظل يزداد حجمه ودوره في البيئة باطراد ذلك التطور حتى أصبح في العصر الحديث عنصراً بيئياً ذا شأن في التأثير على البيئة من حيث عناصرها ومن حيث أنظمتها، فأصبح بذلك يلقى الاهتمام المتزايد في الفكر البيئي حتى أصبح يُعد في هذا الفكر رقماً أساسياً في الوجود البيئي، وأصبح يُصنف ضمن عناصر البيئة باسم البيئة الاصطناعية أو البيئة المشيدة.

وتتمثل البيئة الاصطناعية فيما يقيمه الإنسان على وجه الأرض من منشآت مختلفة مثل: (المباني السكنية، المعالم الثقافية، الطرق والمطارات، والموانئ والمصانع والمزارع وغيرها مما بنته يد الإنسان)، وتتمثل أيضاً فيما ينتج عن تلك المنشآت من المنتجات متمثلة في غازات وأبخرة متصاعدة من المصانع، وفي مصنوعات صادرة منها، وفي أسمدة ومبيدات متسربة في أرض المزارع، وفي ضوضاء واهتزازات منطلقة من المدن والمطارات، وفي نفايات صلبة وسائلة وغازية ملفوظة من هذه المنشآت كلها، فمجمل ما شيدت يد الإنسان وما ينتج عما شيدت يمثل البيئة الاصطناعية التي أحدثها الإنسان.

وإذا كانت الكائنات الحية من النبات والحيوان تعتبر عناصر بيئية منخرطة في النظام البيئي في حتمية ليس لها فيها أن تغير منه شيئاً فإن الإنسان على عكس ذلك كائن بيئي حي منخرط في النظام البيئي ولكنه يقدر على التأثير في ذلك النظام، وذلك بما يُحدث من عنصر اصطناعي، فذلك العنصر ينخرط ضمن عناصر البيئة متفاعلاً معها، فيكون له تأثير في نظامها، وسواء كان ذلك التأثير بالسلب أو بالإيجاب فإنه يعتبر تدخلاً في النظام البيئي ينفرد به الإنسان من بين سائر الكائنات البيئية.

ولعل من أبرز ما يتدخل به الإنسان في النظام البيئي بالبيئة الاصطناعية التي يشيدها ما يستنفده في تشييد تلك البيئة من مصادر الطاقة غير المتجددة مما يكون له انعكاس سلبي على مجمل النظام البيئي يتمثل في خلل يحدثه ذلك الاستنفاد من جهة، ويتمثل من جهة أخرى في المنتجات التي لا تقبل التحلل فتكون عامل تلوث بيئي خطير، وذلك كله من حيث أن النظام البيئي الطبيعي يقوم على استعمال الطاقة الشمسية المتجددة، كما يقوم على نظام للتحلل يطال جميع المخلفات الطبيعية قوامه ما ذكرنا سابقاً من الكائنات المحللة، فهذا فرق ما بين الوجود البيئي الطبيعي الذي ينخرط في نظام ذاتي متكامل الحلقات، وبين ما يُحدثه الإنسان من بيئة اصطناعية يكون لها دور في التأثير على ذلك النظام وتكامل حلقاته.

وقد يكون من الإشارات القرآنية إلى هذا العنصر البيئي

الاصطناعي الذي يشيده الإنسان وما يكون له من دور بيئي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾(١). ففي هذه الآيات ذكر لبيئة اصطناعية شيدها الإنسان متمثلة في هذه المباني الفخمة التي بناها قوم عاد وقوم ثمود وقوم فرعون، وقد اقترنت هذه البيئة المشيدة بفساد الذين بنوها وطغيانهم، مما يشعر بأنها كانت هي ذاتها مظهر فساد ربما لخلوها من غاية المصلحة الحقيقية وتمحّضها لغاية الأبهة، أو لما سُخر لبنائها من مستضعفين يُعاملون بالظلم والقهر في سبيل إظهار تلك الأبهة، وكانت نتيجة ذلك كله أن ما شيده هؤلاء القوم من بيئة اصطناعية على وجه فاسد أفضى إلى خلل بيئي تمثل في ما أهلك به أولئك القوم بتدبير إلهي من ظواهر الصواعق والرياح والإطباق البحري. وإذا حملنا هذه الإشارة القرآنية على محمل الرمزية فيما يتعلق بالبيئة ظفرنا بنتيجة أن الإنسان قد يشيد بيئة اصطناعية يكون لها دور في اضطراب النظام البيئي الطبيعي.

خامسًا - النظام البيئي :

ليست البيئة مجرد موجودات حية وغير حية تشترك في الوجود بمجرد التجاور أو التداخل، بل هي في وجودها أعمق من ذلك بكثير،

---

(١) الفجر ٦ – ١٣.

إنها نظام متكامل تتفاعل فيه الموجودات البيئية وفق ميزان دقيق من العلاقات المتبادلة وشبكة معقدة من الحلقات الرابطة بين تلك الموجودات في دوائر من الأنظمة تحكم البيئات المحلية الخاصة بكل وسط بيئي متشابه، وتتدرج تلك الأنظمة الأصغر منها في الأكبر حتى تنتهي إلى دائرة شاملة هي نظام شامل يحكم البيئة كلها، ويعتبر ذلك النظام عنصراً أساسياً من عناصر البيئة، ولهذا النظام البيئي مظاهر متعددة لعل من أبرزها وأهمها مظهرين أساسيين: الترابط والاتزان. فأما الترابط فهو يظهر في أن كل عنصر بيئي يرتبط في وجوده وفي بقائه كما يرتبط في تحوله من وضع إلى وضع ومن حال إلى حال بغيره من العناصر بعلاقة تبادل تتم فيها عملية أخذ وعطاء، إما ارتباطاً مباشراً أو ارتباطاً غير مباشر عن طريق وسائط، بحيث لا يُرى أي كائن بيئي إلا وهو يمثل حلقة من الحلقات ضمن شبكة معقدة وشاملة تنخرط فيها كل موجودات البيئة. وإذا ما قمنا برحلة بين الموجودات البيئية نتحسس فيها هذا الترابط البيئي بينها فإننا (تنتهي رحلتنا في رحاب البيئة حيث توقفنا في كل مواقعها: مائها، جوها، تربتها، معادنها، أحيائها... أنها مشكال بديع من الدورات والسلاسل والعمليات).

ونذكر على سبيل المثال في بيان هذا الترابط البيئي أن الموجودات البيئية تتدرج في سلسلة دائرية من الترابط الغذائي، وذلك إذا ابتدأنا في ملاحظتها من الكائنات المنتجة وجدناها تتغذى من المواد الأولية في التربة والغازات مما هو لازم لعملية البناء الضوئي، ثم تأتي آكلات الأعشاب لتتغذى من تلك الكائنات المنتجة في مستويات متعددة من

الأبسط إلى الأعقد، ثم تأتي آكلات اللحوم لتتغذى على أصناف من آكلات الأعشاب، ثم تأتي المحللات لتتغذى على الجثث والفضلات العضوية ولتعيد بالتحليل المواد الأولية إلى تربة البيئة التي تمثل حالتها التي كانت عليها متوازنة مرة أخرى، فتنغلق الدائرة وتبدأ دورة غذائية مترابطة من جديد.

وأما التوازن فهو يتمثل في ضرب من التعادل في الوجود البيئي يقوم على نسب معينة بين مكونات البيئة في مقاديرها وحركاتها وأحجام تبادلها، وذلك بحيث ينتهي إلى وضع مستقر يتم فيه التفاعل البيئي على الوجه الذي يحفظ سلامة ذلك التفاعل وسيرورته المنتظمة، وينتظم هذا التوازن البيئي في حلقات مترابطة تتمثل في توازن محلي ونوعي يتعلق بنوع كل مكون من مكونات البيئة وكل منطقة من مناطقها على حدة كالتوازن في البيئة المائية، والتوازن في البيئة الغابية، والتوازن في الغازات الفضائية، وما شابه ذلك، ولكن تلك الحلقات من التوازن النوعي والمحلي تنخرط كلها في توازن بيئي عام يشمل كل المكونات البيئية ويجمعها على نسق موحد.

ومن أمثلة التوازن البيئي في نوع معين أو بيئة محددة تلك النسب التي تكون عليها الغازات في الغلاف الجوي للأرض، فهي نسب بين كل الغازات محددة ثابتة، وبها يقوم ذلك الغلاف بدوره في تغذية الحياة على الأرض وحفظها من أن تنالها عوامل الإبادة من الأشعة المحرقة وغيرها، وكذلك تلك الدورات المناخية التي تتعاقب على الأرض في فصول محددة

يكون لكل منها دور معين في حفظ الحياة وتنميتها، ومن أمثلة التوازن البيئي الشامل الذي ينتظم الوجود البيئي كله ما تتعادل به المدخلات البيئية التي تأتي من الوسط المحيط كالطاقة الشمسية، وثاني أكسيد الكربون، والأكسجين، والماء، والعناصر الغذائية من المخرجات البيئية التي تطرح في الوسط المحيط من أكسجين، وثاني أكسيد الكربون، وماء، وطاقة حرارية مفقودة، فالبيئة تقوم على توازن دقيق بين أحجام هذه المخرجات وتلك المدخلات خلال دورتها الكبرى في التفاعل البيئي كله.

وفي القرآن الكريم إشارات كثيرة يتقرر باجتماعها عنصر النظام البيئي في مظاهره المختلفة، وخاصة في مظهري الترابط والتوازن، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾(١). فهذا الدفع عام في الكائنات البيئية، إذ (في الآية احتباك، والتقدير: لولا دفع الله الناس بعضهم ببعض وبقية الموجودات بعضها ببعض لفسدت الأرض، أي من على الأرض ولفسد الناس)، ومعنى الدفع ما رُكبت عليه الكائنات من قوة صراعية تتعامل بها فيما بينها أخذاً وعطاء، فهذه القوة وما تفضي إليه من علاقة ترابط بالأخذ والعطاء هي ضرب من النظام البيئي الذي لولاه لفسدت الأرض. ومن ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(٢). وفي قوله تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ

---

(١) البقرة ٢٥١.

(٢) القمر ٤٩.

مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴾[1].
فالقدر والوزن تفيدان معنى التوازن الكمي والكيفي الذي تنخرط فيه البيئة كلها كمظهر من مظاهر النظام الذي تقوم عليه.

إن عناصر البيئة ومكوناتها الآنفة البيان متمثلة في الطبيعة الحية والطبيعة غير الحية والقوى الطبيعية والبيئة المشيدة والنظام البيئي ليس تقسيمها على هذا النحو إلا على سبيل التصنيف التعليمي، وإلا فإنها تمثل وحدة متكاملة ليس بينها انفصال ولا انقطاع، إنها وحدة في تكاملها الكمي والكيفي، ووحدة في تفاعلها بالأخذ والعطاء في دوائر وسلاسل تلفها جميعاً، ووحدة في تداعي مجموعها بالاختلال في التوازن للعطب الذي يصيب أي جزء منها، وهي أيضاً وحدة في الدور الذي تقوم به في خدمة الحياة صُعداً إلى أعلى نقطة في ذروتها وهي الإنسان، حتى ليبدو هذا الإنسان من خلال تلك الوحدة كأنه الغاية الذي من أجلها كان الوجود البيئي كله، واستشعاراً لهذا المعنى أصبحت البيئة موضوعاً لعلم مهم من علومه ظل ينمو ويتطور عبر الزمن هو علم البيئة [2].

ولما كانت البيئة بهذه العناصر المتنوعة كماً وكيفاً فإنها هذه العناصر تتأثر وتؤثر بصورة أو بأخرى على نحو قد يفقدها توازنها، وأغلب التصرفات المؤثرة في تحريك عجلة التوازن البيئي مصدرها الإنسان، والذي يعتبر القوة الأكثر تأثيراً في ذلك، حيث اختصه الله

---

(١) الحجر ١٩.

(٢) النجار – عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

تعالى بأن جعله خليفة له في أرضه، فهو بذلك حمل الأمانة دون سائر المخلوقات، فهو مسؤول ومحاسب عن هذه الأمانة إذا فرّط فيها، وقد ينقلب السحر على الساحر إذا زاد في التفريط.

وبذلك فإن الإنسان ما لم يكن في تفاعله الفردي والجماعي متوازناً وحصيفاً ومدركاً للآلية الصحيحة للتعامل مع البيئة ومع مختلف عناصرها، فإنه يكون هو الخاسر الأكبر في هذه العملية. ثم إن التكريم الذي حازه هذا الإنسان حتى يحمل الأمانة ويكون خليفة بأمر اللّه في أرضه لا بد أن يقوم بمسؤوليته تجاه هذه الأمانة، وعليه أن ينطلق في تحقيق ذلك من خلال بعد إيماني يدرك حقيقة هذه البيئة في بعدها النفعي فيحافظ عليها ويحميها من شر نفسه التي قد تجره إلى تدميرها وتخريبها كأبرز عناصر التأثير فيها والتأثر.

الفصل الثاني

الإنسان كعنصر متفاعل مع البيئة

الفصـل الثانـي

الإنسان كعنصر متفاعل مع البيئة

إذا كان الإنسان جزءٌ لا يتجزأ من البيئة الحيوية، وهي العنصر المؤثر الأكبر في إعمارها أو تدميرها، فقد جاء التكليف وفق منظور الإسلام له وحده بأن يحفظ لهذه البيئة وجودها ومظهرها وجوهرها، وذلك من خلال ما نصّت عليه قواعد الدين من تعاليم وتوجيهات قررها الشارع الحكيم من أجل تحقيق الخلافة الإيجابية للإنسان على الأرض، والتي لم يقصرها الله تعالى على أهل ملّة دون أخرى، بل جعل الريادة فيها لمن يبذل الجهد في تقوية وإرساء عناصر قوته ووجوده في المجتمع الإنساني.

إن من الضرورة بمكان السعي نحو تحقيق الفاعلية الأكبر في السعي لتبوّأ مراكز الريادة والتأثير بمزيد من التحصيل وبذل الجهود المخلصة تحقيقاً لرفعة الدين وأهله في الأرض، وتقوية لنقطة الارتكاز التي يُشع من خلالها نور التوجيهات الربانية التي تعتبر أكثر ملاءمة لحياة الإنسان من غيرها.

أولاً - تسخير البيئة لخدمة الإنسان:

لقد خلق الله تعالى البيئة وذللها سبحانه وتعالى وسخّرها لخدمة الإنسان الذي استخلفه في الأرض التي احتوت الإنسان كجزء لا يتجزأ من البيئة، ويقرر ذلك عددٌ من النصوص القرآنية، ومنها:

- قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾[1].

- قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[2].

- قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴾[3].

- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ × وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

- قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[5].

---

(١) الملك ١٥.   (٢) النحل ١٤.

(٣) لقمان ٢٠.   (٤) الجاثية ١٢ – ١٣.

(٥) إبراهيم ٣٢ – ٣٤.

وبذلك فإن نعم اللّه تعالى التي تكوّن في مجموعها عناصر البيئة في جمالها وإتقانها يعجز الإنسان الذي سخّر اللّه تعالى له هذه البيئة أن يحصيها، وهو مع ذلك ظلومٌ كفّار جاحد بهذه النعم بعدم محافظته عليها، وعدم شكر اللّه تعالى عليها أن سخرها له وجعلها في خدمته.

وقد ذكر السعدي في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ بأن الصفة التي أوردها اللّه تعالى عن الإنسان هي طبيعة وسجيّة فيه، فهو ظالم مجترئ على المعاصي ومقصّر في حقوق ربّه، كفّار لنعم اللّه تعالى، فهو لا يشكرها ولا يعترف بها إلا من هداه اللّه فشكر نعمه، وعرف حق ربه وقام به.

ثم ذكر بأن في هذه الآية من أصناف نعم اللّه تعالى على العباد شيء عظيم مجمل ومفصّل يدعو اللّه به العباد إلى القيام بشكره وذكره ويحثّهم على ذلك ويرغّبهم في سؤاله ودعائه آناء الليل والنهار، كما أن نعمته تتكرر عليهم في جميع الأوقات [1].

لذلك فإن البيئة بما اشتملت عليه من مكونات وعناصر تعتبر في مجموعها نعماً من نعم اللّه تعالى على الإنسان، حيث يتعين عليه الشكر للمنعم على هذه النعم، وذلك مما يميز نظرة الإسلام للبيئة عن نظرة غيره من المذاهب الفلسفية والوضعية، ولا شك أن أعظم تعبير بالشكر لهذه النعم يتمثل في المحافظة عليها وصيانتها.

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تصحيح: البسام – محمد سليمان، ج:٣، ط: ١، ١٤٠٨ – ١٩٨٨، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة – مصر، ص ٢٠.

ثم من رحمة الله تعالى أن هذه البيئة التي جهّزها الله سبحانه وتعالى بكل مقوّمات الحياة لتصبح بيتاً آمناً للإنسان وتفي بكل متطلباته المعيشية، قد حفظها الله سبحانه وتعالى وحماها من مخاطر الإشعاعات الكونية الفضائية، ومن الشهب والنيازك التي تندفع من الفضاء الخارجي نحو الأرض. ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾(١). حيث أثبتت الدراسات أن الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض يضم مجموعة من الطبقات، ولكل طبقة وظيفة تؤديها في إعالة الحياة وحمايتها.

إن الله سبحانه وتعالى أتقن صنعه للبيئة عندما خلقها، حيث أودع فيها كل مقوّمات الحياة لاستقرار حياة الإنسان وغيره من المخلوقات على وجه الأرض، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾(٢). كما أحاطها بدروع حامية وواقية من الأخطار القادمة من الفضاء الخارجي(٣).

ويرى محمد عبد القادر الفقي بأن الإسلام يتمتع بمفهوم أعمق وأوسع للبيئة، فهو لا ينظر إليها من حيث كونها تمثيلاً لكل ما يحيط

(١) الأنبياء ٣٢.

(٢) فصلت ١٠

(٣) الأنبياء ٣٢.

بالإنسان من موجودات على الأرض، بل إن الإسلام قد طالب الإنسان وكلّفه بأن يتعامل مع البيئة من منطلق أنها ملكية عامة يجب المحافظة عليها حتى يستمر الوجود، ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾[١].

ولم تقتصر رؤية الإسلام لصناعة نظرة الإنسان للبيئة على البعد المكاني فحسب، بل شملت أيضا البعد الزماني، وذلك بالنظر إلى امتداد الخلق للأرض من خلال ما قررته النصوص الشرعية، وذلك من أجل الاتعاظ والعبرة ومعرفة الامتداد العميق لهذه الحقيقة التي تحيط بالإنسان وهي البيئة، ويقرر ذلك قول اللّه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[٢].

وقد ذكر السعدي في تفسير هذه الآية بأن فيها أمراً للنبي محمد (صلى اللّه عليه وسلم) بأن يأمر أمته إذا حصل معهم شك وريب في الابتداء بأن يسيروا في الأرض بأبدانهم وقلوبهم لينظروا كيف بدأ اللّه تعالى الخلق، وأن الحكمة من هذا السير أنكم ستجدون أمماً من الآدميين لا تزال توجد شيئاً فشيئاً، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث وقتا

(١) معلومات واردة في الموقع الإلكتروني: www.fikr.com، وتاريخ دخول الموقع هو: ١١ سبتمبر ٢٠٠٧.

(٢) العنكبوت ٢٠.

بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها مستمرة في تجددها، بل الخلق دائما في بدء وإعادة [1].

وبذلك فإنه يتضح بأن من الحكِم التي تتقرر بناء على هذا الأمر في هذا النص القرآني تتمثل في التفكر والتدبّر كأعظم عبادة يتعبدها الإنسان من خلال علاقته بالبيئة، فالتفكر لا يكون لما هو موجود فحسب، بل بما كان عليه وشيّده الأقدمون منذ أن بدأ الله تعالى الخلق، حيث أن هذه الدنيا في خلقها وتوازنها وتقدير أمورها في كل شيء فيها هناك دلالة ودليل تدل على الخالق الواحد، وهي بذلك ليست وليدة صدفة كما يزعم به بعض أصحاب المذاهب الوضعية.

ومن جانب آخر طالب الإسلام الإنسان أن يستثمر عمره - باعتباره بعداً زمنياً هاماً - في تعامله مع الأنظمة البيئية من منطلق أنها نعمة كبرى للإنسان، ودعاه إلى النظر في مكوّنات البيئة وعناصرها، وإلى التأمل في مخلوقات الله تعالى، والآيات في ذلك كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[2].

ففي هذه الآية دعوة من الله تعالى لعباده إلى النظر لما في السماوات والأرض. والمراد بذلك نظر الفكر والاعتبار والتأمّل لما فيها،

(١) السعدي - عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٣، مرجع سبق ذكره، ص ٥٤.

(٢) يونس ١٠١.

وما تحتوي عليه، والاستبصار في ذلك؛ فإن في ذلك آيات لقوم يؤمنون، وعبراً لقوم يوقنون، تدل على أنه وحده المعبود المحمود، ذو الجلال والإكرام، والأسماء والصفات العِظام [1].

عندما خلق اللّه سبحانه وتعالى البيئة الطبيعية التي هي عبارة عن كل ما يحيط بالإنسان من ظواهر ومكوّنات طبيعية حية أو غير حيّة من خلق اللّه سبحانه وتعالى، وهي بيئة أحكم اللّه سبحانه وتعالى خلقها كماً ونوعاً ووظيفة، وليس أدل على دقة خلق الخالق في ذلك أنه إذا حدث تغيير واضح في أي من عناصرها – سواء في خصائصه الكمية أو النوعية –، فإن هذا الأمر يخلق الكثير من المشاكل، وهي قضية بالغة الأهمية، ويجب أن يعيها الإنسان في علاقته مع البيئة؛ وذلك حتى يحافظ على استمرارية بقاء عناصر البيئة كما خلقها اللّه سبحانه وتعالى، وذلك من أجل استمرارية الحياة دون مشكلات أو كوارث لا قبل للإنسانية بها.

وبذلك فإن تسخير البيئة لخدمة الإنسان إنما تقرر من عند اللّه تعالى في علم الغيب حتى يكون خليفة للّه في أرضه، فهو محاسب على كل تقصير في حقها، وكل إفراط أو تفريط في الانتفاع منها، كما أنه مسؤول عن حمايتها وصيانتها حتى تحفظ توازنها ليكون خليفة بحق للّه في أرضه.

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٥.

ثانياً - خلافة الإنسان ووصايته على البيئة:

لقد اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون الإنسان خليفة في الأرض، وأن يتمتع بقدرات ونعم لا يتمتع بها غيره من المخلوقات حتى عالم الملائكة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾[(١)].

إن الاستخلاف يعني أن الإنسان وصي على هذه البيئة لا مالك لها، فهو مستخلف على إدارتها واستثمارها وإعمارها وأمين عليها، ويقتضي واجب الاستخلاف بطبيعة الحال أن يتبع المخلوق ما يأمر به مالك هذه البيئة وخالقها ومستخلفه فيها، ويقتضي واجب أمانة الاستخلاف أن يتصرف فيها تصرف الأمين فيما لديه من أمانات، فالأرض أرض الله، والعباد عباد الله. فهي ليست ملكية مطلقة في الإسلام، بل هي محددة بضوابط وشروط حددها الله سبحانه وتعالى، منها حسن استغلالها وصيانتها والمحافظة عليها من أي تدمير أو تخريب.

كما أن الاستخلاف بالقياس الزمني استخلاف مؤقت، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾[(٢)]. وهذا يعني أن البيئة بمواردها الطبيعية المختلفة لا تعتبر ملكاً خالصاً لجيل

---

(١) يونس ١٠١.

(٢) البقرة ٣٦.

من الأجيال يتصرف فيها كيفما شاء، ولا يستطيع أي جيل أن يدّعي لنفسه هذا الحق، وإنما هي ميراث البشرية الدائم تتوارثه الأجيال المتعاقبة والمتلاحقة، ومن ثم يقتضي واجب الاستخلاف أن نحافظ على البيئة دون تدمير أو استنزاف لنورثها للأجيال القادمة بيئة سليمة قادرة على العطاء كما خلقها اللّه سبحانه وتعالى، ومن هذا المنطلق يعتبر سوء استغلال موارد البيئة واستنزافها لحساب جيل معين على حساب الأجيال القادمة أمراً ينهي عنه الإسلام، كما أن فيه مخالفة صريحة لمعنى الاستخلاف.

إن حسن استغلال البيئة عبادة، والمحافظة عليها وصيانتها لتستمر إلى ما شاء اللّه كي تنتفع بها البشرية كافة، وذلك حتى يرث اللّه الأرض ومن عليها عبادة أيضا. كما أن إماطة الأذى عن الطريق عبادة، وعدم تلويث الماء والهواء عبادة، وحسن استعمال المرافق العامة والخاصة من طرق ومياه وكهرباء والمؤسسات المختلفة من مدارس ومستشفيات ومصانع وغيرها بأسلوب راشد عاقل عبادة، وهذه السلوكيات الإسلامية البناءة في التعامل مع مكونات البيئة الطبيعية والمشيدة أمر من اللّه سبحانه وتعالى.

وليس ثمة شك أن حسن استغلال مكونات البيئة الطبيعية والمشيدة وصيانتها فيه نفع كبير للبشرية كافة، وأن سوء استغلالها والعمل على سرعة استنزاف مواردها فيه ضرر بالغ للبشرية جمعاء، وهو في نفس الوقت كفر بأنعم اللّه والعياذ باللّه، ولا ريب أن الكفر بأنعم اللّه مدعاة إلى المآسي والكوارث والجوع والخوف، ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اللّه مَثَلًا

قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾[١].

كما أن استغلال موارد البيئة لتحقيق منفعة ذاتية ومؤقتة على حساب الإضرار بهذه الموارد وإفسادها واستنزافها يعتبر أمراً منهياً عنه في الإسلام انطلاقاً من القاعدة الفقهية الإسلامية (درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة)، وتعني أنه لا جلب لمفسدة على حساب تفعيل المنفعة. وهذا ما بدأ العالم الغربي يدركه مؤخراً في السبعينات من هذا القرن كوسيلة مهمة لحماية البيئة وصيانتها عندما طرح فكرة (تقويم المردود البيئي)، ويصطلح عليها بالإنجليزية (Environmental Impact Assesment LIA) عند استغلال موارد البيئة، ويعني هذا المفهوم ضرورة تقييم تأثير أي مشروع على البيئة، فإذا تبين أن له تأثيراً ضاراً أو مفسد لعناصر البيئة يتم تعديله لتفادي هذا الضرر أو هذه المفسدة، وإذا لم يتحقق ذلك يلغى المشروع من منطلق أن المحافظة على موارد البيئة مقدمة ومفضلة على المنفعة الاقتصادية التي كثيراً ما تكون مؤقتة. فالمحافظة على البيئة من المقومات الأساسية والضرورية لإنجاح مشروعات التنمية واستمرارها، ومعنى هذا أن فكرة تقويم المردود البيئي التي تعكس فلسفة القاعدة الفقهية الإسلامية سالفة الذكر « درء المفسدة ... » تؤكد أصالة الفكر الإسلامي في صيانة البيئة وحمايتها [٢].

---

(١) النحل ١١٢.

(٢) دراسة منشورة على الموقع الإلكتروني: www.islamset.com، وتاريخ دخول الموقع هو: ١١ سبتمبر ٢٠٠٧.

لما كانت البيئة مسخّرة بجميع عناصرها لخدمة الإنسان وحتى يقوم بمهمة خلافته لله تعالى في أرضه، فإنه بذلك يمتلك وصاية في إدارتها والانتفاع منها وحمايتها حتى لا تصبح غير صالحة لخدمة بسبب إفساده واعتداءاته؛ لذلك تعيّن عليه أن يتعرّف على ما تستلزمه هذه الوصاية على نحو أكثر تفصيلاً.

وبذلك فإن الإنسان يعتبر جزءاً من هذا الكون الذي تكمّل عناصره بعضها بعضا، ولكنه جزء متميز وله موقع خاص بين أجزاء الكون، حيث تتمثل صلته بالكون مما يعبر عن صورة خلافته الإيجابية كما يذكرها عبد الله شحاته في كتابه (رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة) بما يلي:

- صلة التأمل والتفكير والاعتبار في الكون وما فيه.
- صلة الاستثمار المتوازن الحافظ، والانتفاع والتعمير، والتسخير لمنافعه ومصالحه.
- صلة العناية والرعاية؛ وذلك لأن أعمال الإنسان الصالحة غير محدودة بمصلحة الإنسان وحده، بل تمتد إلى مصالح خلق الله أجمعين، فخير الناس أنفعهم للناس، وفي كل كبد رطبة أجر.

ويقرر من جانب آخر بأننا كبشر لم نخلق عبثا؛ إذ أن كل الأشياء في الكون مخلوقة لعبادة رب واحد، يرزق بعضها بواسطة بعض، وهو

الذي يسيّر الدورة الرائعة بين الموت والحياة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللّه فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللَّه فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ × فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ × وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ × وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ × وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ (١).

فالمقصود من خلق كل المخلوقات هو عبادة رب العالمين عن طريق أدائها الوظائف المقدرة لها من نفع بعضها بعضاً، مما يؤدي إلى تكافل كوني شامل، ومن ثم فإن مصلحة الخلق كافة أصل يمتد في تنسيق الكون، كما أنه لازم مهم لتوحيد العبودية؛ وذلك لأن عبادة رب العالمين إنما تتحقق بأداء الأعمال الصالحة التي من شأنها تحقيق مصالح الخلق أجمعين، ثم إن حق الاستثمار والانتفاع والتسخير الذي شرعه اللّه للإنسان يقابله بالضرورة واجب يقتضي المحافظة على كل الموارد الطبيعية كماً وكيفاً (٢).

---

(١) الأنعام ٩٥ – ٩٩.

(٢) شحاته – عبد الله، رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة، ط: ١، ١٤٢١ – ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة – مصر، ص ١٧.

إن الإنسان مستخلف على إدارة الأرض وفقا لمقاصد خالقها لاستثمارها لنفعه ولنفع غيره من الخلق، ولتحقيق مصالحه ومصالحهم جميعاً؛ وهو تحقيقاً لذلك أمين عليها فيجب أن يتصرف تصرف الأمين في حدود أمانته، ولكنه في مجموعه لن يشكل صورة للخلافة الإيجابية في الأرض، ويتضح من خلال تقييم سلوكه في علاقته مع البيئة كعنصر مؤثر فيها التصنيف على مجموعتين نتعرض لهما ضمن المحور التالي.

ثالثاً - تقييم تفاعل الإنسان كعنصر مؤثر مع البيئة:

إذا ما قيّمنا الإنسان كعامل مؤثّر في بيئته لنتعرف على دوره في استغلال مواردها، فإننا يمكن أن نقسّمه بصفة عامة إلى مجموعتين هما:

- مجموعة الإنسان الإيجابي: وهو الذي يملك القدرات والكفاءات العلمية والتقنية التي تمكنه من استغلال موارد بيئته استغلالاً جيداً، خاصة إذا ما أتقن هذا التفوق العلمي عند الحدود الآمنة، وهي الحدود التي تصون البيئة وتحافظ عليها.

- مجموعة الإنسان السلبي أو المدمّر لبيئته من خلال تخلفه: حيث تقف قدراته المحدودة دون استغلال موارد بيئته استغلالاً رشيداً، حيث نراه كثيراً ما يعجز عن مواجهة تحديات البيئة الطبيعية، فيخضع ويستكين عن تخلف وجهل لحتمية البيئة الطبيعية، والتي يأتمر بأمرها، ويخضع لتقلباتها مما يعرضه لكثير من المشكلات وخاصة مشكلة نقص الغذاء.

وقد يكون الإنسان متقدماً، ولكن من خلال نظرته وطموحه الأناني يسيء أيضا إلى بيئته وبيئة غيره من خلال الإفراط في استغلال موارد البيئة بما يهدد بسرعة نفادها واستنزافها، وهو سلوك منهي عنه في الإسلام الذي يحرص على حماية الموارد وصيانتها وحسن استغلالها.

ومن هذا المنطلق فإن البيئة (المشيّدة) تتفاوت من منطقة إلى أخرى تبعا لدرجة إيجابية الإنسان وسلبيته من ناحية، ودرجة استجابة الطبيعة للجهد المبذول من الإنسان من ناحية أخرى. ومن هنا اختلفت البيئات البشرية بين بيئة الجمع والالتقاط، وبيئة الصيد، وبيئة الزراعة البدائية، وبيئة الرعي البدائي، وبيئة الزراعة المتقدمة، وبيئة الرعي المتطوّر، وبيئة الصناعة وغيرها [١].

وأرى أنه وفقا للتشعبات التي تناولنا بيانها فيما سبق في التنظير لمفهوم البيئة من المنظور الإسلامي، أن المفهوم الأسمى والأرقى لهذا المفهوم من المنظور الإسلامي هو الذي يقرر أن البيئة بما تضمنته ما هي إلا أمانة استودعها الله الإنسانية، وأن الإنسانية عليها أن تحافظ على هذا الأمانة لمصلحة معيشتها وبقائها وخلافتها في الأرض عبر الأجيال، كما أن الأمة المسلمة باعتبارها أمة خاتمة وصل إليها نداء الله سبحانه وتعالى الخالق لهذه البيئة عليها أن تنقل الحقائق التي عرضها لها المولى عز وجل في كتابه إلى مختلف المجتمعات الإنسانية، وأن تبذل أقصى

---

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان – رؤية إسلامية، ط: ١، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، العاصمة – الكويت، ص ٢١.

الجهود تحقيقاً لذلك قياماً بوظيفتها التي كرّمها الله تعالى بها والمتمثلة بالبلاغ المبين.

إن مفهوم البيئة من المنظور الإسلامي يقرر أنه من الضرورة بمكان أن تنطلق الشعوب الإسلامية نحو فهم جاد، وواقع عملي محسوس يخلق قدوة في المجتمع الدولي في المحافظة على البيئة. كما عليها أن تكون مبادرة نحو سائر الاتفاقيات والمعاهدات المعنية بحماية البيئة التي من شأنها أن تحفظ الأمانة، وذلك إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

الفصل الثالث

العلاقة بين الإنسان والبيئة

الفصل الثالث

العلاقة بين الإنسان والبيئة

إن الإنسان هو العنصر البيئي الوحيد القادر على إحداث تغيير في البيئة يؤثر في توازنها الطبيعي، وذلك بما أوتيه من الإرادة الحرة التي تغير اتجاه الأحداث، ومن القدرة على تنفيذ تلك الإرادة، في حين تسير كل الكائنات الأخرى وفق غائية بيئية مرسومة لا تملك إلا أن تنخرط في مسارها العام. ومن أهم الموجهات لتلك الإرادة الحرة في الإنسان التي يمكن أن تحدث التغيير البيئي ما يحمله من تصور ثقافي لحقيقة البيئة.

إن الإنسان يحمل من بين كل كائنات البيئة تصوراً ثقافياً لعلاقته بها، سواء كان ذلك التصور دينياً أو فلسفياً أو أسطورياً، وهو تصور يتحدد فيه مدى الاتصال بينه وبينها في حقيقة كل منهما، كما يتحدد فيه الدور الذي يكون للبيئة في أداء الإنسان للمهمة التي يقوم بها في حياته، والمسئولية التي تكون عليه إزاءها مترتبة على مدى ذلك الاتصال وطبيعة ذلك الدور. فمجمل هذه العناصر في علاقة الإنسان بالبيئة تُعتبر موجّهاً أساسياً لفعله فيها، وتتوقف طبيعة ذلك الفعل سلباً وإيجاباً على ما تكون عليه تلك العناصر من تقدير في التصور الثقافي.

وكما كان لتصور هذه العلاقة بين الإنسان والكون أثر بين في تعامل الحضارات السابقة مع البيئة وأثرها فيها، فإن هذا التصور كما هو في

الفلسفة الحديثة والمعاصرة التي انبنت عليها الحضارة الغربية كان له هو أيضاً أثر بالغ في توجيه هذه الحضارة من حيث تعاملها البيئي، بحيث يمكن القول إن الأزمة البيئية التي انتهت إليها هذه الحضارة هي في شطر كبير منها نتيجة تصور لعلاقة الإنسان بالبيئة ترسخ في ثقافة الغرب، ومن ثمة فإن التعامل مع هذه الأزمة بالتحليل أو بالمعالجة لا يمكن بحال إلا أن يقوم من بين ما يقوم على فحص هذا التصور وتقويمه، ثم على تغييره وإصلاحه.

وفي الثقافة الإسلامية يقوم تصور لحقيقة العلاقة بين الإنسان والبيئة كونته في الأذهان تعاليم القرآن والحديث، وكان من بين الموجهات المهمة للسلوك البيئي في الحضارة الإسلامية. وفي هذا التصور الإسلامي من التميز في أسسه وفي بنيته ما يمكن من طرحه بجدارة في ساحة الحوار الحاصل في قضية الأزمة البيئية الراهنة ليكون بديلاً للتصور الفلسفي الذي كان من أسباب نشوء هذه الأزمة، وذلك لما يجنب في التصرف البيئي من الآثار الضارة التي أفضى إليها التصور الثقافي الغربي للعلاقة بين الإنسان والبيئة، حيث يقوم التصور الإسلامي في هذا الخصوص على تقرير صلة بين الإنسان والبيئة الطبيعية ترتقي إلى درجة أن تكون ضرباً من الوحدة بينهما ذات جانب مادي وجانب روحي، ولكن في ذات الوقت ينفسح فيها مجال لتميز معنوي يرتفع به الإنسان في قيمته على سائر مكونات البيئة، كما يقوم على تقرير دور للبيئة في قيام الإنسان بمهمته في الحياة التي خُلق من أجلها، وهو دور هُيِّئت في أصل طبيعتها لتقوم به حسبما تتطلبه تلك المهمة، وهو الدور المعبر

عنه في التصور القرآني بالتسخير، ومن هذا وذاك ترتب أن يقوم ذلك التصور على تقدير لمسئولية الإنسان إزاء البيئة من حيث الالتزام المادي والأخلاقي نحوها فيما له هو منها وما لها هي عليه، ضبطاً للعلاقة بين الطرفين في جانب مسئولية الإنسان على البيئة بمقتضى التكليف المبني على العقل، إذ هي لا يتصور في جانبها مسئولية.

وبذلك فإن هناك تصور لطبيعة هذه العلاقة يقوم فيما يقوم عليه في منظور الدين على أمرين هما: الوحدة والتسخير، كما أن من الضرورة بمكان في تحديد صورة وتكوين هذه العلاقة وما إذا كانت تقوم على مبادئ وقواعده ومقتضياته أم لا. ومن جانب آخر فإن لهذه العلاقة أبعاداً ومقتضيات تنطلق من خلال ما تقوم عليه مرتكزات العلاقة، وهي ذات دور في صناعة السلوك البيئي للمجتمع الإنساني.

المبحث الأول

طبيعة العلاقة

يصف عبد المجيد طريباق علاقة الإنسان بالبيئة من حوله فيما كانت عليه وما وصلت إليه في الواقع المعاصر، وما ستؤول إليه في المستقبل، وما ينبغي أن تكون عليه من انضباط بمقاصد التسخير فيقول: (لقد جبل على الإقبال عليها للأكل من شجرتها بغية ملك أو خلد، ولو كان له منها واديان لما اكتفى، يشفي غليل نفسه من خيراتها، ناسيا أنها حليب رضاع ينضب مورده بمصة أو مصتين، وتراعى فيه أخوة الرضاعة بين الجيل والجيلين، وأن الله لم يبسط فيها الرزق للعالمين. لم يستفق إلا وهي تتنكر له، وترفض مجاراته فيما ألف، تضيق به ويضيق بها، في تنفس هوائها أو شرب مائها أو التملي في جمال خلقها، أو التوسع في عمارتها، أو استنبات تربتها. إنه نزع ملكية صامت من النوع البشري الذي ألف الغذاء والمأوى والكساء. ورغم ما يملكه اليوم من وسائل الترميم البيئي فإنه يحس أن أجزاء من بساط التسخير تسحب تدريجيا من تحت كرسي الاستخلاف الذي يتربع عليه. إن عطاء الأرض غير محدود فيما خلق له، وهو جد محدود فيما لم يخلق له، وكل استعمال ينافي فطرة الخلق ومقاصد التسخير يجر ممانعة في الانقياد للنفع تمليها سنن في أصل وظائف الخلق ومقتضيات الشكر لرب الخلق. لقد كانت نبرة الصحوة في البداية بيئة طبيعية، فصارت بيئة عمرانية، ثم صارت بيئة اجتماعية

واقتصادية، ثم بيئة تشريعية ومؤسساتية، ثم صارت بيئة ثقافية، ولن تقف حتى تمتزج بالبعد العقدي الذي تتطابق فيه أعمال الإنسان وتصوراته عن الكون والحياة والوجود كله. وكل الإنسانية اليوم تستدير نحو المعتقدات والثقافات المحلية مسائلة إياها عن أي مساهمة تحتضن الإشكالات البيئية، وترد العلاقة بين الإنسان والبيئة إلى وضعها الطبيعي) [١].

إن الكشف عن طبيعة العلاقة وحقيقتها بين البيئة والإنسان تنطلق من خلال معرفة صلة الوحدة بين الإنسان والبيئة، وما يتصل بتسخير هذه البيئة للإنسان، حيث أن معرفة محاور هذين الأساسين اللذين تقوم عليهما العلاقة من شأنه، وأن يوجّه التصرف البيئي وجهة أخرى مخالفة لما هو عليه الأمر الآن في التصرف البيئي للحضارة الغربية الموجّه من التصور الثقافي الذي قامت عليه تلك الحضارة، وهو أمر يتبين بالتحليل المنطقي لما تفضي إليه في الواقع من تصرفات بيئية عناصر ذلك التصور كما رسمتها تعاليم القرآن الكريم والحديث الشريف، ويتبين أيضاً من واقع التجربة الحضارية الإسلامية في سلوكها البيئي كما وجهته عناصر تلك الصورة، كما يتدعم ذلك الأمر بالمقارنة بين الحضارات وخصوصاً منها الإسلامية والغربية فيما أفضت فيه منطلقاتها الثقافية في هذا الخصوص إلى النتائج العملية في التصرف البيئي.

---

(١) طريباق – عبد المجيد، منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة، مرجع سبق ذكره.

أولاً - عنصر الوحدة :

إن التصور الإسلامي كما يذكر محمد محمود السرياني لعلاقة الإنسان بالبيئة يقوم على افتراض أن الإنسان والبيئة يرتبطان بوحدة قوية، وليسا بحال من الأحوال أمرين منفصلين عن بعضهما، أو مضادّين لبعضهما، فالإنسان واحد من بين الموجودات البيئية الكثيرة، وإن اتصف بصفات خاصة متميزة، إلا أنه يندرج ضمن سائر المكوّنات البيئية الكثيرة (١).

ويؤكد عبد المجيد النجار بأنه من خلال استقراء نصوص الكتاب والسنة في عرضهما للعلاقة بين الإنسان والبيئة يتضح أن الطرفين يرتبطان في وجودهما بوحدة قوية وليسا بحال من الأحوال أمرين منفصلين عن بعضهما أو مضادين لبعضهما، حيث يتّحد معها كلها ليشكل الجميع الهيئة البيئية الكبرى التي تمثلها جميع العناصر المحيطة بالإنسان من مفردات وأنظمة في انسجام وتوافق لا يكون فيه أي نوع منها بما في ذلك الإنسان غريباً عن مجموعها، وكأنما هو قادم إليها من خارجها، وخاضع لطبيعة غير طبيعتها، بل الجميع مشمول بنفس الطبيعة خاضع لنفس النظام مهما يكن من ترتبها ترتيباً قيمياً في درجات أعلى درجة منها يحتلها الإنسان لخصائص تكوينية فيه تميز بها عن غيره من كائنات البيئة ولكن في نطاق الوحدة الشاملة للجميع.

---

(١) السرياني – محمد محمود، المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٣ .

إنها إذاً وحدة بين الإنسان والبيئة الطبيعية مع تميز قيمي للإنسان في نطاق تلك الوحدة تمثل خطاً بيناً في التصور الإسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة ستكون له آثار سلوكية في الوجهين على نحو ما نفصّله تالياً من مظاهر تلك الوحدة ونطاق ذلك التّميّز وما لهما من أثر سلوكي بيئي، مقارنة في ذلك بتصورات مخالفة وآثارها السلوكية.

«١» وحدة الإنسان والبيئة:

تتجلى الوحدة بين الإنسان والبيئة كما يصورها القرآن الكريم والحديث الشريف ويحرصان على إبرازها في مظاهر عديدة ترجع في معرض تعددها إلى مظهرين أساسيين: وحدة ذات طبيعة مادية، ووحدة ذات طبيعة روحية وجدانية.

١- **الوحدة المادية** : إن الإنسان على ما يبدو عليه من تميز على سائر الموجودات البيئية في الشكل والمظهر وفي خاصية الإدراك والقدرة على التصرف حينما يُنظر إليه من جهة التكوين المادي يتبين أنه ينخرط في وحدة مادية مع تلك الموجودات، حيث تظهر فيما يشمل الجميع من وحدة في عناصر التكوين ووحدة في القانون المنظم لتلك العناصر في حركتها.

• **وحدة العناصر** : فمن حيث وحدة العناصر بين الإنسان والبيئة يقرر القرآن الكريم أن الإنسان يوجد من نفس العناصر التي تتكون منها الموجودات البيئية الجامدة والحية، فحينما يُقارن بما على الأرض من جمادات يتبين على ما يبدو في الظاهر من تناقض بينه وبينها أن أصل

تكوينه ليس إلا مما تكون هي منه معبراً عنه في القرآن الكريم بالتراب الذي يرمز إلى عناصر المعادن التي تتكون منها كل مفردات البيئة على اختلافها كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ﴾[1]. وحينما يُقارن بما على الأرض من مظاهر الحياة يتبين أن وحدة في التكوين جامعة بينه وبينها من أهم عناصرها عنصر الماء كما عبر عنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ﴾[3].

وكما تربط الإنسان بالبيئة وحدة مادية في عناصر التكوين، فإنه تربطه معها وحدة مادية في الكيفية التركيبية لتلك العناصر، فقد رُكبت الموجودات البيئية كلها بما فيها الإنسان بكيفية التزاوج كما يثبته قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾[4]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾[5].

ويبلغ البيان القرآني أوجه في الدلالة على الوحدة المادية بين الإنسان والبيئة في قوله تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾[6]. فالتعبير بالإنبات من الأرض هو تعبير يوحي بوحدة العنصر بين الإنسان وكل ما ينبت من الأرض متمثلة في إنشاء الإنسان مثل جميعها

---

(١) الحج ٥.
(٢) الأنبياء ٣٠.
(٣) النور ٤٥.
(٤) الذاريات ٤٩.
(٥) يس ٣٦.
(٦) يس ٣٦.

من عناصر الأرض، ووحدة الكيفية بينها متمثلة في نشوء بعضها من بعض وفق دورة تشملها جميعاً، فاللّه تعالى أنبت الكل من الأرض لأنه تعالى إنما يخلقنا من النطف وهي متولدة من الأغذية المتولدة من النبات المتولد من الأرض.

• **وحدة القانون** : تتمثل هذه الوحدة فيما ينتظم الإنسان والمكونات البيئية جميعاً من قانون موحد يمثله تدبير الله سبحانه وتعالى لتوازنها في نطاق موزون تخضع له جميعاً دون أن يند عنه شيء منها، وذلك سواء في أصل نشوئها، أو في سيرورتها أثناء وجودها، أو في انتهائها إلى مصيرها.

ففي أصل وجودها تخضع مكونات البيئة جميعاً بما فيها الإنسان لقانون العلية الذي تنشأ فيه جميعاً بعضها من بعض على سبيل السببية وفق التقدير الإلهي، وذلك دون أن يكون أي منها خارجاً عن تلك الدائرة، ناشئاً من ذاته بدون سبب، فالإنسان الذي يُظن في الظاهر باعتباره خليفة بأمر الله تعالى في أرضه لما يشتمل عليه من عنصر الروح أنه ربما كان بسبب ذلك نابتًا في خلقه باستقلال ليس في حقيقته إلا مخلوقاً من أدنى تلك الموجودات وهو العلق، كما جاء في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾[1]. ولما كانت هذه الآية هي أول ما نزل من القرآن الكريم فإنها تكون بالغة الدلالة في لفت الانتباه ثقافيًا إلى السببية قانوناً تجري وفقه كل الموجودات البيئية بما فيها الإنسان.

---

(١) العلق ١ – ٢.

وفي أثناء وجودها تخضع الموجودات البيئية كلها بما فيها الإنسان لوحدة تكامل وجودي تحتاج فيه لبقائها ونموها إلى بعضها بعضاً في شبكة بالغة التعقيد لا يفلت منها أي موجود بيئي ليكون مستقلاً في وجوده عن غيره بأي وجه من وجوه الاستقلال، وهو ما يشير إليه قوله تعالى في توقف الحياة على عنصر الماء: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[1]. وعلى ذلك تُقاس كل الموجودات البيئية في توقف بعضها على بعض، وفي سيرورتها تخضع الموجودات البيئية كلها لقانون الحركة والتغير الذي تكون به جميعاً منقلبة في كل لحظة من لحظات الزمان من حال إلى حال دون توقف أي منها في نقطة استقرار وثبات، مهما تكن تلك الحركة الانقلابية ظاهرة للحواس أو خفية عنها، فالجبال كرمز للمادة البيئية الجامدة على ما تبدو عليه في الظاهر من استقرار ليست في حقيقتها إلا متحركة حركة دائبة لا تتوقف ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾[2]. والنبات يعتبر رمزاً للكائنات الحية على الأرض يكون في حركة دائبة أيضاً لا تتوقف، فالله تعالى يُجري الماء ﴿ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا﴾[3]. وكذلك الأمر بالنسبة للإنسان، فالله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا ﴾[4]. إنه قانون الحركة والتغير الذي يوحد الإنسان وكل الكائنات البيئية.

---

(١) الأنبياء ٣٠. (٢) النمل ٨٨.

(٣) الزمر ٢١. (٤) غافر ٦٧.

وفي نهايتها تخضع جميع الكائنات البيئية بما فيها الإنسان إلى قانون موحد هو قانون الفناء الذي يأتي عليها جميعاً، فلا يبقى منها شيء على ظهر الوجود أفراداً وأنواعاً، وإن اختلفت آجالها قصراً وطولاً فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾[1]. يتساوى في ذلك الإنسان مع كل مفردات البيئة، وإن اختلف عنها فيما بعد ذلك الهلاك من بعث وحساب، وبذلك يتبين أن التصوير القرآني للوحدة بين الإنسان والبيئة جاء تصويراً مؤكداً في مظاهر متعددة ومقامات مختلفة، وهو فيما يبدو عليه في ظاهره من وضوح قد لا يستحق مثل ذلك التأكيد المكرر يبين عن قصد قرآني تربوي سلوكي في التعامل البيئي سنبينه بعد حين.

«٢» الوحدة الروحية:

ليست الوحدة التي يثبتها القرآن الكريم بين الإنسان والبيئة بمقتصرة على الوحدة المادية، بل هو يتعدى بها إلى وحدة بينهما ذات بعد روحي، وذلك بما يصور من رابطة للإنسان بالموجودات البيئية تجعله يشعر كأنما هو من القرب منها وهي من القرب منه من الناحية الوجدانية، بحيث تتكون منهما وحدة جامعة من الأخوة والمحبة والرأفة والتوافق النفسي، فهذه المعاني كله يحرص القرآن الكريم على بثها وإبرازها في صلة الإنسان بالبيئة بأساليب مختلفة، وفي مقامات متعددة سواء بصفة مباشرة أو غير مباشرة، بحيث يستقر في الذهن من مجملها صورة عن هذه الصلة تتضمن معنى من الوحدة الوجدانية

---

(١) القصص ٨٨.

الروحية تتجاوز تلك الوحدة المادية الجافة متمثلة في وحدة العناصر ووحدة القانون. ويتكون هذا المعنى المتضمن للوحدة الروحية من جملة من العناصر لعل من أهمها ما يلي:

• **وحدة الولاء لله** : يصور القرآن الكريم كلاً من الإنسان والبيئة الطبيعية على أنهما طرف موحد في خضوعهما كليهما لنفس القدرة الخالقة لهما والحكمة المدبرة لشأنهما، فكأن بينهما إذن أخوة في هذا الشأن، إذ ينتميان كالإخوة إلى نفس السبب الموجد وإلى نفس السبب الراعي، فهما إذاً ينخرطان ضمن طرف واحد مخلوق مدبر إزاء موجود خالق مدبر لهما جميعاً، وهما لذلك يدينان له سوياً بالولاء وإن اختلفت بينهما هيئة ذلك الولاء وطبيعته وتعابيره.

ومن مظاهر هذا الولاء لله تعالى الذي يتوحد فيه الإنسان والبيئة ما يشملهما جميعاً من وحدة المأتى وفق تقدير مسبق للكم والكيف والوظيفة، فالله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾[1]. ووحدة المصير الذي ينتهيان إليه بعد تحقق الغاية من وجودهما وفق ذلك التقدير ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾[2]. وفيما بين ذلك المأتى وهذا المصير يخضعان جميعاً للتدبير الموحد من قبل الله تعالى الذي يرعاهما برحمته ويسيرهما بحكمته، فالله تعالى هو الذي ﴿ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ﴾[3].

---

(١) الفرقان ٢. (٢) المائدة ١٨.

(٣) السجدة ٥.

ومن هذه الوحدة في المأتى والمصير والتدبير بين الإنسان والبيئة تنشأ وحدة بينهما في الخضوع المشترك لمن بيده الخلق والمصير والتدبير، ووحدة في الولاء له، فكل منهما خاضع بالعبودية لله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[1]. فالإنسان كما سائر المكونات البيئية خاضعة لله تعالى، تجري عليها جميعاً قوانينه وسننه التي لا تستطيع منها فكاكاً، وهي جميعاً تمارس هذه العبودية فعلاً وتعترف بها قولاً وحالاً ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾[2]. فالتسبيح هو الاعتراف بالخضوع لله تعالى، وهو مسلك جميع الموجودات البيئية وإن اختلفت طريقة التعبير عنه بين الإنسان وغيره.

• **وحدة الوجدان** : يصور القرآن الكريم رابطة وجدانية بين الإنسان والبيئة، وهي وحدة تتمثل في عواطف مشتركة يتبادلانها بينهما، وتكون منطقة مشتركة يمتد فيها كل منهما إلى الآخر في حركة وجدانية تشبه تلك التي تكون بين بني البشر. وإذا كان هذا التصوير للوحدة الوجدانية بين الإنسان من جهة والبيئة من جهة أخرى ينحو منحى الحقيقة الواقعية في جهة الإنسان، وينحو منحى الرمزية في جهة الموجودات البيئية، فإنه على أية حال يقصد منه تأكيد تلك الوحدة في التصور الإسلامي كخط أساسي من الخطوط المكونة لعلاقة الإنسان بالبيئة عموماً، وهو خط يترتب عليه أثر تربوي عظيم في السلوك البيئي.

---

(١) مريم ٩٣.　　(٢) الإسراء ٤٤.

ومن مظاهر هذه الوحدة الوجدانية كما صُورت في القرآن والحديث في طرفي الحقيقة والرمز ما يربط بين الإنسان والبيئة من عاطفة المحبة الناشئة من وشائج القرابة بينهما، وما يترتب عليها من عواطف الرأفة والرحمة والاحترام، وقد جاء ذلك المعنى مطرداً في البيانات القرآنية والحديثية بصفة مباشرة وغير مباشرة، مما يتبين معه أن المقصود معنى أصلي في صلة الإنسان بالبيئة وليس مجرد خواطر عارضة.

ومن ذلك ما جاء في القرآن الكريم من تشبيه للأنواع البيئية المختلفة عامة، ومن الأنواع الحيوانية خاصة بالنوع الإنساني في انتظامها جميعاً أمماً كما ينتظم نوع الإنسان أممًا، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾[1]. فهذه المثلية بين الإنسان والحيوان في الأممية تتسع للعديد من العناصر المشتركة بينهما التي تلتقي كلها عند معنى القرابة بين الطرفين، وهو ما يتيح مجالاً من العاطفة الوجدانية تترتب في العادة على ما بين الموجودات من القرابة.

• **الوحدة المعرفية** : يُقدَّر في الثقافة الإسلامية كما مر بيانه أن الطبيعة حقيقة واقعية خارجية مستقلة عن الوعي الإنساني، وأن هذه الحقيقة هي حقيقة واقعية في تفاصيلها وخصائصها التي تتميز بها الموجودات في ألوانها وأشكالها وأحجامها وليست مجرد امتداد كمي يضفي عليه العقل الإنساني تلك الخصائص كما هو الأمر في

---

(١) الأنعام ٣٨.

بعض الفلسفات، كما أن هذه الطبيعة هي حقيقة واقعية أيضاً في سننها وقوانينها التي رُكبت عليها والتي تتحكم بها في سيرورتها.

ومن جهة أخرى فإن وسائل المعرفة الإنسانية عموماً والعقل منها خصوصاً مهيأة في طبيعتها بحيث تتمكن من إدراك حقيقة البيئة الطبيعية على ما هي عليه في وضعها الواقعي، وبذلك تكون عملية المعرفة إنما هي حصول لصورة الواقع الطبيعي في الذهن الإنساني، سواء في خصائصه المحسوسة أو في أوضاعه الكيفية من القوانين والأنظمة.

إن هذا المفهوم المعرفي للطبيعة كما هو مستقر في الثقافة الإسلامية هو مفهوم يجعل من الإنسان والبيئة وحدة معرفية تنضاف إلى الوحدة المادية والوجدانية؛ ذلك لأن هذا التوافق بين الوسائل المعرفية للإنسان في طرائقها الإدراكية وبين البيئة في واقعيتها وفي طبيعة تكوينها من شأنه أن يجعل بين الذات العارفة وبين الموضوع محل المعرفة ضرباً من التطابق يخلو من أي نشاز أو ترافض أو تعارض، فيبدو الطرفان إذا وحدة معرفية متكاملة كما تبدو الوحدة في التكامل بين المفتاح وبين القفل الذي صُمم على مقداره لتتم بينهما عملية الفتح في غير نشاز.

إن هذه الوحدة المعرفية هي التي عبر عنها القرآن الكريم بصفة ضمنية أو مباشرة كما يتمثل في الحث الدائب للإنسان كي يوجه حواسه وعقله إلى مشاهد البيئة الطبيعية لاستيعاب حقيقتها ما كان منها ظاهراً وما كان خفياً، وكما يتمثل في الإشارة إلى أن ذلك التمثل إنما هو داعي تقارب وانسجام بين الإنسان والبيئة، وذلك كما جاء في قوله تعالى:

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[(١)]. ففي الآية دعوة ضمنية إلى تمثل معرفي لظاهرة بيئية هي ظاهرة الرياح؛ إذ ذلك التمثل سيفضي إلى اكتشاف توافق بين هذه الرياح وبين الإنسان في مصالحه ومطالبه عُبر عنه بالبشرى وبالرحمة، من حيث قد يُظن في الظاهر حينما لا يتم ذلك التمثل لحقيقتها أنها مناقضة له، فالمعرفة بحقائق البيئة كما هي عليه في واقعها هي إذن أمر ممكن، وهي أيضاً عامل توافق وانسجام ووحدة بين الإنسان والبيئة، وذلك خلافاً لما ينتهي إليه التصور لاستعصاء البيئة عن أن تُعرف حقيقتها من شعور بالتناقض والغربة.

وقد أصبح هذا التعليم القرآني المؤسس لمعنى الوحدة بين الإنسان والبيئة في مظاهره المختلفة صورة واقعية في التصور الثقافي الإسلامي عليه انبنت الحضارة الإسلامية بأكملها، وعليه قامت العلوم والفنون وكافة مظاهر العمران، فقد كان الإنسان في هذه الحضارة يعتبر كائناً بيئياً، تُرسم له الخطط في تصريف الحياة على ذلك الأساس، وليس على أساس أنه كائن قادم من خارج البيئة فهو متصف بالغربة عنها والتضاد معها.

ولعل من أوضح ما يدل على هذا المنحى الحضاري الإسلامي في اعتبار الوحدة بين الإنسان والبيئة ما كان مستقراً في ذلك المنحى من معنى سائر يمثل فيه الإنسان بأنه العالم الأصغر، ويمثل فيه العالم

---

(١) الروم ٤٦.

الطبيعي بأنه الإنسان الأكبر، وذلك تعبيراً عن الوشائج القوية بينهما، بحيث يستجمع الإنسان الصغير خصائص العالم الطبيعي الكبير، وذلك ما كان يتردد في الفكر الإسلامي باستفاضة، وعبر عنه الراغب الأصبهاني بقوله: (جمع الله تعالى في الإنسان قوى بسائط العالم ومركباته وروحانياته وجسمانياته ومبدعاته ومكوناته، فالإنسان من حيث إنه بواسطة العالم حصل، وعن أركانه وقواه أوجد هو العالم، ومن حيث إنه صغُر شكله وجمع فيه قواه هو كالمختصر من العالم... ولكون العالم والإنسان متشابهين إذا اعتُبرا قيل: الإنسان هو عالم صغير، والعالم إنسان كبير).

ولعل من التجليات الحضارية لهذا المعنى من وحدة الإنسان والكون ما اتجهت فيه العلوم الإسلامية قاطبة الإنساني منها والطبيعي من اتجاه التواصل فيما بينها أخذاً وعطاء، بحيث يستفيد بعضها من بعض في المادة والمنهج جميعاً، وذلك بناء على ما بين الإنسان والبيئة الطبيعية من وشائج الوحدة المقتضية للتواصل العلمي، وذلك ما كان سبباً من أسباب التقدم العلمي في كل من علوم الطبيعة وعلوم الإنسان على حد سواء، فكثيراً ما كان اكتشاف حقائق في البيئة الطبيعية ملهماً لاكتشاف حقائق في كينونة الإنسان والعكس صحيح أيضاً، وقد جاء في هذا المعنى وصف ذو دلالة معبرة في كتاب الغزالي (الحكمة من مخلوقات الله).

«٢» تميز الإنسان في نطاق الوحدة البيئية:

إذا كان الإنسان في التصوير القرآني يؤلف مع البيئة الطبيعية وحدة على مستويات متعددة، فإن ذلك ليس معناه أن توزن قيمة كل منهما بمقتضى تلك الوحدة بحسب الظاهر المادي من قوة التكوين وسطوة الأفعال، فإذا الإنسان بهذا الميزان يكون أقل شأناً في قيمته من البيئة أو هو متساوٍ معها في ذلك كما يقع في بعض الثقافات، بل إن الإنسان في التصور الإسلامي هو في نطاق وحدته مع البيئة يكون متصفاً بالاستعلاء القيمي عليها، فهو الكائن الذي يتسنم الدرجة العليا من درجات السلم البيئي، بحيث يكون أعلى شأناً من مجموع البيئة الطبيعية في ميزان القيمة، وإن كان موصولاً بها في مظاهر عديدة من الوحدة.

وكما كان القرآن الكريم يحرص في رسم صورة العلاقة بين الإنسان والبيئة على إبراز خط الوحدة بينهما، فقد كان يحرص أيضاً بذات القدر على إبراز خط التميز القيمي للإنسان على البيئة، وتصويره على أنه الكائن البيئي الأعلى شأناً من سائر الكائنات الأخرى، سواء بالنظر إليها أفراداً أو بالنظر إليها هيئة جامعة. وقد كان هذا البيان القرآني لتميز الإنسان على البيئة تميز استعلاء ورفعة يعتمد عناصر متعددة لعل من أهمها ما يلي:

١. **تميز الوجود**: يبين القرآن الكريم أن الإنسان يتميز على سائر مكونات البيئة في أصل وجوده ابتداء، سواء من حيث كيفية مقدمه إلى الوجود أو من حيث وضعه بعد ذلك بين الموجودات البيئية. وأول ما

يبــدو ذلك فإنه يبدو في أول آيات القرآن نزولاً، إذ يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(١). فتخصيص الإنسان بالذكر في معرض البيان لنشأة وجوده بعد بيان نشأة الوجود كله إجمالاً فيه دلالة على التميز القيمي في أصل الوجود لهذا الإنسان المخصوص بالذكر من بين سائر الموجودات الأخرى.

وفي البيان القرآني لخلق آدم (عليه السلام) نلمس الدلالة على أن وجود هذا الكائن الجديد لم يكن حدثاً عادياً كوجود سائر الكائنات البيئية الأخرى، بل كان وجوده طفرة في سلسلة الموجودات اهتز لها الوجود كله، ومثل مرحلة جديدة في تاريخ الأرض كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٢).

وقد ظل هذا التميز الوجودي للإنسان في نطاقه البيئي مستصحباً في مسيرة حياته بعد حادثة خلقه، فهو السيد في الكون، المكرم في ذاته، المفضل على الكائنات الأخرى كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾(٣). وهو الذي من أجله تُسخر البيئة كلها في مكوناتها وأنظمتها كما يفيده قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾(٤). إنه إذا تميز للإنسان على البيئة في أصل وجوده فيها وطيلة استمراره عليها.

---

(١) العلق ١ – ٢. (٢) البقرة ٣٠.

(٣) الإسراء ٧٠. (٤) الجاثية ١٣.

٢. **تميز التكوين** : يظهر القرآن الكريم تميزاً للإنسان على سائر الموجودات البيئية في التكوين، فهو قد استجمع من عناصر التكوين في ذاته ما تفرق في الموجودات البيئية منها، بحيث انفرد بهذا الاستجماع عن كل ما سواه من الموجودات، فبالإضافة إلى استجماعه للمكونات المادية التي تتفرق في الموجودات البيئية، فإنه يستجمع أيضاً في تكوينه عنصري المادة والروح من حيث لا يستجمعها موجود غيره قط، وهو ما يفيده قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴾(١).

وبالإضافة إلى هذا التميز التكويني للإنسان في مظهره الكمي فإنه تميز في تكوينه أيضًا تميزً كيفياً، حيث تمثل فيما قُدر عليه ذلك التكوين من نِسب وأوضاع وهيئات كان بها متفوقاً على كل ما سواه من مكونات البيئة، سواء من حيث الأداء الوظيفي، أو من حيث القدرة على الانتفاع، أو من حيث الهيئة الجمالية، وذلك ما يفيده قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾(٢).

وهذا التميز التكويني للإنسان على سائر الموجودات البيئية في الكم والكيف ليس مجرد اختلاف نوعي عنها، وإنما هو تميز نشأ منه معنى من الرفعة القيمية بالنسبة لها، كما كان تميزه الوجودي سبب

---

(١) الحجر ٢٨ – ٢٩.

(٢) التين ٤.

رفعة أيضاً، وذلك ما يشير إليه أمر الله تعالى للملائكة في الآية السابقة بالسجود لآدم، فقد جاء هذا الأمر إثر بيان خلق الإنسان خلقًا استجمع عنصري المادة والروح، مما يوحي بأن ذلك السجود الدال على رفعة المسجود له إنما كان من أسبابه طبيعة ذلك التكوين المستجمع لما تفرق في الموجودات، وذلك ما أشار إليه الراغب الأصبهاني في قوله: (وكما أن كل مركب من أشياء مختلفة يحصل باجتماعهن معنى ليس بموجود فيهن على انفرادهن كالمركبات من الأدوية والأطعمة، كذا في الإنسان حصل معنى ليس في شيء من موجودات العالم، وذلك المعنى هو ما تخصص به من خصائصه التي تميز بها عن غيره).

٣ - **تميز الوعي** : لعل هذا المظهر من تميز الإنسان على البيئة هو أقوى ما يرفع من قيمته إزاءها، فهو قد خُص من بين جميع الكائنات البيئية بالوعي العقلي الذي به يكون التمثل المعرفي لما وراء المحسوس، والمقارنة بين المتماثلات والمتناقضات والحكم عليها، وربط الحاضر بالماضي والمستقبل للاعتبار والتخطيط، من حيث لم يتصف أعلى الكائنات البيئية في هذا الخصوص بأكثر من الوعي الغريزي الذي يكون به تلبية الحاجات المادية في الآن من لحظات الوجود أو لما هو قريب جداً منها.

وبهذا الضرب من التميز يمكن للإنسان أن يتمثل الوجود البيئي تمثلاً معرفياً يصبح فيه هذا الوجود ماثلاً في الذهن الإنساني بصورة تحاكي صورته الواقعية في الخارج، فإذا ذلك المثول يجعل الإنسان قادراً على أن يكون مشرفاً إشرافاً مادياً ومعنوياً على البيئة في عناصرها وفي

قوانينها، فيستثمر تلك العناصر والقوانين فيما ينمي وجوده ويعينه على أداء مهمته، فيثبت في الواقع بهذا الوعي رفعة الإنسان في قيمته على البيئة لإشرافه عليها بالتمثل المعرفي، وتسخيرها لمنافعه بهذا التمثل.

ومما يشعر في القرآن الكريم بتميز الإنسان عن سائر الموجودات عامة والبيئية خاصة بصفة الوعي فيه ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾(١). فهذا الوعي المعرفي الذي خُص به آدم معبراً عنه بتعليم الأسماء ورد في سياق بيان المهمة التي خُلق من أجلها الإنسان، وهي مهمة الخلافة في الأرض التي استشكل الملائكة في القدرة على انتهاج منهج الصلاح في الأرض وغلبوا الظن بأنه سيكون مفسداً فيها، فجاء الجواب القرآني مبيناً كفاءة الإنسان في أن يكون خليفة في الأرض بتوفره على عنصر مهم من عناصر الإصلاح في الأرض، وهو عنصر التمثل المعرفي لهذه الأرض وما عليها، فقد وردت إذاً خاصية هذا التمثل مورد التمييز لمرتبة الإنسان بين الموجودات، والإعلاء من مقامه فيها.

يتبين إذاً أن البيان القرآني لصلة الإنسان بالبيئة فيما يخص العلاقة الوجودية بينهما يقوم على معادلة دقيقة ذات طرفين: وحدة بين الإنسان والبيئة من جهة متمثلة في مظاهر متعددة، وتميز للإنسان عليها تميزاً قيمياً من جهة أخرى متمثلاً أيضاً في مظاهر متعددة، وقد جاء وصف القرآن الكريم لهذه المعادلة على قدر كبير من الدقة التي

---

(١) البقرة ٣١.

قد تخفى على الكثير من النظار، بحيث قد يذهب الظن ببعضهم إلى تصور وحدة تبلغ مبلغ المساواة بين الطرفين، أو يذهب الظن بآخرين إلى تصور رفعة للإنسان تنقطع به عن صلة الوحدة مع البيئة، والحقيقة أن المتأمل بعمق في علاقة الإنسان بالبيئة كما وردت في التقدير القرآني بالجمع بين السياقات والمقامات التي ورد فيها ذلك التقدير يتبين في جلاء أنها علاقة تقوم على معادلة بين الوحدة والتميز القيمي، وهو ما يتضمنه قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴾[(١)]. فالخلق من التراب هو طرف الوحدة مع البيئة في المعادلة، والوصف بالبشرية ثم بالانتشار هو طرف التميز القيمي عليها بما يتضمنه وصف البشرية من معنى القوة الإدراكية، وما يتضمنه وصف الانتشار من معنى الحركة في البيئة الأرضية والتصرف فيها، وكأنما الفجائية الرابطة بين طرف الوحدة وطرف الرفعة والمعبر عنها بحرف، إذ تشير إلى ما جعل الله من معادلة بين الطرفين تنفي ما قد يقع في الأذهان من ميل إلى أحدهما ميلاً يُلغَى به الآخر، فهي تثبت في تصور علاقة الإنسان بالبيئة المعادلة بين الوحدة والرفعة، وتنفي ما قد يسبق من وهم بتصور منفرد لأحد الطرفين كما وقع في كثير من الثقافات[(٢)].

٤- **تميز التكليف** : لم يكن التمييز للإنسان في نطاق الوحدة البيئية تميز وجود حيث لم يكن وجوده أمرا عادياً كوجود سائر الكائنات البيئية فحسب، كما أنه لم يقتصر في التميز في التكوين عن كل ما سواه

---

(١) القصص ٨٨.

(٢) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

من الموجودات البيئية، وذلك باحتوائه على عنصري المادة والروح، حيث لا يتميز بهذه الميزة وحده دون غيره، حيث يشاركه في ذلك الحيوان غير الناطق، وحتى بالنسبة للتميز في المظهر والأداء فهو غير مقصور عليه، حيث أن إتقان الصنعة من الله تعالى تأتت كل الأمور التي أبدع في خلقها الله سبحانه وتعالى، وحتى التميز بالخصوصية العقلية فإن مدارها التميز في التكليف وليس في التمثل المعرفي لما وراء المحسوس، والمقارنة بين المتماثلات والمتناقضات والحكم عليها.

إن تميز التكليف وفق ما أرى هو أهم ما يميّز الإنسان عن سائر المخلوقات معه في البيئة، حيث لا يشاركه أحد في هذه المزية، فهو منفرد بها ومكلّف بالعبادة التي منها رعاية البيئة والرفق بها؛ ومن أجل ذلك بعث الرسل (عليهم السلام)، وأنزلت الكتب التي فيها التكليفات، وذلك حتى خُتمت بالرسالة المحمدية التي اختصها المولى عز وجل بمعجزة القرآن الكريم، حيث احتوى كتاب الله تعالى على استعراض دقيق للهندسة البيئية التي تمثلها عملية التفاعل بين العناصر البيئية في إتقان، وجاء التكليف بالتفكر والرعاية لما يحيط بالإنسان في خطابات متعددة، ولكن ما يقرر ويؤكد اختصاص الإنسان دون سائر المخلوقات في البيئة الكونية بهذه المزية ما ورد في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾[١].

---

(١) القصص ٨٨.

وفي معنى الأمانة التي عرضها الله تعالى على أعظم مخلوقاته جرماً في البيئة المحيطة بالإنسان من السماوات والأرض والجبال أورد المفسّرون ما يقررون به ضمنا في معناها التكليف، حيث ذكر ابن عطية بأن هناك فرقة من الجمهور ذكرت بأن الأمانة تتمثل في كل شيء يؤتمن الإنسان عليه من أمر ونهي وشأن دين ودنيا، فالشرع بذلك كله أمانة، حيث التزم الإنسان القيام بحق الأمانة، وهو بذلك ظلوم لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأويل ابن عباس (رضي الله تعالى عنه) (١).

كما ذكر صاحبا تفسير الجلالين بأن الأمانة هي الصلوات وغيرها مما في فعلها من الثواب وتركها من العقاب، حيث عرضها الله تعالى على السماوات والأرض والجبال بأن خلق فيها فهماً ونطقاً، إلا أنها خافت من حملها، وحملها الإنسان وهو آدم (عليه السلام)، حيث كان ظلوماً لنفسه بما حمله جهولاً به (٢).

وقد حيث ذكر السعدي في تفسيره بأن رفض المخلوقات قبول

---

(١) ابن عطية – أبي محمد عبد الحق الأندلسي، تفسير ابن عطية – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: الرحالة فاروق وآخرون، ط: ٢، ١٤٢٨ – ٢٠٠٧، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة – قطر، ج ٧، ص ١٥٢.

(٢) المحلي – جلال الدين محمد بن أحمد و السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، ت: صبري محمد موسى ومحمد فايز كامل بإشراف أبو الخير – علي، ط: ٣، ١٤٢٣ – ٢٠٠٢، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ص ٤٢٧.

الأمانة المعروضة عليهم لم يكن عصياناً للرب، ولا زهداً للثواب [١].
إنما يرجع ذلك إلى أن الله تعالى لم يختصها بأداة التكليف حتى تقبله، كما أن في الآية دلالة واضحة على تكريم الإنسان وتمييزه على سائر المخلوقات بالتكليف لامتلاكه العقل، هذا وإن أتى الوصف عليه في ختام الآية بالظلم والجهل، فهما صفتان ليستا بلازمتين، بل هما أخبار عن المغيبات بما سيكون عليه المستقبل، حيث قررت هذا المعنى آية أخرى في ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[٢]. كما تنبأ الملائكة بفساد الإنسان في الأرض عندما اختصه الله تعالى بالخلافة فيها، حيث قال عز من قائل يروي ما قاله الملائكة (عليهم السلام) في حوارهم مع الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾[٣].

وبذلك فإن الله تعالى قد أخبر عما سيقع من الإنسان من ظلم وجهل بسبب انحرافه عن الجادة وعدم استقامته على جادة الصواب في تحمله لهذه الأمانة، ولكنها إرادة الله تعالى التي اقتضت أن تتميز معالم الإنسانية بهذه المزية وهذه الصفة، حيث قرر المولى عز وجل لها ذلك تكريما على سائر المخلوقات التي خلقها معها في البيئة، حيث جعل له الوصاية والقوامة على هذه المخلوقات بتسخيرها لخدمتها.

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٤.

(٢) الروم ٤١. (٣) البقرة ٣٠.

وقد أكد السرياني بالنسبة لهاتين السمتين اللتين تعكسهما طبيعة علاقة الإنسان بالبيئة - مسألة الوحدة والتميز – بأن البيان القرآني لصلة الإنسان بالبيئة يقوم على معادلة دقيقة ذات طرفين، فهي وحدة بين الإنسان والبيئة من جهة متمثلة في مظاهر متعددة، وتميز للإنسان على البيئة متمثلاً أيضاً في مظاهر متعددة ، وأنه لا يجوز بذلك أن يكون أحدهما – الوحدة أو التميز – على حساب الآخر، بحيث يطغى عليه أو يغلبه أو يقلل من شأنه، حيث أن صورة العلاقة بين الإنسان والبيئة هي معادلة ذات طرفين هما: الوحدة بين الجانبين، والرفعة لأحدهما.

ثم يذكر ما افتقدته الثقافة الغربية مما عززته نصوص القرآن من ضرورة التوازن بين عناصر الوحدة والتميّز، وأنه لا ينبغي أن تحمل عناصر التميّز ما يجعل الإنسان طاغياً ومنتهكاً لحق الارتفاق بالبيئة، حيث أن هذه الثقافة لم تهتد إلى إقامة هذه المعادلة الدقيقة بين الوحدة والرفعة، وأنها مالت جزئياً أو كلياً إلى تصوّر علاقة ذات طرف واحد، فهي إما مفاصلة بين الطرفين لا يبدو فيها مظهر للوحدة، وإما وحدة بينهما لا يبدو فيها مظهر معتبر للتمايز، وفي كلا الحالين يختل التوازن بين طرفي المعادلة، مما ينعكس سلباً على السلوك البيئي. وفي ظل غياب التوازن بين الوحدة والتميز في علاقة الإنسان بالبيئة فقد أصبحت رابطة الإنسان بالبيئة لا تعدو أن تكون رابطة مخزن كبير للغذاء، مع ما تتضمن النظرة العامة لهذه البيئة من معاني القحولة والجفاف [1]. وهو ما اصطلح عليه علماء البيئة

(١) السرياني – محمد محمود، المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٨ .

بندرة الموارد، وهنا مكمن الجهل لدى الإنسان بفلسفة تسخير البيئة لخدمته ومنفعته، وهو ما نتعرض له ضمن المحور التالي.

ثانياً - التسـخـير:

تناولت فيما سبق أن مما يحدد ملامح دور الإنسان في تفاعله مع بيئته أن جعلها الله تعالى مسخّرة لخدمته حتى يقوم بحمل الأمانة التي جعلته ينال الكرامة على سائر المخلوقات، فكل شيء مسخر لخدمته لكنه لا بد أن ينظر إلى ذلك من خلال ما اتسمت به العلاقة بينه وبين البيئة، فكما أن الإنسان مميز ضمن أجزاء البيئة فهو جزءاً منها كوحدة متكاملة ينشأ التفاعل والتأثير بين أجزائه، وبفضل تميزه كجزء منها فهو الأكثر تأثراً بها، والأكثر تأثيرا بما يجري عليها من متغيرات.

إن البيئة هي المسرح الذي يقوم عليه الإنسان بأداء وظيفته في الحياة، فتكون له إذاً علاقة وظيفية بالإضافة إلى علاقته الوجودية بها، فأداء الإنسان لوظيفته في الحياة يقتضي أن يكون للبيئة دور معين فيه من جهة ما هي مسرح لذلك الأداء، كما يقتضي أن يكون للإنسان تصرف بيئي وفق ذلك الدور المعين، ومن ثمة تنشأ العلاقة الوظيفية بين الطرفين، وتُعتبر هذه العلاقة الوظيفية عنصراً مهماً من عناصر التصور الثقافي لعلاقة الإنسان بالبيئة عموماً، وهي تبعاً لذلك تُعتبر أيضاً محدداً أساسياً من محددات التصرف البيئي للإنسان.

وقد كان للقرآن الكريم والحديث الشريف بيان وافٍ لهذه العلاقة

الوظيفية بين الإنسان والبيئة، وذلك من جهة ما حُدد للإنسان من مهمة في الحياة، ومن جهة ما حُدد من دور للبيئة في أداء تلك المهمة ليتصرف الإنسان تصرفاً بيئياً يكون منحكماً بمقتضى ما تتطلبه غايته في الحياة من جهة، وبمقتضى ما حُدد للبيئة من دور في تحقيق تلك الغاية من جهة أخرى. ومن هذا البيان القرآني والحديثي لعلاقة الإنسان وظيفياً بالبيئة يتكون عنصر مهم من عناصر التصور الثقافي الإسلامي ينضاف إلى عنصر العلاقة الوجودية لتتكون منهما صورة متكاملة لعلاقة الإنسان بالبيئة بصفة عامة.

ولا شك أن علاقة الإنسان وظيفياً بالبيئة كما تتحدد في التصور الإسلامي ستكون موجهة بصفة أساسية بطبيعة المهمة التي كلف بأدائها في الحياة وجُعلت البيئة مسرحاً لذلك الأداء؛ ولذلك فإنه لا يمكن رسم صورة صحيحة لهذه العلاقة إلا في نطاق تصور لتلك المهمة كما جاءت في التصور الإسلامي، وإلا كانت صورة يشوبها الخلل والاضطراب، وينعكس ذلك بالتالي خللاً واضطراباً في التصرف السلوكي العملي إزاء البيئة.

والمهمة التي جاء الإسلام يحددها للإنسان غاية من حياته ومقصداً من أصل وجوده هي مهمة الخلافة في الأرض، كما جاء في قوله تعالى في الإعلان بخلق الإنسان الأول إعلاناً قُرن ببيان الغاية من وجود هذا المخلوق الجديد: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]. ومعنى هذه المهمة أن الإنسان خُلق لأجل أن يكون خليفة

(١) البقرة ٣٠.

بأمر الله في الأرض على معنى أنه ينفذ أوامره التي تهدف بصفة عامة إلى تحقيق تعمير في الأرض يفضي إلى ترقية الإنسان لذاته الفردية بالعبادة والعلم والفضيلة، والجماعية بالتكافل والتعاون والمحبة، وكل ذلك في سبيل الإعداد لمصير دائم في الحياة الأخرى يكون محكوماً في سعادته وشقائه بقدر ما يتحقق من مهمة التعمير التي تثمر الترقية الفردية والجماعية للإنسان.

إن مهمة الخلافة التي جُعلت في التصور الإسلامي غاية لحياة الإنسان بما أنها ستكون خلافة في البيئة الأرضية، فإن هذه البيئة قُدرت في هذا التصور تقديراً تستجيب به لأداء المهمة التي جُعلت مسرحاً لها، بحيث يكون الإنسان وهو مقبل على أداء وظيفته على مسرح البيئة متصوراً لموقف البيئة منه وهو يقوم بذلك الأداء، ويكون بالتالي على علم كامل بكيفية تصرفه البيئي لينجز وظيفته في نطاق ذلك الموقف من البيئة إزاءه، وهذا التصور هو ما نعنيه في هذا السياق بالتصور الثقافي الإسلامي للعلاقة الوظيفية بين الإنسان والبيئة.

وإذا كانت المذاهب والأديان ترتسم فيها جميعاً تصورات لعلاقة الإنسان بالبيئة من الناحية الوظيفية تُشتق من الغاية التي تُرسم للحياة، وذلك إما بصفة مصنوعة بالتنظير أو بصفة تلقائية، وإذا كان لتلك التصورات دور أساسي في توجيه السلوك البيئي بما يتلاءم مع طبيعتها، فيكون ذلك السلوك على قدر تصور تلك العلاقة إيجابا وسلباً، فإن لتعاليم الإسلام تصوراً مخصوصاً لعلاقة الإنسان وظيفياً بالبيئة، وهو تصور مشتق

من طبيعة الوظيفة التي كُلف الإنسان بأدائها، ومفض في نتائجه السلوكية البيئية إلى ما يتلاءم معها في تميز عن سائر الثقافات الأخرى.

ولما كانت غاية الحياة الإنسانية العمارة في الأرض بما يحقق ترقية الإنسان ترقية يكون عليها الجزاء في الحياة الأخرى، فإن العلاقة الوظيفية التي تربط الإنسان بالبيئة قُدرت في التصور الإسلامي علاقة توافق بين الإنسان فيما تتطلبه وظيفته وما تتحمله قدراته وبين البيئة فيما تنفتح به على الإنسان من العطاء لينجز به تلك المهمة في نطاق تلك القدرات، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه العلاقة بلفظ جامع يحمل دلالات كافية تشمل كل المعاني التي تتضمنها، وهو لفظ (التسخير)، أي تسخير البيئة للإنسان، فعلاقة الإنسان بالبيئة وظيفياً هي إذاً علاقة تسخير.

ومعنى التسخير بصفة عامة كما شرحه الراغب هو أنه: (سياقة إلى الغرض المختص قهرًا)، فيكون إذاً تسخير البيئة للإنسان معناه أن هذه البيئة مهيأة في أصل طبيعتها من قِبل صانعها تهيئة مقدرة بحيث تستجيب للإنسان فيما خُص به من مهمة في الحياة، وذلك على وجه تكون فيه مسُوقة إلى ذلك قهراً وفق سنن وقوانين ثابتة، إنها إذاً علاقة بين الإنسان والبيئة تنفتح فيها البيئة بالعطاء على الإنسان بما يجد فيه أداة لإنجاز مهمته، وتوافقاً مع قدراته التي يتم بها ذلك الإنجاز، وذلك المعنى هو ما جمعته الآية الكريمة في سياق ورد فيه بيان مهمة الخلافة التي كُلف بها الإنسان ومقتضياتها من الإيمان والعبادة، ثم عُقب عليه بقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي

الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾(١). فمفاد السياق أن الله تعالى حينما كلف الإنسان بمهمة الخلافة جعل علاقته بالبيئة التي أوجده فيها علاقة تسخير لها من أجله ليتمكن من إنجاز مهمته.

وعلاقة التسخير هذه التي بينها القرآن الكريم والحديث الشريف عنصراً في تصور العلاقة البيئية ورد بيانها فيهما باستفاضة، مما يؤكد أنها كان يُراد لها أن تكون خطاً أساسياً بيناً في الصورة الثقافية لعلاقة الإنسان بالبيئة خصوصاً، وفي الصورة الثقافية للبيئة عموماً، وليست مجرد معنى عارض فيها، وهو ما يتبين أيضاً من تفريع المعاني في شرح هذه العلاقة، ومن تعدد المقامات والمواقف في ذلك الشرح. والمتأمل في هذه التفاريع والشروح يقف على مظهرين أساسيين لهذه العلاقة التسخيرية كعلاقة وظيفية بين الإنسان والبيئة: التسخير المادي، والتسخير الروحي.

وقد ذكر النجار بأن تسخير البيئة للإنسان يكون على ضربين بينهما كالتالي:

• **التسخير المادي للبيئة:** وذلك حينما تكون مهمة الإنسان في الحياة هي أن يعمر في الأرض، فإن هذه المهمة تكون لا محالة مستلزمة لعلاقة مع البيئة يستعمل فيها الإنسان من عطائها المادي ما يتمكن

---

(١) الحج ٦٥.

به من أداء تلك المهمة، بحيث لو لم يكن للبيئة عطاء مادي أو لم يكن الإنسان يستثمر ذلك العطاء لتعطلت مهمة الإنسان في الحياة.

فعلى الرغم من أن الغاية العليا للحياة هي المصير إلى السعادة في دار البقاء، إلا أن هذا المصير لا يتحقق إلا من خلال عمل تعميري في الأرض يرتقي فيه الإنسان بذاته الفردية والجماعية ارتقاء يتطلب استثماراً لما في البيئة من مقدرات من شأنها أن تحفظ الحياة المادية، وأن تنميها في اتجاه تحقيق النعيم في مختلف مظاهره للفرد وللجماعة، فمن معاني ترقية الإنسان لنفسه أن يصعد قدماً في تلبية مطالبه المادية من غذاء تكون به الصحة، وملبس ومسكن يكون بهما التوقي من العوادي، ومركب يكون به الضرب في الأرض، إذ أية قيمة لإنسان وأية كرامة له وهو يعاني الجوع والمرض والخوف؟، وهذا الترقي المادي الذي يعتبر جزءاً من غاية الحياة هو رهين تعامل مع الأرض بضروب مختلفة من التعمير لا تكون له ثمرة إلا بما تقدم هي من عطاء.

وقد جاء التصور الإسلامي في تقديره لعلاقة الإنسان بالبيئة يبين أن هذه البيئة التي جُعلت للإنسان مسرحاً لترقية ذاته هي بيئة مسخرة لتلبية مطالبه التي تتوقف عليها تلك الترقية، وأن الله تعالى هيأها بقصد وعناية من أجل ذلك، فقدرها على ما تبدو عليه في كثير من مظاهرها من جبروت وتمنع بحيث تنقاد بالعطاء للإنسان لتلبية مطالبه.

وقد كان القرآن الكريم يحرص أيما حرص على إبراز هذا المعنى من تسخير البيئة للإنسان تسخيراً مادياً، ويبين أن ذلك التسخير شمل

البيئة في بعديها الكمي والكيفي. فالبيئة قد سُخرت للإنسان مادياً في أصل تكوينها العنصري، كما يتمثل في جعل العناصر ذاتها التي تتكون منها البيئة الطبيعية قابلة لتلبية حاجات الإنسان المادية، وكما يتمثل في تأليف تلك العناصر أنواعاً من المكونات البيئية حيوانات ونباتات ومعادن، بحيث تستجيب كلها على نحو أو آخر لتحقيق منافعه المادية حتى ما بدا منها في الظاهر معانداً لتلك المنافع، وذلك هو مقتضى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[1]. فالعناصر البيئية في إفرادها وفي تركيبها (من دابة وشجر وماء وبحر وفلك وغير ذلك من المنافع، يجري كله لمنافعكم ومصالحكم لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله، وتنتفعون بجميعه).

وكذلك سُخرت البيئة لمنفعة الإنسان مادياً فيما قُدرت عليه من كيف متمثل في النسب العنصرية التي تتركب منها الموجودات البيئية، والنسب المكانية التي تتوزع بها، وفي السنن والقوانين التي تتحرك عليها في دوراتها الفلكية أو تحولاتها النوعية، فكل ذلك إنما هيئ على أوضاع تناسب منافع الإنسان وتحقق غاية حياته في وجهها المادي، وهو ما يتضمنه قوله تعالى على سبيل المثال: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾[2]. فتسخير الشمس والقمر من حيث الدأب على الحركة التي ينشأ منها من بين ما ينشأ الليل والنهار إنما هو

---

(١) لقمان ٢٠

(٢) إبراهيم ٣٣.

تسخير للبيئة في أبعادها الكيفية؛ لتكون نافعة للإنسان مثلما ينفعه في معيشته تعاقب الفصول وتعاقب الليل والنهار.

ولكن هذه البيئة كما هي في التصور الإسلامي لئن كانت مسخرة مادياً في كمها وكيفها بحيث تستجيب لمقتضيات المهمة التي كُلف الإنسان بأدائها، إلا أنها ليست في ذلك التسخير على درجة يكون فيها عطاؤها مجانياً مباشراً، بحيث لا يطلب من الإنسان جهدٌ ولا يستلزم منه كدحاً، وإنما هي مُسخرة له على معنى أنها قُدرت على قابلية للعطاء حينما يتجه إليها بالسؤال ويقصدها بالطلب، ولكنها لا تعطي ولا تستجيب بما يمكنه من أداء مهمته إلا بالسعي فيها بالعمل والكدح لاستثمار خيرها الظاهر والباطن.

وهذا المعنى يُستشف في البيان القرآني من الاقتران الوارد في كثير من آيات التسخير بين إثبات هذا التسخير حقيقة بيئية، وبين التوجيه إلى السعي في البيئة بالعمل الصالح على تنوع في التعابير عن ذلك، ومثاله ما جاء في قوله تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾(١). فالأرض مع كونها ذُللت للإنسان إلا أنها لا تعطيه رزقاً إلا إذا مشى فيها، وهو كناية عن السعي بالعمل الصالح، ومما يفيد ذلك أيضاً ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَاءُ ﴾(٢). فمن معاني

---

(١) الملك ١٥.

(٢) الشورى ٢٧.

الآية أن الله تعالى لم يبسط الرزق في البيئة بسطاً كلياً، وإنما جعله فيها مقدراً بحيث يحصل الإنسان منه بقدر ما يسعى فيه وما يسهل الله له منه.

إنها إذاً صورة ثقافية للبيئة يضعها القرآن الكريم في أذهان الناس وهم يقبلون عليها ليؤدوا على مسرحها مهمة حياتهم تقوم في علاقتها الوظيفية بالإنسان على معنى من التسخير المادي الذي تحكمه معادلة توازن بين ما هي مهيأة عليه في طبيعتها الكمية والكيفية من المنافع الضرورية لأداء الإنسان مهمته من جهة، وبين ما قُدرت عليه في اشتمالها على تلك المنافع من تمنع عن العطاء بصفة مجانية، وتطلب للسعي الاستثماري من قِبل الإنسان من جهة أخرى، وتلك صورة ثقافية متميزة ذات أثر سلوكي بيئي بالغ الأهمية.

• **التسخير الروحي للبيئة** : لا يحتاج الإنسان في سبيل القيام بمهمته في الحياة إلى علاقة بالبيئة تكون فيها مسخرة له تسخيراً مادياً فحسب، وإنما يحتاج في ذلك أيضاً أن تكون مسخرة له تسخيراً روحياً؛ ذلك لأن مهمة التعمير في الأرض بالمعنى الذي شرحناه هي مهمة تتسع لتعمير مادي يتجه في الإنسان إلى ترقية قوامه المادي، وترقية روحية تتجه فيه إلى ترقية قوامه الروحي، وذلك بتقوية الصلة بالله تعالى، وإحسان العلاقة بالآخرين من الناس، وتزكية النفس بالفضائل، وفي البيئة التي هي مسرح الخلافة معوان على ذلك أي معوان؛ ولذلك فقد سُخرت أيضًا للإنسان لتكون عامل ترقية روحية لكيانه الفردي والجماعي كما سُخرت له لتكون عامل ترقية مادية لذلك الكيان.

وقد جاءت الصورة الثقافية في القرآن الكريم لعلاقة الإنسان بالبيئة من الناحية الوظيفية تتضمن بقدر كبير من الوضوح خطاً من التسخير الروحي للبيئة يعاضد ذلك الخط من التسخير المادي، ليلتقي الخطّان عند قيام البيئة بالدور الكبير في أداء الإنسان مهمته التعميرية كاملة، وقد كان هذا الخط التسخيري الروحي على قدر من الإبراز المقصود بحيث يتبين أنه مثل التسخير الروحي معنى أصلي في الصورة وليس مجرد خط عارض من خطوطها. وقد جاء هذا البيان القرآني للتسخير الروحي للبيئة في مظاهر متعددة تلتقي جميعاً عند نفس المعنى.

فالبيئة مُسخرة للإنسان روحياً تسخيراً عقدياً، وذلك بما ضُمنته من تجليات غيبية تشهد بوجود الله وكماله، كما تشهد بالحياة بعد الموت، وقد جاء القرآن الكريم يشرح في استفاضة هذا المظهر من التسخير الروحي في البيئة حتى أصبح معنى مقارناً لحقيقة البيئة نفسها لا ينفك في ذهن القارئ للقرآن عما يتصوره من مشاهد بيئية، وذلك ما يبدوا في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[1]. فهذا التسخير للبحر هو تسخير مادي للاستفادة منه في مقدراته المادية، وتسخير روحي للاستفادة منه فيما يتجلى فيه من فضل الله تعالى ورحمته مما يجعل المتأمل فيه يقف على ذلك الفضل فيرقى بروحه إلى الله تعالى بالشكر.

---

(١) الجاثية ١٢.

وهي مسخرة للإنسان تسخيراً جمالياً، إذ هي مُقدرة على هيئة من الجمال في أصل تكوينها وفي متغيرات مشاهدها من شأنها أن تحدث في النفس البشرية عند التأمل فيها إحساساً يرقق الشعور ويشيع المحبة والتعاطف، وفي ذلك ترقية نفسية لذات الإنسان، فهي تندرج ضمن مهمة الترقية التي على الإنسان أداؤها، وقد جاء القرآن الكريم يشير إلى هذا التسخير الجمالي للبيئة ضمن بيانه لعلاقتها الوظيفية بالإنسان، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ﴾(١). فتسخير البحر يتمثل حسب الآية في تسخير مادي بما يوفر من غذاء، وتسخير روحي بما يوفر من زينة للحلية، فهما خطّان متلازمان في علاقة التسخير: تسخير مادي، وتسخير روحي.

والبيئة مسخّرة للإنسان أيضاً تسخيراً معرفياً، فقد قُدرت في بنيتها وفي تحولاتها على ضرب من القوانين والسنن المنتظمة التي تلائم ما رُتب عليه العقل البشري من المبادئ المعرفية، فكانت بذلك ميسرة للفهم، قابلة للاستيعاب المعرفي، إذا ما قصدها العقل لاكتناه حقائقها وتمثل سننها، وجدها منفتحة له في ذلك وكأنما هي قد رُتبت بحيث تلبي تطلعه العقلي للوقوف على أسرارها.

إن البيئة ليست كتاباً مفتوحاً كل الانفتاح، مكشوفاً كل الانكشاف بحيث تُدرك حقائقها بالنظرة العابرة، ولكنها ليست أيضاً كتاباً

---

(١) النحل ١٤.

مسطوراً بالرموز والأحاجي المستغلقة عن الفهم، وإنما هي بين هذا وذاك في مرتبة وسط، كتاب كُتبت فصوله بمنطق هو ذاته منطق العقل البشري، فإذا ما توجه إليه هذا العقل بالقراءة، وبذل الجهد في ذلك وجده ميسور الفهم، فاستوعب حقيقته واكتشف أسراره.

لقد كان هذا التسخير المعرفي للبيئة معنى بارزاً في الصورة القرآنية التي رُسمت في تحديد العلاقة الوظيفية بالإنسان، فإذا المتمثل لتلك الصورة وهو يعلم أن مهمة التعمير المكلف بأدائها تستلزم علماً بقوانين البيئة لاستثمارها من خلالها يُقبل على هذه البيئة وهي في تصوره كتاب مفتوح للفهم ميسر للإدراك، فما عليه إلا أن يتدبر ويتذكر ليفهم حقائق البيئة، وهذا المعنى هو الذي يفيده قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۞ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾(١).

إن التسخير الوارد في الآية لمشاهد من البيئة هو في جانب منه تسخير معرفي، فقد بُنيت تلك المشاهد على سنن وقواعد لو تعقلها الإنسان لوجدها ميسورة الفهم، ولأدرك حقيقتها في ذاتها ودلالتها على ما وراءها من حقيقة الغيب، فمعنى التسخير الإدراكي هو إذاً معنى قائم في هذه الصورة القرآنية كخط من خيوط التسخير الروحي للبيئة إضافة إلى التسخير العقدي والجمالي. إن معنى التسخير الروحي

(١) النحل ١٢ – ١٣.

حينما ينضاف إلى معنى التسخير المادي يكتمل التصور الإسلامي للعلاقة الوظيفية بين الإنسان والبيئة فيكون تصوراً متميزاً لما يُقارن بما في ثقافات أخرى من تصورات في هذا الشأن [1].

• **التسخير على خلاف العادة** : لما كانت البيئة المحيطة بالإنسان قد سخرها الله تعالى لخدمة الإنسان، حيث تسير تحقيقا لذلك وفق ناموس معين يعكس عادة تتأقلم مع الطبيعة والسجية التي خلق الله تعالى عليها الإنسان، فإن الله سبحانه وتعالى قد يجري على البيئة ما يكون على خلاف العادة؛ ذلك أن الله سبحانه وتعالى لما كان هو المصوّر والمنشئ لهذه البيئة بمكوناتها وعناصرها، وهو الذي يجري تفاعلات عناصرها مع بعضها البعض وفق توازن دقيق، فإنه سبحانه وحده قد يجريها على خلاف ما اعتاده الناس لتحقيق أغراض وغايات معينة.

إن الله سبحانه وتعالى قد سخّر البيئة لخدمة الإنسان وفق آليات تتهيأ له ولغيره من المخلوقات من خلالها الانتفاع بمختلف عناصر البيئة، فهو جل في علاه قد سخّر البحر ليأكل منه الإنسان وغيره من المخلوقات لحماً طرياً، وليستخرج منه الإنسان حلياً يلبسها ويستعملها، وجعله سبيلاً لتنقل الإنسان، كما ثبّت الأرض بالرواسي الشامخات حتى تتزن وتكون صالحة لمعيشة الإنسان، وخلق فيها الأنهار كمصدر للمياه التي يحتاجها الإنسان وغيره من المخلوقات، وجعل النجوم هداية لمن ضل الطريق، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ * وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١].

ويقرر سبحانه وتعالى في نص آخر كيف أنه سخر النهار بيئة مهيئة حتى يبتغي الإنسان من فضل الله تعالى، وحتى تكون مقياساً للإنسان ليعرف عدد السنين والحساب، وكان لذلك تفضيل بين عنصر وعنصر لحكمة يعلمها سبحانه، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾[٢]. وتقرر هذا المعنى آية أخرى من سورة الروم حيث يقول الله تعالى فيها: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ * وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[٣]. فهذه الآية تقرر في جانب آخر منها كيف أن الله سبحانه وتعالى قد جعل لكم في هذه البيئة مما سخر على سبيل العادة أنه ينزل من السماء ماء فيحي به الأرض بعد موتها.

---

(١) النحل ١٤ – ١٨.

(٢) الإسراء ١٢.

(٣) الروم ٢٣ – ٢٤.

وهناك آيات كثيرة تتحدث عما يجريه الله سبحانه وتعالى في هذه البيئة باعتبار العادة تقرر ما قررته الآيات السابقة من معاني، ومنها كذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا * وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا * وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا * وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا * وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا * وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا * وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا * وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[1]. ومنها كذلك قوله جل في علاه: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا * وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا * وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا * وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا * وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا * وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾[2]. والآيات التي تتحدث عن إجراء الله تعالى وتسخيرها باعتبار العادة كثيرة لا مجال ولا غاية من حصرها في هذا المقام، إلا أن ما يهم هو استعراض حالات يجري الله تعالى فيها البيئة في تفاعل عناصرها على خلاف العادة بالنسبة لما يتقرر غالبا في حياة الإنسان، وذلك لأغراض محددة تتمثل وفق استقراء آي الذكر الحكيم فيما يلي:

١. **إبراز كمال عزة الله تعالى وحكمته:** لما كانت البيئة مخلوقة بقدرة الله تعالى ومسخرة بإرادته وحكمته، فإن كل شيء فيها يدل على عظمة قدرته، والآيات التي تدل تقرر ذلك لا تقع تحت حصر، وهي متجددة بتجدد الزمان وسرمدية إلى يوم القيامة.

وقد ذكر رب العزة جل في علاه حالتين سخر فيهما البيئة على خلاف العادة تفاعلا مع نبيين من أنبيائه وهما: إبراهيم وموسى

(١ ، ٢) النبأ ٦ – ١٦.

(عليهما السلام)، فأما قصة إبراهيم (عليه السلام) فقد جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾(١).

لقد طلب الخليل (عليه السلام) من ربه عز وجل أن يريه كيف يحي الموتى، فقال الله له (أو لم تؤمن) ليزيل الشبهة عنه، فذكر له الخليل أنه مؤمن به وبإحيائه الموتى ومجازاته للعباد، ولكن يريد لقلبه أن يطمئن، ويصل لدرجة عين اليقين، فأجابه إلى دعوته كرامة له، ورحمة بالعباد، وأمره أن يأخذ أربعة أنواع من الطيور وأمره أن يذبحهنّ ويمزقهنّ، ثم يجعل على كل جبل منهن جزءاً ويدعوهنّ بعد ذلك، حيث دعاهنّ فأقبلن عليه مسرعات، وجئن طائرات كما خلقهنّ الله تعالى على أكمل ما يكون من الحياة، وخص الطيور بذلك لأن إحياءهنّ أكمل وأوضح من غيرهنّ.

وبعد هذا الإظهار العلني لقدرة الله تعالى صارت هذه الآية أكبر برهان على كمال عزة الله تعالى وحكمته، كما أن فيها تنبيه على أن البعث فيه يظهر للعباد كمال عزة الله تعالى وحكمته وعظمته وسعة سلطانه، وتمام عدله وفضله (٢).

---

(١) البقرة ٢٦٠.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج١، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٩.

إن العادة التي سخر اللّه تعالى عليها خلق الطير أن يكوّنه في بيضة ثم يخرج فرخاً صغيراً فيكبر وينبت له الريش حتى يستطيع الطيران، ولكن اللّه تعالى قد أظهر لإبراهيم (عليه السلام) في هذا الحدث الإعجازي قدرته فسخر البيئة على خلاف العادة بأن جعل الطيور المقطعة إلى أجزاء بعد دعوتهن يأتينه على هيئة الكمال التي يصلون إليها بعد تكوين اللّه تعالى لهنّ، ولا شك أن ذلك إجراء لما خلق اللّه تعالى على خلاف ما اقتضى ناموس اللّه تعالى في ذلك.

أما سيدنا موسى (عليه السلام) فقد تحدث اللّه تعالى عن تسخير البيئة على خلاف العادة معه في قوله جل في علاه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾(١).

ففي هذه الآية عندما طلب موسى (عليه السلام) من اللّه تعالى أن يراه رتب اللّه تعالى رؤيته له على ثبوت الجبل، وأمر موسى أن ينظر إلى الجبل فإن استقر مكانه على الطبيعة التي خلقه اللّه تعالى عليه في شموخه فإنه سوف يراه جل في علاه، لكن اللّه تعالى لما تجلى للجبل الذي هو مخلوق من مخلوقاته العظيمة الشامخة انهال مثل الرمل لعدم قدرته على الثبات أمام رؤية اللّه تعالى خالقه، وخر موسى (عليه السلام)

---

(١) الأعراف ١٤٣.

صعقاً من هول ما رأى من تسخير للبيئة على خلاف العادة إظهاراً لقدرة اللّه تعالى، فلما أفاق تبين له حينئذ أنه إذا لم يثبت الجبل لرؤية اللّه تعالى، فإنه أولى ألا يثبت لذلك [1].

فكون الجبل قد تحول رملاً بعد أن تجلى اللّه تعالى له تسخير للبيئة على خلاف العادة، حيث جاء ذلك إثباتاً لعظمته وتحقيقاً لقدرته كخالق يجري عناصر البيئة ومكوناتها على وفاق أو خلاف ما قدره في ناموس الحياة وفق حكمة يعلمها وقد يظهرها لخلقه.

وبذلك فإن اللّه تعالى قد أجرى بناء على طلب هذين النبيين الكريمين (عليهما السلام) البيئة المحيطة بهما على خلاف ما اعتادوا عليه رؤيتها، وقد كان ذلك إبرازاً لكمال عزة اللّه تعالى وحكمته قبل أن يكون استجابة لطلب أفضل خلقه من الأنبياء إكراماً لهما وإعزازاً لمقامهما.

٢. **الإعجاز والإكرام** : من المواطن التي يسخّر فيها اللّه سبحانه وتعالى البيئة على خلاف العادة تسخيرها بذلك لأجل إظهار الأمر الخارق على خلاف العادة على يد نبي بالمعجزة أو ولي بالكرامة، فيكون الغرض من ذلك تحقيق صدق النبوءة حسيا، أو رعاية لكرامة الولي، ومن الصنف الأول ما أجراه اللّه تعالى على يد داود (عليه السلام)، حيث اختصه بالنعم الدينية والأخروية، حيث كان من نعمه عليه مما

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج١، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٩.

جرى على خلاف العادة التي يعرفها بني آدم في علاقتهم مع البيئة ما خصّه اللّه تعالى به من أمره للجمادات كالجبال والحيوانات والطيور أن تؤوّب معه وترجع التسبيح بحمد ربها مجاوبة له.كما أن اللّه تعالى ألان له الحديد ليعمل الدروع السابغات، وعلمه كيفية صنعته بأن يقدره في السّرد – أي يقدره حِلقا، ويصنعه كذلك –، ثم يدخل بعضه ببعض.

وقد أمره اللّه تعالى بعد ما ذكره عليه ما أنعمه عليه أن يشكره، وأن يعمل صالحا ويراقب اللّه تعالى فيه بإصلاحه وحفظه من المفسدات[1]. ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ۞ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[2].

ومن المواطن التي أجرى اللّه تعالى فيه عناصر البيئة على خلاف العادة أمره للنار التي رُمي فيها إبراهيم (عليه السلام) أن تكون برداً وسلاماً، ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ﴾[3].

ومن المعجزات التي سخر اللّه تعالى من خلالها البيئة على خلاف

---

(1) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٢.

(2) سبأ ١٠ – ١١.

(3) الأنبياء ٦٩.

العادة كذلك معجزة موسى (عليه السلام) عندما ضرب بعصاه البحر فانفلق فكان كل فرق منه كالطود العظيم، حيث أنه ليس مما تعوده الناس أن يكون ضرب البحر بالعصا مؤدياً إلى هذا التسخير للبحر على خلاف العادة تحقيقاً لمعجزة، وإنقاذاً لموسى (عليه السلام) ومن معه من فرعون، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ * وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ * وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ × ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾[(١)].

وقد ذكر السعدي بأن الله سبحانه وتعالى عندما أوحى إلى موسى (عليه السلام) أن يضرب البحر فضربه فانفلق اثني عشر طريقا، فكان كل فرق كالطود أي الجبل فدخله موسى (عليه السلام) وقومه، ثم جعل قوم فرعون يتقربون حتى دخلوا في هذا الطريق، ثم استكمل موسى وقومه خارجين، وتم الإغراق للآخرين، فكان في ذلك آية عظيمة على صدق ما جاء به موسى (عليه السلام)، وبطلان ما عليه فرعون وقومه[(٢)].

ومن جانب آخر فإن الله سبحانه وتعالى قد يجري البيئة على خلاف العادة إكراماً لخلقه ممن لم يختصهم بالنبوة أو الرسالة، ومن ذلك ما حقق الله تعالى به الإكرام للسيدة مريم أم النبي عيسى (عليه

---

(١) الشعراء ٦٣ – ٦٧.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٣، مرجع سبق ذكره، ص ٤٦٨.

السلام)، وذلك بتسخيرين للبيئة على خلاف العادة، فأما الأول منهما فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

فالله سبحانه وتعالى في هذه الآية يقرر كما ذكر ابن كثير في تفسيره بأنه أكرمها بأن أجرى على يدها على خلاف ما اعتاده الناس، حيث ذكر مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو الشعثاء وإبراهيم النخعي والضحاك وقتادة والربيع بن أنس وعطية العوفي والسدي بأن المراد بالرزق أنه يجد كلما دخل عليها المحراب عندها فاكهة الصيف في الشتاء، وفاكهة الشتاء في الصيف (٢).

ويتضح من الآية السابقة أن الله تعالى قد سخر البيئة على خلاف العادة إكراماً للسيدة مريم وبياناً لمكانتها، حيث سخر لها من الرزق ما لم يعتده الناس في وقته، فكانت ترزق فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، كما أن الله أكرمها كذلك عندما كانت حاملا بالسيد المسيح (عليه السلام) بأن سخر لها البيئة على خلاف العادة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾(٣).

---

(١) آل عمران ٣٧.

(٢) ابن كثير – أبي الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي، تفسير القرآن العظيم، ج١، ط:٢، ١٤٢٧ -٢٠٠٦، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ص ٤٠٦.

(٣) مريم ٢٥.

فالمعلوم في عالم المعتاد ممن يعرف النخل واعتاد زراعته أن النخلة لا يمكن هزها حتى يكون الهز مؤهّلاً لإسقاط الرطب الجنيّ منها، ولكن أن يسخّر الله تعالى للسيدة مريم كي تهزّها وهي حبلى بالسيد المسيح (عليه السلام) ليتساقط عليها الرطب الجني، فإن ذلك إكراماً لها بتسخير البيئة لها على خلاف ما اعتاده الناس من صنوف التسخير لمكونات البيئة وعناصرها.

٣. **الاختصاص بعد الابتلاء** : حيث سخر الله تعالى لسليمان (عليه السلام) الرياح والشياطين تجري بأمره على خلاف ما سخرها عادة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ * قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ * فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ * وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ * هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(١).

فهذا النص القرآني يقرر أن الله سبحانه وتعالى قد ابتلى واختبر سليمان (عليه السلام) ، حيث قدّر الله عليه أن يجلس على كرسي ملكه شيطاناً يتصرف في الملك في مدة فتنة سليمان، وذلك حتى أناب سليمان وتاب إلى الله تعالى، حيث استجاب الله له وغفر له، ورد عليه ملكه، بل زاد له ملكاً بتسخير ما حوله له على خلاف العادة، فسخر له الشياطين

(١) سورة ص ٣٤ – ٣٩.

يبنون له ما يريد، ويغوصون له في البحر يستخرجون الدر والحلي، ومن عصاه منهم قرنه في الأصفاد وأوثقه [١].

ويقرر هذا المعنى آية أخرى في سورة سبأ يقول الله تعالى فيها: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [٢].

٤. **التعذيب** : حيث يسخر الله تعالى البيئة على خلاف ما يجري في عادة الناس من أجل التعذيب لقوم على جرم ارتكبوه، وهناك نصوص كثيرة تقرر التعذيب بالبيئة المحيطة بالإنسان عندما يجريها الله تعالى على خلاف العادة، ومنها قصة نوح (عليه السلام) عندما أمره الله تعالى أن يصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه، حيث أمر الله تعالى الأرض أن تنبع بالماء، والسماء أن تمطر، وسارت بهم الفلك في موج كالجبال، ولمن لم يركب في السفينة سبيل للنجاة، حيث كان لا عاصم اليوم من أمر الله تعالى إلا من رحم، وذلك حتى أذن الله تعالى للأرض وللسماء كعنصرين محيطين بقوم نوح (عليه السلام) أن تبلع الأرض ماءها، وتقلع السماء عن الإمطار، وقضي بذلك الأمر واستوت السفينة على الجودي، ومما قص الله تعالى به ذلك من

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨٩.

(٢) سورة ص ٣٤ – ٣٩.

النصوص قوله في سورة هود: ﴿ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[1].

وقد ذكر السعدي في تفسيره بأن الله تعالى قد أمر الأرض بأن تُتبع الماء والسماء بأن تمطر لإغراقهم، وبعد أن نجى نوحا (عليه السلام) ومن آمن معه أمر الأرض أن تبلع الماء الذي خرج منها، والذي نزل عليها من السماء، وأمر السماء أن تقلع عن الإمطار، فامتثلتا لأمر الله تعالى، فابتلعت الأرض ماءها، وأقلعت السماء عن المطر، ثم نضب الماء من الأرض وقضي بذلك الأمر بهلاك المكذبين ونجاة المؤمنين[2].

ومما أجرى الله تعالى فيه البيئة على خلاف العادة ضمن هذا النطاق ما قرره في أمر قوم لوط (عليه السلام)، حيث جعل الله تعالى عالي الأرض سافلها، وأرسل على قومه لجريمتهم الشنيعة حجارة من سجيل تعذيباً وتنكيلاً بهم، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ * وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ * إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[3].

---

(١) هود ٤٤.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٣٦٨.

(٣) الحجر ٧٤.

إن الله تعالى قلب على قوم لوط مدينتهم، وأمطر عليها حجارة من سجيل تتبع فيها من شذ من البلد، وجعل من هذا التعذيب لهم آيات للمتوسّمين، وهم المتأملون والمتفكرون الذين لهم فكر وروية وفراسة، والذين يفهمون بها ما أريد بذلك من أن من تجرأ على معاصي الله تعالى – خصوصا الفاحشة العظيمة – فإن الله تعالى سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات.

وقد جعل الله تعالى مدينة قوم لوط سبيلاً مقيما للسالكين يعرفه من يتردد في تلك الديار (١). وبذلك فإن الله قد سخر البيئة على خلاف العادة لأجل حكمة ذكرها فيما أورده من قصة خسفه لمدينة قوم لوط.

ثم إن ما يقرر هذا الغرض من تسخير للبيئة على خلاف العادة إنما جاء تعذيباً لمن ارتكب في أرض الله الجرم العظيم، وحتى يكون في ذلك عبرة لكل من يرى ما آل إليه حالهم ومآلهم، والآيات في ذلك كثيرة في نصوص كتاب الله تعالى.

٥. **الإعلام بقيام الساعة** : وهذا هو الغرض الأخير الذي يجري الله سبحانه وتعالى تحقيقاً له تسخير البيئة على خلاف العادة، إذ أن الدنيا لما كانت بيئة مهيأة للإنسان على سبيل التأقيت كدار امتحان وابتلاء، فإن الله سبحانه وتعالى بما سخره فيها وفق ناموس معين، فإنه يجريه عند اقتراب الساعة على خلاف ما تقرر من خلاله. ومن أشهر

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٣، مرجع سبق ذكره، ص ٤١.

العلامات في ذلك خروج الشمس من مغربها وقد اعتاد الناس خروجها من المشرق.

يقول الله تعالى في محكم التنزيل مقرراً حقيقة التأقيت لبيئة الإنسان في الدنيا، وأن الحياة الدائمة السرمدية قد قررها بعد ذلك: ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

فالحياة التي خلق الله تعالى فيها الإنسان ما هي إلا لهو للقلوب، ولعب للأبدان بسبب ما جعل الله فيها من الزينة واللذات، والشهوات الخالية للقلوب المعرضة، الباهجة للعيون الغافلة، المفرحة للنفوس المبطلة الباطلة، ثم تزول سريعاً، وتنقضي جميعاً، ولم يحصل منها إلا على الندم والخسران على على الانشغال بملذاتها عن الآخرة.

أما الدار الآخرة فهي الحيوان والحياة الكاملة التي من لوازمها أن تكون أبدان أهلها في غاية القوة، وقواهم في غاية الشدة، يتنعمون في نعيم الجنة مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2].

فالله سبحانه وتعالى قد خلقنا كما قرر ليبلونا أينا أحسن عملاً، وأمر بتقواه لأننا سنرجع في يوم إلى الله تعالى لنوفى حسابنا على ما

---

(١) العنكبوت ٦٤.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.

قدمنا من عمل باعتبار تكليفنا، حيث لا ظلم ولا انتهاكات للحقوق، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ الَّذي خَلَقَ المَوْتَ وَالحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ العَزِيزُ الغَفُورُ ﴾[١]. وقوله تعالى في سورة البقرة في آخر آية نزلت من القرآن: ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾[٢].

وبذلك فإن الله تعالى عندما يأذن بقيام الساعة ونهاية وفناء البيئة المؤقتة التي خلق الإنسان فيها، فإنه تعالى يعلمه بذلك بواسطة تسخير للبيئة على خلاف العادة، ومن ذلك مما ورد في كتاب الله تعالى:

• **الخروج من الأجداث** : وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾[٣]. فالله سبحانه وتعالى عندما يأذن بدنو الساعة يقرر على الأرض كبيئة احتوت الأموات أن تخرج ما في أحشائها من مقبورين ليقوموا إلى أرض المحشر للحساب، ولا شك أن ما سيجري من ذلك جاء على خلاف ما سخر الله به الأرض في الحياة الدنيا لأجل أن يدفن بها الأموات ولا يخرجون حتى يأذن الله تعالى بقيام الساعة.

---

(١) الملك ٢.

(٢) البقرة ٢٨١.

(٣) الروم ٢٥.

• خروج الدابة: ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴾(١). فهذه الدابة التي تكلم العباد تعتبر من آيات اللّه العجيبة ليبين للناس ما كانوا فيه يمترون، وهذه الدابة هي الدابة المشهورة التي تخرج في آخر الزمان، وتكون من أشراط الساعة كما تكاثرت بذلك الأحاديث، ولم يرد عن هذه الدابة إلا أنها تكلّم الناس كلاماً خارقاً للعادة حين يقع القول على الناس، وحين يمترون بآيات اللّه تعالى، فتكون حجة وبرهاناً للمؤمنين، وحجة على المعاندين (٢).

وبذلك فإن خروج دابة على خلاف ما اعتاده الناس بما سخره اللّه تعالى لهم فيها في الدنيا للركوب والتجمل تسخير للبيئة على خلاف العادة إيذاناً بقرب الساعة، حيث يجري اللّه سبحانه وتعالى في البيئة ما لم يعتده الناس في حياتهم الدنيا.

• **إجراء المتغيرات الكونية على خلاف ما كانت عليه:** حيث يجري اللّه سبحانه وتعالى ما سخره اللّه تعالى للإنسان لأغراض معينة على خلاف ما كان مسخراً عليه له في الدنيا، فإذا كانت الشمس تعلمه ببزوغ الفجر فإنها ستجمع وتلف، وإذا كانت النجوم هداية له في السماء فإنه ستنكدر وتتغير وتتناثر، أما الجبال التي كانت أوتاداً تثبّت الأرض

---

(١) النمل ٨٢.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص ٧٢.

حيث لم يعد لوجود الأرض اعتبار فإنه ستسيّر وتكون كثيباً مهيلاً، أما العشار – وهي النوق التي تتبعها أولادها، وهي أنفس ما كان عند العرب – فإنها سيعطل الاهتمام بها، كما أن الوحوش التي اعتاد الإنسان أن يراها في البيئة متناحرة من أجل البقاء ستحشر وتجمع يوم القيامة ليقتص الله تعالى من بعضها لبعض، والبحار ستوقد فتصير ناراً تتوقد على عظمها، كما أن السماء ستكشط وتزال [1]. ويقرر ذلك قول الله تعالى في سورة التكوير: ﴿ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ *وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ *وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ * وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ * وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ * وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ ﴾[2].

كما أن الأرض ستتزلزل وترجف وترتج حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم، فتندك جبالها، وتسوّى تلالها، وتكون قاعاً صفصفاً لا عوج فيه ولا أمت، هذا فضلاً عن أنها تخرج ما في بطنها من الأموات والكنوز، ليقول الإنسان مستغرباً من إجراء الله تعالى البيئة على خلاف العادة مالها ؟، فيجري حالها على خلاف العادة بأن تشهد على العالمين بما عملوا على ظهرها من خير وشر، فإن الأرض من جملة الشهود الذين يشهدون على العباد بأعمالهم، حيث أمرها الله تعالى أن تخبر بما عمل

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٥، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٦.

(٢) التكوير ١– ١١.

عليها فلا تعصي لأمره [١]. ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ❁ وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ❁ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ❁ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ❁ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ﴾[٢].

إذا كانت البيئة قد سخرها اللّه تعالى مادة وروحاً لخدمة الإنسان باعتباره الوصي والقيم عليها، فإنه عندما يزول عنه هذا الوصف فإن حالها المسخّر التي كانت عليها تزول معالمه وفطرته التي فطره اللّه تعالى عليها إعلاماً بانتهاء صلاحيتها لحياته واقتراب الساعة، كما أن اللّه تعالى قد يجري البيئة على خلاف العادة تحقيقاً لجانب الإعجاز الذي يعين على أداء رسالة المبعوث رحمة للعالمين، أو للاختصاص بعد الابتلاء كما كان ذلك مع نبي اللّه تعالى سليمان (عليه السلام)، كما يكون كذلك تعذيباً على ما اقترف الإنسان من المعاصي والآثام مما يستلزم ذلك ضرورة وعبرة.

إن اللّه سبحانه وتعالى عندما تحدث عن حركة تفاعل البيئة كان يبرز أن ذلك يكون بتسخيره وبأمره، فهو بذلك سبحانه وتعالى صانع متقن يجري على مصنوعه ناموساً وقانوناً للتفاعل بين عناصر ومكونات هذا المصنوع الذي منه الإنسان، وهو بذلك جل في علاه يجري ما يجري لحكمة باعتبار العادة أو من دون اعتبارها، وما يفعل من شيء

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٥، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٥.

(٢) الزلزلة ١ – ٥.

جل في علاه إلا له دلالة ومقصد، وهو الأجدر وحده لا شريك دون غيره باعتبار الصانع ولا صانع غيره أن يجري في هذا الكون ما يقيم حياة من استأمنه عليه وهو الإنسان، حيث جعل له هذه البيئة كينونة يكون فيها تحت الاختبار، فهو إما أن يعمّرها بما عمّر به قلبه من الإيمان والتصديق بالله تعالى واليقين به والعلم، وإما أن يدمّرها بما عمّر قلبه بها من الإلحاد والكفر والإنكار الله تعالى، والانحراف عن الجادة بتقويم علاقته به على غير منظور القواعد المقررة في بناء العلاقة بها انتفاعا وحماية.

المبحث الثاني

بناء علاقة الإنسان بالبيئة

إن من القواعد المقررة حول الصفات التي تتسم بها شريعة الله تعالى التي بعث بها النبي محمداً (صلى الله عليه وسلم) الشمولية والعموم، فهي بأحكامها وقواعدها التي تنظم علاقة الإنسان استوعبت حياة الإنسان ممن التزم بها فنال الثواب بالجنان، أو لم يلتزم بها فنال العقاب بالنيران.

ذكرت فيما سبق نقلاً عن عبد الرحمن جيرة أن ما ساعد أوروبا ممثلة في أبحاث علمائها أن دين أوربا ليست له أطماع علمية، حيث إنه لا يوجد في الكتاب المقدس ما يدعو إلى العلم أو التمسك بالنظريات العلمية أو حتى احترام العلماء وتقدير النتائج التي يتوصلون إليها، بل الموجود يكاد يكون عكس ذلك. ومن هنا لم يجد المتحدثون عن البيئة في الكتاب المقدس ما يسند نظرتهم، أو يقدم لهم تفسيراً مقبولاً لمشاكلهم البيئية؛ ولهذا عندما تخلّت أوربا عن دينها وأخذت بأسباب العلم أظهرت العداء للكنيسة، وحاول رجال العلم الاقتصاص منها بعد أن حجرت على عقولهم فترة طويلة من الزمن، والبديل الذي اعتمدوا عليه هو نظريات علمية لا تضع لخالق الكون وزناً، مثل: نظرية الماركسية والوجودية كنظرية فلسفية لها انعكاسات علمية.

أما بناء العلاقة بين البيئة والإنسان فهي تنطلق في منهجية الإسلام من خلال بناء هذه العلاقة وفق منظور الدين، حيث إن غير المسلم له قناعات وتوجهات وفلسفات ينطلق بها في بناء علاقته مع البيئة، والمسلم هو الآخر في المقابل لا بد أن يرسي قناعاته وتوجهاته وفلسفته على ما قررته النصوص الشرعية من نظرة للبيئة باعتبارها مخلوقاً عظيماً بما حوته من مخلوقات الله تعالى، حيث يشكّل الإنسان محور التأثير الأول في إرساء التوازن بين عناصرها لتعمر وتثمر، أو الاعتداء والتعدي عليها مما يجلب الاختلال في توازنها الذي خلقها الله عليه.

أولاً : علاقة المسلم وغير المسلم بالبيئة

لما كان منطلق الغرب في تأصيل نظرته للبيئة وما استقر عليه من منطق وفلسفة في أبحاثه الاستكشافية البيئية يقوم على عدم الربط بين قواعد الدين وهذه الاستكشافات، حيث كان تبرير ذلك يتمثل في عدم معالجة هذه المسألة في الكتاب المقدّس، فإن الوضع في منظور الإسلام يختلف، حيث جاء الأمر ضمن محاور عديدة بضرورة الالتزام بسلوكيات بيئية من قبل الإنسان المسلم في علاقته مع بيئته.

• **علاقة المسلم بالبيئة** : إن علاقة المسلم بالبيئة من منظور الدين تتسم بأنها علاقة توازن واتساق وتفاعل إيجابي، بريئة من الاختلال والتطرّف، فالمسلم لا يعبد البيئة؛ لأنه يعرف أنها مخلوقة مثله، وأن هناك خالقاً لها وله، ولا يعتزلها لأنه يعلم أنها مخلوقة من أجله،

وأنه لا غنى له عنها في حياته وممارسته لمهمته ووظيفته، ولا يقهرها لأنه يعلم أن محاولة ذلك في غير صالحه هو.

إن هذه العلاقة الحميمة بهذه الصورة قد صاغها الإسلام كأحسن ما تكون عليه علاقة بين اثنين لا غنى لأحدهما عن الآخر، وحمى بذلك العقل المسلم من الخوض في متاهات فلسفية عقيمة.

كما أن أقرب مدرسة وضعية إلى الحق هي تلك المدرسة التي تدعى بالتوافقية على نحو ما سنعرضه في علاقة غير المسلم بالبيئة، حيث تعطي لكل من البيئة والإنسان دوراً فاعلاً في صياغة العلاقة بينهما، فالعلاقة إذاً بين الإنسان والبيئة من منظور الإسلام علاقة مضبوطة بسنن وقوانين لا يستطيع الإنسان خرقها.

إن خلاصة القول في علاقة الإنسان بالبيئة من منظور الإسلام يتضح من خلاله منظومتها وفق ما قررته قواعد الدين أنها ترفض التعطيل والاعتزال والترك؛ إذ أن ذلك منافٍ للحكمة من خلق البيئة، فهي لم تخلق لتعطّل ولتظل أسرارها مكنونة مكنوزة، كما أن هذه العلاقة ترفض الاستنزاف؛ وذلك لأن البيئة لم تخلق لجيل دون جيل، وإنما هي حق للبشرية كلها في كل الأماكن وفي كل الأزمان.

فلا مفر إذاً من العمل المشترك القائم على الاحترام والعرفان بما هنالك من منافع وحقوق، والإيمان الكامل بأن ما يحيط الإنسان ليس مجرد جماد وحيوان ونبات، وإنما هذه تشكّل نعما من الله تعالى.

• **علاقة غير المسلم بالبيئة:** إن هذه القضية استهوت العديد من العلماء والفلاسفة على مر العصور، وخلاصة رصدهم لهذه العلاقة تمخّضت عن ثلاث مدارس هي:

١. مدرسة الحتمية: والتي تذهب إلى أن البيئة هي صاحبة الكلمة الأولى في تشكيل هذه العلاقة.

٢. المدرسة الإمكانية: والتي تعطي للإنسان الوزن الأكبر في صياغة هذه العلاقة.

٣. المدرسة التوفيقية: والتي تذهب إلى أن العلاقة تتمثل من خلال دور فعّال لكل من الإنسان والبيئة، حيث يمارس كل منهما تأثيراً في الآخر.

ومن المنظور العملي الواقعي نلاحظ أن هذه العلاقة غلب عليها طابع الاختلال، وقد تأرجحت في التطرّف إلى حد العبودية والتألّه، وهناك حالات ليست بقليلة خضع فيها الإنسان للبيئة ممثلة في بعض جوانبها خضوع العبد للإله، وفي حالات كثيرة كان العكس، وخير مثال على ذلك ما أفرزته الحضارة الغربية الحديثة، حيث ضاعت العلاقة بين الإنسان والبيئية على أساس تألّه الإنسان على البيئة، وقد ترتب على ذلك ما ترتب من قهر واغتصاب للبيئة.

ومما يقرر هذه الفلسفة في العلاقة ما قاله آرك فروم موضحا حقيقتها: (إن علاقة الناس – طبعا يقصد غير المسلمين – بالطبيعة

اتسمت بالعداء الألد، فنحن من نزوات الطبيعة ظروف وجودنا تجعلنا جزءاً منها، وموهبة العقل تجعلنا نتفوق ونعلو عليها. ومن ثم فقد حاولنا أن نحل معضلة وجودنا بنبذ رؤية الخلاص المتمثلة في الانسجام بين الجنس البشري والطبيعة، واتجهنا نحو إخضاعها وقهرها وتحويلها لخدمة أغراضنا، إلى أن أصبح هذا القهر مرادفاً لتدبير الطبيعة حدوداً يمكن أن تنقذ، وأنه سيأتي اليوم الذي سترد فيه الطبيعة على جشع الإنسان .... إن المجتمع الصناعي يحتقر الطبيعة، ويحتقر كل ما ليس من صنع الآلة).

ويرى شوقي أحمد دنيا أن منبع المشكلة في رسم العلاقة بين الإنسان والبيئة لدى الإنسان غير المسلم تنبع من بنائها دون استشعار وجود نظام محكم لهذه العلاقة أوجده خالق كل من الإنسان والبيئة، فالإنسان غير المسلم يتحرك في علاقته مع البيئة على أنها مخلوقة بطريق المصادفة ودونما سنن وضوابط، ودونما هدف وغاية، فهو متروك له أن يشكل هذه العلاقة حسبما يريد، وفي ضوء موازين القوى بينه وبينها، فأحياناً يرهبها فيعبدها، وأحياناً يعتزلها، وأحياناً يعمل على قهرها واغتصابها واستنزافها، وأحياناً يتعامل معها بعقل واتزان.

إن دراسة علاقة غير المسلم بالبيئة وضرورة بنائها إلى حد ما بما يتوافق مع السلوك الإسلامي في بناء العلاقة أصبح ضرورة ملحّة؛ إذ هناك اعتراف متزايد نابع من الواقع المعايش يؤكد بأن آثار السلوك

البيئي لا تقف على الإطلاق عند القائم بالسلوك، ولو لوّثت دولة بيئتها فإنه سيضار العالم كله من هذا التصرّف [1].

ومن خلال ما سبق من بيان لجوانب علاقة الإنسان بالبيئة وعلاقة البيئة بالإنسان أجد أن هذه العلاقة ينبغي أن تؤصّل في الإنسان غريزة الحاجة وعدم القدرة على الاستغناء، وأن هذه البيئة التي يحتاج إليها الإنسان إنما احتاج إليها لأنها هي الكفيلة بإبقائه على قيد الحياة بإذن اللّه تعالى، ولكن ذلك رهن ببقائها على وضع معيّن وبصورة معيّنة، وعدم استنزافها ولا العمل على تخريب صورتها بما يعيق تلبيتها لاحتياجات الإنسان، فهناك حدود وضوابط في العلاقة معها ينبغي على الإنسان مراعاتها، وهناك أبعاد ينبغي على الإنسان أن يقف عندها عند تعامله معها، كما أن هناك أوامر أو فروض أو واجبات عليه أن يلتزم بها كمسلم في علاقته بها، وعليه أن ينقلها إلى الإنسانية جنبا إلى جنب مع غيرها من المبادئ الإصلاحية والتوجيهية المكلف بتبليغها، والتي تنطلق من عالمية الرسالة المحمدية.

إن التطبيقات الفقهية التي تعتمد أصلاً على ما أصّلته النصوص التشريعية تعتبر مكمّلة ومقررة ومفرّعة لما تناولته هذه النصوص التشريعية، فبها يمكن أن تتحدد رؤية واضحة يمكن أن ندرك من خلالها

---

(١) دنيا – شوقي أحمد، التنمية والبيئة – دراسة مقارنة، سلسلة دعوة الحق، وهو كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة ١٢، جمادى الأولى ١٤١٤، العدد ١٣٧، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية، ص ٢٧.

ونستوعب صورة الواقع وفقه التعامل معه، ومن دونها نتخبّط خبط عشواء لا نتمكّن من خلاله من إدراك أي حقيقة وأي فهم مستقيم لهذه العلاقة المقدّسة، وبذلك تتحدد لنا ضوابط الانتفاع بالبيئة، ومستلزمات الرعاية والحماية لها من الاعتداء والانتهاك

ثانياً - مقارنة ببعض الثقافات :

ذكر عبد المجيد النجار في مقارنة له بين منظور الإسلام في بناء علاقة الإنسان بالبيئة وتأسيسها على منظور الدين أو من خلال غير ذلك، بأنه قد لا تتبين الصورة التي ارتسمت في الثقافة الإسلامية للعلاقة الوجودية بين الإنسان والبيئة كما رسمها القرآن الكريم بصفة جلية، بحيث تظهر جلية بتفردها في خصائصها إلا بعقد مقارنة بينها وبين الصورة المرسومة لتلك العلاقة في بعض الثقافات الأخرى، خاصة منها تلك التي كان لها تأثير في الثقافة الغربية فيما أفضت إليه من أثر في البيئة الطبيعية يُعبر عنه بأزمة البيئة.

وبالإضافة إلى أن هذه المقارنة تُجلي الصورة القرآنية لعلاقة الإنسان بالبيئة، فإنها ستكون أيضاً ذات دور في تبين ما كان من تصرف بيئي مهلك للحضارة الغربية نتيجة لصورة العلاقة بين الإنسان والبيئة التي رسمتها الفلسفة الحديثة في الثقافة الغربية، وما يقابل ذلك من أثر بيئي إيجابي تفضي إليه صورة هذه العلاقة كما رسمها القرآن الكريم، وكما طُبقت في تجربة الحضارة الإسلامية.

وأوضح ما تنجلي عنه المقارنة بين التصور الإسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة وبين تصورات الثقافات الأخرى - وعلى رأسها الثقافة الغربية - أن تلك الثقافات لم تهتد إلى إقامة المعادلة الدقيقة بين الوحدة بين الطرفين أو الرفعة لأحدهما على حساب الآخر في تلك العلاقة كما أقامها التصور الإسلامي، وإنما مالت تلك الثقافات كلياً أو جزئياً إلى تصور علاقة ذات طرف واحد، فهي إما مفاصلة بين الطرفين لا يبدو فيها مظهر للوحدة، وإما وحدة بينهما لا يبدو فيها مظهر معتبر للتمايز، وفي كلا الحالين ينخرم الميزان القيمي نحو الإلغاء لطرف على حساب الآخر، فلا تكون للإنسان قيمة إزاء البيئة، أو لا تكون للبيئة قيمة أو حتى وجود حقيقي إزاء الإنسان، ولكل من هذا وذاك آثاره العملية في السلوك البيئي.

• **في الثقافات القديمة** : لقد كان في الثقافات الغنوصية الشرقية وفي الثقافة اليونانية خط بيّن يفصل بين الوجود الإنساني وبين الوجود الطبيعي البيئي لا يسمح بتصور وحدة تقوم بينهما، ففي هذه الثقافات يعتبر الإنسان على وجه الحقيقة هو تلك الروح التي هبطت من عالم المثل فحلّت في الجسم المادي حلول الغريب في سجن مقيت، ويكون كل همه أن ينعتق من ذلك السجن المادي المتمثل في البيئة الطبيعية التي ليس جسم الإنسان إلا واحداً من مفرداتها، فهناك إذاً انفصال تام بين الإنسان والبيئة، وهناك إلغاء لقيمة البيئة بإزاء تمحيض الرفعة كلها للإنسان المتمثل حقاً في الروح النازلة من العالم العلوي.

وفي العهد القديم يقف الباحث على تصوير العلاقة بين الإنسان والبيئة مخالفة لتلك التي رسمها القرآن الكريم، فقد ورد فيه تقرير لوحدة مادية بين الطرفين تنتهي إلى إلغاء تميز الإنسان قيمياً على عناصر البيئة، فإذا هو مساوٍ لها في قلة الشأن أو هو أقل منها شأناً، وهو ما جاء في سفر الجامعة – وهو إحدى أسفار الإنجيل – حيث قال: (قلت في قلبي من جهة أمور البشر: إن الله يمتحنهم ليريهم أنه كما البهيمة هكذا هم؛ لأن كليهما باطل، يذهب كلاهما إلى مكان واحد، كان كلاهما من التراب، وإلى التراب يعود كلاهما)، كما جاء في سفر أيوب: (... لأن للشجرة رجاء، إن قطعت تخلف أيضاً، ولا تعدم خراعيبها ولو قدم في الأرض أصلها، ومات في التراب جذعها، فمن رائحة الماء تفرخ وتنبت فروعاً كالغرس، أما الرجل فيموت ويبلى)، وهكذا يكون الإنسان في العهد القديم هو مع عناصر البيئة وحدة في التكوين، ولكنها وحدة ينتفي فيها تميزه القيمي عنها.

وتتسع الفجوة بين الإنسان والبيئة في ثقافات أخرى انتقصت من قيمة الإنسان ورفعت من قيمة العناصر البيئية حتى أصبحت تُصور في صورة الآلهة التي يُتجه إليها بالتعظيم والعبادة، فإذا الأنهار والجبال والأشجار والحيوانات معبودات يخضع لها الإنسان بالولاء، ويذل لها بالطاعة، ويقدم لها القرابين من نتاج كدحه، وأحياناً من ذات نفسه كما كانت تُقدم أجمل العرائس قرباناً لنهر النيل في بعض عهود الفراعنة. إنها ثقافة قامت على تصور الانفصال بين الإنسان والبيئة انفصالاً اختلت فيه موازين الرفعة لصالح البيئة على حساب الإنسان.

• **في الثقافات الغربية المعاصرة** : لقد كان لكل هذه الصور لعلاقة الإنسان بالبيئة في الثقافات القديمة صدى بشكل أو بآخر في الفلسفة الحديثة التي قامت على أساسها الحضارة الغربية، فقد قامت هذه الفلسفة في تصور العلاقة بين الإنسان والبيئة على تيارين متناقضين تختل في كل منهما هذه العلاقة باختلال معادلة الوحدة والتميز القيمي اختلالاً يكون فيه الميل إلى أحد الطرفين على حساب الآخر، فإذا هذه العلاقة إما انفصال تنتقص فيه قيمة البيئة المادية، وإما وحدة تُستنقص فيها قيمة الإنسان.

لقد كانت فلسفة أفلاطون ومن على نهجه شديدة الأثر على رواد الفلسفة الحديثة وعلى رأسهم ديكارت الذي أقام فلسفته على الفصل بين الإنسان والعالم المادي، فقد قسم الوجود إلى ذات إنسانية هي الحقيقة الأولى والأكبر والأوثق بما تمارس من فكر، وإلى موضوع هو العالم المادي الخالي من أي معنى روحي، المتصف بالآلية الحادة، الضئيل الباهت حتى في أصل وجوده. وقد ابتدأ هذا الفصل عند ديكارت بين الإنسان والبيئة المادية من الفصل في ذات الإنسان بين الروح التي هي المجلّى الحقيقي لوجود الإنسان، وبين الجسم الذي هو مجرد محل لحلول الروح، ثم تقدم هذا الفصل فإذا ديكارت يجد نفسه موزع الهوى بين عالمين متنافرين: عالم المادة الميكانيكي الخارجي، وهو البيئة المادية، وعالم العقل الداخلي الذي هو الإنسان غير المرتبط بالأول، وهو لا يفلح أبداً في التوفيق بينهما.

إن هذه الصورة الديكارتية – نسبة للفيلسوف ديكارات – لعلاقة منفصلة بين الإنسان المفكر وبين البيئة المادية وهي صورة متأثرة من جهة الماضي بالفصل الأفلاطوني بين الطرفين، ومؤثرة من جهة المستقبل على الشطر الأكبر من الفلسفة الحديثة، فيكون إذاً الفصل الأفلاطوني الحاد بين الإنسان وعالم المادة هو الذي أصبح عن طريق ديكارت السمة البارزة لصورة العلاقة بين الإنسان والبيئة في الثقافة الغربية، حتى لقد قيل: (إن الفلسفة الغربية بكاملها ليست سوى حاشية لأفلاطون، والفضل الأكبر في ذلك يجب أن يُعزى إلى جهود ديكارت التي انتهت إلى أن أصبح الإنسان الحديث الجديد يشير بإصرار إلى أعلى بعيداً عن الطبيعة، وبعيداً عن كوكب الأرض نحو عالم أثيري يستطيع منه العقل الإنساني المتجرد أن يلاحظ حركة المادة في كل مكان). وقد انتهى الأمر بهذا التوجه الأفلاطوني الممتد في أثره إلى ديكارت إلى أن أصبح انفصام الإنسان عن البيئة الطبيعية هو المحصلة النهائية للفلسفة الحديثة فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالبيئة.

إنه لمن البين أن هذه الصورة التي تقوم على الفصل بين الإنسان والبيئة هي صورة تُعلي من مقامه بالنسبة إليها، ولكنها تذهب بذلك الإعلاء إلى ما يقارب الإلغاء لأي قيمة لها هي، فهي ناقصة حتى في حقيقة وجودها؛ إذ هي لا تعدو أن تكون في أحسن الفروض مجرد امتداد كمي، وأما كل مقومات حقيقتها الأخرى فهي تابعة فيه للتصور الإنساني.

إن هذا الفصل الحاد بين الإنسان والبيئة انتهى إلى نفي أي معنى من معاني الوحدة بينهما، وانتهى ذلك بالتالي إلى انتفاء إمكان أن يندرج الطرفان في سلم موحد للقيمة يكون فيه الإنسان الأعلى درجة، مثلما كان الأمر في التصور الإسلامي الذي قامت فيه المعادلة بين الوحدة والتميز على نحو دقيق.

وحينما قامت في الفلسفة الغربية نزعة مقابلة لنزعة الفصل هذه بين الإنسان والبيئة، وقائمة على الوحدة بينهما، فإنها لم تكن أيضاً موفقة في إقامة المعادلة التي انخرمت بالفصل، ذلك أنه نشأ في الفكر الغربي اتجاه مادي يجعل الوجود الحق هو الوجود البيئي، وأما العقل وهو الممثل لحقيقة الإنسان فليس إلا صدى للمادة، إنها هي الحقيقة الأصلية والإنسان ليس إلا امتداداً لها، ونقطة من نقاطها، ومرحلة من مراحلها، فهو إذاً مظهر للوحدة الكاملة بين الطرفين: الإنسان والبيئة.

وإذا تأملنا الفلسفة التطورية باعتبارها أحد التجليات المهمة لهذا المنزع المادي الموحد للإنسان والبيئة، فإننا نجد هذه الفلسفة تبلغ في تصوير الوحدة بين الإنسان والبيئة مبلغاً يكون فيه الإنسان ليس إلا حلقة من حلقاتها، ناشئة بالتطور عن حلقات أدنى منها، وقد تنتهي إلى حلقة أعلى، ومثله في ذلك مثل أي موجود بيئي آخر، وهذا التصوير الدارويني – نسبة إلى داروين للوحدة بين الطرفين وصلت بالمطابقة بينهما درجة انتفت فيه إمكانية أي تميز قيمي للإنسان على البيئة، حيث أصبح في أصل وجوده وفي عناصر تكوينه بل في الغاية من حياته لا يختلف عن سائر الكائنات البيئية بشيء، ولا يتميز عنها بقيمة.

ومما عزز هذه الوجهة في التوحيد بين الإنسان والبيئة إلى الدرجة التي تنتفي فيها إمكانية القول بتفوقه القيمي عليها ما تم من اكتشافات فلكية عظيمة أبانت عن سعة للكون أضحى فيها الإنسان، بل الكرة الأرضية التي هو عليها ليسا إلا ذرة في محيط غير متناه من الرمال، وتلاشت المركزية التي كانت تُظن لهما ليصبحا دائرين بتحريك أفلاك عظمى، فهذه السعة في تصور الكون أكدت وحدة الإنسان والبيئة؛ إذ بالنظرة من موقع بعيد تزول الفروق بين الأشياء، كما أنها قللت من شأن الإنسان الذي صغر حجمه بتوسع الكون، وانتهى الأمر إلى صورة للإنسان في علاقته بالبيئة تنخرم فيها المعادلة بين الوحدة والتميز القيمي بالميل إلى جهة الوحدة، كما انخرمت في الوجهة الديكارتية بالميل إلى جهة الفصل، وكان هذا الانخرام بوجهيه هو الصورة الثقافية التي وجهت الحضارة الغربية في سلوكها البيئي، مع ما نتج عن ذلك التوجيه من المشاكل.

إن هذا التصور لعلاقة الإنسان بالبيئة كما انتهى إليه في الفلسفة الحديثة ليس فيه بشقيه الفاصل والواصل أي مجال لعلاقة وجدانية روحية بين الطرفين؛ إذ في أحدهما يستعلي الإنسان على البيئة بمسافة لا تسمح بقيام هذه العلاقة، وفي الثاني ينتفي أصلاً في الطرفين الأساس الروحي الذي يمكن أن تقوم عليه العلاقة الوجدانية. والرابطة المعرفية في بعدها التوافقي المثمر لضرب من الانسجام تكاد تنتفي هي أيضاً بين الإنسان والبيئة في هذا التصور؛ ذلك لأن هذه الرابطة إنما تقوم بين واقع بيئي محكوم بقوانين موضوعية ثابتة يقابلها عقل قائم على ما

يوافق تلك القوانين من المبادئ، ولكن في الفلسفة الحديثة انقسم المفكرون في النظرة إليها إلى طائفتين: واحدة تأخذ بالعلم فترد الفكر إلى حركة مادية، وأخرى تنحاز إلى الفلسفة فترد المادة والحركة إلى الفكر.

لقد كان التصور الإسلامي للعلاقة الوجودية بين الإنسان والبيئة يقوم على توازن بين وحدة تنفسح فيها رابطة مادية روحية وجدانية، وبين تميز قيمي للإنسان على البيئة في سلم تحتل فيه هي أيضاً درجة وإن تكن أقل من درجة الإنسان، ولكن التصور الفلسفي الغربي بجذوره القديمة وإضافاته الجديدة ينخرق فيه ذلك التوازن إما بالميل إلى جهة الفصل المجحف الذي يستعلي فيه الإنسان بمسافة لا تسمح بالتقاء كما آلت إليه الفلسفة الديكارتية، أو بالميل إلى جهة الوصل المجحف الذي لا مجال فيه لتميز قيمي كما آلت إليه الفلسفة المادية، ولكل من الصورتين أثرها البالغ في السلوك البيئي.

ومن جانب آخر أشار النجار بأننا حينما نتأمل في سائر الثقافات عموماً، وفي الثقافة الغربية وما كان أثر فيها من ثقافات قديمة خصوصاً، فإننا لا نجد فيها نظيراً لمعنى التسخير مقرراً لصلة الإنسان بالبيئة فيما يخص العلاقة الوظيفية بينهما. ولا شك أن ذلك يرجع في شطر كبير منه إلى الاختلاف في تصور المهمة التي على الإنسان أن يقوم بها في الحياة، فتلك المهمة هي التي تحدد العلاقة الوظيفية بالبيئة، فعلى سبيل المثال حينما تكون ثقافة ما ليس فيها للإنسان من غاية في الحياة، فإنها لن تكون فيها حاجة إلى تصور لبيئة مسخرة له، وحينما تكون الغاية من

حياة الإنسان في ثقافة أخرى هي معاناة العذاب بسبب ما اقترف الأب الأول من الخطيئة، فإنه لا يكون مبرر لمعنى التسخير البيئي، بل ذلك يقتضي فظاظة البيئة وغلظتها وتمنعها عن العطاء، وهكذا تكون الغاية من الحياة العنصر المهم في تحديد العلاقة الوظيفية بالبيئة.

كما أكد بأننا حينما نستعرض بعض الثقافات المؤثرة في الثقافة الغربية التي صنعت الحضارة الراهنة بما أفضت إليه من مشكلة بيئية من حيث ما صورت من علاقة وظيفية بين الإنسان والبيئة، فإننا نجد جملة من الثقافات الوثنية استقرت فيها صورة للبيئة تتصف فيها بالسطوة والجبروت، فهي في علاقة الإنسان بها ليست فقط أبية متمنعة عن العطاء ليقيم الإنسان عليها حياته مهما يكن الغرض من تلك الحياة، وإنما هي فوق ذلك معادية له وغاضبة عليه ومتربصة به؛ لذلك فإنه في سبيل اتقاء غضبها وسخطها يتخذ من بعض عناصرها آلهة يسترضيهم بالقرابين ليرد سطوتهم ويرد بهم سطوة غيرهم من عناصر البيئة، وليستنزل عطاءهم ويستنزل بهم عطاء غيرهم من تلك العناصر.

وقد كانت الفلسفة اليونانية وخاصة في أوائلها تنحو هذا المنحى الوثني الذي يؤله الطبيعة اتقاء واسترضاء، وظل فيها بعد تطورها خيط مستمر منه بحيث لا يخفى أمره على الدارس المتأمل فيها حتى في أوج ازدهارها كما بلغته في عهد أرسطو، فواجب الوجود عنده ليس له تدبير للعالم المادي ولا حتى علم بتفاصيل ما يجري فيه، فكيف يمكن أن يكون لمعنى التسخير البيئي مكان في هذه الفلسفة؟. وعلى هذا النحو

كان الأمر في الثقافة الفرعونية والإغريقية والرومانية، فقد كان صراع الإنسان مع البيئة فيها ملمحاً بيناً، وهو نقيض أن تقوم علاقة تسخيرية بين الطرفين.

أما فلسفة أفلاطون وامتداداتها في الأفلاطونية المحدثة، وكذلك الفلسفة الغنوصية الشرقية بما تعتبر جميعها من أن غاية الحياة الإنسانية هي انعتاق الروح من سجن المادة ورجوعها إلى عالم المثال، فإنها كانت تعتبر البيئة المادية ليست فقط غير مسخرة لخدمة الإنسان في القيام بوظيفته، وإنما هي معرقلة له في ذلك، إذ هي التي تشد روحه بملاذها إلى عالم الكدر الطيني، وتمنعها من الانعتاق إلى عالم الخير الكلي، فالعلاقة الوظيفية بين الإنسان والبيئة في هذه الثقافات هي إذاً علاقة معكوسة بالنسبة لما في الصورة الإسلامية، إذ أنها علاقة عرقلة وتعطيل وليست علاقة تيسير وتسخير، وليست الثقافة المسيحية ببعيدة من هذا التصور، حيث أن فكرة الخلاص الروحي من عالم المادة بالرهبنة والزهد في فكرة قائمة فيها، وهي مانعة من قيام معنى التسخير البيئي.

ومن هذه الثقافات التي لا مجال فيها لمعنى التسخير في علاقة الإنسان بالبيئة ترشحت أفكار كثيرة في هذا الخصوص إلى الثقافة الغربية، فجذور هذه الثقافة كما هو معلوم ضاربة في تلك الثقافات القديمة؛ ولذلك فإن المتأمل في الفلسفة الغربية بمختلف تياراتها التي أثرت في صياغة الحضارة الراهنة لا يجد فيها حظاً لفكرة التسخير

البيئي لا من الناحية المادية ولا من الناحية الروحية، ودع عنك في هذا الشأن أفكاراً لبعض الفلاسفة ربما كان فيها مكان لمعنى التسخير، ولكن لم يكن لأصواتهم تأثير في التوجيه الحضاري العام، ودع عنك أيضاً اتجاهات في فلسفة العلم حديثة ربما نحت في التفكير منحى الإقرار بالتسخير البيئي، ولكنها لم تقو بعد على التأثير في المجرى الحضاري العام الذي نحن بصدد بيان أثره السلبي على البيئة.

إن الفلسفة الحديثة تقوم في مجملها على انتفاء الغائية في التصور الوجودي بأكمله، فانتفت بذلك في هذه الفلسفة محددة بين وظيفة للإنسان يقوم بها في حياته تتجاوز في أثرها وجوده الأرضي، فهو إذاً إن كانت له وظيفة فهي قصيرة المدى لا تتجاوز كثيراً وظيفة أي كائن آخر من الكائنات البيئية، وانتفت أيضاً الحاجة إلى تصور بيئي تكون فيه البيئة مسخرة للإنسان؛ إذ التسخير إنما تقتضيه الغاية المحددة للحياة، الممتدة المدى في آثارها إلى ما هو أبعد من مدى كل الكائنات الأخرى في وجودها.

لقد كان ديكارت (Descartes) وبيكون (Bacon) - وهما أكثر المؤثرين في الفلسفة الحديثة - يستبعدان في الطبيعة أي معنى غائي يمكن أن يسمح بتسخير البيئة للإنسان، وكان كلاهما يعتبر افتراض الغائية في الطبيعة أمرًا لا قيمة له، بل هو أمر مفسد للعلم، وحينما تُستبعد الغائية من الطبيعة فإن حركة سيرها سوف تكون محكومة بالآلية الصرفة، وهو ما ذهب إليه الفيلسوفان أيضًا، فتأسست بذلك الفلسفة

الحديثة في مجملها على منطق مادي ينكر الغائية، ويذهب إلى أن الكون ليس سوى مادة، وبالتالي لا يمكن أن يكون في الأشياء الطبيعية أي هدف؛ لأن المادة لا تستطيع أن تقصد هدفًا أو ترسم خطة، بل تتصرف بضرورة ميكانيكية داخلية فحسب، وحينئذ فهل يبقى إمكان لأي معنى من معاني التسخير في علاقة البيئة بالإنسان؟، وإذا كان العالم المادي كما رأيناه متقرراً في الفلسفة الغربية ليس له من الوجود الواقعي إلا الامتداد الكمي على أحسن الفروض، وأما ما سوى ذلك من الخصائص والتفاصيل فهو ليس إلا من الإضفاء العقلي، فإن البيئة الطبيعية ليس من شأنها إذاً أن تكون مقدرة لتلبية أغراض الإنسان، إذ أن ذلك متوقف على خصائصها وتفاصيلها وليس على امتدادها الكمي، وما دامت هذه الخصائص والتفاصيل لا وجود لها حقيقياً إلا في العقل فلا مجال إذاً لأن يكون إمكان لمعنى التسخير فيها.

كما أكد النجار في معرض حديثه عن نظرة الثقافة الغربية لصورة العلاقة بين البيئة والإنسان بأنه وحينما يكون الإنسان منخرطاً في البيئة انخراطاً تطورياً كما هو اتجاه مؤثر في الفلسفة الحديثة، فإنه يصبح إذاً خاضعاً مثل كل مفرداتها الأخرى لآليات التطور وقواعده، ومن أهم تلك الآليات الصراع من أجل البقاء، فإذا هو منخرط في علاقة صراعية مع البيئة يغالبها فيه وتغالبه من أجل البقاء، وهي علاقة تناقض تمام المناقضة علاقة التسخير التي تنفسح فيها عناصر البيئة وأنظمتها لتحتضن الإنسان، وتوفر له أسباب البقاء.

ومثلما ينتفي في الثقافة الغربية معنى التسخير المادي في علاقة الإنسان بالبيئة، فإنه ينتفي أيضاً معنى التسخير الروحي، وهو أولى فيها بالانتفاء بالنظر إلى صبغتها المادية، فالبيئة في هذه الثقافة لا تتضمن بعداً عقدياً يلبي في الإنسان أشواقه إلى المطلق، ولذلك فإن فلاسفة الغرب المتألهين بله غير المتألهين لم يتجهوا إلى البيئة ليجدوا فيها التجليات الإلهية، وإنما اتجهوا إلى عالم العقل يبحثون فيه عن اللّه، وذلك مثلما فعل ديكارت في انطلاقه للبرهان على وجود اللّه من فكرة الموجود الكامل الفطرية في العقل، وهم في ذلك يحاكون الفلسفة اليونانية التي تبحث عن واجب الوجود في محض التعقل المجرد لا في مظاهر البيئة الطبيعية، وهذا المنزع في الفلسفة الحديثة إنما هو دليل على انتفاء التوافق الروحي العقدي بين الإنسان والبيئة لانتفاء معنى التسخير العقدي في العلاقة بينهما.

وإذا كان الجمال الذي يُرى في البيئة الطبيعية إنما هو في الفلسفة الحديثة كما أسسه ديكارت وسينوزا ليس سوى انطباع ذهني دون أن يكون صفة حقيقية في البيئة، فإن التفاعل الإنساني مع الجمال هو مجرد تفاعل مع الذات وليس مظهر توافق مع عطاء بيئي حقيقي، فالبيئة لم تُهيأ في ذاتها بحيث تقدم للإنسان جمالاً، وإنما تخيله العقل فيها تخيلاً، وبذلك فإنه ليس ثمة علاقة تسخيرية روحية بين الإنسان والبيئة فيما يتعلق بالشوق الإنساني إلى المتعة الجمالية التي يتطلع إليها في البيئة الطبيعية.

وفي الفلسفة الحديثة أيضاً يغلب تيار قوي يرى أصحابه أن

الطبيعة ليست قائمة في تراكيبها وتحولاتها على قوانين منضبطة تحاكي ذلك المنطق الذي رُكب عليه العقل البشري، لتكون بذلك مسخرة معرفياً من أجله، فالمادة عند ديكارت تفتقر إلى كل خواص الإدراك باستثناء الكم، وهي عند ديفد هيوم لا تقوم على قانون العلّيّة الذي يقوم عليه العقل، وإنما هي تقوم على مجرد رابطة العادة، وهكذا ينتهي الأمر إلى ضرب من التضاد بين قوانين العقل وقوانين البيئة يفرز في الفلسفة الحديثة تياراً شكياً كذلك الذي انتهى إليه ألبير كامو وعبر عنه بقوله: (إن ما يتصف به العالم من تبلد وغرابة هو العبث بعينه، ما الذي يمكن أن يشكل أساس ذلك الصراع وتلك القطيعة بين العالم وعقلي إن لم يكن هو الوعي به؟... إن هذا العقل السخيف هو ما يجعلني متضاداً مع كل الموجودات).

إنها إذاً في الفلسفة الحديثة علاقة تضاد معرفي بين الإنسان والبيئة، وليست علاقة تسخير تكون فيه الطبيعة ميسرة بما رُكبت عليه من القوانين للإدراك العقلي، وذلك ما جعل حركة العلم بالطبيعة في الثقافة الغربية حركة مغالبة تسلح فيها العلم بالقوة حتى لقد سوى بيكون في عبارة شهيرة بين العلم والقوة، فصار العلم في هذه الثقافة هو محاولة لغزو طبيعة معادية والسيطرة عليها، وأصبح كما قال هايزنبرغ: (يُنظر إلى تقدم العلوم وكأنه حملة صليبية لغزو عالم المادة).

وقد أكد عبد الحميد النجار في ختام تحليله ومقارنته بين عدد من الثقافات في استقراء لتصورها تجاه البيئة بأن هناك بوناً شاسعاً بين الصورة الثقافية الإسلامية وبين الصورة الثقافية الغربية فيما

يتعلق بالصلة الوظيفية بين الإنسان والبيئة، حيث أن الصلة في الصورة الإسلامية تعبر عن تسخير قُدرت فيه البيئة تقديراً غائياً تنفتح به على الإنسان بما ييسر له أداء وظيفته في الحياة، فإذا هي حينما يقصدها بالاستعطاء تعطيه مسخرة عطاء ماديًا من عناصرها وأنظمتها، وعطاء روحياً من دلالاتها الغيبية ومن جمالها وقوانينها الموافقة لعلقه. وفي الصورة الغربية هي صلة تخلو من الغائية التي لا يقوم معنى التسخير إلا عليها، فإذا هي متصفة بالجفاء، منطبعة بطابع التمنع من قبل البيئة والمغالبة من قبل الإنسان، فهي أقرب إلى أن تكون علاقة تناقض، وأبعد من أن تكون علاقة انسجام وتواؤم.

وإذا انضاف هذا العنصر في علاقة الإنسان بالبيئة متمثلاً في العلاقة الوظيفية إلى ذلك العنصر المتمثل في العلاقة الوجودية على ما فيهما من الفروق بين التصور الإسلامي والتصور الغربي، كانت الصورة الثقافية الجامعة لهما ذات أثر سلوكي بيئي بالغ يختلف في الإيجاب والسلب بحسب ذلك الاختلاف في التصور [١].

إن المتتبع للعلاقة بين الإنسان وبيئته على المدى الزمني (البعد التاريخي)، وعلى المدى الأفقي (البعد المكاني) يرى أن علاقة الإنسان ببيئته اتسمت دائما بالتباين من بيئة إلى أخرى، والديناميكية من وقت إلى آخر، وذلك تبعا للمتغيرات التي مسّت وتمس الإنسان، وهو العنصر المرن والمتغير في طرفي هذه العلاقة.

---

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

لقد ظلت هذه العلاقة متوازنة فترة طويلة من عمر الإنسان، وذلك من منطلق أن الإنسان لم يكن قد بلغ في عدده حجماً كبيراً حتى يضغط بشدّة على موارد البيئة من ناحية، حيث كانت الإمكانيات البيئية من الوفرة بحيث تستطيع أن تلبي حاجات السكان دون استنزاف حتى لو أسيء استخدامها، وذلك من منطلق القدرة الذاتية للبيئة الطبيعية على الإحلال واستعادة التوازن الأيكولوجي بصورة سريعة.

ولكن في عصرنا الحالي زاد عدد السكّان في كثير من البيئات بما يفوق قدراتها على إعالة الحياة، أو لأنه بدأ يسيء استخدام موارد بيئته بما يعجّل باستنزافها وتدهورها، فقد أصيبت العلاقة بين الإنسان وبيئته بكثير من مظاهر الخلل والتدهور الأيكولوجي، وبدأت تبرز الكثير من المشكلات البيئية التي نعاني منها اليوم، وذلك حتى وصلنا إلى نقطة أصبحنا فيها أحوج ما نكون فيها إلى العودة الصادقة للالتزام بتعاليم ديننا الحنيف لننقذ أنفسنا مما نعانيه من مشكلات بيئية عديدة.

لقد آن الأوان أن نعيد النظر في قضية تعاملنا مع بيئتنا من المنظور الإسلامي، وأن نلتزم بالسلوك الإسلامي القويم في تعاملنا مع بيئتنا حتى نحافظ على هذه النعمة المهداة من الله سبحانه وتعالى، وهذا واجب يفرضه علينا الإسلام لنعكس بصدق مفهوم الإسلام وتوجيهاته الربانية التي تضبط العلاقة بين الإنسان المستخلف وبيئته.

المبحث الثالث

أبعاد ومقتضيات العلاقة

إن السؤال المثار يتمثل في العلّة من تقصي نظرة الإسلام ومنظوره للبيئة بالمقارنة مع نظرة غيره، وما يتصل بتصور العلاقة بين البيئة والإنسان والمقارنة بين رؤية الثقافات الأخرى في ذلك، يتمثل في الأبعاد والمقتضيات المرجوة من أهمية تفعيل أبعاد ومقتضيات العلاقة وفق منظور الدين، لا سيما أننا في حاجة في ظل الأزمة البيئية الحالية الناجمة عن اختلال النظرة بإقامتها على محور المادة دون الروح.

ومن خلال البابين القادمين ستتضح لنا تفاصيل القواعد المقررة في النصوص التشريعية واجتهادات الفقهاء فيما يتصل بالانتفاع بالبيئة وحمايتها، وما يتصل بذلك من اعتبارات ومناهج تقررت في النصوص والاجتهادات، وما نعرّج عليه بالقول في هذا المقام يتمثل فيما التناول للأبعاد والمقتضيات التي نبرر بها ضرورة الاستقراء لمنظور الدين في رعاية البيئة وحمايتها، وادعائنا بأن منظور هذا المنهج وتصورها لعلاقة الإنسان بالبيئة انتفاعا وحماية هو الكفيل بأن ينتشلنا من الأزمة البيئية الراهنة التي تعاني منها الإنسانية في ظل اختلال في توازن عناصر البيئة أدى إلى ما يشهده العالم اليوم من كوارث وأعاصير آخذة في التفاقم إذا لم يقف المجتمع الإنساني وقفة صادقة يستعين من خلالها بمنهج كفيل بانتشال العالم من هذه الأزمة.

وقد ذكر النجار في معرض تحليله إلى ما توصل إليه من خلال استعراض منظور الدين في إقراره لقواعد العلاقة بين البيئة والإنسان بأن أثر ذلك لا تكمن قيمته في ذاتها كحقيقة عقدية، وإنما يتعدى الأمر ذلك لتظهر قيمتها أيضاً في أثرها السلوكي في التصرف البيئي، وهو ما يعنينا في هذا السياق بالدرجة الأولى، لا سيما وأن الإسلام دين علم وعمل، وذلك باعتبار ما نحن بصدده من معالجة قضايا البيئة التي فجرتها الأزمة الراهنة، ووفقًا لما قرره في دراسته القيّمة من أن هذه الأزمة هي في جوهرها أزمة ثقافية، وبناء على ذلك فإن علاجها يكون بالأساس علاجاً ثقافياً.

كما أشار بأن هذه الصورة الثقافية في عنصريها: الوجودي متمثلا في الوحدة، والوظيفي المتمثل في التسخير بما هي صورة دينية ذات بعد عقدي، فإنها حينما تحل في الأذهان تكون فيها مكينة مثلما تكون العقائد الدينية، وتصبح عنصرًا ثقافيًا أصيلًا في نطاق الثقافة البيئية خصوصًا والثقافة الحياتية عمومًا، وحينئذ فإنها يكون لها أثر نفسي يظهر بيناً في السلوك البيئي، بحيث يكون ذلك السلوك موجهًا بتلك الصورة الثقافية كما تبينّا الأمر في الأثر السلوكي للصورة الثقافية لحقيقة البيئة في ذاتها.

وطبيعة هذا السلوك البيئي الذي تثمره إنما تتحدد منطقيًا بطبيعة تلك الصورة الثقافية، وذلك باعتبار أن كل فكرة معينة في الذهن تؤدي إلى سلوك معين في الواقع، ثم إنها تجد لها مصداقًا في

التجربة الواقعية للحضارة الإسلامية على القدر الذي كان لها من تعامل مع البيئة أنشأ مقادير من العمران، فقد كانت تلك المقادير ثمرة لثقافة تشكل تلك الصورة أحد عناصرها، وحينما تقارن بالصورة الثقافية في الثقافة الغربية في توجيهها الحضاري الذي انتهى إلى الأزمة البيئية الراهنة، فإن طبيعة ذلك السلوك البيئي الذي تثمره الصورة الثقافية الإسلامية تزداد ثبوتًا بهذه المقارنة بطريق الخلف. ومن جملة هذه الإثباتات المنطقية والواقعية التاريخية الحاصلة بالمقارنة يتبين أن هذه الصورة الثقافية الإسلامية يمكن أن تسهم بقدر كبير في معالجة أزمة البيئة معالجة جذرية تضرب بأصولها في الخلفية الثقافية التي نشأت عنها تلك الأزمة فيما يتعلق بعلاقة الإنسان بالبيئة.

وحينما يستقر في ذهن الإنسان فردًا وجماعة استقرارًا ثقافيًا راسخًا أن البيئة التي يعيش فيها هي بيئة تربطها به في ذات وجوده صلة وحدة مادية وروحية مع تميز قيمي له عليها، كما تربطها به وظيفيًا صلة تسخير له ليؤدي عليها وظيفة مرسومة له في الحياة، فإن هذه الثقافة من شأنها أن تفضي إلى سلوك بيئي يكون متصفًا بصفات تقتضيها طبيعة تلك الصلة في وجهي الوحدة والتسخير، ولعل من أهم تلك الصفات صفتين أساسيتين هما: الأخلاقية في التعامل، والقوامية على البيئة.

أولاً - أخلاقية التصرف البيئي :

إن المقصود بأخلاقية التصرف البيئي في هذا السياق هو التعامل مع البيئة تعاملًا يحدده الشعور بالواجب إزاءها، ويكون فيه للقيم

الخلقية نصيب وفير في التوجيه، بحيث تنتفي منه معاني الاستهتار واللامبالاة، كما تنتفي معاني الأنانية والأثرة، ومعاني الحقد والتسلط والاحتقار، بحيث يصبح الإنسان وهو يتعامل مع البيئة ينطلق من منطلق يشبه منطلقه وهو يتعامل مع أخيه من بني جنسه حسب القواعد التي يمليها الضمير الأخلاقي الذي يحفظ للآخرين حقوقهم أيضًا حينما يمارس الإنسان حقوقه مع اعتبار للاختلاف بين الإنسان والبيئة في التميز القيمي وفي طبيعة الوظيفة المطلوبة منهما.

ولعل أول ما يرتكز عليه هذا التصرف الأخلاقي إزاء البيئة هو الإحساس الروحي بها، وذلك على معنى أن تكون البيئة الطبيعية واقعة في النفس الإنسانية موقعًا بحيث لا يشعر بها في نفسه بمجرد حواسه المادية، فتكون إذن مجرد كتلة مادية نقلها إلى شعوره البصر والسمع واللمس، وإنما تكون واقعة في نفسه موقعًا يحسها فيه أيضًا بحواسه الروحية من العواطف المختلفة، فتكون إذاً في ذلك الموقع كائنًا ذا روح ومشاعر وأحاسيس، ينتفع ويتضرر، ويُسر ويألم، ويُعافى ويمرض، وشأنه في ذلك لا يختلف كثيرًا عن شأن الإنسان في تعرضه لهذه المتقابلات الشعورية باعتباره كائنًا حيًا.

وحينما يقع التصور الثقافي للإنسان في الذهن على أنه تربطه بالبيئة صلة وحدة وجودية مادية وروحية، فإن ذلك من شأنه أن يشعره بأن هذا الكائن المتوحد معه هو كائن حي ذو شعور؛ إذ الوحدة بين طرفين حينما تكون حقيقة ثابتة في التصور فإن من مقتضياتها أن تُعدي

ما في أحدهما من المعاني إلى الآخر، فيكون الإنسان إذاً بتصور وحدته مع البيئة ناقلاً إليها ما يجد في نفسه ما يتصف به من صفات الحياة لتكون هي أيضًا متصفة به في تصوره بقطع النظر عما يكون عليه شأنها في واقع الأمر.

ومما يقع في التصور الإنسان بعامل الشعور بالوحدة مع البيئة أن هذه البيئة كائن يشبهه في صفات الحياة، فإن من ذلك ينفسح مجال واسع لروابط شعورية ذات بعد أخلاقي؛ إذ ستنشأ في الإنسان مشاعر إزاء البيئة تمتلئ بمعاني الأخوة والقربى وما يتبعها من معاني الرأفة والرحمة والحدب واللين، وكيف بصورة ثقافية تتنزل فيها البيئة من الإنسان منزلة الوحدة معه في المأتى والمصير، وفي العناصر والأنظمة، وفي الولاء لله والخضوع له، وفي التوافق المعرفي بين الطرفين لا تثمر في نفس الإنسان هذا الإحساس بالأخوة والرحمة والرأفة تجاه هذه البيئة المتوحد معها ؟

وقد أكد النجار بأن هذه المشاعر الأخلاقية التي تحدث في الإنسان إزاء البيئة من شأنها أن توجه سلوكه البيئي توجيهًا أخلاقيًا، بحيث يكون هذا السلوك عاملاً في حفظ الحياة البيئية في عناصرها وأنظمتها، وتنميتها في سبيل البقاء والعطاء، وصيانتها من الدمار بجميع مظاهره، وبالإضافة إلى أن هذا التصرف الأخلاقي تقتضيه الوحدة الوجدانية، فإنها تقتضيه أيضًا وحدة المصير، إذ أليس في الرحمة بالبيئة والحفاظ عليها من الهلاك رحمة بالإنسان لنفسه وحفظ له من الهلاك باعتبار وحدة المصير بين

الطرفين، فيكون إذا التصرف الأخلاقي بالرأفة إزاء البيئة إنما هو في ذات الوقت من باب التصرف الأخلاقي إزاء الإنسان؟

إن هذا المعنى الذي فيه اقتضاء الوحدة بين الإنسان والبيئة التصرف الأخلاقي إزاءها هو من بين ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾[1]. فالفساد في الأرض الذي جُعل أحد أسباب قتل النفس الإنسانية بغير حق يشمل من بين ما يشمل الفساد الذي يحدثه الإنسان في البيئة فيؤدي إلى هلاك النفوس، ويكون بذلك من أفسد البيئة فكأنما قتل الناس جميعًا، ويتداخل إذاً المصير بين الإنسان والبيئة بحيث يؤدي هلاكها إلى هلاكه، ولذلك اعتُبر في الآية الإفساد البيئي عملًا غير أخلاقي وشدد عليه النكير، واعتبر في المقابل بمفهوم الخلف عملًا أخلاقيًا إحياء النفوس بالمحافظة على البيئة صالحة للحياة وتنميتها في سبيل ذلك.

وحينما يقع في النفس أن الإنسان يرتبط بالبيئة برابطة من المشاعر الأخلاقية إزاءها، فإن هذه المشاعر من شأنها أن تجعل سلوكه المعرفي إزاءها يتجاوز أن يكون سلوكًا هدفه منحصر في مجرد العلم منها ما فيه منفعة مادية له إلى أن يكون سلوكًا معرفيًا يبغي أيضًا الوقوف على حقيقة البيئة لمجرد معرفة الحقيقة حتى وإن لم تحصل منها منفعة مادية مباشرة، وذلك سلوك أخلاقي تقتضيه الرابطة

(١) المائدة ٣٢.

الروحية بين الطرفين، وهو ما تقتضيه أخلاقيات التصرف البيئي في المجال المعرفي؛ إذ أن معرفة الحقيقة البيئية فيما وراء ما فيه نفع مادي من شأنها أن تكشف في البيئة من الأبعاد الروحية ما يعصم الإنسان من العود عليه بالاستنزاف المدمر لو هو لم يعرف من حقيقتها إلا وجهها المادي البحت.

إن هذا الأثر السلوكي البيئي لتصور الوحدة بين الإنسان والكون كان له تحقق واقعي في الحضارة الإسلامية إبان حكم الدولة الإسلامية، فقد انتهجت هذه الحضارة سلوكًا بيئيًا يتعامل مع البيئة وفق قيم أخلاقية فيها حفاظ على الحياة من أن تنالها يد الدمار بشره الإنسان أو بغضبه أو بجهله، وفيها امتداد معرفي بالبحث في حقائق البيئة إلى ما يتجاوز معرفة ما فيه نفع مادي إلى ما فيه تقوية للرابطة الروحية بين الإنسان والبيئة.

لقد كان هذا الأثر السلوكي البيئي لصورة الوحدة بين الإنسان والكون في الحضارة الإسلامي نسيجًا عامًا لهذا التحضر لا تنحصر مظاهره، ولعل من الأمثلة البارزة ذات الدلالة في شأنه ما اشتهر عند المسلمين من تخصيص أوقاف من الأموال والعروض - والوقف عبادة - لأصناف معينة من الحيوانات في سبيل رعايتها وصيانتها، وإذا عُلم أن هذه الأوقاف هي عمل شعبي وليس حكوميًا تبين العمق الحضاري لهذا السلوك البيئي.

وفي مقابل هذا الأثر السلوكي المتصف بالأخلاقية الذي يثمره التصور الثقافي القائم على الوحدة بين الإنسان والبيئة كما تبين منطقيًا

وواقعيًا، فإن التصور الثقافي للانفصال بينهما ينتهي إلى سلوك مخالف لذلك السلوك، فإذا كان الإنسان وهو يقبل على البيئة ليمارس فيها الحياة يقع في نفسه أنه كائن منفصل ماديًا وروحيًا عن هذه البيئة، فإن هذا التصور سيفضي به حتمًا إلى شعور نفسي من الغربة إزاءها، وهو شعور يفضي بالإنسان إما إلى موقف سلوكي ينعزل فيه عن هذا الكائن الغريب، فإذا هو زاهد فيها مستقيل منها، أو هو خائف منها يتخذ من عناصرها آلهة يهدر قواه في تقديم القرابين إليها، وهو في الحالين لا ينشئ حضارات ذات بال، وإما إلى موقف سلوكي يكون فيه معاديًا لهذا الكائن الغريب، فإذا هو مصارع لها في سبيل إقامة حياته صراعًا نفعيًا ماديًا، فتختفي إذن القيم الأخلاقية في التعامل البيئي، وقد ينتهي ذلك الصراع إلى إقامة تحضر مشهود، ولكنه ينتهي أيضًا إلى جراحات مثخنة يلحقها الإنسان بالبيئة قد تؤول بها إلى الدمار.

وبذلك فإنه مهما تصور الإنسان نفسه ثقافيًا موصولا بالبيئة تصرف فيها بالصلاح، ومهما تصور نفسه ثقافيًا مفصولاً عنها تصرف فيها بالفساد، وفي مقارنة الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية تصورًا ثقافيًا وسلوكًا بيئيًا عمليًا مصداق على ذلك كما تبين مما سبق استعراضه في مقارنة بين الثقافات.

ثانياً - القوامة على البيئة :

إذا ما أقبل الإنسان على البيئة ليحقق فيها الحياة وهو يحمل تصورًا عنها يكون فيه موحدًا معها، وتكون هي مسخرة له في سبيل

إنجاز مهمة التعمير المكلف بها في حياته، فإن هذا التصور من شأنه أن يجعل تصرفه في البيئة تصرف قوامة عليها، وذلك على معنى أن يكون راعيًا لها، مشرفًا عليها كما يكون صاحب المزرعة مشرفًا على مزرعته، يستفيد من خيرها ولكنه يحافظ على مقدراتها بالصيانة والتنمية ليكون ذلك الخير موصولاً، ولا ينتكس يومًا ما بسبب إفساده فيها.

إن التصور التسخيري للبيئة حينما يكون مشتملاً على معنى التميز القيمي للإنسان على البيئة، فإنه يجعله في ذات الموقف السلوكي المتصف بمعنى القوامة؛ ذلك لأن التميز القيمي يحرر الإنسان من الإحساس بالدونية إزاء البيئة، ويشعره بالتفوق عليها، ويأتي معنى التسخير ليلبي نداء ذلك الشعور، ولكن في نطاق من الأخلاقية، فإذا السلوك البيئي الإنساني نتيجة ذلك كله سلوك مقبل على البيئة بالسعي الاستهلاكي دونما انزواء أو تأليه، ولكنه استهلاك القيّم الراعي لا استهلاك المستهتر في غير مبالاة بالمصير البيئي.

ومن جانب آخر فإن ما يحمله التسخير البيئي من معنى الغائية باعتباره تقديرًا للبيئة على قدر مصالح الإنسان ومتطلباته الوظيفية إذا ما صار تصورًا ثقافيًا للإنسان، فإنه من شأنه أن يوجه سلوكه ليكون متصفًا بالقوامة على البيئة قوامة تكون بها المحافظة على توازنها ونظامها حتى لا تختل تلك الغائية فيختل بذلك إنجاز الإنسان لوظيفته في الحياة بما هي مقدرة بحسبها، فيكون إذن العمل على استمرارية العطاء البيئي عطاء مستقبليًا غير مقطوع بصيانة البيئة في مادتها

ونظامها مسلك قوامة على البيئة يثمره التصور الثقافي لعلاقة البيئة بالإنسان علاقة تسخير.

وقد كانت حضارات أخرى كثيرة تخلو في تعاملها البيئي من معنى القوامة بسبب من تصوراتها الثقافية الخالية من مفهوم التسخير بأبعاده المختلفة، فانتهت إلى ضروب من الخلل البيئي الذي رافق أحيانًا الإقبال على البيئة بالاستثمار المسرف المؤدي إلى إرهاقها، ورافق أحيانًا أخرى البعد عنها والزهد فيها المؤدي إلى الاستقالة من دور التعمير فيها. فتلك الثقافات التي زهدت في البيئة باعتبارها مادة شريرة تعوق الإنسان عن بلوغ غاية الحياة وهو خلاص النفس من البدن نقيضًا لمفهوم التسخير لم يكن أهلها ليدركوا من مفهوم القوامة شيئًا، فانتهوا إلى إخلال بالدور البيئي للإنسان، ذلك أن الدورة البيئية الطبيعية تقتضي أن ينخرط كل كائن بيئي في مسيرتها ليدفع بها إلى غايتها بحسب ما قُدر عليه من طبع، وحينما يستقيل الإنسان من هذه الدورة فإن غيابه يغيب معه العمل المطلوب منه بحسب ما قُدر له، وهو ما يسبب خللًا بيئيًا وإن يكن بالتخلي عن التعمير لا بممارسة التدمير.

إن تلك الثقافات التي استُعظمت فيها البيئة واستُصغر الإنسان، فلم يكن فيها من معنى التسخير البيئي ولا مما يترتب عليه من معنى القوامة شيء، انتهت بأهلها إلى مسلك بيئي يخلو هو أيضًا من معنى التعمير البيئي الذي ينخرط به الإنسان في الدورة البيئية، فهؤلاء (تستعبدهم مظاهر الطبيعة التي تكتنف حياتهم، فيتخذونها آلهة

يصرفون إليها كثيرًا من الجهد عبادة وقربى، وينخذلون عن كثير من مجالات العمل خوفًا منها، وتستبد بهم الخرافة والأوهام)، فتلك الثقافات الصوفية الزاهدة، وهذه الثقافات الوثنية المؤلهة للبيئة تشترك جميعها بخلوها من معنى القوامة البيئية في سلوك بيئي سلبي يتعطل فيه الدور الطبيعي للإنسان في التعمير البيئي.

وهذه الغاية القصيرة للحياة التي وضعتها الثقافة الغربية للإنسان، والتي لا تتجاوز تحقيق الرفاه المادي بالإضافة إلى كونها هي في ذاتها دافع استهلاك، فإنها ولدت عاملًا استهلاكيًا آخر عضد العامل الأول، وهو المتمثل فيما أحدثته في الإنسان من فراغ روحي ومن حيرة وضياع لم يجد له من متنفس إلا في الاستهلاك المادي كما يجد التائه متنفسًا في الإدمان، وذلك ما كان ملحظًا لجون ماري بيلت (JeanMarie Pelt) في قوله: (إنسان اليوم لم يعد يعرف من يكون، ولا يدري بماذا يؤمن، ولا يكاد يكون لديه من الوقت ما يتيح له التساؤل: من أين أتى وإلى أين يذهب؟، فنحن نعيش زمن حيرة وتردد وتأهب يؤاتي كل ما فيه وقوع تحولات جماعية حاسمة، ولم تلبث تلك التحولات أن وقعت، إذ تحول الإنسان اليتيم إلى إنسان مستهلك، واستعيض عن الكاتدرائيات بالمحلات التجارية العملاقة).

وحينما بث ديكارت في الثقافة الغربية فكرة أن الإنسان هو المقياس في الوجود البيئي، إذ هذا الوجود عنده هو الذي يخضع للعقل، فإنه وجه هذه الثقافة وجهة التضخيم لفردية الإنسان، (وأقام هذه الفردية على

أساس فلسفي بعد أن كانت مجرد عصيان وتمرد، تلك الفردية التي تحمل الشخص على أن يظن نفسه أهلًا للحكم على الأشياء بنفسه، كأن ليس هناك عقول غير عقله)، وكان من ثمار هذه الفردية المجحفة لما أصبحت ثقافة سارية أن دفعت إلى الاستهلاك والمزيد من الاستهلاك، إذ أصبح الإنسان بهذا المنزع الفردي لا تحده في شراهته الاستهلاكية من مقدرات البيئة استشعار ما يمكن أن يحصل من ضرر بيئي جراء استهلاكه يمكن أن يلحق بالآخرين من المعاصرين أو من الأجيال المقبلة، وغاب في خضم ذلك مفهوم التسخير الذي يقتضي أن البيئة إنما هي مسخرة في مقاديرها للناس كافة على مر الأجيال، وليست هي حكرًا على فرد من الناس أو من الأجناس أو من الأجيال.

لقد تضافرت إذاً في الثقافة الغربية دواعي الاستهلاك من طرق شتى، فإذا هذه الحضارة تسلك في البيئة مسلك الاستهلاك المفرط الذي لا يلوي إلا على استنزاف المقدرات البيئية بدون حدود، وولدت شراهة الاستهلاك في أهل هذه الحضارة روحًا من المغالبة في العلاقة مع البيئة لافتكاك مادة المتاع المادي منها بأي وجه من الوجوه، واختفى بذلك أي معنى من معاني القوامة على البيئة التي تقتضي فيما تقتضيه الرعاية والصيانة والمسئولية، وأي موقع يبقى للقوامة على البيئة في ثقافة جعلت في الاستهلاك تحقيقًا للغاية العليا من الحياة، ونفت عن البيئة أي معنى غائي له علاقة بوظيفة الإنسان ؟، وكانت الثمرة المنطقية والواقعية لذلك هي هذا الدمار البيئي الذي سببه استنزاف الموارد وتلويث الآفاق والإخلال بالتوازن إشباعًا لشراهة الاستهلاك التي

غيبت أي معنى من معاني القوامة على البيئة، وذلك ما أشار إليه آل غور في معرض تحليله النقدي لما أفضت إليه الحضارة الغربية من أزمة بيئية حينما قال: (إن مستقبل الحضارة الإنسانية يتوقف على قوامتنا على البيئة وبنفس الدرجة من الأهمية على قوامتنا على الحرية، وإن القوى الطاغية التي تعارض هذه القوامة واحدة في الحالتين: ألا وهي الجشع والاهتمام بالمصالح الشخصية والتركيز على الاستغلال في المدى القصير على حساب سلامة النظام البيئي نفسه في المدى البعيد).

إنه إذاً تصور ثقافي إسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة يقوم على علاقة وجودية بينهما تتأسس عليها وحدة بين الطرفين ذات بعد مادي وروحي مع تميز قيمي للإنسان، وهي وحدة من شأنها أن تطبع سلوكه البيئي بطابع الاستثمار الودي اللطيف، كما يقوم على علاقة وظيفية تتأسس على معنى تسخير البيئة للإنسان في سبيل إنجاز وظيفة في الحياة هي وظيفة الخلافة في الأرض، وهو معنى من شأنه أن يطبع سلوكه البيئي بطابع القوامة التي تكون بها صيانة البيئة والحفاظ عليها. وقد حقق هذا التصور الإسلامي نمطًا من الحضارة شهد من احترام البيئة والعمل على صيانتها من التلف والسعي في تنمية مواردها ما حفلت به سجلات التاريخ وشهد به المنصفون من المؤرخين على اختلاف مذاهبهم وعقائدهم.

وفي مقابل ذلك فإن الأزمة الراهنة للبيئة التي كانت نتاجًا للحضارة الغربية السائدة، إنما هي راجعة في أسبابها إلى ذلك التصور

الثقافي للعلاقة بين الإنسان والبيئة الذي أسسته الفلسفة الحديثة، وهو تصور قام على علاقة وجودية ووظيفية تتصف بالقطعية والانفصال بين الطرفين، فأصبح السلوك البيئي لهذه الحضارة مطبوعًا بطابع الصراع والمغالبة لاستنزاف أكبر قدر ممكن من المقدرات البيئية في سبيل تحقيق الرفاه المادي، وهو ما أفضى إلى إرهاق البيئة في مادتها ونظامها، ومنه نشأت هذه الأزمة الراهنة.

وإذا كان التصور الثقافي الإسلامي لعلاقة الإنسان بالبيئة لم يكتب له في الواقع أن يُمتحن بدرجة من التطور الحضاري في وجهه المادي كما امتحن التصور الثقافي الغربي لهذه العلاقة بما وصلت إليه الحضارة الغربية من تطور لتبلغ المقارنة بينهما في الآثار السلوكية البيئية مداها، إلا أن التحليل المنطقي للروابط بين المقدمات متمثلة في طبيعة التصور الثقافي وبين النتائج متمثلة في الآثار السلوكية البيئية، مضافًا إليه ما انطبعت به الحضارة الإسلامية من سلوك بيئي قويم في المدى المادي الذي وصلت إليه - وهو مدى ليس بالهين -، مضافًا إليه أيضًا ما أسفر عنه امتحان الحضارة الغربية واقعيًا من سلوك بيئي أفضى إلى هذه الأزمة البيئية، تشهد جميعًا بأن أزمة البيئة من منظور إسلامي إنما هي أزمة تضرب بجذورها في التصور الثقافي لعلاقة الإنسان بالبيئة، وأن علاجها لا يمكن أن يتم إلا بإصلاح ثقافي في اتجاه المنظور الثقافي الإسلامي.

إن الله سبحانه وتعالى عندما خلق البيئة خلقها للإنسان، كما أنه عندما خلق الإنسان سخّر البيئة وما فيها لخدمته، ومن هذا المنطلق

وانطلاقا من حتمية العلاقة التي أصّلها بين كل منهما جعل من الضرورة بمكان تنظيم هذه العلاقة؛ وذلك حتى يعرّف هذا الإنسان كيف يتعامل مع هذه الأمانة التي استأمنه إياها، فيعطيها حقها، ويأخذ منها ما يعينه على خلافته وعمارته للأرض، وذلك دون إخلال بالتوازن الذي خلقها اللّه عليه، وهذا يعني تجنب الإفراط والتفريط في ذلك [(١)].

لقد اقتضت حكمة اللّه تعالى في تكوين المنظومة والثقافة المعرفية للإنسان أن تكون تراكمية تترتب على نحو هرمي، ومالم تكن القاعدة التي ينطلق منها التصور للمنظور لبناء العلاقات والاتصال بالممارسات، فإنه لا محالة سيحول ذلك دون انعكاس سلوكيات إنسانية إيجابية، وبذلك فإن الإسلام لما كان منهجاً يتصف بالشمولية باستيعابه كافة الأمور في حياة الإنسان، فإن ما ترتب على ذلك تمثل في احتواء قواعده لكل ممارسات الإنسان المكلّف إما على سبيل الإجمال وإما على سبيل التفصيل حتى يتسم بمزيد من المرونة والتعاطي مع متغيرات الواقع.

ولما كان ذلك فإن إرساء هذه الدعائم وهذه القواعد إنما انطلق من خلال نظرة أخلاقية بحتة في كل ممارسات الإنسان المكلّف في حربه وسلمه، وفي نومه واستيقاضه، وفي مختلف العلاقات التي تكونت أو يمكن أن تتكون مع محيطه الذي يشكل البيئة التي جعل اللّه له قوامة العدل والإدارة الإيجابية كي يحقق الخلافة البعيدة عن الإفساد والتخريب، وبذلك يحقق الغاية المرجوة من خلقه والمتمثلة في الخضوع لخالقه وخالق

---

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

محيطه، وبشكره وتفكره بما أنعم الله تعالى عليه من نعم لا تحصى ولا تعد.

لم يقف منظور الإسلام في نظرته للبيئة والإنسان عن التأصيل للقواعد العامة للعلاقة بينهما، بل أصّل من القواعد الدقيقة ما يفيد الإنسان في بناء علاقته في مختلف ممارساته وسلوكياته، وهو بذلك يقوّم سلوكه وعلاقاته مع ما حوله، وفي تقويم ذلك تتحقق الاستقامة في علاقته بربه، وهو الهدف من خلقه وتكليفه، ومالم يلتزم الإنسان بما تقرر من قواعد في هذه المنظومة فإنه سيكون عرضة للضياع نظراً لضعف وهشاشة القاعدة التي ينطلق من خلالها لتكوين منظوره وفلسفته وعلاقاته في الحياة، فالصانع أعلم بمصنوعاته، وهو الكفيل بأن يقرر لهم ما يفيدهم في دينهم ودنياهم.

الباب الثاني

حق الانتفاع بالبيئة من منظور الإسلام

الباب الثاني
حق الانتفاع بالبيئة من منظور الإسلام

لما كانت البيئة مسخّرة بمائها وترابها، وأرضها وسمائها، وحيواناتها وطيورها لخدمة الإنسان، حيث جعل الله تعالى له الخلافة والتميّز على سائر المخلوقات، فإنه تعالى وإن لم يجعل الانتفاع بخيراتها له على وجه الخصوص، حيث يتنفع من هذه الخيرات مختلف الكائنات الحية، فإنه جل في علاه قد خصّه بالتحكم في الانتفاع، فهو المنتفع الأكبر من خيرات الأرض لخلافته فيها.

ولكن لما كان هذا الإنسان لا يلتزم الإيجابية في سلوكه من خلال انتفاعه بمختلف ما سخره الله له تعالى من خيرات الأرض، فقد جاء الإلزام وضرورة الالتزام بعدد من الضوابط التي من شأنها أن تحصّن البيئة وتحفظ لها توازنها الذي يحفظها من التدهور، وفي ذات الوقت يستديم الانتفاع بها للإنسان جيلا بعد جيل.

ومن أجل ذلك فإن هناك من الدلائل التي تقرر حق الانتفاع من تسخير الأرض للإنسان دون تحديد جنس أو عرق، وبتفاوت له حكم كثيرة يتمثل أبرزها في تحقيق التوازن في المعيشة بين العناصر المكونة للمجتمع الإنساني، وهذا الانتفاع لا بد أن يتم من خلال منظور الإسلام الذي حدد مواطنه ومجالاته ونطاقاته بتميز يختلف عن غيره مما حددته وارتأته المذاهب الوضعية في نظرتها للبيئة والعلاقة بها.

وعندما أرشد الشارع الحكيم الإنسان إلى حقه في الانتفاع بالبيئة فقد وجهه إلى ضرورة الالتزام بالضوابط المقررة للانتفاع بالبيئة، حيث أن الإسلام باعتباره دين النظافة يسعى من خلال ما قرره من سلوك ضرورة وقاية البيئة المحيطة بالإنسان من التلوث الذي قد يعرض حياته للخطر.

ومما يثار من إشكالات مما يتصل بالانتفاع ما يثار من توجهات حول مسألة ندرة الموارد، وما إذا كانت هذه المسألة تترتب عليها إشكالية وخطورة على حياة الإنسان أم لا، حيث نتعرّض لما يتصل من مناهج وضعية مع مقارنتها بالمنهج الإسلامي في معالجته لهذه المسألة، كما نتعرض لما يتصل بأزمة الغذاء العالمي وما يصطلح عليه لدى المنظمات المعنية بحق الإنسان في الأمن الغذائي، ومدى تعارض ذلك مع ما تقتضيه قواعد الدين من أمور تتصل بالعقيدة والتوكل على الله تعالى.

ثم إن مما يتعين مراعاته ضرورة في جميع الأحوال أثناء الانتفاع بموارد البيئة ما يتصل بمشكلة الإسراف وما يتصل بها من أبعاد، حيث جاء النهي في النصوص الشرعية عن الإسراف في جميع الأحوال والظروف حتى وإن لم يترتب عليه ضرر، حيث يقرر الدين في ذلك ضرورة الالتزام بحدود الحاجة أثناء الانتفاع بموارد البيئة، والعمل على محاربة الاستنزاف لها قل ذلك أو كثر.

إذا كان الإنسان وحدة مميزة ضمن منظومة العناصر المكوّنة بالبيئة، فإن الله تعالى لما سخّر له خيرات البيئة وجعلها محلا لانتفاعه، فإنه قد فرض عليه من جانب آخر واجب الرعاية والحماية لهذه البيئة،

وذلك من خلال تقرير عدد من الضوابط لانتفاعه، ومن خلال إرساء القواعد السلوكية المعينة على ذلك.

إن اللّه سبحانه وتعالى عندما اختص الإنسان بالوصاية والقوامة، وجعل حق الانتفاع له متميزاً عن سائر المخلوقات، فإنما أراد بذلك أن يجعله بهذا الاختصاص على قدر المسؤولية في الانضباط والرعاية، فلا يتجاوز حدود هذه المسؤولية ويكون أداة للتدمير والتخريب، فهو إن نحى هذا المنحى فإنه يجني على نفسه بما تقترفه يده في الجملة والتفصيل، وأعني بذلك عندما لا يراعي ما سنه اللّه له من مواطن الانتفاع التي جاءت استجابة لحاجاته، والتزاماً بمتطلباته، ووفاء بما يهيئ له الأرض والسماء تسخيراً ومنفعة له ولما حوله من كائنات.

وقد اقتضت هذه الخصوصية أن يكون سلوكه هو الأبرز تأثيراً وتأثراً عبر العصور والحقب، ولا شك أن معطيات الواقع المعاصر تقرر عن يقين درجة التأثير المدمرة لسلوك الإنسان على البيئة، ومن أجل ذلك جاءت التوجيهات والإرشادات للعمل من أجل تهذيب سلوكيات الإنسان حفظاً لإنسانيته في هذا المضمار حتى يحفظ تميزه ضمن الوحدة الكونية التي يعتبر هو جزءاً لا يتجزأ منها.

وإذا كان الإسلام بتشريعاته وأحكامه قد أمر بالانضباط والالتزام للسلوك البشري محل التكليف، فإنه قد ربط ذلك باعتبار ما جرى وفق المقتضيات والسنن أو بما يخالف ذلك؛ ومن أجل ذلك جاء الأمر بضرورة التعلق والتسليم بإرادة اللّه تعالى في كل الأحوال والظروف، فهو جل في

علاه المجري لما يحدث من متغيرات أو مستجدات توافقت مع سنن الكون أو لم تتوافق، وهذه المسألة من المسلمات العقدية التي ينبغي أن يوقن بها الإنسان المؤمن كل اليقين.

إذاً هناك خصوصية في ممارسة حق الانتفاع فيما يتصل به من ضوابط وأحكام، ولا يمكن أن يمارس الإنسان المعتنق لدين الله تعالم مالم يلتزم بهذه الضوابط وهذا الأحكام، إرضاء لله جل في علاه، وتحقيقاً لمصلحة الإنسان التي اقتضت حكمته أن تكون ضمن مقتضيات تفاعلات الكون ومتغيراته ومستجداته.

الفصل الأول

دلائل الانتفاع ومواطنه وآدابه

الفصل الأول

دلائل الانتفاع ومواطنه وآدابه

لما كانت البيئة مسخّرة لما خلقه اللّه تعالى فيها من كائنات حية وعلى رأسها الإنسان الذي يعتبر هو العنصر الأكثر فعالية في النفع والانتفاع، والتأثير والتأثر، فإن اللّه سبحانه جل في علاه قد نظّم عملية الانتفاع ووضع لها ضوابط نعرّج عليها بالقول في الفصل الثاني من هذا الباب، كما أنه تعالى قد قرر حق الإنسان في الانتفاع وبيّن له ودلّه على مواطنه وجعل هذا الاستنفاع عبادة من أجل العبادات التي يتقرّب بها المرء إلى اللّه تعالى.

ومن أجل ذلك فإن الاستنفاع الذي هو طلب النفع مما سخّره اللّه تعالى للإنسان من خدمات في البيئة المحيطة به من أعظم صور بناء العلاقة وأكثرها إثمارا في حياة الإنسان، فهو كما أن من حقه أن ينتفع بما سخّره اللّه تعالى له من حوله وفق ضوابط معينة، فإن عليه ألا يجعل في انتفاعه من البيئة أداة لتدميرها، بل عليه أن يأخذ منها دون أن تؤدي ممارساته وتصرفاته إلى انتهاك حق الرعاية والحماية لها، والذي أمر اللّه تعالى به الإنسان؛ ذلك أن عدم اهتمامه بجانب الحماية والرعاية للبيئة وإفراطه في الانتفاع منها قد يؤدي إلى الإخلال بتوازن العناصر في البيئة المحيطة مما يجعل هذه البيئة على المدى البعيد تختل فيها الكثير

من المنافع، وتختفي فيها الكثير من الكائنات، ويؤدي ذلك إلى اختلال في التوازن البيئي، ومن ثم إلى إضرار بالمخلوقات الحية الموجودة على الأرض بما فيها الإنسان.

أولاً - اعتبارات الانتفاع وضرورته :

إن الإنسان كائن بيئي وعنصر من عناصر البيئة منخرط في مادتها ونظامها وإن كان وضعه متميزاً فيها. ومن مظاهر انخراطه فيها ذلك التناسب بينه فيما يطلب لقيام حياته وإنجاز وظيفته، وبينها فيما هي مقدرة عليه من العطاء لذلك، وهو ما عبرنا عنه بالتسخير. ومن جهة أخرى فإن الإنسان هو كائن ذو مهمة في الحياة لا يمكن أن ينجزها إلا بالتفاعل مع البيئة أعلى درجة من التفاعل الذي يكون لسائر الكائنات الأخرى معها، إذ هذه إنما تكتفي من البيئة بما يحفظ حياتها، ولكن الإنسان يبتغي منها ما يكون به خليفة في الأرض معمرًا فيها.

واعتبارًا لهذين العنصرين: انخراط الإنسان في صلب الوجود البيئي بحكم طبيعته، وتحمله مهمة لا يمكن أن تنجز إلا بتفاعل بيئي عميق، فإن الإنسان يتعين عليه أن تكون له علاقة استنفاع بالبيئة، وهي علاقة يتجه فيها بالسعي لتحصيل منافع منها يتأكد بها انخراطه البيئي فيها من جهة، وينجز بها مهمته المكلف بها من جهة أخرى، ولو تصورنا فرضًا أن الإنسان تخلى عن مباشرة البيئة بالسعي فيها سعي استنفاع لكان إذاً قد أخل بالمهمة التي من أجلها وجد من جهة؛ لأنها مهمة لا تتم إلا باستنفاع البيئة، وأخل من جهة أخرى بالدورة البيئية عمومًا؛

حيث هُيِّئت البيئة على غائية يقوم فيها كل كائن من كائناتها بدور معين تقتضيه طبيعته ووظيفته، فإذا ما تخلى أي كائن من تلك الكائنات عن القيام بالدور المقدر له، فإن ذلك من شأنه أن يحدث خللًا في النظام البيئي بأكمله صغيرًا كان أو كبيرًا.

وبما أن الإنسان بحكم طبيعته التكوينية وطبيعة الوظيفة المكلف بها هو أهم الكائنات الحية دورًا بيئيًا، وبما أنه من جهة أخرى بما رُكب عليه من الاختيار قابل لأن يتخلى عن ذلك الدور البيئي المهم بمحض إرادته الحرة، فيما كل الكائنات الأخرى تقوم بأدوارها بصفة جبرية فلا يرد عليها تعطيل، فإنه لو تخلى عن دوره البيئي بالتخلي عن السعي الاستنفاعي - وهو يحمل قابلية ذلك التخلي - لكان لذلك أثر كبير في خلل يصيب النظام البيئي، ألا ترى أن انقراض أي نوع من أنواع الحيوان يكون له أثر في اختلال التوازن البيئي - كما يثبت ذلك علماء البيئة - وذلك لنقصان دوره كحلقة من حلقات الدائرة البيئية ؟ ... فكيف إذاً إذا اختفى دور الإنسان - وهو على ذلك القدر من الأهمية - من تلك الدائرة ولو بتقصيره في إتمامه على الدرجة المطلوبة لا باختفائه هو أساسًا من الوجود ؟

وبناء على ذلك كله فقد جاء التصور الإسلامي في السلوك البيئي يجعل السعي في البيئة بالاستنفاع عنصرًا محوريًا في ذلك السلوك، والمقصود بهذا السعي هو ما يتجاوز الحد الفطري الذي يندفع إليه الإنسان بطبعه إلى أفق أعلى يكون به معمرًا في الأرض قائمًا بالخلافة

فيها. وبالإضافة إلى ما تدفع إليه الصورة الثقافية لحقيقة البيئة وعلاقة الإنسان بها من تحقيق لذلك السعي على سبيل الاندفاع التلقائي الذي يحدثه الانطباع الثقافي، فإن التعاليم الإسلامية جاءت تدفع إليه بأوامر عملية مباشرة ليكون عنصرًا أساسيًا من عناصر السلوك البيئي.

ثانياً - دلائل الانتفاع ومواطنه:

لقد جاء القرآن الكريم في سابقة ثقافية سلوكية غير معهودة فيما كان سائدًا من الثقافات يوجه الإنسان إلى السعي في الواقع البيئي بالاستنفاع، وجاء توجيهه ذلك من القوة في الطلب والتعدد والتنوع في المقامات بما يفيد أنه منحى أساسي في السلوك البيئي واجب على الإنسان انتحاؤه، وممنوع عليه التقصير فيه، وهو ما تفيده آيات كثيرة في أمرها بمباشرة البيئة بالاستنفاع، وذلك بتعابير متعددة أصبحت كالمصطلحات في هذا الشأن من مثل: (السير في الأرض، والمشي فيها، والابتغاء من فضل الله، والأكل من رزقه، وما شابهها من التعابير)، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[(١)]. وفي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[(٢)]. فالأمر بالسير في الأرض والمشي في مناكبها، والأكل من رزق الله والابتغاء من فضله فيها، إنما هو أمر بالمباشرة الاستنفاعية للبيئة كجزء من سلوك بيئي

---

(١) الملك ١٥.

(٢) الجمعة ١٠.

وجه إليه الإنسان ليقوم به على سبيل الوجوب في نطاق قيامه بدوره العام المطلوب منه في الحياة. ويتجه الاستنفاع البيئي بحسب التوجيه القرآني وجهتين متكاملتين: استنفاع روحي واستنفاع مادي.

«١» الاستنفاع الروحي:

لا يقتصر السلوك البيئي في التصور الإسلامي على سعي يُبتغى فيه تحقيق المطالب المادية من مأكل ومشرب وملبس ومركب، وإنما هو يتعدى ذلك إلى سعي بيئي يُبتغى فيه تحقيق مطالب روحية تتعلق بإشباع أشواق في النفس من مقدرات في البيئة ذات طبيعة روحية هي أيضًا؛ إذ حقيقة البيئة كما تقدم بيانه تتجاوز البعد المادي فيها إلى بعد روحي.

وقد جاء القرآن الكريم يوجه الإنسان إلى أن يستنفع البيئة روحيًا كما جاء يوجهه إلى استنفاعها ماديًا على قدر المساواة بين الأمرين، وذلك باعتبارهما وجهين متكاملين للانخراط في الدورة البيئية من جهة، وباعتبار أن وظيفة الإنسان الخلافية لا يمكن أن يكون لها تحقق إلا بهما معًا من جهة أخرى. والحث القرآني المتكرر على الابتغاء من فضل الله في البيئة إنما هو توجيه إلى الابتغاء من هذا الفضل الذي أودعه الله تعالى في البيئة مما طبيعته مادية ومما طبيعته روحية على حد سواء؛ إذ ليس فضل الله تعالى في البيئة مقتصرًا على الفضل المادي فحسب، كما بينه قوله تعالى: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ۞ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[١].

(١) النحل ٥ – ٦.

فهذا الفضل من الله في الأنعام هو فضل مادي متمثل فيما تعطيه من مأكل ومشرب ومركب، وفضل روحي متمثل فيما تقدمه من متاع جمالي، ولهذا الاستنفاع البيئي الروحي الذي جاء التصور الإسلامي يوجه إليه سلوكًا بيئيًا عمليًا وجوه متعددة تختلف في مظهرها وتلتقي في مغزاها البيئي، ولعل من أهم تلك الوجوه الوجهين التاليين:

• **الاستنفاع المعرفي** : إن معرفة الحقيقة غذاء للروح، ففيها إذاً نفع للإنسان أي نفع، والبيئة خزان هائل للحقائق بعضها تتضمنه في ذاتها، وبعضها تتضمنه في دلالاتها، ولذلك فقد جاء القرآن الكريم يوجه الإنسان في سلوكه البيئي إلى هذا الخزان ليستنفعه بالسعي فيه سعيًا يبتغي منه تحصيل الحقائق المودعة فيه بصفة مباشرة أو غير مباشرة، وجعل ذلك عنصرًا أساسيًا في سلوكه البيئي الذي ينخرط به في الدورة البيئية العامة، إذ تلك الدورة فيما يتعلق منها بالإنسان بناء على تميزه في طبيعة تكوينه وفي مهمة حياته قُدرت بمقتضى ما رُكبت عليه من الغائية، وذلك بحيث لا يكون لها تمام إلا إذا انخرط فيها الإنسان بسعي معرفي للحقيقة، حتى إذا ما تعطل ذلك السعي تعطل معه الانخراط الصحيح في دورة البيئة، وأدى ذلك إلى خلل بيئي، ولعل ذلك هو أحد معاني قوله تعالى: ﴿ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[1]. فذكر آلاء الله هو السعي المعرفي لحقائق المشاهد البيئية فيما اشتملت عليه من النعم، وهو سعي إذا ما تعطل آل الإنسان في تصرفه البيئي إلى إفساد في الأرض كما يفيده الربط بين جزأي الآية ربطًا يوحي بمعنى السببية،

(١) الأعراف ٧٤.

فـ (تذكر الآلاء وهو السعي المعرفي يبعث على الشكر والطاعة، وترك الفساد في الأرض)، وبمفهوم الخلف فإن التخلي عن السعي المعرفي للحقيقة البيئية يؤدي إلى فساد بيئي، ولا غرو فإن من تصرف في البيئة بغير علم بحقيقتها أحدث فيها الفساد.

ومن وجوه استنفاع البيئة استنفاعًا معرفيًا السعي إلى تحصيل حقائقها في ذاتها، سواء من حيث تكوينها العنصري أو من حيث سننها وقوانينها التي تجري عليها، وقد جاء الحث على هذا الضرب من الاستنفاع مطردًا في القرآن الكريم بصفة مباشرة أحيانًا وبصفة غير مباشرة أحيانًا أخرى، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾[1]. وفي مثل قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾[2]. ففي الآيتين توجيه إلى السعي في البيئة بالبحث لمعرفة حقيقتها في أصل تكوينها، وفي عناصرها، وفي نظامها.

وحينما تُعرف حقائق البيئة فإن نفعًا روحيًا عظيمًا يحصل من ذلك بالإضافة إلى النفع المادي، ومنه أن تلك المعرفة تشيع في النفس الطمأنينة والأمن إزاء البيئة، إذ حينما تُعرف الأسباب التركيبية للطبيعة البيئية والأسباب القانونية لسيرورتها في أحداثها ومنقلباتها

---

(١) الأنبياء ٣٠.

(٢) الحجر ١٩.

لا يبقى مجال لتفسيرات الخرافة والأوهام، ولا مجال للخوف من البيئة والتشاؤم منها. وقد نبه القرآن الكريم إلى هذه المعاني في مقام الإنكار على فرعون وملئه الذين تعبت نفوسهم وضلت بأوهام التطير حينما جعلوا يفسرون بهذه الأوهام الأحداث البيئية متنكبين عن السعي فيها بالمعرفة الصحيحة لحقائقها التي هي المسلك الحقيقي لتفسيرها، وهو ما تضمنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾(١).

ومن وجوه استنفاع البيئة معرفيًا السعي فيها لمعرفة دلالاتها من الحقائق الغيبية، فقد جاء ذلك مطلبًا قرآنيًا أساسيًا في السلوك البيئي، إذ ما فتئ القرآن الكريم يوجه التعامل البيئي في هذا الخصوص هذه الوجهة حتى إن أكثر ما ورد فيه من آيات كان ورودها في مقام هذا التوجيه. ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ﴾(٢). فالسير في الأرض في الآية إنما هو سلوك بيئي معرفي يتجاوز الكشف عن الحقيقة الذاتية للبيئة إلى دلالتها على ما وراءها من غيب البعث في الحياة الأخرى.

وفي هذا الوجه من السعي المعرفي نفع روحي للإنسان عظيم، إذ به يكون الترقي بالذات الإنسانية إلى آفاق عليا تتجاوز أفق الوجود

---

(١) الأعراف ١٣١.

(٢) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

المادي إلى وجود روحاني يرتبط فيه الإنسان بالمطلق، ويرتقي في تزكية نفسه للتقرب من الكامل المطلق الكمال، وذلك كما بينا سابقًا يندرج في وظيفة الخلافة التي كلف بها الإنسان مهمة في الحياة، ففيه إذاً منفعة ذات طابع روحي، إذ هو يتعلق بالترقي الروحي للإنسان.

وفي مقابل ذلك فإنه حينما يقصر السلوك البيئي عن هذا المنحى من السلوك المعرفي النافذ من ظاهر البيئة إلى دلالاتها الغيبية، ويبقى عند حدود الظواهر الحسية، فإن الإنسان بسبب ذلك يسفل في المجال الوظيفي، وفي دوره البيئي المطلوب منه والمهيأ هو له عن درجته الإنسانية إلى درجة الأنعام التي هيئت للقيام بدور بيئي آخر غير دور الإنسان، وذلك المعنى هو الذي أشار إليه قوله تعالى: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾(١). فهؤلاء إنما هم كالأنعام في انحدارهم إلى درجتها متخلين عن القيام بدورهم في الحياة وظيفيًا وبيئيًا، بل هم أقل منها في ذلك شأنًا، وذلك لغفلتهم عن السعي في البيئة سعيًا معرفيًا يكشف لهم حقيقة دلالتها الغيبية ليحصل لهم من ذلك السلوك المعرفي البيئي نفع من الترقي الروحي، والحال أنهم مزودون بوسائل ذلك السعي وهي غير مزودة.

وقد كان لهذا التوجيه القرآني في التعامل السلوكي مع البيئة تعاملًا استنفاعيًا معرفيًا تحقق واقعي في الحضارة الإسلامية، إذ بُنيت

---

(١) الأنعام ١٧٩.

هذه الحضارة أساسًا على سلوك بيئي معرفي في سابقة لم تعرف لها الحضارات السالفة مثيلًا، إذ كانت جل الثقافات المنشئة لتلك الحضارات تبحث عن الحقيقة خارج نطاق المادة البيئية، ولكن الحضارة الإسلامية اتخذت تلك المادة - فيما يشبه الثورة المنهجية - منطلقًا أساسيًا لمعرفة الحقيقة، فكان استنفاع البيئة في هذه الحضارة سلوكًا بيئيًا راسخًا.

وغير خفي ما كان في الحضارة الإسلامية من الشواهد الواقعية على هذا المسلك المعرفي البيئي، إذ ليست العلوم الطبيعية الغزيرة الثرية التي أنتجتها تلك الحضارة إلا شاهدًا من تلك الشواهد، فتلك العلوم على اختلافها وتنوعها إنما هي انعكاس لسلوك بيئي معرفي رشيد ابتغى به المسلمون استنفاع البيئة بمعرفة حقيقتها الذاتية في مادتها ونظامها، فحصل لهم من ذلك الاستنفاع نفع روحي كبير تمثل في ذلك التحرر من سطوة الطبيعة والخوف منها، وفي ذلك الإنجاز الخلاقي الذي جسمه التحضر الإسلامي في وجهيه المادي والمعنوي، كما تمثل في ذلك الانخراط الذي انخرط به المسلمون في الدورة البيئية فعمروا في الأرض ولم يفسدوا فيها شيئًا.

ثم إن العلوم العقدية التي أنتجتها الحضارة الإسلامية هي أيضًا شاهد على ذلك التحقق الواقعي للسلوك في البيئة سلوكًا استنفاعيًا معرفيًا، فتلك العلوم إنما هي معارف استنتجت في أغلبها من دلالات المشاهد البيئية وفق المنهج القرآني في توجيه الأنظار لتحصيل حقائق الغيب إلى آفاق البيئة، فجاءت تلك العلوم قائمة في أكثرها على أدلة من مشاهد البيئة الطبيعية، وذلك مثلما يبدو في المدونة الشاملة لعلوم

العقيدة للإمام الإيجي المسماة بكتاب (المواقف)، فقد اشتمل هذا الكتاب على ستة أبواب الأخيران منها فقط خصصا لمباحث عقدية صرفة، والأربعة الأولى خُصصت في معظمها لمباحث طبيعية تمهيدًا لاستخدامها في الاستدلال على العقيدة، وتلك دلالة بينة على أن علوم العقيدة إنما كانت علومًا ناشئة من سلوك في البيئة بالاستنفاع المعرفي سلوكًا أفضى من المعرفة بالعقيدة إلى ما فيه نفع روحي عظيم عزز ذلك النفع الحاصل من المعرفة بحقائق البيئة في ذاتها، وأقام في الحضارة الإسلامية ذلك التوازن بين الروح والمادة الذي انخرط به المسلمون في الدورة البيئية معمرين في الأرض غير مفسدين فيها.

• **الاستنفاع الجمالي** : إن العنصر الجمالي عنصر أساسي من حقيقة البيئة في التصور الإسلامي، وأن هذا العنصر يقابله في ذات التركيب الروحي للإنسان كمظهر من مظاهر التسخير حاسة جمالية بها يتمثل الجمال مثلما في تركيبه الجسمي معدات غذائية بها يتمثل الغذاء المادي من البيئة.

وبناء على هذا التوافق التكويني بين الإنسان والبيئة في خصوص الجمال فقد جاء القرآن الكريم يوجه إلى سلوك بيئي يطلب فيه الإنسان من البيئة غذاء جماليًا كما يطلب منها غذاءه المادي، فهو إذاً سلوك استنفاع جمالي يسعى به فيها ضمن سعيه العام في الاستنفاع الروحي الذي حرص التصور الإسلامي على أن يجعله ضمن التوجيه العملي للسلوك البيئي.

ويتمثل هذا التوجيه السلوكي الجمالي في لفت القرآن الكريم انتباه الإنسان إلى مظاهر الجمال في البيئة، وعرض نماذج من ذلك عليه، وحثه على التأمل فيها وتغذية حاسته الجمالية منها، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ﴾[1]. وقوله تعالى: ﴿وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾[2].

إن هذا التوجيه القرآني إلى السلوك في البيئة سلوكًا يستنفع آيات الجمال فيها يقترن على نفس الصعيد بذلك السلوك الذي يستنفع آيات النعمة المادية، وهو اقتران يوحي بأهمية السلوك الاستنفاعي الجمالي، فكأنما الوجوب الذي بينا في صدر هذا الفصل أنه حكم للسعي في البيئة بالاستنفاع يشمل أيضًا الاستنفاع الجمالي. ولعل مما يؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾[3]. ففي هذا القول رد استنكاري على من كان يعتبر استنفاع العطاء الجمالي الذي أخرجه الله تعالى في البيئة ضربًا من السعي الذي لا فائدة فيه، فانتهى به إلى المنع، وبمفهوم المخالفة فإن هذا الضرب من السعي في البيئة هو سعي مطلوب لما تحصل به من الفوائد.

وإذا كان السلوك في البيئة سلوكًا استنفاعيًا روحيًا من شأنه على

---

(١) الأنعام ٩٩.

(٢) النحل ٥ – ٦.

(٣) الأعراف ٣٢.

وجه العموم أن يكون عاملًا مهمًا من عوامل الأداء الصحيح لوظيفة الخلافة إن لم يكن هو نفسه جزءًا منها، وكذلك فهو عامل اندماج في الدورة البيئية الكبرى أو هو نفسه مظهر من مظاهر ذلك الاندماج، إذا كان ذلك فإن السلوك الاستنفاعي الجمالي للبيئة يندرج من حيث هذا المعنى المزدوج من عاملية الأداء الوظيفي وعاملية الاندماج البيئي في عموم الاستنفاع الروحي.

وبذلك فإن الاستنفاع الجمالي هو سلوك يطلب إشباعًا لحاسة الجمال في الإنسان، وهي حاسة روحية إذا ما وقعت تغذيتها بمشاهد الجمال كان ذلك عامل ترق روحي بما هو نزوع بالروح إلى آفاق المطلق، وبما هو مفض إليه من توليد مشاعر الحب والرأفة والرحمة في الإنسان؛ إذ الإحساس الجمالي من شأنه تربية النفس على تلك المشاعر، وكل تلك المظاهر وجوه من الترقي الروحي للإنسان الذي هو جزء من خلافة الله في الأرض.

وإذا ما أضيف إلى ذلك ما للاستنفاع الجمالي من دور في التأدية إلى معرفة الله تعالى والتقرب منه باعتبار أن صور الجمال في الكون المشهود تجذب نظر الناظرين فتوحي إلى ما فيها من آية للمتفكرين تدلهم على ما وراء الأشياء من خالق، وتعرفهم بما له من صفات الكمال، تبين مدى ما لهذا السلوك من دور مهم في إنجاز الإنسان لوظيفة الخلافة، وذلك ما أشار إليه قوله تعالى: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾[1]. فالجمال في مشاهد البيئة

إنما جُعل عاملًا من عوامل العمل الصالح الذي هو جوهر الخلافة في الأرض، وذلك إذا ما أحسن الإنسان قراءة تلك المشاهد، وسلك في استنفاعها السلوك الصحيح.

وعندما يكون السلوك في البيئة سلوكًا استنفاعيًا جماليًا صحيحًا، فإن ذلك من شأنه أن يوفر عاملًا ينخرط به الإنسان في النظام البيئي العام، إذ أنه إذا كان الإنسان قد رُكِّب في تكوينه على حاسة جمالية، وإذا كانت البيئة قد هُيِّئت على مشاهد جمالية، فإن ذلك يقتضي منطقيًا تكاملًا ينخرط به الطرفان في النظام البيئي العام، كما يقتضي منطقيًا أيضًا أنه إذ لم يتم ذلك التكامل فعليًا بسلوك بيئي جمالي من قبل الإنسان فإن ذلك سيفضي إلى نشاز ما في انخراط الإنسان في الدورة البيئية، وهذه الرابطة الروحية من شأنها أن تعدل الانخراط البيئي للإنسان من انخراط قد ينتهي به الإنسان إلى وجه استنفاعي مادي مسرف يميل بالسلوك البيئي نحو الاستنزاف المرهق إلى انخراط استنفاعي عدل تنزع فيه المطالب المادية للأخذ من مقدرات البيئة بقدر ما تنزع فيه مشاعر الرفق والرحمة المترتبة على السلوك الجمالي إلى الحد من غلواء تلك المطالب المرهقة للبيئة، فإذا هو موقف سلوكي في التعامل البيئي يتصف بالقسط، ويمثل الانخراط الصحيح للإنسان في النظام البيئي بحسب ما قُدر عليه ذلك النظام القائم على التكامل بين مكونات البيئة بحسب الطبائع التي خلقت عليها والوظائف التي هُديت إليها أو كلفت بها.

---

(١) الكهف ٧.

ويقع في النفس أن في قصة ثمود مع ناقة صالح عليه السلام التي جعلها له آية ما يقوم مثالًا قرآنيًا بليغًا على الربط بين السلوك الاستنفاعي الجمالي في البيئة تحققًا وتخلفًا وبين آثاره فيها صلاحًا وفسادًا، فالصورة التي صُورت بها الناقة في قوله تعالى: ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ ﴾[1]. توحي بأن عنصر الجمال فيها كان من بين العناصر في كونها آية ، ولكن قوم صالح لما لم يقرؤوا آية الجمال في هذا المشهد البيئي، ولم يستنفعوها استنفاعًا جماليًا، وغلبت عليهم شهواتهم المادية، حيث انتهى بهم الأمر إلى سلوك في البيئة مفسد فيها، وهو ما تمثل في قتل الناقة وفصيلها قتلًا عبثًا، وكذلك الأمر في كل قصور عن قراءة الجمال في البيئة، فإنه ينتهي في الأغلب إلى فساد بيئي.

وقد كان لهذا التوجيه القرآني إلى الاستنفاع الجمالي للبيئة أثر واقعي بين في سيرورة الحضارة الإسلامية، فقد سلكت هذه الحضارة في جميع وجوهها مسلك القراءة الجمالية لمشاهد البيئة، وكانت حضارة تسير في الأرض لتتمثل ما أودع الله تعالى فيها من قوانين مادية، ولتتمثل في ذات الوقت ما أودع فيها من آيات الجمال، وقد سجلت قراءتها الجمالية تلك فيما حفلت به الأشعار ودواوين الأدب من التغني بجمال الطبيعة، وفيما وُشيت به العمائر والبسط والأدوات المختلفة من رسوم وزخارف فنية تحاكي ما في مشاهد الطبيعة من الجمال.

وهذا الاستنفاع الجمالي الذي انتهجته الحضارة الإسلامية

---

(١) الأعراف ٣٧.

ظاهرًا في قراءة البيئة قراءة جمالية كان له الأثر البين في التعامل السلوكي العملي معها، فقد كان تعاملاً مع كائنات وهيئات يُنظر إليها بمنظار الجمال فتبدو جميلة، وليست مجرد مادة قاحلة كالحة متجهمة، وهو ما أورث سيرة حضارية بيئية طابعها الرفق والرحمة مثلما يظهر - كما أشرنا إليه سابقًا - فيما كان يُخصص من أوقاف لرعاية فصائل من الحيوانات البرية وحفظها من أن ينالها التلف، ولما لم يكن في تلك الفصائل غنى مادي ذو شأن فإن البعد الجمالي فيها يكون عاملًا مهمًا في ذلك الإجراء السلوكي، وكذلك فقد كان ما عُرف في الحضارة الإسلامية من حفاظ على الزروع والأشجار والحيوان من أن يطالها الفساد حتى في أحوال الحرب مسلكًا حضاريًا يوجهه فيما يوجه الإحساس الجمالي بتلك المشاهد التي صنعها الله تعالى صنعًا جميلًا، فلا ينبغي إذن أن يبدد جمالها عبثًا.

وبالنظر إلى الصلة بين الإنسان والبيئة في فكر الآخر، والتي يمكن أن تمر من خلالها تلك المنفعة هي صلة مفقودة أصلًا، وتصبح معرفة حقائق البيئة من قبل الإنسان تشبه أن تكون عملية محكومة بآلية بحتة تخلو من أي بعد روحي، فإنه يتضح أن هذه الفلسفة ليس من شأنها أن توجه السلوك المعرفي البيئي وجهة استنفاع روحي لافتقارها للأسس التي يمكن أن يقوم عليها ذلك التوجيه.

ثم إن الأمر في الاستنفاع الجمالي للبيئة في الثقافة الغربية لا يبعد كثيرًا عن الأمر في الاستنفاع المعرفي، فالجمال البيئي في الفلسفة

الحديثة إنما هو جمال من إضفاء العقل وليس من واقع البيئة، إذ البيئة باعتبارها مادة لا تتصف إلا بخواص الكم وليس الجمال منها، ويترتب على ذلك أن الإحساس الجمالي بمشاهد البيئة ليس في حقيقته إحساسًا بتلك المشاهد، وإنما هو مجرد إحساس بالذات، وإذا كان ذلك الإحساس يحقق متعة شخصية فإنها في حقيقتها ليست متعة تحققها ذات المشاهد البيئية، وإنما هي متعة يحققها التخيل الإنساني لما في تلك المشاهد من الجمال.

وفي نطاق هذا المفهوم الفلسفي لا يبقى مبرر لاستنفاع البيئة استنفاعًا جماليًا، إذ ليس في ذاتها ما يمكن استنفاعه في هذا الشأن، ولذلك فإنه لا يُنتظر أن يكون في الثقافة الغربية المتأسسة على هذه الفلسفة توجيه سلوكي إلى طلب المنفعة الروحية في الجمال البيئي.

وقد كان الفقر الثقافي في التوجيه إلى سلوك استنفاعي روحي أثر بين في السلوك البيئي للحضارة الغربية، إذ كان غالب هذا السلوك يتعامل مع البيئة بعلاقة مادية تخلو من الطلب للمنفعة الروحية، وتتمحض لطلب المنفعة المادية، فاختل إذاً توازن ذلك التعامل، إذ طغى الشره لاستنزاف الموارد المادية دون أن يرده راد من مغزى روحي يخفف من غلوائه، وانتهى الأمر بهذه الحضارة إلى زحف على البيئة يشبه الغزو الذي يبغي افتكاك ما فيه إشباع للشهوات ولا يبالي بما قد يحدث من الدمار، وهو مما أدى إلى ما تعانيه البيئة اليوم من أزمة مشهودة.

لقد كانت الحضارة الإسلامية تنحو منحى التوجيه الثقافي العملي

المباشر إلى التعامل مع البيئة تعاملًا يكون فيه للاستنفاع الروحي نصيب وافر يوازي الاستنفاع المادي، وذلك سواء كان استنفاعًا معرفيًا بحقيقة البيئة في ذاتها أو في دلالاتها العقدية، أو استنفاعًا جماليًا بما هُيِّئت عليه من مشاهد الجمال، ولكن الحضارة الغربية كان التوجيه الثقافي العملي فيها يخلو فيما يتعلق بارتفاق البيئة من معنى الاستنفاع الروحي، ويتمخض للاستنفاع المادي، فسلكت هذه الحضارة في البيئة مسلك الاستنزاف المرهق، فيما سلكت الحضارة الإسلامية فيها مسلكًا عدلًا تحقق فيه الحفظ والصيانة.

«٢» الاستنفاع المادي:

إن ما يطلبه الإنسان من البيئة من نفع مادي هو الأقرب في طلبه إلى التلقائية، وذلك بما هو متوقفة عليه حياته المادية، وهو أيضًا الأقرب إلى أن يستأثر بالسعي الإنساني ويستبد به، إذ هو مرتبط بالشهوات التي لها على الإنسان سطوة غالبة، ولذلك فقد جاءت الحضارات الإنسانية في جلها تميل إلى هذا الوجه المادي في تعاملها مع البيئة، فيكون لذلك الميل أثره فيها بقدر ما يكون للحضارة من قوة علمية وآلية في سعيها النفعي المادي من البيئة. وقد كانت الحضارة الغربية الراهنة أكثر تلك الحضارات قوة في ذلك، فكانت أشدها تبعًا لذلك أثرًا سلبيًا في البيئة.

وإذا كان الابتغاء المادي من البيئة أمرًا لا تقوم حضارة بل لا تقوم حياة إنسانية إلا به، إلا أنه بالنظر إلى ارتباطه بالشهوات الإنسانية إذا لم يكن جاريًا وفق ضوابط أخلاقية وقانونية فإنه قد ينتهي إلى السرف

وما ينتج عن السرف من التداعيات المنعكسة سلبًا على البيئة نفسها، فيئول الأمر إلى أن ينقض ذلك الابتغاء المادي نفسه بنفسه بما تحدث تلك التداعيات من تعطيل لمرافق البيئة الكمية والكيفية عن عطائها المادي للإنسان، وهو الحاصل الآن فيما يُسمى بأزمة البيئة التي انتهت إليها الحضارة الراهنة.

وبناء على ذلك فإن التصور الإسلامي جاء بنظام ثقافي في الابتغاء المادي يقوم على قواعد عملية وضوابط سلوكية من شأنها أن تجعل استنفاع البيئة استنفاعًا عدلًا، يندفع فيه الإنسان إلى موارد البيئة لاستثمارها في إقامة حياته وإنجاز مهمته، ولكنه اندفاع رفيق يحافظ على تلك الموارد، ولا يستهلك منها إلا بمقدار محدد وكيفية معينة تخضع لمقتضيات النظام البيئي العام، كما تخضع للمهمة الموكل إلى الإنسان أداؤها في نطاق ذلك النظام وفي نطاق الغاية من وجوده أساسًا.

فبالإضافة إلى التصور الثقافي النظري لحقيقة البيئة في ذاتها وفي علاقة الإنسان بها مما يُعد الموجه الأصلي للاستنفاع المادي، وبالإضافة أيضًا إلى ما يتصل بالمطالبة بالسعي في البيئة للانتفاع المادي بمواردها الذي جاء به الأمر الديني الواجب إذ يتوقف عليه واجب التعمير في الأرض، بالإضافة إلى ذلك وردت في التعاليم الإسلامية توجيهات أخلاقية وتشريعية مباشرة توجه ذلك الاستنفاع إلى سلوك بيئي مقسط يتسم بالعدل، يضبط في مسارات محددة ذلك الاندفاع الذي تحدثه الصورة الثقافية العقدية للبيئة التي ترسم علاقة الإنسان

بالبيئة، وتقوم مقام المذكر العملي الدائم بمقتضيات تلك الصورة النظرية. وتعود بعض تلك الموجهات المباشرة في الانتفاع المادي بمرافق البيئة إلى ما طبيعته عقدية أخلاقية، ويعود البعض الآخر منها إلى ما طبيعته فنية تقنية، وذلك فيما ترجع كثرة فروعه إلى أصول عامة لعل من أهمها ما يلي:

• **عقدية الاستنفاع المادي** : يوجه القرآن الكريم استنفاع البيئة ماديًا توجيهًا عقديًا، وذلك بأن جعله سعيًا إنسانيًا في سبيل تحقيق الإنسان للمهمة التي كُلف بأدائها كغاية لحياته، فقد كُلف الإنسان بتحقيق مهمة الخلافة في الأرض، وبذلك كل سعي يبذله في سبيل الانتفاع المادي بمرافق البيئة ينبغي أن يكون مندرجًا ضمن تلك المهمة، مؤطرًا بإطارها، موجهًا بوجهتها، بحيث لا ينحرف ذات اليمين أو ذات الشمال إلى ما يمكن أن يكون فيه نقض لها، أو إعاقة لتنفيذها.

إن مهمة الخلافة كغاية عقدية لحياة الإنسان تقتضي فيما تقتضي أن يترقى الإنسان ترقيًا روحيًا بتزكية النفس بالعلم والفضيلة، وأن يتجه في ذلك إلى الله يبتغي منه القربى، والانتفاع بموارد البيئة ينبغي أن لا تُرسل فيه الشهوات بالاستهلاك إرسالًا غير محدود، إذ أن ذلك من شأنه أن يُعطل تزكية الروح بما تشد الشهوات حينما تغرق النفس فيها إلى حضيض المادة، وتُعيق عن الانطلاق إلى آفاق الكمال، فيكون ذلك الانتفاع المادي مقيدًا بالحد الذي يسمح بالانطلاق الروحي في سلم الترقي، وهو الحد الذي ضبطه قوله تعالى في قصة قارون: ﴿إِذْ

﴿ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ﴾[(١)] . فالتصرف في المقدرات المادية للبيئة بالاستهلاك ينبغي أن يكون مبتغى فيه الدار الآخرة، وذلك بالوقوف به عند الحد الذي يسمح بترقية الروح بالفضيلة والطاعة، ولا يؤول إلى الفرح أي البطر والازدهاء الذي من شأنه أن يميت من النفس الاهتمام بالأعمال الصالحة والمنافسة لاكتسابها، فينحدر به التوغل في الإقبال على اللذات إلى حضيض الإعراض عن الكمال النفساني والاهتمام بالآداب الدينية) ، كما آل إليه حال قارون، فتعطلت بذلك مهمة خلافته في الأرض بسبب الإغراق في استهلاك موارد البيئة.

كما تقتضي مهمة الخلافة أيضًا التعمير في الأرض تعميرًا ماديًا بالمنشآت الصالحة وتعميرًا معنويًا بإقامة العدل وإشاعة الخير بين الناس، والانتفاع بموارد البيئة ينبغي أن يندرج في إطار هذا التعمير باعتباره جزءًا من الغاية العقدية للحياة، غير متعارض معه ولا معيق له، وذلك بأن يكون عند حد من الاستهلاك يتم به بالتعمير، ولا ينقلب بتجاوزه إلى الفساد كما آل أمر قارون حينما تجاوز في شهواته الاستهلاكية من مرافق البيئة حدًا انتهى به إلى الفساد في الأرض، فكان إذن انتفاعه بتلك المرافق مناقضًا للغاية العقدية من وجوده التي هي إقامة الخلافة في الأرض بالعمل الصالح، وهو ما ضُمن على سبيل الاستنكار في قوله تعالى تكميلا للآية الآنفة الذكر: ﴿ وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[(٢)] . فطلب الإحسان

---

(١) القصص ٧٦ – ٧٧. (٢) القصص ٧٧.

إنما هو طلب للانتفاع البيئي بما يفضي إلى التعمير في الأرض ولا يئول إلى الفساد فيها، وذلك بقرينة مقابلته بالنهي عن الفساد في الأرض الذي من ضمنه الإفساد البيئي الذي تمثله الأفعال التي تؤدي إلى الإضرار بالبيئة.

وعندما يوضع الاستنفاع البيئي في هذا السياق العقدي مؤطرًا بعقيدة الخلافة في الأرض فيما تقتضي من ترقية للنفس وتعمير في الأرض، فإنه يصبح مأخوذًا مأخذ الوسيلة إلى غاية لا مأخذ الغاية في حد ذاته؛ إذ الغاية في هذا السياق هي الاقتراب من الله تعالى بتحقيق الخلافة في الأرض، والانتفاع المادي بالبيئة إنما هو خطوة في سبيل تحصيل تلك الغاية، وعندما يكون الانتفاع المادي بمرافق البيئة وسيلة لا غاية فإن الإنسان سيأخذ منه بحظوظ مقدرة بأقدار الغاية، وهو ما يكون له الأثر الإيجابي على البيئة، بخلاف ما إذا كان ذلك الانتفاع غاية في حد ذاته، فإنه سينتهي لا محالة إلى إرهاق البيئة والإخلال بتوازنها بالاستهلاك المفرط لمقدراتها، وذلك في سبيل تحقيق الرفاه المادي إذ هو الغاية التي ليس وراءها غاية، وتلك هي حال الحضارة الغربية فيما انتهت إليه من أزمة بيئية حينما جعلت المنفعة المادية من العطاء البيئي الغاية العليا في الحياة التي ليس وراءها غاية.

• **أخلاقية الاستنفاع المادي**: توجه التعاليم الإسلامية الاستنفاع المادي بمرافق البيئة توجيهًا أخلاقيًا كما توجهها توجيهًا عقديًا، فأخرجت ذلك الاستنفاع من أن يكون مجرد عملية مادية لحفظ الحياة وتنميتها مثلما هو الشأن بالنسبة لسائر الكائنات الحية إلى أن يكون

عملية جارية على أصول وقواعد أخلاقية مشتقة من الفطرة الإنسانية في خيريتها، ومحددة بتعاليم الشريعة في مسالكها، بحيث يباشر الإنسان البيئة بالاستنفاع بوحي من تلك الفطرة الخيرة وفق إرشادات أخلاقية من الوحي لعلها في معرض كثرتها تعود إلى مبدأين أساسيين هما:

١. **الأول** : مبدأ العدل بين الناس في ذلك الاستنفاع البيئي، فقد جُعلت مرافق البيئة في التصور الإسلامي ملكًا مشاعًا بين بني الإنسان، فليس لأحد أن يحتكر منه شيئًا لنفسه ويستبعد الآخرين عن استنفاعه بأي سبب من الأسباب دينيًا كان أو عرقيًا أو اجتماعيًا، فلكل إنسان بمقتضى إنسانيته وبقطع النظر عن أي اعتبار آخر الحق في أن يستنفع البيئة ليأخذ حظه من مرافقها ما كان منها محدودًا غير متجدد ليس له بدائل وما كان متجددًا غير محدود ليس له بدائل.

ويُستفاد هذا المعنى من بين ما يُستفاد من الموقف القرآني الذي يعمم الخطاب في بني الإنسان كافة حينما يتعلق الأمر بالتوجيه إلى الاستنفاع البيئي بغير تخصيص لجنس دون جنس أو لأهل إيمان دون أهل كفر أو لأهل عصر دون أهل عصر آخر، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾[1]. فالخطاب في الآية هو خطاب للناس كافة يجعلهم جميعًا شركاء في مقدرات البيئة وعطائها المادي.

---

(١) الملك ١٥.

٢. **الثاني** : من تلك المبادئ الأخلاقية في الاستنفاع البيئي أن يكون ذلك الاستنفاع على قدر الحاجة إليه دونما إهدار لشيء من مقدرات البيئة في غير حاجة، ومهما تكن حاجة الإنسان إلى مرافق البيئة تتغير وتتطور من ظرف إلى ظرف ومن زمن إلى زمن، فإنها يمكن أن تقدر بحسب الظروف والأزمنة ليعتبر الاستهلاك الزائد على ذلك التقدير مرعيّة فيه أحوال تلك الظروف والأزمنة ضربًا من الإهدار البيئي جاءت التعاليم الإسلامية تمنعه منعًا أخلاقيًا ومنعًا تشريعيًا.

ولهذين المبدأين الأخلاقيين في الاستنفاع البيئي أثر مهم في التعامل السلوكي مع البيئة من حيث ما يحدثه ذلك السلوك فيها من صلاح أو فساد، فمبدأ العدل بين الناس في استنفاع المرافق البيئية من شأنه أن يحدث في النفوس الإحساس بالمسئولية المشتركة تجاه تلك المرافق، فإذا بالفرد أو المجموعة من الأفراد يتصرفون في البيئة على اعتبار كونها أمرًا مشتركًا للآخرين من المعاصرين ومن الأجيال اللاحقة حق فيها مثل حقهم هم في التصرف فيها، وهذا الإحساس بالمسئولية البيئية المشتركة من شأنه أن يجعل الجميع يحافظون على البيئة بالقصد في الاستهلاك وبالصيانة من الخراب على حد سواء، إذ يصبح هذا الحفاظ على البيئة جزءًا من حق الآخرين فيها كحقهم في استنفاعها أساسًا فيما الإخلال به إخلال بحقهم ذلك.

ولما لم يكن السلوك البيئي في الحضارة الغربية قائمًا على أي من هذين المبدأين الأخلاقيين انتهى الأمر إلى هذه الأزمة البيئية التي

يعاني منها العالم اليوم، فهذه الحضارة قامت على الحيف في استنفاع البيئة تمثل في استئثار الرجل الأبيض بالشطر الأكبر من مقدراتها دون الآخرين من الأجناس استئثارًا فُرض أحيانًا بقوة السلاح كما كان الأمر في حروب الاستعمار، وفُرض أحيانًا أخرى بقوة التكنولوجيا كما هو جار الآن بالسيطرة التكنولوجية للدول العظمى على الثروات الطبيعية في البيئة.

وفيما يتعلق بالعلاقة بين استنفاع البيئة وبين الحاجة الإنسانية فإن حضارة الغرب تسلك مسلك الاستهلاك المستقل عن قدر الحاجة، إذ تجعل من الاستهلاك قيمة اقتصادية قائمة، تقع الدعوة إليه والحث عليه سواء كانت الحاجة داعية إليه أو غير داعية، وهو ما يبدو جليًا في هذه الحملات الإشهارية الداعية إلى استهلاك البضائع بغير حدود، والمتبعة في ذلك أساليب الإغواء البارعة، وهو ما أصبح سياسة اقتصادية عامة جزء من النظام الحضاري وليس مجرد سلوك أفراد من الناس. وقد أفضى هذا السلوك الاستهلاكي لمرافق البيئة غير المقيد بقيود أخلاقية إلى إرهاق لتلك المقدرات كان له الدور الكبير إن لم يكن الأكبر فيما تعاني منه البيئة اليوم من المشكلات.

• **تقنين الاستنفاع** : وهو ممارسة الاستنفاع المادي بمرافق البيئة من خلال القوانين التي بُنيت عليها في طبيعتها مادة وكيفية، ومن خلال الأدوار التي هُيِّئ كل منها للقيام به في الدورة البيئية العامة، فالبيئة قد رُكبت - كما هو مبين في التصور الإسلامي - على سنن وقوانين ثابتة تضبط طبيعة مكوناتها، كما تضبط تحولاتها وعلاقتها ببعضها وأدوار

كل منها في المسيرة البيئية الشاملة، وذلك في نطاق الغائية البيئية الشاملة الذي يمثلها تفاعل الإنسان بالبيئة.

ولما كانت البيئة لا تقدم للإنسان نفعًا مجانيًا مباشرًا إلا في الأقل من مطالبه، فإنه كان من المطلوب منه أن يباشرها بالمعالجة ليستخرج منافعها من وراء ظواهرها، ولكن تلك المعالجة لا تكون مثمرة في تحصيل منافع البيئة إلا إذا كانت معالجة من خلال القوانين التي بُنيت عليها في مادتها وكيفيتها والأدوار التي هُديت إليها، فإن عطاءها للمنافع متوقف على استعطائها من خلال تلك القوانين والأدوار، وأما إذا استُعطيت من غير ذلك فإنها تكون آبية للعطاء، بل قد تكون منتقمة لنفسها فيعود الإنسان بضر من حيث سعى إلى نفع، وقد قال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾[1]. فهداية المخلوقات البيئية تعني تركيبها على سنن بها يكون حفظها وتفاعلها البيئي، ومنها يكون استنفاعها من قِبل الإنسان.

وأول خطوة في هذا السلوك البيئي القائم على إتيان البيئة بغاية استنفاعها من حيث ما رُكبت عليه من قوانين وسنن هي العلم بتلك القوانين والسنن، وذلك ما جاءت التعاليم الإسلامية تدعو إليه وتحث عليه وترتقي به إلى درجة الوجوب الديني، ولكن المعرفة النظرية غير كافية في هذا الخصوص، فتأتي إذاً الخطوة الثانية وهي التعامل مع البيئة في سبيل استخراج منافعها تعاملًا تُطبق فيه عمليًا تلك المعرفة النظرية بالقوانين

---

(١) طه ٥٠.

والسنن، فتؤتى بذلك مرافق البيئة من حيث ما رُكبت عليه من قوانين وما هُديت إليه من غاية بعد تحصيل العلم النظري بها.

وقد جاء التوجيه الإسلامي بينًا في هذا الشأن، وهو ما يبدو أول ما يبدو في النهي عن محاولة استنفاع البيئة من خلال مسالك لا علاقة لها بقوانينها وسننها، وذلك مثل مسالك التنجيم والسحر والطيرة والتواكل، فهذه كلها طرق تُستعمل في استعطاء المنافع البيئية ولكن من مداخل وهمية لا صلة لها بالمداخل القانونية، ولذلك فقد جاء التوجيه الإسلامي بتحريم هذه المسالك كلها والإبقاء على مسلك السنن دون غيره، وعلى ذلك بُنيت الحضارة الإسلامية في جميع مظاهرها.

وفي نطاق ذلك التوجيه الإسلامي إلى الاستنفاع السنني جاء القرآن الكريم يؤكد للناس أن الحصول على منافع البيئة لا يتأتى إلا من خلال إتيانها من حيث سننها، وأنه لا دخل في ذلك لما يتصف به مستعطي البيئة من إيمان أو كفر، فأيما إنسان ابتغى من البيئة منفعة مهما يكن من أمر إيمانه أو كفره فلا مدخل له إلى ذلك سوى مدخل التعامل القانوني معها، وذلك هو مقتضى قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾[١]. فالله تعالى قد جعل لكل شيء قدرًا أي نظمًا وسننًا تنظم علاقته بكل ما في الكون، فمن أخذ كل شيء بسنته أقبلت عليه تلك السنة بما لها من أخلاف الرزق ومكنون الثروة، وقد بلغ من اطراد ذلك بأن جعله الله قانونًا منقادًا لكل من عمل به واستغله بحقه، مؤمنًا بالله أو غير مؤمن.

(١) هود ١٥.

وعندما حُرمت التعاليم الإسلامية بعض المآكل والمشارب والمناكح، مثل: الميتة والخمر والزنا، فإن في ذلك التحريم دلالة ذات شأن فيما يتعلق بتقنين الانتفاع البيئي، فهذا التحريم إنما هو مبني في بعض جوانبه على ما في هذه المحرمات من معاكسة لقوانين البيئة وسننها في مباشرتها بالاستنفاع، فهذه القوانين تقتضي أن في هذه المآكل والمشارب والمناكح أضرارًا تصيب الإنسان حينما يتعاطاها، فيكون إذاً قد طلب منافع البيئة من غير قوانينها التي يكون منها النفع وإنما من مسالك خاطئة هي مسالك توهم بالمنفعة فيما يحصل من اللذة، ولكنها في حقيقتها لا تفضي إلا إلى ضرر، فجاء بذلك التحريم يدل فيما يدل على توجيه سلوكي بيئي إلى استنفاع للبيئة يكون وفق ما يُنبت عليه من القوانين والسنن التي لا يكون انتفاع إلا من خلالها.

ولا شك أن هذا التقنين في الاستنفاع البيئي الذي وجهت إليه التعاليم الإسلامية يفضي من جهة إلى الحصول على المنافع البيئية بيسر، ويفضي من جهة أخرى إلى الحفاظ على البيئة خاصة من حيث نظامها وتوازنها، فإتيان الإنسان البيئة من حيث قوانينها هو انخراط في دورتها سويًا يحافظ على انسجامها ولا يحدث فيه اضطرابًا، وأما التعامل مع البيئة في اتجاه معاكس لقوانينها فإنه لا يظفر بشيء من عطائها، بل قد يبوء بالضر من حيث أريد النفع، وهو مع ذلك يفضي إلى الاضطراب في التوازن البيئي بما هو في أصله تشويش على ذلك التوازن الذي هو في حقيقته نسيج من القوانين والسنن التي تجري عليها البيئة.

وقد قامت الحضارة الغربية في استنفاع البيئة على أساس من العلم بقوانينها وبلغت في ذلك شأوًا بعيدًا لم تبلغه حضارة قبلها، وتحرر الإنسان فيها في تعامله البيئي من كل لون من ألوان الوهم، ولما سلكت هذه الحضارة في البيئة مسلك استنفاعها من خلال قوانينها وسننها فإنها ظفرت بمسلكها هذا من المنافع بعطاء ثري لم تظفر به حضارة غيرها، بحيث كان هذا التقنين في الاستنفاع هو السبب الأكبر في ثراء العطاء البيئي وغزارته، وكان بالتالي هو السبب الأكبر في الازدهار المادي لهذه الحضارة.

ولكن هذا الاستنفاع القانوني للبيئة الذي سلكته حضارة الغرب على وجه العموم قد داخلته في وجوهه التطبيقية انحرافات كثيرة كان لها بالغ الأثر في إحداث أضرار بالبيئة أسهمت في تفاقم الأزمة التي انتهت إليها حديثًا، ولم تكن تلك الانحرافات مجرد أخطاء محدودة في التطبيقات العلمية على مرافق البيئة، ولكنها كانت معاكسات إرادية مقصودة لبعض السنن البيئية للحصول على منافع في حقيقتها ليست إلا منافع موهومة سرعان ما يتبين أنها مضار يتجاوز ضررها الإنسان نفسه ليصيب عموم البيئة بالخلل، وما ذلك إلا بسبب التعامل مع بعض مرافق البيئة بما يخالف ما قُدرت عليه من قانون في النفع وما هُديت إليه في ذلك بطبيعتها من غاية بإفراط في استنزافها، أو تفريط في الانتفاع بها.

وقد نجد مصداقًا بينًا لهذا المعنى فيما أفسحت فيه الحضارة

الغربية من مجال لاستزراع وتصنيع واسعين لمحاصيل ومواد معاكسة في فعلها لمصلحة الحياة الإنسانية التي قُدرت البيئة في طبيعتها من أجل نفعها وهُديت إلى ذلك كغاية لأصل وجودها، وذلك على سبيل المثال ما يبدو في احتفال الحضارة الغربية بالخمور والتبغيات وما شابهها من النباتات والمصنوعات الضارة، فهذه المواد المستزرعة والمصنوعة أصبحت في هذه الحضارة مطلبًا من مطالب الرفاه، وعنصرًا من عناصر البهجة، تُقصد البيئة لاستعطائها إياها، ويُسعى فيها السعي الحثيث للحصول منها عليها.

وعندما يتبين الناظر في هذا الأمر ما تحدثه هذه المواد من فادح الأضرار بصحة الإنسان، وما تسببه من إرهاق فادح لموارد البيئة تربة ومياهًا وأسمدة وغيرها - إذ تظفر من ذلك بالنصيب الوافر -، فإنه يقف عيانًا على ما يفضي إليه هذا السلوك في استنفاع المرافق البيئية من ضرر يخل أيما خلل بالبيئة في مادتها وفي نظامها، وما ذلك إلا بسبب من تحويل تلك المرافق في عطائها عما هُديت إليه من نفع حقيقي بحسب ما قُدرت عليه في تكوينها لتوجه في نفع موهوم، فهو إذن ضرب من الفساد في البيئة تحدثه حضارة الغرب بمخالفة سنن الطبيعة.

وبذلك فإن ما وصلت إليه الحضارة الغربية من تقدم باهر في الهندسة الوراثية في سبيل تكثير المحاصيل الزراعية والحيوانية وتجويدها لئن كان حقق في ذلك نتائج على درجة كبيرة من الأهمية إلا أن علماء البيئة أصبحوا اليوم ينظرون إليه بريب كبير، وأصبح كثير

منهم يطلق صيحات فزع من أضرار بيئية وخيمة تحدثها تلك الهندسة الوراثية توشك أن تكون عنصرًا بارزًا من عناصر الأزمة التي تضرب البيئة حاضراً.

ومن ذلك على سبيل المثال ما أدت إليه تلك الهندسة من إضعاف لقدرة النباتات المستنسلة على المقاومة للآفات العارضة، مما أدى وسيؤدي إلى انقراض واسع لأنواع النبات بسبب ما يُعرف بتآكل الجينات، وذلك ما يفضي لا محالة إلى خلل خطير في النظام البيئي بدأت بوادره تظهر كعنصر من عناصر الأزمة العامة للبيئة، وينذر مستقبلًا بتصعيد خطير فيها، خاصة حينما تقتحم هندسة الوراثة مجال الحيوان بشكل واسع.

وهكذا يتبين أن التصور الإسلامي فيما يتعلق بالتصرف العملي في البيئة يوجه الإنسان في هذا التصرف إلى السعي فيها طلبًا للمنفعة منها، وجعل ذلك تكليفًا واجبًا كجزء من التكليف بمهمة الخلافة في الأرض، كما يوجهه إلى أن يكون استنفاع البيئة على خطين متوازيين: استنفاع روحي بتمثل حقيقتها وتذوق جمالها، واستنفاع مادي بارتفاق مواردها ارتفاقًا مؤطرًا بمبادئ عقدية وقواعد أخلاقية، ومقننًا على أساس السنن التي بُنيت عليها تلك الموارد والغايات التي هُديت إليها.

وفي مقابل ذلك فإن الحضارة الغربية سلكت في البيئة سلوكًا استنفاعيًا حصلت فيه من المنافع ما أقامت به عمرانًا ماديًا عظيمًا، ولكنها أصابت البيئة بالضرر الكبير والخلل البالغ، وما ذلك إلا بتوجه هذا الاستنفاع توجهًا يخلو من الابتغاء الروحي، ويتمحض لابتغاء مادي

لا تقيده مبادئ من عقيدة، ولا قواعد من أخلاق، ولا يلتزم بسنن وقوانين للغائية البيئية، وفي هذا التقابل ما يُبين عن أهمية المنظور الإسلامي فيما يتعلق بقضية من قضايا البيئة في أزمتها الراهنة هي قضية استنفاع البيئة [1].

إن اللّه سبحانه وتعالى عندما سخّر البيئة للإنسان وجعلها موطنا لانتفاعه حتى يقيم حياته وفق ما يتلائم مع أوضاعه وإقامته عليها، فإنه طالبه بالعمل على المحافظة على التوازن في انتفاعه بالبيئة مادياً وروحياً، وأن ينطلق في ذلك مما قررته الدلائل النصية والاجتهادات الفقهية حتى لا ينحرف عن جادّة الصواب فيهلك نفسه بنفسه.

ثم إن من أفضل ما سخّره اللّه تعالى للإنسان لانتفاعه في البيئة المحيطة به الإنسان الذي يتشابه معه في الهيئة والصفات والقدرات، حيث نظّم العلاقة بين مفردات بني الإنسان باعتبار الانتماء إلى الدين، ولكن لما كان ذلك ليس محلا لدراستنا، فإن ما نتعرّض له ضمن المحور اللاحق يتمثل في استعراض وتحليل بعض النصوص التي تقرر بعدا أخلاقيا لانتفاع الإنسان بالبيئة المحيطة به، والمتمثلة بكل جنس فيها عدا الإنسان، والذي كان لتنظيم العلاقة به النصيب الأكبر في القواعد والضوابط المقررة في الكتاب والسنة.

---

(١) النجار – عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

ثالثاً - آداب وسلوكيات تتصل بحق الانتفاع :

هناك في النصوص القرآنية وفي السنة المحمدية آداب قررها النبي (صلى الله عليه وسلم) تزيد من خصوصية النظام الإسلامي فيما يتصل بحق الانتفاع بالبيئة بمختلف عناصرها، حيث اشتملت هذه النصوص على الكثير من القواعد التي تقرر هذا الجانب من الخصوصية.

ومن خلال استقراء النصوص القرآنية والنبوية في كتاب (رياض الصالحين) لمحي الدين النووي فإن مما ورد في هذا الكتاب من دلائل وقواعد تتصل بآداب التعامل البيئي يتمثل أبرزه فيما يلي، وأعني بذلك الآداب التي تتصل بعلاقة الانتفاع بين الإنسان كجزء متميز من البيئة مع مختلف عناصر البيئة التي يستعين بالانتفاع بها حتى يقيم أمور حياته، وإلا فإن الكتاب قد حوى في غالبه القواعد التي تنظم علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وهو ليس محلاً لبحثنا في هذه الدراسة. وفيما يلي استعراض لبعض الجوانب التي تعالج البعد الأخلاقي في علاقة النفع والانتفاع والتأثر والتأثير بين الإنسان والبيئة، حيث تأخذ هذه العلاقة بعداً روحياً شامخاً يرتقي بها عن سائر العلاقات التي تنشأ بين البيئة والمخلوقات الحية الأخرى المحيطة بها من غير بني الإنسان.

- **تذكر النعم والشكر عليها في كل حال:**

إن من أعظم الآداب التي ترتبط عملية الانتفاع بالبيئة تذكر النعمة بتذكر خالقها ومسخّرها، وحمده وشكره على هذه النعمة التي

سخرها الله تعالى للإنسان، ويقرر ذلك آيات قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة نتعرض لبعض منها في هذا المقام.

يقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ * لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾[(١)].

وقد ذكر السعدي في تفسيره لهذه الآية بأن الله تعالى قد ذكر بأنه خلق لعباده من الأصناف كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون، من ليل ونهار، وحر وبرد، وذكر وأنثى وما إلى ذلك، كما أنه تعالى سخر لكم الفلك لركوبها وهي السفن البحرية، وكذلك سخر لكم من الأنعام ما يصلح لذلك.

ثم يبين الحكمة من هذا التسخير لنفع الإنسان وهو الاستواء على ظهر هذه الدواب، وعدم النسيان أنها من النعم التي أنعم الله بها تعالى على عباده ليذكروا ويتذكروا كيف تسهل لهم هذه النعم أمورهم الحياتية، وهي بذلك تشمل كل مركوب.

فلا بد من الاعتراف بالنعمة لمن سخّرها، والثناء عليه تعالى بذلك، وهو لأجل ذلك أمركم أن تسبحوا بمن سخر لكم هذه النعمة، حيث أنه تعالى لولا تسخيره لنا ما سخر من الفلك والأنعام ما كنا

---

(١) الزخرف ١٢ – ١٣.

مطيقين لذلك ولا قادرين عليه، ولكن من لطفه وكرمه تعالى سخّرها وذللها ويسّر أسبابها، والمقصود بذلك أن الرب الموصوف بما ذكره من إفاضة النعم على العباد، هو الذي يستحق أن يعبد، وهو الذي يستحق أن يصلى له ويسجد.

ومن جانب آخر يقرر تعالى بعداً آخر أو غرضاً آخر يتصل جميعه بأن هذا التذكر للنعمة والشكر عليها مدعاة إلى أن يتذكر الإنسان أنه إلى ربه منقلب، ولخالقه راجع بعد هذه الحياة كلا بما قدمت يداه، وفي ذلك – كما أشار السعدي في تفسيره – إيذان وإعلام بأن حق الراكب أن يتأمل فيما يلابسه من المسير، ويتذكر منه المسافرة العظمى التي هي الانقلاب والرجوع إلى الله تعالى، فيبني أموره في مسيره ذلك عن تلك الملاحظة، ولا يخطر بباله على شيء مما يأتي ويذر أمراً ينافيها، حيث أن من ضرورة ذلك أن يركبه لأمر مشروع [(١)].

وبذلك فإن عبادة الشكر ترتبط بعبادة التفكر التي سنتعرض لها فيما بعد، وعبادة التفكر تجر إلى إحياء الإيمان بالآخرة، وهي وإن أُوردت على سبيل التقسيم في هذا المقام، إلا أنها مرتبطة ارتباطاً لا يقبل الانفصام في جميع الأحوال، وهذا ما سيتأكد لنا من خلال الاستعراض ضمن المحاور اللاحقة.

إن الشكر مرتبط بالحمد، فهو غاية وسيلته من حيث المنظور

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٤، مرجع سبق ذكره، ص ٤٤٠.

الشرعي تتمثل في الحمد لله تعالى على نعمه من هداية ورشاد، وتسخير وإنعام، وتسهيل وتيسير في مختلف أمور الحياة مما يتصل بدينه ودنياه.

ولما كان هذا الأمر من الأمور الهامة في شريعة الله تعالى، فإنه جل في علاه قد قرره في الكثير من نصوصه وربطه بالحمد، كما أن النصوص النبوية قد قررت جانباً كبيراً مما يتصل بالشكر الذي يناقضه ويقابله الكفر بالنعم، حيث الشكر يجر لزيادة النعم، والكفر يجر إلى محق البركة منها.

يقول الله تعالى في محكم آي تنزيله: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾[١]. ويقول تعالى كذلك: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾[٢]. ويقول تعالى كذلك: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[٣]. ويقول في آية أخرى: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٤]. بل إن هناك آية تقرر الحمد المطلق لله تعالى، حيث وردت في أعظم سور القرآن مما يتردد على اللسان في كل صلاة مرات ومرات، والتي يقول الله تعالى فيها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥].

---

(١) البقرة ١٥٢.

(٢) إبراهيم ٧.

(٣) الإسراء ١١١.

(٤) يونس ١٠ .

(٥) الفاتحة ١.

فالله سبحانه وتعالى مستحق للحمد في كل وقت وفي كل حين، فهو المنعم والمسخر للإنسان كل الخيرات التي تستحق كل هذا الثناء؛ لذلك كان الثناء من أعظم العبادات التي قررها الله سبحانه وتعالى في علاقة العبد بربه.

ويقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [١].

وبذلك فإن الله سبحانه وتعالى من إذا لم يشكره العبد بذكر نعم الله تعالى واستشعار عظمتها، فإنه يكون بذلك كافراً بنعمة الله تعالى، فلا يكون جزاءه بذلك إلا أن يلبسه لباس الجوع والخوف بما جنته يداه.

ومما ذكره النووي في كتاب حمد الله تعالى وشكره فيما يتصل بحمد الله تعالى وشكره على نعمه التي أنعم الله تعالى بها عليه ما رُوي عن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة [٢]. فيحمد عليها، ويشرب الشربة فيحمد عليها» [٣].

---

(١) الزخرف ١٢ – ١٣.

(٢) الأكلة (بفتح الهمزة) المرة من الأكل، والشّربة (بفتح الشين): المرة من الشرب.

(٣) رواه مسلم (٢٧٣٤). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، حققه وأخرج أحاديثه رباح – عبد العزيز، والدقاق – أحمد يوسف، وبمراجعة الأرنؤوط – شعيب، ط: ١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية، ص ٤١٢.

يقرر الحديث السابق مبدأ من مبادئ التعامل مع نعم الله تعالى التي سخرها للإنسان في محيطه الحيوي، وهي تتمثل بنعمة الطعام والشراب، حيث تقرر من خلال الحديث أن رضي الله سبحانه وتعالى عن العبد مرهون بدرجة قناعة بما يسخّره الله تعالى له من نعمة في مأكله ومشربه، وفي ذلك وفق مفهوم المخالفة تعبير عن سخط الله سبحانه وتعالى في ما يناقض ذلك من تذمر وسخط على نعم الله تعالى.

بل يقرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) مع ما يقتات به الإنسان آداباً تتصل بالتعامل مع نعمة الطعام والشراب التي ينعم الله بها على الإنسان حتى يقيم عوده، ومن ذلك ما ضمّنه النووي في كتاب أدب الطعام ما يتصل بالتسمية في أوله والحمد في آخره، ويقرر ذلك نصوصٌ نبويةٌ كثيرة منها حديث عمر بن أبي سلمة (رضي الله عنهما) قال: قال لي رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك» [(١)].

بل إن هناك حديث نبوي يقرر الثواب بغفران ما تقدم من الذنب على حمد الله تعالى بعد الطعام والشراب، حيث ورد في هذا الحديث دعاء يستحب للمرء أن يقوله بعد تناول المطعوم والمشروب، وهذا الحديث يرويه معاذ بن أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٩ / ٤٥٨) و مسلم (٢٠٢٢)، وأخرجه الطبراني (٢ / ٩٣٤) وأبو داود (٣٧٧٧) والترمذي (١٨٥٨). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٢.

عليه وسلم) : «من أكل طعاما فقال: الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه من غير حول مني ولا قوة، غفر له ما تقدم من ذنبه» [(١)].

كذلك فإن من تقدير نعمة الله تعالى ألا يعاب الطعام واستحباب مدحه نظراً لكونه من نعم الله تعالى على الإنسان، حيث أن في ذلك تعبير عن عدم القناعة، وبالتالي تقصير في الشكر على نعم الله تعالى. ويقرر ذلك الحديث الذي رواه أبو هريرة (رضي الله عنه) قال: «ما عاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) طعاماً قطّ، إن اشتهاه أكله، وإن كرهه تركه»[(٢)].

وبذلك فإن القناعة بما قسمه الله تعالى للعبد من هذه البيئة من رزق وشكره على نعمه تعالى يعد من أعظم العبادات التي يرتبط العبد من خلالها بخالقه ليتذكر في جميع الأحوال نعمة الله تعالى عليه بما سخره له من سائر النعم التي تعينه في حله وترحاله، وفي جميع أحواله، لربط ذلك كله بالحقائق التي تتصل على نحو غير مباشر بهذه العبادة من تفكر في خلق الله تعالى وارتباط بما عليه مآل هذه البيئة المؤقتة التي سخرها الله للإنسان كدار ابتلاء وامتحان يختبر فيها تكليفه من خلال العديد من المسائل التي تقيس درجة كفاءته في قربه من ربه.

---

(١) رواه أبو داود (٤٠٣٢) والترمذي (٣٤٥٤) ، وأخرجه ابن ماجة (٣٢٨٥) ، وحسّنه الحافظ بن حجر في أمالي الأذكار. وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٣.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٩ / ٤٧٧) ، ومسلم (٢٠٦٤) ، وأخرجه أبو داود (٣٧٦٣) والترمذي (٢٠٣٢). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٣.

إن الإنسان يحقق بالشكر أرقى مستويات الإنتاج الإنساني في الدنيا، ويرتحل إلى أرقى بيئة يمكن أن يعيشها الإنسان في مراحل وجوده كله وهي الجنة، فتحصل تنمية مستديمة تمتد عبر الدنيا إلى الآخرة. وبترك الشكر ونسيان الخالق أو تناسيه ينغمس الإنسان في عملية إنتاجية مغلقة تنحصر في الدنيا كمجال حيوي، وفي العمر القصير كمجال زمني، وأمام رغبة حب البقاء والتملك والرفاه تتبدد خيرات الأرض بين مطرقة التحويل التكنولوجي وسندان النهم البشري الظالم، ويحصل الهبوط البيئي المحذور في الدنيا والآخرة [1].

• **الزهد في الدنيا والحث على التقلل منها وفضل الفقر:** إن اللّه سبحانه وتعالى عندما سخّر هذه البيئة المؤقتة للإنسان ولغيره من المخلوقات فإن هذا التسخير ليس لينهم منها ومن خيراتها، حيث عرضت النصوص القرآنية ما يتصل بذلك تعبيراً عن هذه النظرة، كما قررت الأحاديث النبوية الجانب السلبي الذي يفرزه التعلق بالدنيا بالتنافس على خيراتها فيكون المصير الهلكة لأهلها، ولا شك أن أعظم إشكالية تتولد من ذلك أن يؤدي ذلك بالإنسان أن ينسى الغرض الأساس من خلقه والمتمثل بالعبادة والتوحيد للّه جل في علاه.

يبوب النووي في ذلك بابا سماه (باب فضل الزهد في الدنيا، والحث على التقلّل منها، وفضل الفقر)، حيث يذكر عدداً من الآيات

---

(١) طريباق – عبد المجيد، منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة، مرجع سبق ذكره.

القرآنية، وعدداً من النصوص النبوية التي نعالج ما يتصل بمفهومها وما تقرره في هذا المقام من دلالات وتوجيهات.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[(١)]. ويقول تعالى كذلك: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾[(٢)]. ويقول تعالى كذلك: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[(٣)]. ويقول تعالى كذلك: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾[(٤)]. ويقول تعالى كذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾[(٥)]. ويقول جل في

---

(١) يونس ٢٤. (٢) الكهف ٤٥ – ٤٦.

(٣) الحديد ٢٠. (٤) آل عمران ١٤.

(٥) فاطر ٥.

علاه: ﴿ أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ * كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ﴾(١). ويقول تعالى كذلك: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾(٢).

إن الدنيا لذاتها وشهواتها وجاهها ونحو ذلك، والتي تزهو لصاحبها، فهو إن زها وقتاً قصيراً فإنه إذا استكمل وتم اضمحل وزال عن صاحبه، أو زال صاحبه عنه، فأصبح صفر اليدين ممتلئاً من همها وحزنها وحسرتها، فهي حتى إذا أخذت زخرفها وازّينت فصارت بهجة للناظرين، ونزهة للمتفرجين، وآية للمتبصرين، وحصل لأهلها منها مطمعا بأن ذلك سيستمر ويدوم لوقوف إرادتهم عنده، وانتهاء مطالبهم فيه أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فكأنها ما كان، فهذه حالة الدنيا سواء بسواء (٣).

ومن الأحاديث التي ذكرها النووي في هذا الباب مما يقرر فضل الزهد في الدنيا، والحث على التقلّل منها، وفضل الفقر ما رواه أبي سعيد الخدري (رضي الله عنه) قال: جلس رسول الله (صلى الله عليه وسلم)

---

(١) التكاثر ١ – ٥.

(٢) العنكبوت ٦٤.

(٣) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٢.

على المنبر وجلسنا حوله فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها»[1]. فالإقبال على نعيم الدنيا يجعل القلب منشغلاً عن الدار الآخرة التي فيها الحيوان، وبذلك يتقرر أدب الزهد في التقلل من خيرات الدنيا على قدر الحاجة وفضل الفقر والفقراء.

ولما كان نعيم الجنة لا محالة زائل، وهي نعمة تحيط بالإنسان على سبيل التأقيت، فإن هذا الإنسان المحاسب على تنعّمه بخيرات الدنيا إنما هو على صنفين، فمن كان من أنعم أهل الدنيا ممن حشره الله في النار يؤتى به فيصبغ في النار صبغة ثم يسأل ما إذا كان قد رأى خيرا قط، أو ما إذا كان قد مر عليه نعيم قط فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى كذلك بأشد الناس بؤساً يوم القيامة فيصبغ صبغة في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤسا قط ؟، هل مر بك شدة قط ؟، فيقول: لا والله ما ما مر بي بؤس قط، ولا رأيت شدة قط[2].

وبذلك فإن خيرات الدنيا إنما قدرها الله للإنسان ليس على سبيل التنعيم باعتبار الأصل، بل على سبيل التسخير للحاجة التي يقيم بها صلبه، فهي لا تسمنه ولا تغنيه من جوع في حياته الآخرة السرمدية؛ لذلك يقرر الله تعالى بناء على هذا المبدأ التربوي الذي يعلمه أفراد

---

(١) متفق عليه، البخاري (٣ / ٢٥٨) ومسلم (١٠٥٢) و (١٢٣). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٢) هذا المعنى يقرره حديث رواه مسلم (٢٨٠٧). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤.

الأمة في حديث آخر يرويه أبو هريرة (رضي الله عنه): قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «الدنيا سجن المؤمن، وجنة الكافر»[(١)].

والمعنى من ذلك ليس أن الدنيا بالنسبة للمؤمن عذاب وتنكيل، بل هي بالنسبة لما ينتظره من نعيم في الآخرة سجن، وكذلك الكافر بالنسبة لما ينتظره من عذاب في الآخرة تكون الدنيا أشبه بالجنة المؤقتة التي يتنعم كالبهيمة بخيراتها دون تفكر أو تعقل، ثم يؤول إلى العذاب والتنكيل في الآخرة.

والأحاديث التي تقرر حياة الكفاف والزهد والتقلّل وفضل الفقر كثيرة لا تقع تحت حصر من كثرتها، ولكن الغرض من ذكر عدد من هذه الأحاديث على اختلاف دلالاتها التحذير من التعلق بالدنيا، والتربية على التقوّت منها على قدر الحاجة وبما يقيم الطاقة؛ ذلك أن الدنيا بذلك دارٌ تغر صاحبها بما فيها من ملذات وتشغله إذا جعله في قلبه عن الإعداد للحياة الحقيقية في الآخرة، فهو ما زال لاهياً بملذاتها كما تقرر النصوص حتى يدنو أجله وينتهي استمتاعه به، فلا يبقى له بعد ذلك إلا عمله الصالح التي ينال الثواب عليها، وهي وإن انعدمت أو قلت كان ذلك سبباً لتعذيبه على ما فرّط في جنب الله تعالى بانشغاله بملذات الدنيا ونعيمها؛ لذلك وحتى لا تستقر الدنيا بنعيمها وملذاتها في قلب المؤمن، فإن المؤمن المتعلق بربه مأمور أن يكون شاكراً لنعم الله تعالى ذا قناعة

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٦.

بما قسمه الله تعالى له، زاهداً ومتقلّلاً من الإقبال على خيراتها، وهو مع ذلك مأمور بأن يحدّث بنعم الله تعالى، وأن تظهر هذه النعمة على مظهره أمام الناس دون سرف أو إسراف، وهذا ليس محض تناقض بل هو حظٌ على التوازن في استغلال نعيم الدنيا وفق ما يتناسب مع كل على حدة، فلا إفراط ولا تفريط.

إن الجانب التربوي الذي يمكن أن يستخلص من الحض على الزهد في متاع الدنيا والتقلل من الانتفاع من نعيمها يتمثل في غرس القناعة في النفس، والتربية على الانتفاع بخيرات الدنيا باعتبار الحاجة، وفي ذلك ما يقرر جانباً راقياً من جوانب الانتفاع بالبيئة بمختلف مكوناتها.

وبذلك فإن الحكمة مما سخره الله تعالى للإنسان من خيرات في البيئة إنما يتمثل في انتفاع الحاجة المعقولة، وبذلك فإن التنافس عليها كمخلوق معرض للزوال في أي وقت فيه من الخسران للنعيم المقيم الذي يؤول إليه العبد إذا جعل هذه الدنيا في قلبه ولم يجعلها في يده بالاغترار بها، والتنافس عليها.

لما كانت البيئة المحيطة بالإنسان بخيراتها قد سخرها الله تعالى وجعلها فتنة للإنسان قد تلهيه عن الغرض الأساسي من خلقه والمتمثل بعبادة الله تعالى والقرب منه، فإن منظور الإسلام في التمتع بخيرات الله ونعمه جاء مبيناً للإنسان فضل الزهد في الدنيا، كما حثه على التقلل منها، وبيّن فضل الفقر في ذلك.

ولا يعتبر التقلل والزهد في متاع الدنيا مناهض لما قرره الله تعالى في قوله في آخر سورة الضحى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[1]. حيث ذكر الله تعالى بأن في هذا النص القرآني الأمر بالثناء على الله تعالى بما أنعم على الإنسان من نعم دينية ودنيوية، والعلة من هذا الأمر بإظهار النعم هو أن ذلك مدعاة لشكرها، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها، فإن القلوب مجبولة على محبة المحسن[2]. وبذلك فإن التحديث بالنعم المراد في الآية لا يعني بأي حال من الأحوال التبطر بها أو تعمد إظهارها إلا إذا كان ذلك يؤدي بصاحبه إلى أن يستشعر فضل الله تعالى عليه.

والله سبحانه وتعالى يوم القيامة لا يحاسب الإنسان على ما تنعم به في الدنيا إلا إذا كان من كسب محرم، أو كان ملحقاً به ضرر حتماً، أو لم يقم بشكره ولم يؤد فيه حقه، أو استعان به على معصيته، أما إذا كان متوازناً في انتفاعه من دون إفراط ولا تفريط فلا يكون ذلك محلاً لمحاسبته وعقوبته، وهذا ما يعنيه قول الله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾[3].

• **الارتباط بالله تفاعلا مع التضاريس البيئية والمتغيرات الكونية:** ويتأتى الانتفاع في هذا الموطن باكتساب الأجر والثواب من تكبير الله تعالى وتسبيحه وذكره على كل حال، وارتباطاً بالتنوع في

(١) الضحى ١١.

(٢) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٢.

(٣) الضحى ١١.

التضاريس البيئية التي هيئها الله تعالى وسخرها خدمة للإنسان، وفي ذلك تعلّق بالله وارتباط، ومن الدلائل التي تقرر ذلك:

- **التكبير عند صعود المرتفعات والتسبيح عند النزول:** حيث يعلمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما نقول عندما نصعد المرتفعات أو ننزل إلى الوديان فيما يرويه جابر (رضي الله عنه) قال: «كنا إذا صعدنا كبّرنا، وإذا نزلنا سبّحنا» [١]. فالحكمة من التكبير عند الصعود أن يستشعر المرء وهو يعتلي ويصعد الجبال الشامخات أن الله أكبر وأعظم وأجل، والحكمة من التسبيح عند النزول إنما هو تعبير عن التفكر فيما سخّره الله من وديان بين هذه الجبال الشامخات، وفي ذلك استشعار بنعمة الله، واستشعار بعظمة الله وقدرته في تكوين خلقه، وانتفاع بذكره على كل حال باستشعار ذلك.

- **الدعاء عند رؤية الهلال:** حيث يعلّمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما نقول عندما نرى هلال رمضان تفاعلا معه في الحديث الذي يرويه طلحة بن عبيد الله (رضي الله عنه): أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان إذا رأى الهلال قال: «اللهم أهلّه علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله، هلال رشد وخير» [٢]. ففي هذا

---

(١) رواه البخاري (٦ / ٩٤). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٢.

(٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (٢٣٣٤) وأخرجه أبو داود (٢٣٣٧) وإسناده صحيح، وصححه ابن حبان (٨٧٦). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٧.

الحديث تعبير عن التفاعل مع إهلال الهلال إشعاراً بدخول خصوصية زمانية تتمثل بدخول رمضان، حيث يسن الرسول (صلى الله عليه وسلم) سنة تستشعر تفاعلاً يختلف عن التفاعل مع أي إهلال للهلال في أي شهر من الشهور الأخرى، واستشعاراً بوحدة المخلوقية بين الإنسان والهلال ... ربي وربك الله.

- **النهي عن سب الريح:** حيث يعلّمنا الرسول (صلى الله عليه وسلم) ما نفعل عندما يأمر الله تعالى الرياح بالهبوب، وذلك في الحديث الذي يرويه أبي المنذر أُبي بن كعب (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسأل من خير هذه الريح وخير ما فيها وخير ما أُمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح وشر ما فيها وشراً ما أُمرت به» (١). فالرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلمنا كيف نتعامل مع الريح التي قد تجر لنا الضرر والنفع معاً، وكيف أن الريح باعتبارها من المتغيرات الكونية التي يجريها الله تعالى لحكم يعلمها ينبغي التعلق بالله تعالى عند هبوبها وسؤال الله خيرها وخير ما سُخرت له، والتعوذ من شرها وشر ما أمرت به.

• **التفكر بمخلوقات الله إدراكاً لنعمته واستشعاراً بقدرته:** من مواطن الانتفاع بالبيئة أيضا مما يرتبط بالجانب العقدي والروحي

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح (٢٢٥٣) ورجاله ثقات. وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠٦.

الذي يستشعر فيها العبد قدرة الخالق وجليل نعمه عليه ما يتصل بعبادة التفكر التي تعتبر من أجل العبادات، حيث يتقرر ذلك في جوانب كثيرة أولها تفكر الإنسان في خلقه وكيف كوّنه الله تعالى وصوّره، ويتأتى الأمر في ذلك في قول الله تعالى في سورة الطارق: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ * خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ * يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ * يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ﴾(١). حيث يتأتى الأمر وفقاً لهذا النص للإنسان أن يتفكر وينتفع من قدرة الله تعالى في خلقه، فينتفع بذلك باعتبارها عبادة من أجل العبادات، كما يتقرر له نفع من جانب آخر يتمثل بتذكره قدرة الله تعالى على إرجاعه مرة أخرى بعد إماتته، وفي ذلك إشعار له بضرورة الاستعداد لهذا اليوم.

وكما يأمره تعالى أن يتفكر في نفسه باعتبار جزءاً من البيئة، فهو يأمره كذلك بأن يتفكر بما حوله من المخلوقات استشعاراً بعظمة الله الخالق وتعلقا به وبقدرته، وتفكراً بنعمة الله تعالى عليه، ومن النصوص التي تقرر ذلك:

- قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ * وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ * وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ * وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾(٢).

---

(١) طارق ٥ – ١٠.

(٢) الغاشية ١٧ – ٢٠.

-قال تعالى: ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ * أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعِنَبًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَحَدَائِقَ غُلْبًا * وَفَاكِهَةً وَأَبًّا * مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴾[1]. فهذه الآية تدعو الإنسان كي ينظر إلى طعامه الذي سخره الله تعالى له، ويتفكر كيف تكوّن هذا الطعام بتسخير الله تعالى بأن صب الله الماء على الأرض صباً، ثم شق الأرض بعد ذلك بقدرته شقاً، فأنبت بعظمته فيها من أصناف النعم والنباتات ما يستعين بها الإنسان والأنعام متاعا له في دنياه.

-قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[2]. فالله سبحانه وتعالى يدعو الإنسان للتفكر كيف يُسقى الزرع بماء واحد، والله تعالى يفضّل بعضها على بعض في الأكل ما بين إنسان وآخر، وفي ذلك من التفكر في قدرته ونعمته على الإنسان مما يزيده نفعا بتعلقه بربه جل في علاه.

والآيات الحاضة على التفكر في مخلوقات الله تعالى استشعارا بقدرته ونعمته على الإنسان كثيرة وتحتاج إلى بسط لا يتسع له المقام، ولكن ما يفيد من ذلك أن الإنسان عندما يتفكر في مخلوقات الله تعالى إنما ينتفع من ذلك تعلقاً بربه تعالى بالتفكر في قدرته وعظيم صنعه، ولا شك أن هذا الجانب من أعظم الجوانب النفعية لانتفاع الإنسان بخيرات هذا المحيط الذي يحيط به من كل جانب.

---

(١) عبس ٢٤ – ٣٤. (٢) الرعد ٤.

• **الانتفاع بخصوصية الزمان والمكان:** فالله سبحانه وتعالى لم يجعل الزمان بفتراته وتقسيماته في الفضل واحداً في المقام والخصوصية، بل فضّل شهراً على شهر، ويوماً على يوم، وموسماً على موسم، وربط ذلك بأحداث ومجريات جرت في تاريخ الإنسان، وبذلك فإن من جوانب الخصوصية في الزمان:

- **تفضيل الشهور:** ومن ذلك اختصاص الله تعالى لرمضان على سائر الشهور بخصوصيات كثيرة باعتبار نزول القرآن فيه، حيث اختصه بالكثير من العبادات التي تزيد الإنسان قرباً من ربه، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١). كما اختص المولى عز وجل كذلك الحج بأشهر معلومات، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾(٢). والنصوص التي تبرز هذا الجانب من الخصوصية كثيرة ومتعددة.

- **تفضيل الأيام والليالي:** كما اختص الله تعالى بالفضل بالثواب شهوراً دون أخرى، فإنه تعالى قد اختص أياماً دون أخرى من أيام السنة بالفضل والمثوبة، ومن ذلك التفضيل لليلة القدر التي أنزل فيها القرآن

---

(١) البقرة ١٨٥.

(٢) البقرة ١٩٧.

على سائر الليالي، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ * تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ *سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾(١). فاللّه سبحانه وتعالى تفضيلاً لهذه الليلة لنزول القرآن فيها جعل العبادة فيها تعادل عبادة تزيد عن عمر الإنسان المعتاد من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وهناك من الأيام المفضلة عند الله تعالى مما يستحب إلى الله التقرب فيها مثل يومي العيد ويوم التاسع والعاشر من محرم حيث ربط الله تعالى الفضل فيها بعبادة الصيام، وما إلى ذلك من الأيام التي اكتسبت خصوصية على سائر الأيام.

- **تفضيل الساعات:** فاللّه سبحانه وتعالى قد جعل بعض العبادات مفضلة في ساعات دون ساعات، فحري بالإنسان أن ينتفع بهذا الجانب من الخصوصية والتفضيل، ومن ذلك تخصيص ساعات الليل للقرب من الله تعالى، حيث يأمر الله تعالى العبد أن يقوم ليتقرب وينتفع بعنصر الزمان في هذا الوقت، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَى وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ

---

(١) البقرة ١٩٧.

مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾[١]. ففي هذه الآية اختص الله سبحانه وتعالى ساعات الليل باعتبارها من أفضل الساعات التي يتقرب فيها العبد من ربه.

وكما اختص المولى عز وجل عنصر الزمان كعنصر من عناصر البيئة كي ينتفع به العبد في تقربه إلى الله تعالى، فإنه اختص كذلك المكان، حيث أن قدّر المولى عز وجل الخصوصية لذلك دوناً عن إرادة الإنسان وبمحض إرادته، فجعل التفضيل دوناً عن إرادة الإنسان بتفضيله لمكة باعتباره أن فيها أول بيت وضع للناس، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴾[٢]. كما اختص سبحانه المسجد الأقصى بالبركة حوله، ويقرر ذلك قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾[٣].

أما الخصوصية التي تكون بإرادة الإنسان مما يندرج تحت مفهوم البيئة المشيّدة فتتمثل فيما ينشئه ويبنيه من بيوت يتعبد فيها الله تعالى، حيث تكون فيها الصلاة أفضل من صلاة المرء في بيته، بل إن فيها بقعة أفضل من الأخرى، فالصف الأول مفضل عما عداه من الصفوف، ويقرر

(١) المزمل ٢٠.

(٢) البقرة ٩٦.

(٣) الإسراء ١.

ذلك الحديث الذي يرويه أبو هريرة (رضي اللّه عنه): أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): «لو يعلم الناس ما في النداء والصف الأول ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا» [1].

إن اللّه سبحانه وتعالى عندما جعل الخصوصية للزمان والمكان فإنه تعالى إنما سخّر ذلك نفعاً للإنسان؛ وذلك حتى يستثمر تواجده في هذه الأجواء في مزيد من التقرب إلى اللّه تعالى، ولا شك أن في ذلك تسخيراً للبيئة لنفع الإنسان في أعظم جانب من جوانب النفع، وهو تقرب المخلوق من خالقه وهي العبادة التي خلقه اللّه تعالى من أجلها بعد أن اختصه بأمانة التكليف والخلافة في الأرض.

وبذلك فإن مواطن الانتفاع للإنسان من البيئة متعددة ومتنوعة جعلها اللّه تعالى لخدمة الإنسان باعتبار العادة وعلى خلافها، فهي بروحها ومادتها، وأزمنتها وأمكنتها، وجبالها وسهولها، وبرها وبحرها كلها مسخرة لخدمة الإنسان الذي يعتبر قيّما ووصيا عليها إلى أن يرث اللّه تعالى الأرض ومن عليها.

---

(١) متفق عليه، البخاري (٢ / ١١٦) ومسلم (٤٣٧).. وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٦.

الفصل الثاني

ضابطا الانتفاع بالبيئة

الفصل الثاني

ضابطا الانتفاع بالبيئة

هناك ضابطان مهمان يتمثلان في منظور الدين فيما يتصل بالانتفاع بالبيئة، فلا يمكن الانتفاع بالبيئة انتفاعاً تجيزه المبادئ والقواعد المقررة بالانتفاع بالبيئة دون الالتزام بهذين الضابطان اللذين تقرر ما يتصل بهما من خلال الكثير من النصوص الشرعية التي تحض المؤمن على مراعاة أن هذه البيئة إنما وجدت لجميع المخلوقات بما فيها الإنسان جيلا بعد جيل. وبذلك فإن ما يمكن أن نحصره بعد تناول مواطن الانتفاع ودلالاته في الفصل السابق هو تناول للضوابط التي لا يمكن الانتفاع بالبيئة دون الالتزام بها، وهي تتمثل فيما أراه من خلال استقراء ما قررته النصوص في ضابطان.

فأما الضابط الأول فهو ما يتصل بضرورة المحافظة على البيئة المحيطة بالإنسان ووقايتها من التلوث، وذلك بالتزام سلوكيات يحول الالتزام بها دون تعريض البيئة المحيطة بالإنسان للتلوث إلا من باب الضرورة التي اقتضاها العرف السائد محلياً وإقليمياً وعالمياً، وإلا فإن البيئة ستتدهور وتنقرض عناصرها الحيوية وغير الحيوية، مما يؤثر على حاضر ومستقبل الانتفاع للكائنات الحيوية بها حالاً ومستقبلاً.

ولا يقتصر الالتزام بالمحافظة على البيئة المحيطة على الالتزام بوقاية البيئة من سائر أنواع الملوثات، والالتزام بالطهارة والنظافة أثناء الانتفاع بالبيئة فحسب، بل لا بد من تجنب السلوكيات التي تتصل بالإسراف كمشكلة تأخذ أبعادها خطورة مدمرة للبيئة على المدى البعيد؛ لذلك كان لمنظور الدين معالجة متميزة لمشكلة الإسراف، مما يتعين تربية النفس عليها وقاية وحماية للبيئة بما خلقها الله تعالى عليه من مكونات وعناصر من الاستنزاف الذي يعتبر من أخطر المشاكل التي تواجه المخزون البيئي اليوم، ووقاية من المجاعات التي تجتاح العديد من المجتمعات الإنسانية، وتهدد الوجود البشري أو الحيواني، مما يستلزم ضرورة استقراء ما يتصل بهذين الضابطان اللذين يتصلان بتنظيم التفاعل انتفاعا بالبيئة ولما سخره الله تعالى لبني الإنسان ولسائر المخلوقات فيها.

المبحث الأول

نظافة البيئة البشرية ووقايتها من التلوث

إن البيئة البشرية هي البيئة التي يتعايش معها الإنسان في مختلف محطات حياته، فعناصرها ومكوناتها تلازمه في حله وترحاله، وذلك بخلاف البيئة التي تحيط به ويتأثر بها ولكن ليس بالصورة التي يتأثر بها من هذه البيئة المحيطة به، وكما أن الله سبحانه قد خلق الإنسان وجعله طيلة حياته ما بين الصحة والمرض، فإنه قد وضع له من قواعد النظافة ما يحفظ له صحته التي هي أمانة في عنقه ينبغي عليه أن يراعي حمايتها وحفظها مما يؤدي إلى انتهاك حفظ صحة البدن وسلامته.

لقد ارتبطت حياة الإنسان بالنظافة معنى وحكماً، فهو ليس مأموراً به من باب مراعاة مكانة التكريم التي وضعه الله تعالى فيها على سائر المخلوقات، بل إنها ترتبط به في عباداته وفي سائر أمور حياته، فإذا أراد أن يصلي فإن عليه أن يتوضّأ، وإذا جامع الزوج زوجته فإن على كل منهما أن يغتسل، وهذا من باب التطهير المعنوي برفع الحدث على سبيل الوجوب، كما أنه مأمور بذلك ندباً، وذلك بما يتمثل به غسل العيدين وغسل يوم الجمعة كما هو مقررٌ عند بعض العلماء، حيث رأى البعض الآخر منهم أن ذلك على الوجوب المتعين الذي يأثم تاركه.

ومن جانب آخر فهو مأمور بأن يزيل النجاسة عن ملبسه وعن مكانه وعن كل ما يتعلق بحياته؛ وذلك لما في ذلك من خطورة على حياته التي أمر بحفظها ورعايتها من نوائب الدهر، فالبيئة بعناصرها كما أن منها ما يعينه على تقويم حياته، فهناك من عناصرها ما يفتك به، ولكل حكمة هو مريدها جل في علاه.

وبذلك فإن للنظافة والطهارة كسبيل للوقاية من التلوث في بيئة الإنسان المحيطة به مباشرة مكانة يتقرر من خلالها أهمية هذه الأمور التي ترتبط بسجية الإنسان، حيث جاء الشرع بتنظيمها ووضع القواعد التي تتصل بها، كما أن لها دلالة تختلف باختلاف مرتبطاتها، هذا بالإضافة إلى تقسيمات تتصل بها يتعين التعريج عليها نظراً لارتباطها نصاً ومضموناً بمسألة رعاية البيئة وارتباط ذلك بمصلحة الإنسان ومستقبل هويته وكرامته.

أولاً - مكانة النظافة :

إن للنظافة والطهارة في الإسلام بمختلف أقسامها مكانة عظيمة عند الله تعالى ورسوله (صلى الله عليه وسلم)، حتى أن الفقهاء عندما استقرأوا ذلك في كتاب الله تعالى وسنة رسوله (صلى الله عليه وسلم)، فأما كتاب الله تعالى فقد تقرر ذلك بأمر الرسول (صلى الله عليه وسلم)، حيث لا يؤمر بأمر إلا فيه تكريم له ولإنسانيته من يقتفي أثره إلى يوم القيامة.

يقول الله تعالى مقرراً ذلك: ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾[1]. حيث ذكر ابن سيرين وابن زيد وابن أسلم والشافعي وجماعة بأنه أمر بالتطهير للثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب [2].

وقد ذكر السعدي في تفسيره بأن هذه الآية وإن كان المراد بالثياب فيها أعماله كلها بتطهيرها وإيقاعها على أكمل الوجوه، وتنقيتها من المبطلات والمفسدات، والمنقّصات من شر ورياء، ونفاق وعجب وتكبر، وغفلة وغير ذلك، مما يؤمر العبد باجتنابه في عبادته، فإنه يدخل في هذا المعنى تطهير الثياب من النجاسة، فإن ذلك تمام تطهير الأعمال خصوصاً في الصلاة. كما يحتمل أن يكون المراد منها الثياب المعروفة، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات في جميع الأوقات خصوصاً عند الدخول للصلوات، وإذا كان مأموراً بطهارة الظاهر فإن طهارة الظاهر من تمام طهارة الباطن [3].

وبذلك فإن طهارة الظاهر التي تشمل طهارة ظاهر الإنسان ومحيطه لا يمكن أن تتحقق بمعزل عن طهارة الباطن؛ لذلك بلغت مرتبة

---

(١) المدثر ٤.

(٢) ابن عطية – أبي محمد عبد الحق الأندلسي، تفسير ابن عطية – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج ٨، ص ٤٥٢.

(٣) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٥، مرجع سبق ذكره، ص ٣٣٠.

ومكانة الطهارة الحسية التي ترتبط بالطهارة المعنوية أن جعلها الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) شطر الإيمان، وذلك في قوله: «الطهور شطر الإيمان» [(١)].

فالحديث السابق يقرر الارتباط بين الطهارة الحسية في بيئة الإنسان عندما تتمثل بطهارة البدن وطهارة اللباس وطهارة البيئة المحيطة بالإنسان إحاطة مباشرة، ومدى اتصال الالتزام بنظافة هذه البيئة ببعد عقدي بوصفها شطراً للإيمان، فهي بذلك تتبوّأ مكانة تقررت لها من خلال ارتباطها الذي لا يقبل الانفصام بالطهارة المعنوية، ولا شك أن ذلك يقرر لها أهميتها في حياة الإنسان، ويستلزم من الإنسان ضرورة الحفاظ على بيئته خالية من الملوثات التي تنتهك حرمة إيمانه فتفقده مظهر المؤمنين قبل أن تفقده صحته وتصيبه بالأمراض والأسقام.

ومما يعزز ارتباط نظافة البيئة حسياً بنظافتها معنوياً أن النظافة الحسية قد جعلت مرتبطة في الكثير من المسائل بالطهارة المعنوية، فالوضوء مرتبط بالصلاة، والغسل مرتبط بالجنابة، وكل ذلك رغم عدم تحقق النجاسة العينية فيه، إلا أن رفعه جعل بوسائل تطهير البيئة الحسية المحيطة بالإنسان كما تزال النجاسات.

ثم إن كتب الفقه تجدها من جانب آخر تبدأ في فقه الأحكام العملية

---

(١) رواه أحمد في مسنده (٢١٨٢٨). وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، سلسلة كتاب البيئة – الكتاب الثالث، المجلس الأعلى للبيئة والمحميات الطبيعية، الدوحة – قطر، ص ١٩٤.

بكتاب الطهارة، حيث كان لها عناية فائقة بالطهارة، فعرفتها وفصّلت في أقسامها، وقد قسم الفقهاء الطهارة إلى طهارة حسية ومعنوية، فالذي يقف بين يدي ربه للصلاة يجب أن يكون متوضئاً ومغتسلاً من جنابة أو حدثاً، والمرأة تغتسل من حيض أو نفاس، وقبل هذا وذاك لا بد أن يكون مستنجياً بأن يزيل الخارج من السبيلين إما بالماء الطهور أو ما يقوم مقامه. كما فصّلوا في موجبات الغسل، مثل: مباشرة الرجل زوجه، ودم الحيض والنفاس، وموت المسلم إذا كان شهيدا [١].

وقد ذكر خليل رزق بأن الإسلام بما جاء به من تشريعات ونظم، ومن خلال موقفه من النظافة، فإنه بموقفه الذي سجله مما ليس له نظير في أي دين من الأديان قد قرر للنظافة والطهارة مكانة كبيرة في حياة المسلم، حيث لا مجال للمقارنة بين الدين الإسلامي واتساع دائرة اهتمامه بالنظافة مع غيره من الأديان؛ إذ النظافة فيه نوع من أنواع العبادات التي يتقرّب به العبد إلى ربه، بل هي فريضة من فرائضه.

ثم يذكر ما تقرر من أن كون مفتتح الكتب الحديثية والفقهية بكتاب يعنى بالطهارة قبل تناول أي مسائل تتصل بالأحكام العملية يقرر هذه المكانة للطهارة، حيث تناولت كتب الفقه ما يتصل بأحكام المياه، وأنواع النجاسات، وهي بمجملها تعبر عن قضية واحدة وهي (النظافة).

ثم إن الأمر في مسألة الطهارة كما أشار رزق لا يقتصر على مسألة

---

(١) زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٩٤.

الطهارة المبحوث عنها في الفقه الإسلامي كشرط لتأدية الفرائض والعبادات الواجبة، بل إنك ترى أن هناك تشريعاً متكاملاً ومنظومة شاملة وضعها الإسلام في سبيل تحقيق بيئة نظيفة من جميع الجوانب، وبذلك فإن الإسلام في العبادات المفروضة منه على الإنسان، وفي الآداب والسنن والمستحبات التي شرعها لا على سبيل الإلزام اعتبر أن النظافة هي المدماك الأساس لكل هذه الأعمال، ومحوراً هاماً في تطبيقاتها.

إن ارتباط البيئة في الإسلام جاء ارتباطاً مباشراً بمفهوم الطهارة كما ورد في القرآن والسنة، حيث يغطي هذا المفهوم الاحتياجات الخاصة بالنظافة، إضافة إلى جملة اشتراطات ومواصفات أخرى تؤهّل البيئة وعناصرها لأداء مهام محددة تتعلق بحياة الإنسان الدينية والدنيوية.

لقد وردت مادة الطهارة واشتقاقاتها المختلفة في إحدى وثلاثين موضعاً في القرآن الكريم، وساد مفهوم التطهّر من النجاسات والأقذار ما يقرب من نصف تلك المواقع [1]. ومن ذلك:

- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [2].
- قال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [3].

---

(١) خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٣.

(٢) البقرة ٢٢٢. (٣) التوبة ١٠٨.

تظهر أهمية الطهارة في الإسلام ومدى اهتمامه بها تعزيزاً لمكانتها من خلال مجموعة من التشريعات المرتبطة بها إما على سبيل الوجوب أو على سبيل الاستحباب. ثم إنه بالنظر إلى الفقه فإنه يتضح أن المواد التي قررها الفقه لرفع الحدث وإزالة النجاسات تتمثل بالماء وبالتراب كبديل عنه.

وباعتبار العبادة اتصال بالله سبحانه وتعالى، فقد جاء الحض على التطهّر قبل إتيانها، حيث جعلت الطهارة والنظافة شرط من شروطها؛ إلا أن الإسلام اشترط قبل ذلك نظافة البدن والمكان من الأخباث والقاذورات للثوب والبدن والمكان، والتي تزال بالتطهير بالماء أو بالبديل عنه وهو التراب، وبذلك فإنه لا يقبل من المسلم أن يقف للصلاة بين يدي الله تبارك وتعالى – سواء أكان في المسجد أو في بيته أو في أي مكان آخر – وهو يلبس ثياباً ملوثة بشيء من النجاسات والقذارات المعروفة [1].

إن التاريخ البيئي يشهد أن الإسلام هو أول نظام عرفته الإنسانية يأمر بالنظافة، ويحارب التلوث، حيث أطلق الإسلام على كلمة التعقيم اصطلاح الطهارة، والمقصود بها خلو الشيء من الميكروبات، كما أطلق على الشيء الملوث أو الحامل للميكروبات كلمة النجاسة، وهي المواد البسيطة أو النقالة للميكروب، كالقيح والبراز، والدم المسفوح، والبول،

---

(١) خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٠٣.

والقيء، ولعاب الكلب، وجسم الخنزير، وكل شيء عفن كبقايا الحيوانات. وقد أثبت العلم الحديث أن جميع المواد هي وسط صالح لنمو الميكروبات وتكاثرها، كما كان من حكمة التشريع الإسلامي أن يقرر أن أية مادة من هذه المواد إذا أصابت أي شيء من ثوب الإنسان أو جسمه أو طعامه أو المكان الذي يجلس فيه أو يسير عليه، فإن هذا الشيء قد ينجس، ولا بد من أن يتطهر بإزالة النجاسة (١).

إن مكانة النظافة والطهارة تقررت من خلال منظور الإسلام باعتبارها أولا عبادة في حد ذاتها، وذلك سواء أكانت مرتبطة بالعبادات الدينية كالصلاة، أم كانت متصلة بنظافة الذات، وذلك من خلال ارتباطها بحياة الإنسان كفطرة وسجية إنسانية قد كرم الله تعالى بها الإنسان باعتباره أحد العناصر الرئيسة المكونة للبيئة عن سائر المخلوقات، أو حتى لو اتصلت بما يرتبط بنظافة الذات بما يتمثل عليه نظافة المحيط الذي يستلزم الرعاية للمنافع المشتركة التي تحيط بالإنسان، وعدم تعريضها للتلويث.

وبذلك فإن النظافة والطهارة تعتبر ضرباً من ضروب الإحسان، وهي من شعائر الدين التي تميز المسلمين أفراداً وجماعات عن سائر الأمم، وبذلك فإن الوقاية من التلوث بحفظ النظافة ينبغي أن تبذل فيه الجهود المخلصة لإحياءه، لا سيما وأن في إهمال وقاية العناية بالبيئة إلقاء بالنفس إلى التهلكة التي نهينا عنها.

---

(١) جيرة – عبد الرحمن، الإسلام والبيئة، مرجع سبق ذكره، ص ٩١.

ثانياً - نظافة الـذات :

إن اللّه سبحانه وتعالى عندما كرّم الإنسان على سائر المخلوقات، فإن جل في علاه قد كرّمه بما يميّزه عن سائر المخلوقات في الظاهر والباطن، وقد دلت على إكرامه له وتمييزه عن سائر المخلوقات العديد من الدلائل، والتي منها أن جعله مستور العورة وليس كسائر الحيوانات، كما اختصه تعالى بخصال تتصل برعاية فطرته ليكون متميزاً عن سائر الحيوانات، وهذه الخصال تحفظ للإنسان نظافته وتقيه من التعرض لما يصيبه بالأمراض والأوبئة، وهو مأمور بها رعاية لكرامته كإنسان، فإذا ما تخلى عنها فإنه يكون قد تخلى عن جزء من كرامته التي تميزه عن سائر المخلوقات.

إن الإنسان بلا ريب هو العنصر الأساس في إيجاد وتوفّر السلامة البيئية التي تحول دون الإخلال بالتوازن البيئي، وكما تحدث الإسلام عن سائر العناصر الطبيعية للبيئة وتوفير المظاهر الجميلة فيها، وعدم العبث والفساد بما خلقه اللّه تعالى في هذا الكون، فكانت له الآراء في مجال نظافة المياه والهواء والأرض، والحث على الزراعة وغير ذلك، كذلك استكمل الإسلام رأيه الشامل في الحديث عن واحد من أهم ما يعطي للطبيعة رونقها وجمالها، ونعنى بذلك الإنسان.

وكما اهتمت الشريعة الغراء بنظافة البدن واللباس، فقد جاء الحض على التجمل وإظهار النعمة، ولبس الثياب النظيفة للإنسان، كما

جاء الأمر بالمحافظة على المظهر العام، والتطيب والاكتحال وغير ذلك من عناصر التجمل [1].

وبذلك فإن هناك دلائل كثيرة تتصل برعاية الإسلام لنظافة الذات والاهتمام بها حتى لا تكون عرضة للأمراض والأسقام، وحتى تحفظ للإنسان كرامته وتميزه عن سائر المخلوقات، ومن الدلائل التي تقرر رعاية الإسلام لنظافة الذات:

• **خصال الفطرة:** ويقرر ذلك الحديث الذي يرويه أبو هريرة (رضي الله عنه)، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «الفطرة خمس، أو خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، وقص الشارب» [2].

وقد ذكر عبد الرحمن جيرة بعد الطهارة في هذه الأمور مقرراً ما كشفه العلم الحديث من أهمية لهذه السنن، حيث أن ترك الأظافر دون قص يتسبب في تراكم الأوساخ والميكروبات تحتها، وهناك أمراض كثيرة تنقلها الأظافر غير النظيفة، كما أن ختان الذكور يحقق عدداً من الفوائد الصحية، حيث أن قطع القلفة يؤدي إلى تخلص المرء من

---

(١) خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ٣٢٨.

(٢) متفق عليه، البخاري (١٠ / ٢٩٥) ومسلم (٢٥٤). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٣٧٠. والاستحداد: حلق العانة، وهو حلق الشعر الذي حول الفرج.

المفرزات الدهنية، ويحول دون نمو العديد من الجراثيم التي تهيأ القلفة لها الوسط الملائم للتكاثر، كما أشار إلى أن الأبحاث العلمية قد بينت أن سرطان عنق الرحم يقل عند نساء المسلمين عن غيرهنّ نتيجة ختان أزواجهنّ.

ومن جانب آخر بين أن الاستحداد – وهو حلق شعر العانة – له أهمية صحية كبيرة، حيث أثبت العلم أن هناك نوعا من القمل لا يعيش إلا على شعر العانة، وتصاب به أعداد كبيرة سنوياً في الغرب من الذكور والإناث. كما أن الإبط لما كان مكاناً كثير التعرق فإنه يعد بذلك مهداً مناسباً لنمو الفطريات والجراثيم، ناهيك عما يصدر عنه من رائحة مقززة؛ ولذلك فإن نتف الإبط يقلل فرصة وجود هذه الميكروبات بأعداد كبيرة، أما الشارب فإنه إذا طال تلوث بكل ما يشربه الإنسان، ومن ثم كان عاملاً مساعداً على تلوث الفم [(١)].

• **الوضوء**: وهو شرط لصحة الصلاة التي يؤديها المسلم خمس مرات في يومه وليلته، وله فروض وله سنن كلها من شأنها أن تحفظ على الإنسان طهارته، وقد أوردها الله تعالى في قوله جل في علاه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾[(٢)]. فهذا النص القرآني يقرر الأمر بالوضوء بذكر أركانه

(١) جيرة – عبد الرحمن، الإسلام والبيئة، مرجع سبق ذكره، ص ٩٠.

(٢) المائدة ٦.

استعداداً لكل صلاة إذا انتقض الوضوء، وإلا فإن التجديد مستحب على كل حال لصلاة أو لغير صلاة، هذا فضلاً عن ضرورة طهارة الثوب وطهارة البدن والمكان من الأخباث والقاذورات لأداء الصلاة، ولا شك أن ارتباط مواقيت الصلاة بيوم المسلم وليلته يجعله في استعداد لها في كل حال طاهراً في ملبسه ومكانه وبدنه من القاذورات والنجاسات.

• **الاغتسال** : حيث جاء الأمر بذلك للجنب رفعاً لجنابته كما قرر النص القرآني السابق، وهو مقرر للحائض والنفساء، هذا فضلاً عن أن النبي (صلى الله عليه وسلم) دعا إلى الاغتسال وخاصة يوم الجمعة، بل جعل ذلك على سبيل الوجوب، ويقرر ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم: «غسل الجمعة واجب على كل محتلم» [1]. أي بالغ، ويقرر ذلك حديث آخر يرويه أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه): «حق على كل مسلم في كل سبعة أيام يغسل فيه رأسه وجسده» [2]. والأغسال المسنونة في ذلك كثيرة منها: غسل العيدين، والأغسال التي تتصل بالحج كغسل الإحرام وغسل يوم عرفة، وما إلى ذلك من الأغسال.

---

(١) رواه مالك وأحمد وأبو داود والنسائي وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري، وهو في (صحيح الجامع الصغير – ٤١٥٥). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ط: ٢، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، دار الشروق، القاهرة – مصر، ص ٧٦.

(٢) حديث متفق عليه – اللؤلؤ والمرجان (٤٩٢). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

وبذلك فإن رعاية الإسلام لنظافة الذات ممثلة بجسد الإنسان وما يحيط به من لباس قد جاءت تكريماً له باعتباره سيد المخلوقات، وهو لأجل ذلك مرتبط عبادة وعادة، فلا يمكن أن يكون ملتزماً بواجبات الدين، مؤمناً بعقيدة الإسلام مالم يكن طاهر الظاهر وطاهر الباطن، بل إنه لما ارتبطت نظافة محيطه بنظافة ذاته، ولما كانت طهارة هذا المحيط ذات تأثير على طهارة الذات وعلى انتفاع غيره من الذوات، فإنه مأمور بذلك أن يطهر وينظف محيطة لعبادة أو معيشة أو منفعة.

ثالثاً - نظافـة المحيـط :

لما كان المحيط الذي يحيط بالذات مشترك في غالب الأحوال بين مجتمع بني الإنسان، فقد جاء الأمر بضرورة تطهيره والعناية به حتى لا يؤثر على حياة الذات فيصيبها بالأمراض، فبركة الماء إذا لم يعتني بنظافتها الإنسان جلبت له الأمراض؛ لذلك جاء الحض في كثير من نصوص الحديث النبوي على جملة من الضوابط التي تتصل بضرورة نظافة المحيط الذي يحيط بالإنسان، ومن ذلك:

• **المنزل ومكان المبيت:** فأول ما ينبغي على الإنسان أن يُعنى بنظافته هو البيت الذي يسكن فيه فينام ويختلي ويجالس أهله، بل وأحياناً يصلي فيه هو السنن، ويصلي أهله فيه الفريضة؛ لذلك وحتى يحفظ الإنسان صحته ويمارس حياته دون أضرار تلحق به بسبب النجاسات، فقد جاء الأمر بالاهتمام بنظافة البيت وساحاته، وذلك في

قوله (صلى الله عليه وسلم): «إن الله جميل يحب الجمال، طيب يحب الطيب، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفنيتكم ولا تتشبهوا بيهود»[١].

• **الماء المشترك**: حيث تقرر الحماية لهذا الماء بالنهي عن البول، ويقاس على ذلك سائر القاذورات في الماء الراكد باعتباره محلاً لمنفعة الناس، وهو يختلف عن ماء البحر أو النهر باعتبارها مياها متحركة، سواء أكان هذا الماء ماء بئر أو ترعة بحيث تتضرر منفعة الناس بسبب القاذورات التي تلقى فيه، فالمسألة هي مسألة ضرر يلحق بالماء عندما يبول فيه الإنسان أو يرمي فيه القاذورات التي تضر بمنفعته، فيقاس في ذلك عدم الجواز في الماء الراكد فيما يتسبب بإخلال جانب منفعته الماء الجاري المتغير إذا كان ما سيلقى فيه سيلحق الإضرار بمنفعته المشتركة، ومن ذلك سكب الزيوت وعوادم المصانع في البحار والأنهار، حيث أن لذلك ضرر في تدمير البيئة البحرية، وإلحاق بالضرر على الأسماك التي يقتات منها الناس، ويقرر هذا المعنى حديث جابر (رضي الله عنه): أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «نهى أن يُبال في الماء الراكد»[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٢٨٠٠)، وذكر أن فيه راويا يضعف، لكن قوله: (فنظفوا أفنيتكم) إلخ له طريق أخرى عن سعد بإسناد حسن، وذلك كما ذكر الألباني في تخريج الحلال والحرام حديث رقم (١١٣). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧.

(٢) رواه مسلم (٢٨٢)، من حديث أبي هريرة بلفظ (رضي الله عنه): ((لا يبولنّ أحدكم في الماء الدائم ثم يغتسل منه)). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥١٦.

فإذا كان البول منهي عنه في الماء الدائم لما سيلحق من ضرر لمن سينتفع بالماء بعد ذلك، فإنه من باب أولى أن الحكم يشمل الغائط، ويستوعب ما هو أشد ضرراً بمنفعة الناس من الماء من غير ذلك مما يرمى في المياه الراكدة أو المتجددة من هذا الباب، وقد جاء النهي عن ذلك باعتبار أن الماء محل لانتفاع بني الإنسان وسائر المخلوقات من حوله.

• **الطرقات ومكان اجتماع الناس:** لقد ورد من الأحاديث الكثير في رعاية الطريق كبيئة مشتركة ينتفع بها الناس في تنقلهم من منطقة إلى أخرى، حتى أن بعض الأحاديث قد جعل إماطة الأذى عن الطريق شعبة من شعب الإيمان، ومن الأحاديث التي تقرر مكانة وفضل الرعاية ثواباً وأجراً لنظافة الطريق ما يلي:

- عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «الإيمان بضع وستون – أو سبعون – شعبة، أدناها إماطة الأذى عن الطريق، وأرفعها قول: لا إله إلا الله» [1]. فهذا الحديث يقرر مكانة عظيمة لإماطة الأذى عن الطريق بجعله شعبة من شعب الإيمان، حيث وصف الرسول (صلى الله عليه وسلم) إماطة الأذى عن الطريق بأنه شعبة من شعب الإيمان اشتراكا في الوصف مع أسمى هذه الشعب وهو قول: لا إله إلا الله.

(١) متفق عليه، اللؤلؤ والمرجان (٢١). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧. ومعنى أماط الشيء عن الطريق نحاه وأزاله، والمراد بالأذى: كل ما يؤذي المار كالحجر والشوكة والعظم والنجاسة والقذر ونحو ذلك.

-عن أبي ذر (رضي اللّه عنه) قال: قال النبي (صلى اللّه عليه وسلم): «عرضت عليّ أعمال أمتي حسنها وسيئها، فوجدت محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النُخامة تكون في المسجد لا تدفن» (١).

-عن أبي هريرة (رضي اللّه عنه)، عن النبي (صلى اللّه عليه وسلم): «بينما رجل يمشي بطريق وجد غصن شوك فأخره فشكر اللّه له فغفر له» (٢). وفي رواية مسلم قال: «لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي المسلمين».

ولما كان الإسلام قد عظم منزلة إماطة الأذى عن الطريق ووصف في الأحاديث النبوية بأنه أدنى شعب الإيمان، وأنه من محاسن الأعمال، فإن الزجر يلحق بمن يصنع في طريق الناس وأماكن اجتماعهم بالطرد من رحمة اللّه تعالى، ويقرر هذا المعنى في الحديث الذي يروى عن أبي هريرة (رضي اللّه عنه)، أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال: «اتقوا اللاعنين، قالوا وما اللاعنان؟، قال: الذي يتخلى في طريق الناس أو في ظلهم» (٣). ففي هذا الحديث يصف الرسول (صلى اللّه عليه

---

(١) رواه مسلم (٥٥٣). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧.

(٢) رواه البخاري (٦٥٢) ومسلم (١٩١٤). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٠.

(٣) رواه مسلم (٢٦٩). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥١٦. واللاعنان هما الأمران الجالبان للعن، الباعثين للناس عليه، والتخلي هو التغوط.

وسلم) التغوط في طريق الناس أو في ظلهم باللاعنان باعتبار أنها أفعال تجلب لعنة اللّه تعالى، وتجلب لعنة الناس ممن يتأذى من هذا السلوك.

- **نظافة بيوت الله:** إن المساجد تعتبر من أقدس الأماكن ومن خير ما أقام الإنسان ضمن بيئته المشيّدة، ونظراً لكونها مكان لأداء العبادات واجتماع الناس ومعهم الملائكة على تحصيل العلم والالتقاء بالعلماء، فقد جاء الحظ والحرص على تنظيفها ورعايتها، وتقررت المنزلة لمن يقوم بذلك، ومما يقرر ذلك من دلائل ما يلي:

- عن سمرة بن جندب (رضي اللّه عنه) قال: «أمرنا رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) أن نتخذ المساجد في ديارنا، وأمرنا أن ننظفها» [١]. ففي هذا النص أمر من رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) برعاية المساجد بالتنظيف، والأمر إذا أطلق كان للوجوب، لا سيما وأن نظافة مكان المسجد يقترن وجوبها باعتبارها مكانا للصلاة.

- من الأحاديث التي تقرر سوء الإثم في ضعف الرعاية لنظافة بيوت اللّه تعالى ما ورد في حديث أبي ذر (رضي اللّه عنه) قال: قال النبي (صلى اللّه عليه وسلم): «عرضت عليّ أعمال أمتى حسنها وسيئها،

---

(١) رواه أحمد في مسند سمرة (٥ / ١٧)، وأبو داود (٤٥٦)، وقد روى أحمد نحوه في (مسنده) عن عائشة (٦ / ٢٧٩)، وأبو داود (٤٥٥)، والترمذي (٥٩٤)، وابن ماجه (٧٥٨) و (٧٥٩). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨١.

فوجدت محاسن أعمالها الأذى يُماط عن الطريق، ووجدت في مساوئ أعمالها النُخامة تكون في المسجد لا تدفن» [(١)].

- كذلك من الأحاديث التي تقرر قداسة المسجد وعدم جواز دخول المسجد لمن أكل ثوماً أو بصلاً أو كراثاً أو غيره مما له رائحة كريهة، وذلك قبل زوال رائحته الكريهة إلا لضرورة، ويقاس على ذلك ما إذا كان الراغب في دخول المسجد في بدنه أو ملبسه رائحة كريهة قد تؤذي الناس؛ لذلك جاء الأمر بالنهي عن دخول المسجد لمن أكل ما يتأذى من رائحته، ويقرر ذلك حديث ابن عمر (رضي الله عنهما): أن النبي (صلى الله عليه وسلم): «من أكل من هذه الشجرة – يعني الثوم – فلا يقربن مسجدنا» [(٢)]. وهناك حديث جابر (رضي الله عنه) قال: قال النبي (صلى الله عليه وسلم): «من أكل ثوما أو بصلا فليعتزلنا، أو فليعتزل مسجدنا» [(٣)]. وفي رواية لمسلم: «من أكل البصل والثوم والكّرات فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما تتأذى منه بنو آدم».

---

(١) رواه مسلم (٥٥٣). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٧٧.

(٢) متفق عليه، البخاري (٢ / ٢٨١ – ٢٨٢) ومسلم (٥٦١)، وأخرجه أبو داود (٣٨٢٥). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠٠.

(٣) متفق عليه، البخاري (٩ / ٤٩٨) ومسلم (٥٤٦)، وأخرجه أبو داود (٣٨٢٢)، والترمذي (١٨٠٧). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥٠٠.

وبذلك فإن الإسلام قد اعتنى عناية عظيمة بطهارة الذات وطهارة المحيط الذي تمارس فيه الذات مختلف أمور الحياة، حيث جاء الحض على احترام القاسم المشترك في الانتفاع بمختلف الأمور التي سخرها الله تعالى في البيئة لخدمة الإنسان بوقايتها من التلوث والمحافظة على نظافتها في كل حال، بل إن المسائل التي ترتبط بطهارة الذات والمحيط الذي يحيط بها تتصل بالوجوب والحرمة، حيث أن هناك من الأفعال ما يجب رعاية لنظافة الذات أو نظافة المحيط، وهناك من الأعمال ما يحرم ويترتب عليه اللعن مما له من تأثير على مصالح الناس وشؤون انتفاعهم.

وبذلك فإن الذات الإنسانية نظراً لكونها تشكل العنصر الأهم من عناصر البيئة، فقد جاء الاهتمام بنظافتها على نحو يجعلها أكثر تميزاً عن غيرها من المخلوقات، ولا شك أن رعاية الطهارة والنظافة للذات ترتبط بصورة مباشرة بطهارة المحيط الذي تمارس فيه هذه الذات مختلف أمورها الحياتية، فلا يمكن بأي حال من الأحوال إذا لم تعتني هذه الذات بطهارتها وبخصال فطرتها أن يتولد منها الاعتناء بما حولها من محيط؛ وذلك نظراً إلى أن المحيط الذي يحيط بها يرتبط حاله بحالها في جميع الأحوال.

رابعاً - قراءة مقارنة :

إذا نظرنا نظرة مقارنة في هذا الشأن بين الحضارة الإسلامية والحضارة الغربية، فإننا نجد أن الحضارة الغربية لم تكن تصحبها في نشأتها ولا في لاحق أطوارها ثقافة توجه إلى صيانة البيئة من التلوث؛

ولذلك فقد كان التلوث يصاحبها ويتطور بتطورها حتى وصل إلى ما وصل إليه من وضع خطير حينما بلغت هي أوجها من التطور، وحينئذ أصبحت مشكلة تؤرق أهل هذه الحضارة الذين غدوا لا يهتدون إلى حل ناجع لها لما بلغت من مدى بعيد في التراكم والتفاقم.

ولو كانت هذه الحضارة مصحوبة النشأة بوعي ثقافي وعملي في الصيانة من التلوث لكان يصاحب كل طور من أطوار تقدمها طور مواز من الإجراءات القانونية والتقنية للحماية من التلوث البيئي بأنواعه المختلفة، ولكن لما كان ذلك الوعي غائباً منها، ولما كان الهمّ الأكبر لأصحابها هو استهلاك مقدرات البيئة بما يحقق الغاية العليا من الحياة وهي الرّفاه المادّي، وذلك في سلوك عدائي عنيف كما بيناه سابقاً أفاق الناس على مشكلة التلوث وقد اتسع خرقها على الراقع.

وأما الحضارة الإسلامية فإنّ ما عرضنا من ثقافة نظرية وعملية في الصيانة من التلوث كان يمثل خطوات من الإجراء القانوني والإداري لحماية البيئة من التلوث توازي في تطورها باطراد النمو الحضاري، وإذا كانت هذه الخطوات تبدو لنا اليوم غير ذات شأن كبير بالنظر إلى مشكلة التلوث البيئي، فإنها إذا ما وضعت في إطارها التاريخي، وإذا ما قرنت بطبيعة الأطوار الحضارية التي بلغتها الحضارة الإسلامية، تبين أنها في مغازيها ذات دلالات عميقة في معالجة مشكلة التلوث. ولو تصورنا الحضارة الإسلامية قد واصلت تطورها إلى أن بلغت ما بلغته الحضارة الغربية الآن من درجة الازدهار المادي، فإن تصورنا ذلك

سيستصحب لا محالة بطريق القياس تطوراً موازياً في الوعي بصيانة البيئة من التلوث قانونياً وإدارياً وتقنياً، بحيث لا ينشأ سبب للتلوث إلا ينشأ موازياً له إجراء عملي مقاوم له، فلا تتراكم المشكلة ولا تتفاقم، وهو ما لم يحصل في الحضارة الغربية، لافتقارها إلى ثقافة مصاحبة في الرفق بالبيئة والحفاظ عليها، فانتهى بها الأمر إلى الواقع الراهن[1].

وبذلك يتضح أن منهجية الإسلام في النظافة رعاية للبيئة يعتبر ضابطاً لعلاقة الإنسان ببيئته لا يمكن أن يبني علاقته بها بمعزل عن الالتزام بتجنب الرعاية لها بوقايتها من التلوث، ودلائل الرعاية بالنظافة حفظاً لهذه البيئة لا تقع تحت حصر، وهي تعالج جوانب متعددة، لا سيما وأن الطهارة والنظافة قد ارتبطت بحياة الإنسان المسلم اتصالاً بمختلف سلوكياته وعباداته في الجملة والتفصيل.

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

المبحث الثاني

مشكلة الإسراف وأبعادها

إن من القواعد الكلية التي يمكن تطبيقها في مجالات متعددة وتنطبق كمبدأ وضابط للانتفاع بالبيئة ما يتصل بمشكلة الإسراف فيما ترتبه من أبعادها من خطورة على حياة الإنسان في الحال وفي المآل، وبذلك فإن الإسراف هو سلوك بشري سلبي يحتاج إلى تهذيب وترشيد حتى يستغل الإنسان ما سخره الله تعالى له في محيطه استغلالاً إيجابياً فلا يستنزفها دون حاجة، ويجعل انتفاعه بها فيما يرضي الله تعالى، حيث ترتبط خطورة مشكلة الإسراف بما يترتب عليها من تحمّل للإثم والبعد عن محبة الله تعالى، ثم إن هذا المفهوم له ضمن منظور الإسلام ما يميزه كما سيتضح من تعرضنا لمفهومه في منظور الإسلام، هذا فضلاً عن فلسفة الإسلام في زجره ونهيه عن الإسراف لما يترتب على ذلك من آثار، مما يستلزم ضرورة الترشيد لاحتواء هذه المشكلة بما ترتبه أبعادها على المدى البعيد، هذا فضلا عن الإثم الذي يترتب على هذه الجريمة بفقد محبة الله تعالى وقربه.

ومما يتصل بأبعاد مشكلة الإسراف ما يثار في الواقع المعاصر حول مسألة ندرة العناصر البيئية الطبيعية، وما يتصل بالأمن الغذائي في المجتمع الدولي، لا سيما في ظل المجاعات التي تتفاقم في العالم اليوم، حيث أن التساؤلات المثارة تتمثل في ... هل هناك مشكلة في ندرة العناصر

الطبيعية البيئية؟، وهل ترتبط هذه المشكلة من الناحية العلاجية بمنهجية الإسلام في زجرها عن السرف وبغضها للمسرفين؟، وهل السبيل الناجع لتجاوز هذه المشكلة – إن كانت مشكلة - يتمثل في تحقيق الأمن الغذائي فحسب، والذي بدأت المطالبات به في القرن الماضي.

إن هذه المسائل نظراً لارتباطها بمشكلة الإسراف وما يتصل بمعالجة الإسلام لهذه الإشكالية جديرٌ بالتناول ضمن المحور الذي يتصل بمعالجة ضوابط حق الانتفاع بالعناصر والمكونات البيئية، وبذلك فإن الاستعراض لذلك سيكون ضمن أحد مطلبي هذا المبحث بمشيئة الله تعالى.

المطلب الأول : مشكلة الإسراف

إن كل كائن حي في البيئة تقتضي حياته أن يكون له من مواردها استهلاك يحفظ حياته، وهو استهلاك مقدر في الدورة البيئية الكبرى، محسوب في قيام توازنها ودوامه، والإنسان لا يخرج عن هذا القانون البيئي إلا أن المهمة التي كلف بها لتكون غاية لوجوده تقتضي لكي ينجزها أن يكون استهلاكه من مقدرات البيئة أوفى من الاستهلاك لمجرد الحفاظ على الحياة مثل سائر الكائنات الحية الأخرى، إذ هو مكلف بالتعمير في الأرض وهي غير مكلفة بشيء، وهذا الاستهلاك الزائد الذي تقتضيه مهمة الإنسان في الحياة هو أيضاً مقدر في التكوين البيئي، محسوب في قيام توازنها ودوامه.

وإذا ما تصرف الإنسان في البيئة تصرفاً يلتزم فيه باستهلاك مواردها بالقدر الذي يمكنه من أداء وظيفته، فإنه يكون قد وقف عند الحد الذي قُدر له في التقدير البيئي العام، ويكون بالتالي قد انخرط في الدورة البيئية انخراطاً رفيقاً يحفظ توازنها ويصون نظامها، وأما إذا ما توسع في استهلاك موارد البيئة بما هو أزيد مما تقتضيه وظيفته باستهلاكه فوق حاجته، فإنه يصبح منخرطاً في الدورة البيئية انخراطاً لا تتحمله البيئة فيما قُدرت عليه من موارد، وهو ما يسبب لها إرهاقاً يعجزها عن تدارك ما تفقد من أقدار زائدة، فينتهي الأمر إلى اختلالٍ في توازنها، وذلك ما يُعد من ضروب العنف التي يمارسها الإنسان إزاء البيئة، إذ كأنما هو نوع من الافتكاك لما هي غير مهيأة لإعطائه.

وكما جاءت التعاليم الإسلامية توجه الإنسان توجيهاً عملياً إلى الرفق بالبيئة بصيانتها من التلف والتلوث والنفاد، فإنها جاءت أيضاً توجه إلى الرفق بها بالوقوف في استهلاك مواردها عند الحد الذي تقتضيه وظيفتها في الحياة، والذي هو مقدر في كمها وكيفها، محسوب في دورتها الكبرى، دون أن يتجاوزه إلى ما وراءه مما هو غير مطلوب في إنجاز تلك الوظيفة من استهلاك لمقدراتها. وقد جاءت التوجيهات في هذا الشأن متعددة المقامات، متنوعة الأساليب، بحيث ارتقت إلى درجة أن يكون الرفق بالبيئة بهذا المعنى من الرفق المقتضي للوقوف بالاستهلاك البيئي عند حده مقصداً أساسياً من مقاصد التوجيه الشرعي في التعامل البيئي.

وتلتقي هذه التوجيهات الشرعية العملية بالرفق بالبيئة رفقاً استهلاكياً على تعدد ما تتضمنه من أحكام قانونية وشرعية عند معنى

الوقوف بالاستهلاك البيئي في حد القصد، وهو العدل مراداً به بيئياً ما تقتضيه وظيفة الإنسان وتتحمله في ذات الوقت مقدرات البيئة، وعدم تجاوزه إلى الإسراف، وهو تجاوز حد العدل مراداً به بيئياً ما لا تتطلبه وظيفة الإنسان ولا تتحمله في ذات الوقت مقدرات البيئة، ويمكن أن يُجعل عنواناً جامعاً لذلك ما جاء في الشريعة الإسلامية من أمر مكرر بالتزام القصد في الاستهلاك، ومن نهي مشدد عن الإسراف والتبذير فيه.

أولاً - مفهوم الإسراف من منظور الإسلام :

ذكر ابن منظور الإفريقي في مادة (سرف) بأنها من السرف والإسراف، وهو مجاوزة القصد، ثم قال: السُّرفة: دودة القز، وقيل: هي دويبة غبراء تبني بيتاً حسناً تكون فيه... إلخ، وعلى كل حال فإن السرف مأخوذ من السرفة وهي دويبة تأكل الورق، وسمي بذلك لتصور معنى الإسراف منه.

ثم ذكر ابن منظور بعض موارد الإسراف فقال: أسرِف في ماله: عجِل من غير قصد، وأما السّرف الذي نهى الله عن فهو ما أُنفق في غير طاعة الله تعالى قليلاً كان أو كثيرا. أما الإسراف في النفقة فهو التبذير، وسرَف الماء إذا ذهب منه في غير سقي ولا نفع [(١)]. وبذلك فإنه يمكن القول بأن الإسراف هو الوجه الآخر للإفساد.

---

(١) ابن منظور – أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، لسان العرب، مادة: س، ج٩، ص ١٤٨. وقد أورد هذا النقل خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، مرجع سبق ذكره، ص١٤٢.

وبذلك فإن الإسراف وفق للمنظور الشرعي يأخذ عدة مقاصد ودلالات تتمثل فيما يلي:

- تجاوز الحد في موضوع الأكل والشرب، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[1].

- تجاوز الحد في إسراف المال، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[2].

وهناك نصوص تقرر حرمة الإسراف بشكل عام، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾[3]. وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾[4].

وبالنظر إلى أهم العناصر التي نهى الإسلام وزجر عن الإسراف فيه، فإنه يتمثل بأهم عنصر جعل الله تعالى منه كل شيء حي وهو الماء، حيث شدد القرآن الكريم على أهميته وضرورته للحياة وآثاره في الحياة الاجتماعية نظراً لكونه من المصادر التي يمكن أن تضيع بواسطة الإنسان، كما أن الأحاديث النبوية قد قرر النهي عن الإسراف في استخدام المياه حتى في حال وفرتها.

وبذلك فإنه وفق مفهوم الإسراف في منظور الإسلام فإنه يتقرر تحريم الإسراف بكل أنواعه وجميع مظاهره، حيث يعتبر ذلك من قواعد

(١) الأعراف ٣١.
(٢) الفرقان ٦٧.
(٣) المائدة ٣٢.
(٤) غافر ٤٣.

الأمن البيئي الذي ينطلق من الإسلام للمحافظة على فطرة البيئة التي خلقها الله تعالى في أحسن تقويم، وأجمل صورة، وأحكم نظام [1]. وبذلك فإن مفهوم الإسراف يتسع ضمن المنظور الإسلامي ليستوعب كل تسخير للمنافع دون الالتزام بضوابط الدين، فهو يرتبط في ذلك بمجاوزة الحد، ولا يرتبط بالتبذير فحسب.

ثانياً - فلسفة الإسلام في زجره ونهيه عن الإسراف:

يعد من المبادئ الشريعة الإسلامية الأساسية في ذلك سلوك الطريق الوسط أو المعتدل في التكليف فهو دين الوسطية والاعتدال، فلا إفراط ولا تفريط، ولا إسراف ولا تقتير، ويقرر ذلك عددٌ من النصوص القرآنية منها:

- قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾.
- قال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾[2].
- قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾[3].

(١) خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٣.

(٢) الإسراء ٢٩. (٣) الأنبياء ٩.

- قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[1].
- قال تعالى: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾[2].
- قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾[3].

لقد نهى الإسلام عن الإسراف لما فيه من أضرار كثيرة، والإسراف في نظر الإسلام كل سلوك يتعدى الحدود المعقولة أو المقبولة في أي أمر من الأمور، وإذا طبقنا هذا المفهوم على البيئة فإنه يتمثل في الاستخدام المفرط أو الجائر لموارد البيئة، ومن ثم يصبح هذا السلوك غير المرغوب فيه مصدر ضرر وخطورة على البيئة ومواردها، كما أنه نوع من الأنانية وعدم التبصر وعدم الحكمة في تحمّل المسئولية؛ لأنه مدعاة لسرعة استنزاف موارد البيئة.

إن في الوحي بما اشتمل عليه من كتاب وسنة دعوة صريحة للمسلمين إلى الاعتدال والاقتصاد وحسن استغلال موارد البيئة من ناحية، ونبذ الإسراف والاستخدام الجائر والتقتير من ناحية أخري. وليس ثمة شك أن دعوة الإسلام إلى الاعتدال ونبذ الإسراف منذ

---

(١) الأعراف ٣١.

(٢) الإسراء ٢٦ – ٢٧.

(٣) الفرقان ٦٧.

أربعة عشر قرناً بدأت تدركها مؤخراً المجتمعات غير الإسلامية في الشرق والغرب حيث بدأوا ينادون بالاستخدام العاقل أو الراشد المعتدل (sound utilization)، ونبذ الاستخدام الجائر أو المفرط (الإسراف - over utilization)، وذلك بعد أن بدأ الإسراف في استخدام موارد البيئة يهدد البشرية بأخطار كثيرة، فقد أدى قطع الأشجار والنباتات إلى بروز مخاطر كثيرة مثل: (جرف التربة ـ الفيضانات العنيفة ـ تدهور الدورة المائية ونظم المطر ـ انتشار التصحر ـ الاختلال في دورة الأكسجين ـ ثاني أكسيد الكربون وغيرها)، كما يؤدي الإسراف في استخدام المياه إلى مشاكل عديدة مثل: (تملّح التربة وتغدقها ـ سرعة نضوب موارد المياه الجوفية ـ نقص موارد المياه وغيرها).

وقد أوجد الإسلام ضوابط لذلك، فموقف الإسلام من استغلال البيئة واضح من قول الله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾[1]. إذ يؤكد الخالق على مفهوم مهم ينظم الكون والحياة والإنسان، وهذا المفهوم هو الميزان، وأي إخلال في هذا الميزان سواء في الزيادة أو النقصان يؤدي إلى أسوأ العواقب، وأمر الله الإنسان أن يحافظ على الميزان أو التوازن في جميع ما يأتي وما يدع. فلكل شيء حدودٌ وطاقة، والمنظومةُ البيئية خلقت بشكل متزن، وأي خلل في أحد عناصرها يؤدي إلى الخلل في العناصر الأخرى، فإذا حدث خلل في الماء في إحدى المنظومات، أثر ذلك في الحيوان وفي النبات وفي الإنسان، فهي كالجسد الواحد يكمل بعضه

(١) الرحمن ٧ – ٩.

بعضاً ويعتمد بعضه على بعض. لذلك ينبغي على الإنسان أن يتعامل مع عناصر المنظومة البيئية بالقدر الذي لا يجهدها ولا يستنزفها ولا يتجاوز الحدود، فلا يسرف في استخدام المياه، ولا يجهد الأرض بالاستعمال ولا يسرف في قتل الحيوان حتى يقضي على الأنواع، فهناك حدود عليه التقيد بها وتحتمها الالتزام بالضوابط التوعوية حتى يبقي على البيئة ويجددها على الدوام، فالتوازن مطلوب والميزان حساس فلا خسران ولا تطفيف.

وإذا أمرنا الإسلام بالحفاظ على التوازن بين عناصر البيئة، فقد أمرنا ألا نفسد الموارد، وألا نلوث عناصر المنظومة البيئية، فتلوث الهواء يصيب الإنسان والحيوان، كما أن فساد المياه ينعكس على النبات والحيوان والإنسان. وكذلك الإسراف ممقوت ومنهي عنه، ويؤدي إلى الهدر، والإسراف في الطعام يؤدي إلى التخمة، والإسراف في قطع الشجر يؤدي إلى التعرية، والإسراف في استخراج الموارد يؤدي إلى استنزافها، وهذا كله ينزل الأذى والضرر في البيئة والناس [١].

وبذلك فإن البشرية اليوم في حاجة ماسة لتبني الدعوة الإسلامية إلى الاعتدال ونبذ الإسراف للحد من الضغط الشديد على موارد البيئة لتظل قادرة على استمرارية العطاء، وتتحقق بالتالي العلاقة المتوازنة بين الإنسان وبيئته، والتي نتفادى بها ما نعانيه اليوم من مشكلات خطيرة آخذة في التفاقم بشكل مطرد إذا لم نضع حداً لهذا الاستخدام المفرط والجائر.

(١) دراسة منشورة على الموقع الإلكتروني:www.beeaty.com، وتاريخ دخول الموقع ١١سبتمبر ٢٠٠٧.

ثالثاً - مواطن الإسراف:

إن الإسلام عندما نهى عن الإسراف الذي هو كل تسخير للمنافع دون الالتزام بضوابط الدين، لم يجعل ذلك مرتبطاً بمجاوزة الحد والتبذير فحسب، فإنه اعتبر بذلك أن أكل ما حرم الله تعالى إسراف، واستنزاف عناصر الكون على اختلافها دون حاجة ضرب من الإسراف، وذلك أياً كان الغرض الذي من أجله تمثل الإسراف، وإن كان عبادة من العبادات كالوضوء للصلاة، وبذلك فإن هناك مواطناً قد ورد الزجر عنها نظراً لخطورة الإسراف فيها، ويقاس عليها مختلف المنافع التي ينتفع بها الإنسان من عناصر البيئة التي سخرها الله تعالى له، ومن هذه المواطن:

• **الإسراف في الماء:** حيث جاء الزجر عن الإسراف فيه باعتباره مادة الحياة التي جعل الله تعالى منها كل شيء حي، ويقرر ذلك قول الله تعالى بالنسبة للإنسان: ﴿ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴾[(١)]. أما بالنسبة لسائر الدواب والتي منها الإنسان من أصغرها إلى أكبرها فتقرره آية جامعة يقول الله تعالى فيها: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ﴾[(٢)]. وبذلك كانت المياه ذات صلة وثيقة وضرورة بحياة الإنسان، فالله سبحانه وتعالى كما خلق كل دابة من عدم من الماء، فإنه تعالى جعل من الماء كل شيء حي، فما من حي من الأحياء إلا ويهلك دون الماء وينتهي وجوده في هذه البيئة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾[(٣)]. فالماء بذلك أساس لاستمرار الحياة؛ لذلك عد من أهم

---

(١) الطارق ٦. (٢) النور ٤٥.

(٣) الأنبياء ٣٠.

المواطن التي جاء الزجر عن الإسراف فيها، وجاء الأمر بالالتزام بما يسد الحاجة عند الانتفاع منه دون سرف، وأول غاية من تسخير الماء للإنسان هو الشرب، ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾(١). كما سخره اللّه تعالى ليسقي به الإنسان الأرض لتنبت له من أصناف النباتات ما يعتمد عليه في قوته، ويقرر ذلك قول اللّه تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا * لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا * وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾(٢). فهذه الجنات يقتات منها سائر المخلوقات وعلى رأسهم الإنسان. كما جعل اللّه تعالى الماء فيه متاعاً لنا ولأنعامنا، فلا حياة لدواب الأرض من دون الماء، هذا بالإضافة إلى أنه وسيلة للتطهير والنظافة من الأدران والنجاسات، ويقرر هذا الجانب من التسخير قوله تعالى: ﴿ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ ﴾(٣).

وبذلك فإن الماء لما كان ضرورة لهذه الاستخدامات فإن الزجر عن الإسراف فيه جاء في كثير من النصوص النبوية، حيث حرص الإسلام كل الحرص في الحفاظ على نعم اللّه تعالى، وأوجب الاقتصاد في الماء حتى ولو كان الإسراف فيه غير جالب للضرر، ويقرر ذلك الحديث الذي يرويه أنس (رضي اللّه عنه) قال: «كان رسول اللّه (صلى اللّه عليه

---

(١) فاطر ١٢.

(٢) النبأ ١٤-١٦.

(٣) الأنفال ١١.

وسلم) يغتسل بالصاع إلى خمسة أمداد، ويتوضأ بالمد »[١]. كما روي عن عبد اللّه بن عمر (رضي اللّه عنهما): أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) مر بسعد وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف يا سعد؟، فقال: وهل في الماء سرف ؟، قال: نعم وإن كنت على نهر جار »[٢].

ولما كان الإسراف وفق معناه الشرعي يتصل بما قرره الشرع في الاستخدام والانتفاع من ضوابط، فإنه يتحقق إذا كان استخدامه لغير فائدة شرعية، وذلك بأن يزيد على الثلاث وهو الحد الأقصى المقرر لغسل كل عضو، ويقرر ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (رضي اللّه عنهم) قال: «جاء أعرابي إلى النبي (صلى اللّه عليه وسلم) يسأله عن الوضوء فأراه ثلاثا ثلاثا، قال: هذا الوضوء، ومن زاد على هذا فقد أساء وتعدى وظلم»[٣].

قال البخاري: (كره أهل العلم في ماء الوضوء أن يتجاوز فعل النبي (صلى اللّه عليه وسلم)؛ لذا فقد كان كثير من السلف الصالح وحتى أيامنا هذه من يتوضأ من ماء إبريق حتى لا يسرف أو يبالغ في

---

(١) حديث متفق عليه. وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٤.

(٢) حديث رواه أحمد وابن ماجه وفي سنده ضعف. وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٥.

(٣) حديث رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن خزيمة بأسانيد صحيحة. وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٨٥.

الإسراف من الماء، وبعضهم يكيف صنابير المياه على القدر الذي يفي بالحاجة دون إفراط أو تفريط مخافة الوقوع في الإسراف).

لقد طبق المسلمون مبادئ الحفاظ على الماء في كل شؤون حياتهم، فقد كانوا يأخذون منه أو يستعملون ما تدعو الحاجة إليه من زراعة أو صناعة أو استعمال منزلي دون إسراف، فحافظوا عليه وعلى موارده، والذي ساعدهم على ذلك أن عادات وتقاليد الناس في الحضارة الإسلامية متشابهة مضبوطة بضوابط التشريع الإسلامي من حيث التوزيع العادل للمياه، فكان التوازن في موارد المياه الطبيعية وحاجة الإنسان دون أن يعرف المجتمع الإنساني أزمة مياه كما هي عليه في واقع اليوم [1].

• **الإسراف في الطعام:** كما تقرر النهي عن الإسراف دون حاجة في الماء باعتباره قوام الحياة فلا إسراف في مختلف جوانب الانتفاع منه، فقد جاء الحض على تجنب الإسراف في الطعام باعتبار أن ما جاوز الحاجة لتقويم الصلب للإنسان يعتبر ضرباً من الإسراف، كما أن الفائض الذي يرمى بعد تناول الطعام إذا كان مبالغاً فيه يعتبر ضرباً من الإسراف، ومن أجل ذلك جاءت الآداب النبوية تقرر الآليات التي من خلالها يمكن تجنب الإسراف في الطعام، وأن ذلك مدعاة لتحقيق البركة التي تمنح النفع للإنسان من طعامه

---

(١) زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٥.

لقد بوب النووي في كتابه (رياض الصالحين) في (كتاب الطعام) العديد من الفصول التي تقرر آداب التعامل مع الطعام بتجنب الإسراف فيه، وفيما يلي نستعرض هذه الأبواب مع ذكر عدد من الأحاديث التي أوردها النووي فيها:

- (باب استحباب الأكل بثلاث أصابع، واستحباب لعق الأصابع، وكراهة مسحها قبل لعقها، واستحباب لعق القصعة، وأخذ اللقمة التي تسقط منه وأكلها، وجواز مسحها بعد اللعق بالساعد والقدم وغيرهما). حيث ذكر النووي في هذا الباب عدداً من الأحاديث منها ما ورد عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «إذا أكل أحدكم طعاما فلا يمسح أصابعه حتى يَلعقها أو يُلعقها»[(1)]. وفي حديث آخر يقرر الرسول (صلى الله عليه وسلم) الحكمة من لعق الأصابع، وهو حديث يرويه جابر (رضي الله عنه): أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أمر بلعق الأصابع والصحفة وقال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة»[(2)].

وفي حديث آخر يرويه أنس (رضي الله عنه) قال: كان الرسول (صلى الله عليه وسلم) إذا أكل طعاما لعق أصابعه الثلاث وقال: «إذا سقطت لقمة أحدكم فليأخذها وليمط عنها الأذى وليأكلها ولا يدعها

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري (٩ / ٤٤٩) ومسلم (٢٠٣١)، وأخرجه أبو داود (٣٨٤٧). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٦.

(٢) رواه مسلم (٢٠٣٣)، وأخرجه الترمذي (١٨٠٣). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٧.

للشيطان»، وأمرنا أن نسلت القصعة وقال: «إنكم لا تدرون في أي طعامكم البركة» [(١)].

-باب تكثير الأيدي على الطعام، حيث ذكر فيه النووي حديثين بمعنى واحد ولفظ مختلف، وقد كان أولهما رواه أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة» [(٢)].

فكل هذه السلوكيات والآداب النبوية تحفظ الإنسان من الوقوع في الإسراف في الطعام؛ لذلك تعين عليه الالتزام بها حتى لا يقع في الإسراف كسلوك محرم، وليمتثل أدب النبوة في ذلك، ففيه تحقيق النفع والبركة مما يقتات به الإنسان. ثم إن الاعتدال في الطعام صحة وحماية لجسم الإنسان من الأمراض، وهو في ذات الوقت يعتبر تقرباً إلى الله تعالى.

• **الاعتدال في اللباس:** حيث أن الحاجة إلى اللباس في الأساس هي الستر للعورة، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا﴾ [(٣)]. هذا بالإضافة إلى غاية ثانوية

---

(١) رواه مسلم (٢٠٣٤)، وأخرجه الترمذي (١٨٠٤) وأبو داود (٣٨٤٥). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٧، ومعنى نسلت القصعة – بفتح النون وضم اللام: أي نمسحها.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٩ / ٤٦٧) ومسلم (٢٠٨٥)، وأخرجه الطبراني (٢ / ٩٢٨) والترمذي (١٨٢١). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦٢.

(٣) الأعراف ٢٦.

وهي التجمل بالثياب دون مبالغة تتفاوت من شخص إلى آخر، ولا شك أن الأمر بلبس اللباس دون مبالغة فيه يعين على التواضع للّه تعالى، ويمنع من الوقوع في محظور الإسراف، ويقرر ذلك الحديث الذي يرويه معاذ بن جبل (رضي الله عنه): أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال: «من ترك لبس الفاخر تواضعاً للّه وهو يقدر عليه دعاه اللّه يوم القيامة على رؤوس الخلائق حتى يخبره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها» (١).

كما حرم رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) لبس الحرير على الرجل فقال: «إنما يلبس الحرير من لا خلاق له» (٢). بل وصلت الدعوة النبوية في النهي عن الإسراف في اللباس بالدعوة إلى الترشيد في أكفان الموتى بقوله: «لا تغالوا في الكفن فإنه يسلب سلباً سريعاً» (٣).

رابعاً - منهجية الترشيد:

لما كان من أعظم الآثار التي تترتب على ممارسة الإسراف في مختلف مواطنه متمثلاً البعد عن دائرة محبة اللّه تعالى، حيث تقرر النصوص النهي عن الإسراف لما يترتب عليه من ضرر على حياة

(١) حديث رواه الترمذي وقال حديث حسن. وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩.

(٢) حديث متفق عليه، البخاري (٥٣٧٥). وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩.

(٣) رواه أبو داود (٢٧٤٢). وقد أورد هذا الحديث زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٩.

الإنسان، وما يستوجبه ذلك من عدم محبة الله تعالى للعبد المسرف، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(١). لما كان كل ذلك فإنه لا شك أن ترتيب انعدام محبة الله تعالى للمسرف إنما تقرر لما يترتب على الإسراف من تضييع لنعم الله تعالى الواجبة الشكر له، وذلك بالحفاظ على هذه النعم بعدم التبذير فيها أو الإسراف.

ولما أمر الله تعالى عباده بأخذ الزينة نهاهم عن الإسراف فيها لما يترتب على ذلك من تضييع لنعم الله تعالى، ولما يجر إليه ذلك من كبر وغرور، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾(٢).

ثم إن الإسراف يجر إلى استنزاف الموارد على نحو يجر المجتمع الإنساني إلى المعاناة من النقص من خيرات الأرض المسخرة لانتفاع الإنسان؛ لذلك جاء الأمر بالترشيد كمنهج يضع الإنسان في ميزان الاعتدال من دون إفراط ولا تفريط.

ولما كان الإنفاق هو الذي يجر الإنسان إلى الإسراف، فقد جاء المنهج الذي دعا إليه الإسلام متمثلا بالتوسط في الإنفاق والاعتدال بين

(١) الأنعام ١٤١.

(٢) الأعراف ٣١.

الإسراف والتقتير، حيث أن كلا الأمرين في شريعة الله تعالى مذموم، ليكون الاقتصاد في المعيشة وفي الانتفاع بخيرات الأرض خلقا وسجية في سلوكيات الإنسان يلتزمه أبداً سواء في حال السعة أو حالة الضيق على حد سواء.

ثم إن الإنسان لا بد أن يكون واعياً بأضرار الإسراف عليه، ليس باعتباره يجر إلى البعد عن محبة الله تعالى، بل باعتبار أن التوازن في الاستهلاك والإنفاق نافع للإنسان اقتصاديا؛ وذلك لأن التقتير يؤذي الاقتصاد، حيث لا توجد دوافع الإنتاج إذا انعدمت أو قلت بواعث الاستهلاك، كما أن الإسراف يمكن أن يضيع جدوى التنمية وزيادة الإنتاج. هذا فضلا عن كون هذا المنهج نافع للإنسان تربوياً؛ وذلك لأن الإسراف المطلق ليس من شأن المؤمن العاقل؛ ذلك أنه لا يستنفع من خيرات الله بشره، فهو لا يأكل إلا إذا جاع، وإذا أكل لا يملأ شر وعاء يملئ وهو بطنه، فما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه.

ثم إن شهوة الاشتراء بسبب الإنفاق الذي يجر إلى الإسراف قد أصبحت ظاهرة غير صحية في المجتمع الإسلامي المعاصر بسبب الرفاهية، حيث أدت إلى تكديس أشياء كثيرة جداً لا لزوم لها، وذلك حتى أضحى التخلص منها من المشكلات العويصة [1].

وبذلك لا إمكانية لاحتواء مشكلة الإسراف إلا بالترشيد كمنهجية

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٤.

تضع الحاجة في نصاب الحاجة دون إفراط ولا تفريط، وتكون منهجاً للإنسان يستعين به في كل حال، ولا يستغني عنه باعتبار ارتباطه به لذاته إرضاء لله تعالى وابتغاء لمحبته لا تفاعلاً مع الظروف والمتغيرات.

يذكر عبد الحكيم الصعيدي في كتابه (البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني) بأن من المبادئ الأساسية الهامة التي يرتكز عليها المنهج الإيماني في استغلال مكونات البيئة والتعايش السلمي معها مبدأ الترشيد، حيث أن الترشيد للمسلم أسلوب حياة وليس ظاهرة مؤقتة ولا شعاراً يرفع عند حلول الأزمات المادية، أو عند نقص الموارد الطبيعية كالماء وسائر الثروات كرد فعل لها، حتى إذا ما انقشعت سحب هذه الأزمات وتبددت مخاوفها عاد الناس أدراجهم، ونكصوا على أعقابهم يحيون سيرتهم الأولى إسرافا وتبذيرا وإهدارا للموارد، كما أن الترشيد لا يعني التقتير والبخل المذمومين، وإنما هو الاعتدال في كل أمر وعلى أي حال، ولا يقتصر هذا المبدأ على الأحياء، بل إنه يمتد ليشمل أكفان الموتى مراعاة لحال الأحياء (١).

إن النصوص السابقة تقرر هذا المعنى مما سبق ذكره من دعوة إلى الترشيد في كل حالة استنفاع بخيرات الله في أرضه، وعلى رأس ذلك العناصر الثلاثة الملازمة لانتفاع الإنسان وهي: الماء والطعام والكساء، حيث جاء الأمر على ضرورة المحافظة كماً وكيفاً على هذه العناصر حتى

---

(١) الصعيدي – عبد الحكيم عبد اللطيف، البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، ط: ٢، ١٤١٦ – ١٩٩٦، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة – مصر، ص ١٦٥.

لا تتعطل وظيفتها ومهمتها، وبالتالي تتعطل الحياة وتكون غير صالحة كبيئة لحياة الإنسان.

ولا شك أن أسلوب الترشيد كسلوك يحفظ الإنسان من الوقوع في مهلكة الإسراف والتقتير، يحتاج إلى تربية بيئية إيمانية تنطلق من خلال بناء منظومة سلوكية تربوية من شأنها أن تحمي البيئة من استهتار الإنسان وضعف وعيه وإدراكه لخطورة تصرفاته على نفسه، وعلى ما يحيط به من عناصر تقررت مسؤوليته عنها، وقد تقرر لذلك منهجية من شأنها أن تحفظ لهذه البيئة خيراتها صالحة لحياة الإنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

خامساً - قراءة مقارنة :

لقد كانت الحضارة الإسلامية خطت خطوات تقنية عملية في الالتزام بحد الاقتصاد في استهلاك الموارد البيئية، ومراقبة ذلك مراقبة فنية بالإضافة إلى المراقبة القانونية والإدارية، ومن شواهد ذلك ما روي من أن أحمد بن موسى ذكر في كتابه له يتعلق بالحيل الآلية أنه اخترع آلة تراقب الإسراف في المياه التي تُسقى بها الحقول، وذلك بأن تثبت هذه الآلة في الحقول التي يتم فيها السقي، وتصدر أصواتاً خاصة كلما ارتفع مستوى الماء فيها إلى الحد المطلوب، فتتلافى إذاً الزيادة على ذلك لكي لا يذهب الماء هدرًا. وقد اخترع ابن الشباط بمدينة توزر بتونس نظاماً للري على درجة عالية من الدقة في أخذ الحقول استحقاقاتها من المياه عند الحد المطلوب دون إهدار لشيء منها في غير نفع. وكل من هذا

الاختراع، وذلك يدل في مغزاه على ثقافة بيئية إسلامية كانت توجه الحضارة الإسلامية إلى الاقتصاد في موارد البيئة.

وحينما نقارن في هذا الشأن الحضارة الإسلامية بالحضارة الغربية والحضارات قبلها التي كان لها تأثر بها، فإننا نقف على بون شاسع بين الطرفين، فالحضارة الرومانية التي لها أثر في الحضارة الغربية كانت تقوم على الأبهة والفخامة في كل شيء، ولا أدل على ذلك من هذه الهياكل العمرانية الضخمة المنتشرة آثاراً في البلاد التي وطئتها هذه الحضارة، وأغلب هذه الهياكل بما أنفق فيها من الموارد الطائلة إنما كانت لأغراض باذخة مترفة مثل مصارعة الحيوانات وإقامة الاحتفالات والمباريات، ويُقاس عليها كثير غيرها من التصرفات في المأكل والملبس والمركب، بحيث يتبين أن تلك الحضارة كانت تسلك مسلك السرف في استنزاف مقدرات البيئة دون وعي بما يؤدي إليه ذلك الاستنزاف من اضطراب وخلل فيها.

وأما الحضارة الغربية فهي قد استصحبت معاني السرف المنحدرة إليها من الحضارة الرومانية خاصة، واستحدثت غايات تلتقي في مجملها عند تحقيق الرفاه المادي غاية عليا للحياة، فأدى بها ذلك كله إلى أن أصبحت أكثر من أي حضارة سابقة لا تكتفي بأن تجعل من الإسراف في استنزاف موارد البيئة سلوكاً عملياً، بل تجعل من ذلك الإسراف قيمة عليا تجتهد فيه، وتجد في اختراع وسائله وطرقه، وتتفنن في الدعوة إليه والإغواء به.

إن مقياس التقدم والتخلف في هذه الحضارة هو مدى ما يستهلكه الفرد من الموارد، فكلما كان الشعب أو الدولة أكثر استهلاكاً كانت أعلى شأناً في سلم التقدم الاقتصادي والحضاري، وإذا ما خف الاستهلاك لسبب أو لآخر هبت أجهزة الدولة تدفع الناس إليه، وتجندت وسائل الإعلام تحث عليه وترغب فيه بأنظمة رهيبة للدعاية والإعلان. وكل استهلاك في أي مرفق من مرافق الحياة إنما هو في حقيقته استنزاف بصفة مباشرة أو غير مباشرة لموارد البيئة المتجددة منها والناضبة على حد سواء.

وقد أفضى هذا المسلك الإسرافي لموارد البيئة بالحضارة الغربية إلى المأزق البيئي القائم راهناً، فهذا المأزق هو في الشطر الأكبر منه ثمرة مرة لإسراف الإنسان في الاستهلاك البيئي، إذ هذا الاستهلاك النهم الذي به يتحقق الرفاه غاية الحياة العليا أرهق البيئة إرهاقاً بما استنزف من مواردها فأثر ذلك في توازنها، وبما نتج عنه من أسباب التلوث المختلفة، فكانت له بذلك آثار سلبية مزدوجة يدعو بعضها بعضاً ويؤدي بعضها إلى بعض.

إنه إذاً الاستهلاك الأهوج لموارد البيئة الذي انتهى بالحضارة الغربية إلى هذا المأزق البيئي المستفحل، ولو ذهبنا نتلمس الأمثلة الواقعية لذلك لوجدنا في كل موقع من الأرض مثالًا صارخاً يؤيده، ولعل من أقرب الأمثلة منا وأبلغها في المقارنة مع الحضارة الإسلامية ما

سلكته حضارة الغرب من مسلك في البنيان انتهجت فيه منهج التطاول بذخاً فيه بأنظمة رهيبة للدعاية والإعلان. وكل استهلاك في أي مرفق من مرافق الحياة إنما هو في حقيقته استنزاف بصفة مباشرة أو غير مباشرة لموارد البيئة المتجددة منها والناضبة على حد سواء.

وقد أفضى هذا المسلك الإسرافي لموارد البيئة بالحضارة الغربية إلى المأزق البيئي القائم راهنًا، فهذا المأزق هو في الشطر الأكبر منه ثمرة مرة لإسراف الإنسان في الاستهلاك البيئي، إذ هذا الاستهلاك النهم الذي به يتحقق الرفاه غاية الحياة العليا أرهق البيئة إرهاقاً بما استنزف من مواردها فأثر ذلك في توازنها، وبما نتج عنه من أسباب التلوث المختلفة، فكانت له بذلك آثار سلبية مزدوجة يدعو بعضها بعضاً ويؤدي بعضها إلى بعض.

لقد ظلت الحضارات الإنسانية على مدى التاريخ تتباهى بالتطاول في البنيان منذ الحضارة الفرعونية بأهراماتها إلى الحضارة الغربية بناطحات السحاب، غافلة عما يؤدي إليه ذلك التطاول من أثر بيئي مدمر، ولكن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) حينما أرسى أسس الحضارة الإسلامية في شأن عمارة البناء بذلك المرسوم الذي ألزم فيه الناس بأن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر وفق القدر الملائم في تلك الفترة كان يصدر عن فقه بيئي إسلامي يوجه إلى الاقتصاد في موارد البيئة من مواد البناء وتوابعه، ويتحسب من وراء الزمن إلى ما يحدثه الإسراف فيها من أثر وخيم العواقب على الحياة بما يسببه من خلل في التوازن البيئي.

وحينما تكتمل حلقات هذا الفقه البيئي العملي في التعامل الواقعي مع البيئة، وتنضم إلى حلقات ذلك الفقه النظري الذي يتشكل من التصور الثقافي الإسلامي لحقيقة البيئة وعلاقتها بالإنسان، وحينما يلحظ الأثر الفعلي لذلك الفقه كما يتراءى في تجربة الحضارة الإسلامية، وحينما يُقارن ذلك كله بما في الحضارات الأخرى عامة والحضارة الغربية خاصة من ثقافة بيئية أسساً نظرية وآثاراً عملية، حينذاك فإنه يتبين للدارس أي فقه بيئي عظيم توفر عليه الإسلام، كفيل بأن يسهم إسهاماً فاعلاً في علاج الأزمة البيئية الراهنة، وأن يجنب الإنسانية كل أزمة مقبلة لو هي تعاملت مع قضايا البيئة من خلال منظور إسلامي ثقافة نظرية وتطبيقاً عملياً [1].

سادساً - جوانب مشرقة :

لما كان الإسراف يعبر ضمن إطار المفهوم الإسلامي عن كل عبث بالبيئة دون حاجة أو انتفاع، وذلك سواء أكان ذلك بالإفراط في الاستهلاك أو العبث دون داع أو مسوّغ، فإن هناك جوانب مشرقة تعكس هذا التنظير واقعاً عملياً تحذّر النصوص من خلاله من انتهاك حرمة البيئة دون وجه حق عبثاً، وفيما يلي استعراض جانب لما يقرر ذلك من دلالات.

• **الوعيد على قتل عصفور عبثاً:** فالعصفور وإن كان من

(١) النجار - عبد المجيد عمر، قضايا البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

مخلوقات الله الصغيرة، إلا أنه جزء لا يتجزأ من البيئة التي أمر الله برعايتها وعدم انتهاك حرمتها، ويقرر ذلك قول رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من قتل عصفوراً عبثاً عجّ إلى الله يوم القيامة يقول: يا رب إن فلاناً قتلني عبثا ولم يقتلني منفعة»[(١)].

وهناك حديث آخر يقرر الزجر عن قتل مخلوقات الله تعالى التي سخرها الله تعالى غذاء للإنسان دون حاجة وعبثاً، حيث يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيه: «ما من مسلم يقتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا يسأله الله عز وجل عنها ... قيل يا رسول الله: وما حقها؟ ... قال: أن يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها ويرمي بها»[(٢)].

إن هذين الحديثين يدلان دلالة قوية على وجوب احترام كل ذي روح من الطير والحيوان، ومنع قتله لغير حاجة أو منفعة معتبرة، كما يرشدان إلى المحافظة على موارد الثروة وعدم تبديدها باللهو والعبث لغير منفعة اقتصادية.

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٩..

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو (٦٥٥١)، وبأخصر منه (٦٥٥٠). وقال الشيخ شاكر: (إسناده صحيح)، ورواه النسائي ص ٢٠٧ – ٢٣٩، والحاكم وصححه ووافقه الذهبي (٤ / ٢٣٣)، كما أقره المنذري في الترغيب والترهيب، ورواه الطيالسي والحميدي والدارمي. وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٩.

• **عدم ورود ممرض على مصح:** ويقرر ذلك قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): «لا يوردن ممرض على مُصح»[(١)]. فعندما تورد الإبل للشرب يجب على صاحب الإبل المريضة ألا يوردها على الإبل السليمة فتحتك بها فتعديها، وهذا توجيه لوقايتها من المرض، فإذا أصيبت فيجب أن تعالج حفاظاً عليها باعتبارها كائناً حياً من ناحية، وباعتبارها مالاً نامياً من ناحية أخرى، ولا يتم هذا الواجب إلا بطبيب بيطري مخصص، فهو مطلوب شرعاً.

• **إياك والحلوب:** حيث تعتبر دلالة هذا الحديث من روائع ما ورد في السنة في المحافظة على الموارد، حيث يقول الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) لمضيفه الأنصاري الذي أراد إكرامه بذبح شاة: «إياك والحلوب»[(٢)].

فهذا الحديث يثير قضية تتمثل في ضرورة الانتفاع بعناصر البيئة دون إلحاق ضرر قدر الإمكان، وذلك حتى ولو كان ذلك في ذبح شاة واحدة، حيث أن في ذلك تربية على القيم والأخلاق التي ينبغي أن يلتزم بها الجميع، ولا شك أن في ذلك بعداً راقياً في النهي عن استنزاف البيئة متى ما أمكن تجاوز ذلك باستخدام البدائل الأخرى.

---

(١) متفق عليه عن أبي هريرة (رضي اللّه عنه)، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٩. والممرض: صاحب الإبل المريضة بداء الجرب، والمصح: صاحب الإبل الصحيحة السليمة.

(٢) رواه مسلم في الأطعمة عن أبي هريرة (رضي اللّه عنه) (١٠٣٨)، اللؤلؤ والمرجان (١٤٣٦). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٩٠.

• **الانتفاع قدر المستطاع:** فلا بد من الانتفاع قدر الاستطاعة بمنافع وعناصر البيئة على اختلافها، وذلك بعدم إهمال أو تجاهل أي جانب للانتفاع، ويقرر ذلك ما قاله الرسول (صلى الله عليه وسلم) لأصحابه عندما رأى شاة ميتة: «لمن هذه الشاة ؟ ... قالوا: إنها شاة لمولاة ميمونة – أم المؤمنين – قال: هلا انتفعتم بجلدها ؟ ... قالوا: إنها ميتة، قال: إنما حُرم أكلها» [١]. ففي هذا الحديث ينبه الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) الصحابة إلى الاستفادة من جلد الشاة – فروتها – بأن يدبغ فيطهر بالدباغ وينتفع به بدلاً من أن يرمى [٢].

• **قاطع السدر في النار:** حيث يعتبر بذلك متلفاً لعناصر البيئة دون وجه انتفاع أو حق، ويقرر ذلك قول رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم): «من قطع سدرة صوّب اللّه رأسه في النار» [٣].

ويعني كما ذكر أبو داود في سننه قطع شجرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل والبهائم عبثاً وظلماً بغير حق يكون له فيها، فجزاءه أن

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٩٠.

(٢) رواه أبو داود في الأدب (٥٢٣٩) عن عبد اللّه بن حبشي، وذكره في صحيح الجامع الصغير (٦٤٧٦). وقد أورد هذا الحديث القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩. والمراد بالسدرة: شجرة السدر (النبق) التي يكثر وجودها في البراري.

(٣) أنظر سنن أبي داود (٣ / ٤٠٤). وقد أورد هذا النقل القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٩٩.

يصوّب رأسه في النار كما صوّب قصده دون وجه حق نحو هذه الشجرة التي ينتفع بها الناس [١].

وفي هذا الوعيد الشديد في التوجيه إلى المحافظة على الأشجار لما فيها من نفع كبير للبيئة، فلا يجوز أن تقطع إلا بقدر وحساب، بحيث يغرس مكانها غيرها مما يقوم بوظيفتها [٢].

هناك الكثير من الدلائل التي تقررت ضمن نصوص الدين من الإرشادات القرآنية أو التوجيهات النبوية تحارب استنزاف البيئة واستغلالها دون وجه حق أو انتفاع؛ ومن أجل ذلك فإن ما يستفاد مما تقرره هذه الدلائل أن الاعتداء على البيئة استنزافاً يجر إلى وعيد من الله تعالى لمن ارتكب هذا الجرم في حق الأمانة التي استأمنه إياها وهي البيئة؛ ولذلك كان لزاماً عليه أن يحافظ على التزامه في سلوكه بالنسبة لمختلف ممارساته التي تتشكل من خلال علاقته مع المحيط الحيوي الذي يتحقق بتفاعله معه التوازن والاستقرار والحفظ لحياة مختلف الكائنات الإنسانية وعلى رأسها الإنسان.

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٠.

(٢) الكندري – عبد الله رمضان عبد الله، البيئة والتنمية المستدامة، ط: ١، ١٩٩٢، مطبعة جامعة الكويت، العاصمة – الكويت، ص ٧١.

المطلب الثاني

مسألة ندرة العناصر البيئية

وما يتصل بتحقيق الأمن الغذائي

ومن جانب آخر فإن ما يستدعي المناقشة ضرورة أثناء التعرض لضوابط حق الانتفاع بالبيئة ما يتصل بمسألة الندرة في الموارد، وما إذا كانت هذه المشكلة تثير خطورة على حياة الإنسان مما يستلزم ضرورة تعزيز قنوات الأمن الغذائي لضمان عدم تعرض حياته للخطورة من عدمه، وما إذا كانت هذه المسألة تتعارض مع ما يعتبر صلباً وأساساً من أساسات عقيدة المسلم التي اقتضت كون الرزق بيد الله وتقديره، فهو المتكفّل بتوفير ما يعين الإنسان على حياته الدنيا، ومدى تعلق مسألة الندرة في العناصر الطبيعية بمشكلة الإسراف، وذلك من خلال استقراء هذا المفهوم في النظام الرأسمالي والاشتراكي كنظامين وضعيين، ومن خلال استقراء هذا المفهوم من منظور الإسلام وفق ما تقرره الدلالات والنصوص.

أولاً - مسألة ندرة العناصر البيئية:

مما لا شك فيه أن ندرة العناصر البيئية كمشكلة ناجمة في جانب كبير منها نتيجة استنزاف الموارد بالإسراف في استهلاكها دون ضابط تتعارض وما هو مقرر في نصوص التشريع الإسلامي، فالله سبحانه وتعالى عندما سخر البيئة بعناصرها ومكوناتها للإنسان جعلها مؤهلة

باعتبار ما أنشأه فيها، وباعتبار ما يتحقق من وجوه انتفاع بفعل المتغيرات البيئية وعلى رأسها ما تحدثه يد الإنسان من بيئة مشيدة.

وقد ذكر الكندري في كتابه (البيئة والتنمية المستدامة) بأن علماء الاقتصاد لم يجمعوا على تعريف محدد لندرة العناصر الطبيعية، وقد عرفوها بطرق مختلفة، فبعضهم عرف الندرة بأنها: عدم توفر السلع أو الخدمات بالقدر الذي يسد احتياجات الإنسان منها في وقت معين. في حين عرفها آخرون بأنها: حالة الأشياء النافعة التي لا تكفي كميتها المتاحة لإشباع حاجات الإنسان في وقت معين.

ثم قرر من جانب آخر بأن مسألة ندرة الموارد البيئية الطبيعية تعتبر ذات أهمية اقتصادية كبيرة، وأن نضوب هذه الموارد سوف يعتبر بحد ذاته مشكلة يجب التفكير فيها وبذل جهود كبيرة في مجال التخطيط للحفاظ فترة زمنية طويلة من أجل الحفاظ على الاتزان البيئي.

كما أشار إلى أنه متى تطلع المجتمع إلى تحقيق زيادة في الإنتاج، فلا بد له من الحد من الاستهلاك وتوفير قدر من الإنتاج لاستغلاله في إقامة مشروعات جديدة تنتج قدراً إضافياً من السلع في المستقبل ... أي أن على المجتمع السعي في هذه الحالة إلى توفير جزء من إنتاجه الحاضر ليتمكن من زيادة قدرته الإنتاجية في المستقبل.

ثم إن ما يتصل بالعناصر البيئية التي تتفاوت ما بين دولة وأخرى له دوره في تفاقم هذه المشكلة، حيث أن ما ينبغي أخذه في الاعتبار

لاحتواء مثل هذه المشكلة ضرورة الوضع في الاعتبار ما يتمتع به المجتمع من مميزات تصل بالموارد والإمكانيات الإنتاجية حتى لا يظل جزء منها عاطلاً دون استغلال [1].

وبذلك يتضح أن مشكلة الندرة وفقاً للتعريفات السابقة يتصل تحققها في جانب كبير منه بسبب عدم الحد من الاستهلاك، وهذا ما يعني الإسراف واستنزاف الموارد بداعٍ ومن دون داعٍ.

وما يهم في هذا المقام هو أن النظرة لهذا المفهوم تختلف محاوره وأسسه ما بين النظريات الوضعية والرؤية الإسلامية القائمة على ما قررته النصوص. ثم إن النموذج المتطرف للنظام الرأسمالي هو ما يسمى باقتصاد السوق الحر تتحدد على أساس الإقرار بحرية الملكية الفردية، وحرية التصرف الاقتصادي في شتى النواحي والميادين: (الإنتاج والاستهلاك والادخار)، وتتلخص عناصر الحرية الاقتصادية في ثلاثة مبادئ هي: (حرية الملكية الفردية، وسيادة المستهلك، وحرية العمل والإنتاج).

فأما مبدأ الحرية الفردية فإن الفرد حرٌ في أن يتصرف في سائر ممتلكاته ويستغلها على النحو الذي يحقق مصلحته وحسب تقديره بمعزل عن أية عوامل أخرى، وهذا بحد ذاته يمكن أن يحدث خللاً في توازن النظام البيئي نتيجة للضغط الذي يمكن أن يقع على أحد العناصر البيئية دون الأخرى نتيجة ذلك.

(١) الكندري – عبد الله رمضان عبد الله، البيئة والتنمية المستدامة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٣.

وأما مبدأ حرية المستهلك فيتمثل في أنه حر في أن يختار بين السلع التي يجدها معروضة أمامه وفي متناول يده في الأسواق، وذلك دون أن يتدخل أو يكون له دور في تحديد ما ينتج من تلك العناصر البيئية، وهو ما يلحق بدوره أيضاً اختلالاً في التوازن البيئي الذي يلحق أضراراً بيئية واقتصادية طويلة المدى تنعكس سلباً على المجتمع (١).

وبالنظر إلى ما تشكله محاور نظرة الدين الإسلامي لهذا المفهوم، فإننا نجد أن هذه النظرة تتسم بالشمولية بحيث يدخل في حسابه كل ما له صلة به، فالنظام الإسلامي يؤثر المصلحة العامة على الخاصة، وليس العكس كما في النظام الرأسمالي الوضعي، لا سيما وأنه نظام من وضع الخالق العليم الذي يأخذ في حسبانه أيضا المستقبل غير المنظور بالنسبة للإنسان.

ومن هنا فإن الإسلام ينظر إلى موضوع الندرة من زاوية أخرى مختلفة تغاير تماماً نظرة أصحاب المذاهب الوضعية، فهو لا يرى مشكلة تعدد حاجات الإنسان وندرة الموارد؛ وذلك لأن الله الخالق جلت قدرته قد جعل لكل شيء ميزان، وإنما المشكلة الحقيقية في سوء توزيع الدخول والثروات التي أنعم الله تعالى بها على عباده بالقسطاس وبحساب موزون بحيث لا يطغى جانب على آخر، ولا يكون هناك ندرة في الرزق ولا ندرة في المستفيدين من هذه الأرزاق، فقد خلق الله الكون ووضع الميزان.

---

(١) الكندري – عبد الله رمضان عبد الله، البيئة والتنمية المستدامة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

وبذا تتضح بأن المشكلة في الإنسان ذاته وفي سوء التنظيمات التي فرضها على نفسه، وذلك بسوء توزيعه للثروات إلى جانب كفرانه بالنعم والهبات التي لا حصر لها من حيث إهماله لاستثمار الموارد الطبيعية المتاحة، وموقفه السلبي من هذه الموارد أحياناً، أو تجاوزه عن استغلالها في أماكن معينة، أو انصرافه إلى استغلال جميع المصادر استغلالاً متكاملاً ومتناسقاً ويبدو ذلك جلياً في قوله تعالى: ﴿وَآَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾(١).

وحقيقة الأمر فإن الإسلام يرفض الأخذ أو حتى مجرد القول بندرة الموارد الاقتصادية، فمن المسلمات في نظره تمام الخلق وكماله وضمان التوازن فيه، وهو يرى أن المشكلة الحقيقية تكمن في السلوك المنحرف للإنسان الذي يؤدي إلى الأضرار الكثيرة فيضل سواء السبيل.

وبذلك فإن الإسلام لا يقر بمسألة الندرة في الموارد البيئية الطبيعية لما في ذلك من اختلال في البعد العقدي في علاقة الإنسان بالله، والتي يتقرر من خلالها الكمال والجلال لله الخالق، وهو بذلك يتناقض جملة وموضوعاً مع ما تقره المذاهب الوضعية التي تقوم على فكرة الاختلال، ومؤداها أن الحياة بطبيعتها تقوم على سلسلة من التناقضات والصراعات، وبذلك تكمن المشكلة الحقيقية في سوء توزيع الدخول والثروات التي أنعم الله تعالى بها على عباده بالقسطاس وبحساب موزون بحيث لا يطغى جانب على آخر.

---

(١) إبراهيم، ٣٤.

إن الله تعالى بقدرته وبميزانه الذي سخر من خلاله البيئة لخدمة الإنسان قد جعل العناصر البيئية تتجدد مع مضي الزمان، وتجددها يجعلها قادرة على الحفاظ على توازنها لخدمة الإنسان، وأنه متى اختل هذا التوازن تعود بعد حين عند زوال الأثر المؤدي إلى ذلك لتؤدي دورها المنوط بها والمسخرة من أجله مرة أخرى. أما المذاهب الوضعية التي تقرر الإنسان جزءاً منفصلاً عن البيئة لا وحدة من وحداتها، فقد قررت مسألة الندرة باعتبار أن معدلات نمو الحاجات للإنسان يزيد كثيراً عن معدل تزايدها مما يؤدي إلى الندرة، إلا أن هذا الزعم غير مقبول لأن التوازن البيئي يقضي بغير ذلك، هذا بالإضافة إلى أن مبدأ التوازن يتنافى مع الوفرة، وبالتالي فإنه لا يعود هناك مجال للاعتقاد باستمرار وجود الوفرة، فكما أن الندرة ليست دائمة وهي شيء عارض، فإن الوفرة كذلك ليست دائمة، وبذلك فإن الإسلام لا يأخذ بأي من الفكرتين [١].

وإذا كانت مسألتا الندرة والوفرة لا يأخذ بهما الإسلام؛ وذلك نظراً إلى أن الأولى تتعارض مع الكمال والجلال الذي سخر الله تعالى عليه البيئة، وأن الثانية نظراً إلى أنها ليست دائمة، فإن هناك مسألة معاصرة تتصل بذلك وهي مثارة وفقا لخلفيتها التاريخية بعد الحرب العالمية الثانية، حيث استشعرت دول العالم إلى تحقيق ما اصطلح عليه بالأمن الغذائي، ولعل ما جر الإنسان إلى مثل ذلك بالإضافة إلى التمدن الذي وصل إليه ما جنته يده في حق البيئة من جرائم أدت إلى هذا الاختلال

(١) الكندري – عبد الله رمضان عبد الله، البيئة والتنمية المستدامة، مرجع سبق ذكره، ص ٧٦.

في التوازن البيئي لتفاعل مختلف العناصر والمكونات البيئية، لا سيما وأن جور الإنسان قد جر إلى حالتين متناقضتين رغم كفاية العناصر البيئية لحياة جميع من يعيش على الأرض بل ويزيد، حيث تجد من يموت من السمنة في الشمال، بينما تجد من يموت من الجوع في الجنوب، فالخلل ليس في الواقع، بل فيمن يدير الواقع دون مراعاة للكرامة الإنسانية التي فضل الله تعالى بها الإنسان المجرد على الحيوان، لا سيما وأنت تجد أن الإنفاق على غذاء الحيوان يفوق ذلك الغذاء الذي ينفق على الإنسان الذي تفتك المجاعات بحياته عاماً بعد عام، وهذا ما جعل دول العالم تنادي بضرورة تحقيق الأمن الغذائي للمجتمع الإنساني.

ثانياً - تحقيق الأمن الغذائي :

على الرغم مما وصلت إليه مدنية الإنسان منذ القرن الحادي والعشرين حتى بداية الألفية الجديدة من تقدم ورقي وحضارة في مختلف المجالات، زراعية كانت أو صناعية أو تجارية، إلا أنه ما زالت هناك فئات من بني الإنسان تعاني من فقدان الأمن الغذائي وتوفير الغذاء الذي يحمي الإنسان من الموت جوعاً، وذلك في ظل فئات أخرى من المجتمعات البشرية، والتي تسعى في كل موسم إلى إتلاف المحاصيل من مختلف المنتجات؛ وذلك من أجل المحافظة على ثبات سعرها في السوق؛ لذلك كان على المجتمعات الإنسانية حسابات ينبغي أن تضعها في حسبانها من أجل تعزيز وإشاعة الأمن الغذائي كحق من أبسط الحقوق التي ينبغي أن تتحقق في المجتمعات الإنسانية دون استثناء، أما التذرّع بقلة خيرات الأرض فهي حجة واهية لا ترقى حتى للرد عليها، حيث هيّأ

الله سبحانه وتعالى الأرض ليعيش عليها كل مخلوق من مخلوقاته، فكل شيء عنده بمقدار،حيث جعل الله تعالى في البيئة من كل شيء موزون، ولكن تدمير الإنسان للبيئة التي سخّرها الله تعالى له على حساب تحقيق مصالح مادية ووقتية زائلة، هو الذي جعله في واقع تختل فيه قاعدة التوفير لأبسط احتياجاته ورغباته.

• **الخلفية التاريخية:** مع انتهاء الحرب العالمية الثانية، ومنذ الخمسينات من القرن الماضي حتى أوائل السبعينات، كان العالم أجمع ينظر إلى مسألة توافر مخزونات ضخمة من الحبوب في أمريكا الشمالية كما لو كان ظاهرة سرمدية – فكرة الوفرة التي لم يأخذ بها الإسلام –، غير أن إنتاج الحبوب هبط في عام ١٩٧٢ في العديد من المناطق المنتجة الرئيسية في آن واحد، وارتفعت المتطلبات من الواردات – خاصة في الاتحاد السوفيتي –، واختفت الفوائض تقريباً بين يوم وليلة، ونشأ عن ذلك حالة من الذعر والتكالب على الشراء، وتضاعفت أسعار الحبوب إلى ثلاثة أمثالها، في حين زادت أسعار الأسمدة أكثر من أربع مرات، وبات أفقر البلدان المستوردة مهدداً بشبح الحرمان من الحصول على إمدادات كافية الأغذية والأسمدة، ووجد العالم نفسه أمام أزمة غذائية طاحنة.

ومن بين الخطوات التي بادرت منظمة الأغذية والزراعة – إحدى المنظمات التابعة للأمم المتحدة - إلى اتخاذها إزاء هذه الأوضاع، العمل على استحداث ترتيبات للأمن الغذائي العالمي، وإنشاء المشروع الدولي لتوريد الأسمدة، والاضطلاع بمعظم الأعمال التحضيرية الفنية

لمؤتمر الأغذية العالمي، والذي انعقد تحت رعاية الأمم المتحدة في روما من العام ١٩٧٤.

وفي عام ١٩٧٤ هبط إنتاج الحبوب العالمي للمرة الثانية خلال ثلاث سنوات، وفي ذات الوقت كان ينظر إلى الأزمة الغذائية العالمية بوصفها نذيراً بفترة طويلة من العجز الغذائي العصيب، إلا أن هذا لم يحدث لعدة أسباب، منها أن البرامج الإنمائية طويلة المدى والتي بدأت في عدد من البلدان الأسيوية أثناء الستينات قد نجحت، وكانت هناك توجهات نحو إعطاء أولوية متقدمة لإنتاج الأغذية محلياً، واتخذت ترتيبات مؤسسية لإنذار العالم بصورة واقعية باقتراب أية كارثة، هذا بالإضافة إلى توفير أفضل السبل لمعالجتها عند وقوعها، ويمكن إيجاز كل ذلك تحت عنوان: (الأمن الغذائي العالمي).

• **دلالة المفهوم:** يهدف الأمن الغذائي في هدفه النهائي إلى ضمان أن تتوافر لجميع الناس في كل الأوقات الكميات المادية والقدرة الاقتصادية للحصول على ما يحتاجون إليه من أغذية أساسية، أما أهدافه الأكثر تحديداً فهي ترتبط بالإنتاج مع تركيز خاص على بلدان العجز الغذائي ذات الدخل المنخفض، وباستقرار تدفّق الإمدادات، وضمان حصول الدول والمجموعات الاجتماعية المحتاجة على الإمدادات المتاحة [١].

وتعرف منظمة الصحة العالمية (أمان الغذاء) بأنه: (جميع

---

(١) كتيب مطبوع بمناسبة الأربعون عاما الأولى، ١٩٤٥ – ١٩٨٥، منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، ١٩٨٥، روما – إيطاليا، ص ٢١.

الظروف والمعايير الضرورية خلال عمليات إنتاج وتصنيع وتخزين وتوزيع وإعداد الغذاء، والتي تعد لازمة لضمان أن يكون الغذاء آمناً وموثوقاً به وصحياً وملائماً للاستهلاك الآدمي). وبذلك فإن قضية أمان الغذاء أو الأمن الغذائي لا تتوقف عند مرحلة الإنتاج الزراعي، ولا تقتصر عليها، ولكنها تمتد – وربما الجوانب الأكثر خطورة وأهمية فيها – إلى المراحل اللاحقة وحتى لحظة الاستهلاك [١].

• **أهمية الأمن الغذائي**: تبرز أهمية الأمن الغذائي – لا سيما في ظل التزايد الهائل لأعداد السكان في العالم – باعتبارها قضية محورية لا يمكن تركها للظروف المتغيرة، والتي لا يبدو أنها آمنة، فالغذاء ضرورة حيوية للإنسان بالنسبة لأي شعب، وذلك متى توافرت له حاجته من الغذاء بمقادير مناسبة ومستقرة وبطريقة سهلة، حيث تصبح الحياة بفضل ذلك سهلة وميسورة وتستقر فيها الأمور، ولكن متى أصبح غير ذلك، وانشغل الناس بقوت يومهم، ساد القلق واهتز الاستقرار، وبرزت المشاكل الاقتصادية والاجتماعية والسياسية بصورة أكثر حدة. ومن جهة أخرى فإن تحقيق الأمن الغذائي يستلزم بالضرورة تنمية الزراعة والارتقاء بالقطاع الزراعي [٢].

---

(١) محمد السيد عبد السلام، الأمن الغذائي للوطن العربي، شوال ١٤١٨ – فبراير ١٩٩٨، سلسلة عالم المعرفة الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الرسالة، العاصمة – الكويت، ص ٩٨.

(٢) محمد السيد عبد السلام، الأمن الغذائي للوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

وبذلك فإن أهمية الأمن الغذائي تتمثل باعتبارها حقاً من أبسط حقوق الإنسان التي لا ينبغي اتخاذ أي إجراء من شأنه تهديدها أو إضعاف ضمان تحققها على أرض الواقع. ونظراً لكونها حاجة فسيولوجية، فإن الإنسان لا يبحث عن غيرها من حقوق ما دامت غير متحققة له؛ إذ لا يمكن أن نسمع عمن يطالب بحرية الرأي أو بأي حق من حقوق الإنسان الأخرى، وذلك في ظل انعدام أو ضعف الأمن الغذائي في واقعه.

ومما يتعين على دول العالم العربي والإسلامي ضرورة السعي في ظل التحديات العالمية ليس إلى الأمن الغذائي فحسب، بل إلى العمل على خلق الاكتفاء الذاتي، وهو قدرة المجتمع على تحقيق الاعتماد الكامل على النفس والموارد والإمكانيات الذاتية في إنتاج كل الاحتياجات الغذائية محلياً، ومن ثم فهو يعني الأمن الغذائي الذاتي دونما حاجة للآخرين، وبذلك فإن الدولة أو مجموعة الدول المكتفية ذاتيا تكتفي ذاتياً في تأمين الاحتياجات الغذائية لسكانها بصورة كاملة، فلا تكون عرضة لأي قدر من المخاطر التي قد تفرضها ظروف خارجية، وكذلك باعتباره الركيزة الأساسية للتنمية الاقتصادية، فلا تحتاج إلى إنفاق أموال في الخارج هي بحاجة إليها في الداخل [١].

• **تعزيز الحق في التنمية كسبيل لتحقيق الأمن الغذائي:** في عام ١٩٦٦، وبالتحديد في الكلمة التي ألقاها وزير خارجية السنغال أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة، برزت المطالبة في تفعيل حق الشعوب في

(١) محمد السيد عبد السلام، الأمن الغذائي للوطن العربي، مرجع سبق ذكره، ص ٨٦.

التنمية، حيث أكد الوزير على ضرورة اتخاذ خطوات لتعزيز هذا الحق على أرض الواقع، وأن ذلك يستدعي بناء نظام اقتصادي جديد.

وقد جاءت دلالات هذا الحق باعتبار ارتباطها بالأمن الغذائي معبرة عن أن الحقوق الأساسية والحريات ترتبط بالضرورة بالحق في الوجود والحق في مستوى أعلى وبدرجة متزايدة للمعيشة ومن ثم التنمية، والحق في التنمية حق إنساني؛ وذلك لأن الإنسان لا يمكن أن يكون له وجود بدون تنمية، لا سيما وأن هذا الحق تبرز أهميته بالنسبة للفقراء في العالم ممن يعيش ضمن تصنيف الشعوب النامية (١).

إن الحق في التنمية باعتبار ارتباطه في جانب منه بالأمن الغذائي حق يرتبط بالفرد، كما أنه يرتبط في ذات الوقت بالجماعة، فهو حق فردي وجماعي، وهذا هو ما تبنته الجمعية العامة في الأمم المتحدة مما أخذت به انعكاسا لما قررته لجنة حقوق الإنسان.

ويرى الأستاذ (wilnterg) بأن الحق في التنمية حق ملائم وقابل للتطبيق لجميع البشر مهما كان أصلهم وهويتهم؛ وذلك لأننا لا يمكن أن نفرّق عندما نتحدث عن حقوق الإنسان ما إذا كانت الدولة المتقدمة أو النامية مشمولة بالمشكلة؛ وذلك لأن حقوق الإنسان يجب أن تكون نفسها في كل مكان (٢).

---

(١) الصافي – صفاء الدين محمد عبد الحكيم، حق الإنسان في التنمية الاقتصادية وحمايته دوليا، ط: ١، ٢٠٠٥، من منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت – لبنان، ص ١٨١.

(٢) الصافي – صفاء الدين محمد عبد الحكيم، حق الإنسان في التنمية الاقتصادية وحمايته دوليا، مرجع سبق ذكره، ص ٢٢٧.

وبذلك فإن تحقيق الأمن الغذائي كحاجة فسيولوجية للإنسان في ظل التحديات التي تواجهها البيئة، وفي ظل التزايد الهائل في أعداد السكان مع استقرار الأوضاع أصبح ضرورة ملحّة من شأن عدم الالتفات لها أو الإضعاف من الاهتمام بها أن يجر الإنسانية إلى تفاقم في انعدام الأمن والاستقرار.

يقول راشد الغنوشي في بحثه الذي قدمه للدورة الثامنة عشرة للمجلس – دبلن معلقا على أبعاد أزمة الأمن الغذائي في ظل المجاعات التي تعاني منها عدد من دول العالم، وقيام بعض الدول بإتلاف الأغذية من أجل المحافظة على سعرها في السوق: (إن ما يجتاح العالم من استعار للأسعار – وبخاصة المواد الغذائية – بما عرض ويعرض عشرات الملايين للمجاعات وللأوبئة، بينما يبلغ الترف والجشع وخرائب ضمائر الأغنياء إلى حد التخلص من كميات مهولة من الأغذية بإلقائها في البحار محافظة على ارتفاع الأسعار، إلى جانب ما يلقى من أغذية للكلاب وللقطط بما يكفي حاجة مئات من ملايين البشر إضافية، لهو التعبير عن إفلاس الفلسفة المادية التي يقوم عليها النظام العالمي السائد، كما يعد تعبيراً عن مدى الخلل في النظام الاقتصادي والأخلاقي السائد، بما يفرض إعادة النظر في هذا النظام فلسفة وأخلاقاً واقتصاداً) [1].

---

(١) الغنوشي – راشد، حقوق الإنسان في الإسلام، وأثرها على سلوك المسلم الاقتصادي، بحث مقدم للدورة الثامنة عشرة للمجلس – دبلن، جمادى الثانية / رجب ١٤٢٩ / يوليو ٢٠٠٨، ومنشور على الموقع الإلكتروني: www.e-cfr.org، وتاريخ دخول الموقع هو: ٢ فبراير ٢٠٠٩.

ثالثاً - تعقيب :

وفي رأيي فإنه وفقاً للرؤية العامة للأمن الغذائي كمصلحة عالمية في ظل عدم تحقق الوفرة التي تغني عن تحقيق هذا الأمن مبدأ لا يتعارض مع ما تقرره مبادئ الدين التي تدور مع المصلحة أينما كانت وأينما حلت، ثم إن الأمن الغذائي لا يرجع إلى الندرة التي تتعارض مع مبادئ الأديان كما سبق البيان، بل يرجع اختلال الأمن الغذائي في ظل المجتمعات المتمدنة في جانب كبير منه ليس إلى ما أجرى عليه الله سبحانه وتعالى الكون من متغيرات كان من شأنها أن تلحق الأذى والضرر بحياة الإنسان، بل يرجع جانب كبير منها إلى ما جنته يد الإنسان وما اقترفته من جرائم أدت إلى الاختلال البيئي، وإلا فإن التخزين ووضع الأنظمة التي تلبي احتياجات الناس على المدى البعيد يعتبر من قبيل الأخذ بالاحتياطات وتحقيق المصلحة التي تحفظ حياة الإنسان مما لا يتعارض كلية مع مبادئ الدين، وحتى وفق مفهوم التوكل فإن الأمر متأت للأخذ بالأسباب مراعاة للمتغيرات والمستجدات، وقد تحدث القرآن عن ذلك في قصة سيدنا يوسف (عليه السلام) عندما فسّر رؤية البقرات السبع السمان في قوله تعالى: ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ۞ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾[١].

(١) يوسف ٤٦ – ٤٩.

حيث فسر لهم يوسف (عليه السلام) الرؤيا بأنهم سيزرعون سبع سنين دأبا أي متتابعات، فما حصدوا من قمح أمرهم أن يذروه في سنبله لأنه أبقى وأبعد عن الإتلاف إليه، وذلك باستثناء ما يدبرونه لأكلهم في هذه السنين الخصبة، وأمرهم أن يكون قليلاً ليكثر ما يدخرون ويعظم نفعه ووقعه.

ثم يأتي بعد السنين السبع المخصبات سبع سنين شداد مجدبات يأكلن جميع ما ادخروه ولو كان كثيراً إلا قليلاً مما تمنعونه من التقديم لهنّ. وبعد ذلك يأتي عامٌ فيه يغاث الناس، حيث تكثر السيول والأمطار، وتكثر الغلات، وتزيد عليهم أقواتهم، حتى أنهم يعصرون العنب ونحوه زيادة على أكلهم. ولعل استدلاله على وجود هذا العام الخصب، مع أنه غير مصرح به في رؤيا الملك لأنه فهم من التعبير بالسبع الشداد أن العام الذي يليها تزول شدته، ومن المعلوم أنه لا يزول الجدب المستمر سبع سنين متواليات إلا بعام مخصب جداً، وإلا لما كان للتقدير فائدة [1].

ويقرر نصٌ آخر أن الأمم في زمن يوسف (عليه السلام) التي كان لها اعتناء بالزراعة في غالب الأحيان باعتبار الإمكانات التي وصلوا إليها يعتمدون على تخزين جبايات الأرض وغلالها، حيث طلب يوسف (عليه السلام) من الملك حتى يتحقق على يده النفع العام أن يجعله وكيلاً وحافظاً ومدبراً على خزائن الأرض، ويقرر

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٢، مرجع سبق ذكره، ص ٣٤٥.

ذلك قول الله تعالى: ﴿ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾[1].

وبناء على ذلك فإن الإسلام إذا كانت مبادئه تتعارض مع الندرة باعتبار ما فيها من انتقاص لكمال خلق الله تعالى، فإنه لا يقر بمبدأ الوفرة الذي يتعارض هو الآخر مع التوازن البيئي؛ ذلك أن الله جل في علاه لم يخلق هذه البيئة لا بتفريط (الندرة)، ولا بإفراط (الوفرة)، بل كان كل شيء عنده بمقدار، فهو جل في علاه عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال.

إن الإسلام لم يزجر عن الإسراف ويتوعد المسرفين للحيلولة دون تحقق الندرة في الموارد مما يتعارض أساساً مع قواعد الدين وأصوله التي تقر بالكمال الخلقي لله، بل نهى عنه باعتباره استنزافاً من شأنه الحيلولة دون تحقيق الأمن الغذائي، والذي أصبحت ضرورته تتزايد، لا سيما في ظل الأزمات والكوارث التي تتوالى على البيئة نتيجة اختلال التوازن في التفاعل بين عناصرها ومكوناتها نتيجة ما يمارسه الإنسان في حقها من انتهاكات.

ولما كانت المستجدات في ظل ارتفاع عدد سكان العالم بازدياد تستلزم من خلالها المصلحة تحقيق ما يتصل بالأمن الغذائي بتحديث أساليب التخزين، واتخاذ الوسائل التي تحفظ توفير الغذاء للبشرية

---

(١) يوسف ٥٥.

دون استثناء، فإن ذلك لا يتعارض مع مبادئ الدين، بل هو مما يقره الدين باعتباره مجلبة للمصلحة وحفظ للنفس، لا سيما في ظل ما يعانيه التوازن البيئي من اختلال بسبب عوامل كثيرة نجم عنها العديد من الكوارث والأعاصير التي أصبحت تشكل تهديداً لمصدر الأمن الغذائي للإنسان المتمثل بالزراعة، مما استلزم عليه ضرورة التخلي عن السياسات المستهترة التي تجره إلى تدمير مصدر حياته من خيرات الأرض، وهذا ما استلزم ضرورة أن يعيد المجتمع الإنساني حساباته حتى لا يكون أمنه الغذائي مهدداً بصورة أكبر، مما ينذر بمزيد من ضحايا المجاعات الذين تحصد المجاعة أرواحهم سنوياً بالملايين، وذلك في ظل اختلال وضعف في العدالة في توزيع الموارد.

إن الله سبحانه وتعالى عندما سخر البيئة لخدمة الإنسان فإنه لم يسخرها وهي تعاني من ندرة، فله الكمال والجلال، ولم يجعلها تتسم بالوفرة، بل جعل عناصرها الحيوية تتفاعل مع بعضها البعض، وتتأثر كماً وكيفاً ما بين فترة وأخرى، وذلك إما بفعل عملية التفاعل الاعتيادية بينها، وإما بفعل ما يحدثه الإنسان من تفاعلات منها ما يفيد البيئة ويزيد من حيويتها، وأكثرها مما يزيدها دماراً وخطورة على حياة الإنسان الذي يشكل أهم عناصرها ومكوناتها.

ليس التقصير في العلاقة مع البيئة يتمثل في ضعف الالتزام بضابطا الانتفاع اللذين قررنا التفصيل في محاورهما، والمتمثلان بالمحافظة على نظافة البيئة ووقايتها من التلوث، والعمل على الحد من

الإسراف الذي يعني وفق المنظور الإسلامي وضع الشيء والانتفاع به بما يتعارض مع ما قررته قواعد الشريعة الغراء. بل هناك تقصير في واجب الحماية لهذه البيئة ولعناصرها ومكوناتها، لا سيما وأن للإسلام فلسفة في تحقيق ذلك، وللقرآن دلالات تحدث فيها عن التوزان البيئي الذي كلّف الإنسان بالمحافظة عليه، هذا فضلاً عما حواه المنهج النبوي من دلالات وتوجيهات لرعاية البيئة، والتي قرر الفقهاء من خلالها في تطبيقاتهم جوانب عملية راقية لرعاية البيئة والمحافظة عليها.

وإذا كان قانون الكون يقوم على العلاقة ربطاً بين السبب والمسبب، فإنه لا بد من التأكيد على أن هذا الربط يجري إما على وفق ما يتناسب وناموس الكون الذي خلق الله تعالى عليه تفاعل العناصر البيئية بعلمه وإرادته، وإما أن يجريه على غير ذلك وفقاً لإرادته ومشيئته، فالبيئة قد يجري الله تعالى تفاعلها وتأثيرها إما بما يوافق العادة وإما بما يخالفها، وهو ما قررنا محاوره وحالاته فيما سبق؛ ولذلك فإن الرزق كماً وكيفاً لم يربطه الله تعالى على سبيل الإطلاق ربطاً بين الأسباب والمسببات، بل جعله مقروناً باعتباره مقرراً في علمه غيبه ومرتبطاً في جانب منه بمشيئته بالبعد العقدي المتمثل بأن تقوى الله تعالى سبيل لتحصيل رزق الله من حيث لا يحتسب الإنسان، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾[1].

بل إن الله سبحانه وتعالى يربط في نصين آخرين بين الاستغفار

---

(١) الطلاق ١ – ٢.

وسعة الرزق ربطا إيمانيا عندما تحدث عن توجيهات سيدنا نوح (عليه السلام) في دعوته لقومه، حيث يقول الله تعالى في ذلك: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا * يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا * وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا * مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا * وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا * أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا * وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا * وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا * وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا * لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ (١). وتتكرر ذات الدعوة على لسان نبي الله تعالى هود (عليه السلام) بالدعوة إلى استغفار الله كسبيل لسعة الرزق، حيث يتحقق الربط الإيماني بين هذا وذاك، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ﴾ (٢).

ففي دعوة نوح (عليه السلام) إلى الاستغفار كان التعليل ربطاً بإغداق الخير على قومه ثمرة لذلك باعتبار أن ارتباط التقدير والتيسير في ذلك بيد الله جل في علاه، فقد دعاهم إلى ترك ما هم عليه من الذنوب نظراً لكون الله تعالى كثير المغفرة لمن تاب واستغفر، فرغّبهم بمغفرة الذنوب وما يترتب عليها من الثواب واندفاع العقاب.

ثم إنه بعد ذلك رغّبهم بما ستكون عليه ثمرة استغفارهم من

(١) نوح ١٠ – ٢٠.

(٢) هود ٥٢.

خير عاجل في الدنيا، فأخبرهم بأنهم إن استغفروه فإنه جل في علاه القادر سيرسل عليهم السماء مدراراً بالمطر المتتابع الذي يروي الشعاب والوهاد، ويحي البلاد والعباد.

بل إنه جل في علاه سيجعل لهم الجنات ويجعل لهم الأنهار، وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها، كما نبههم إلى قدرات اللّه سبحانه وتعالى في مخلوقاته، فهو الذي جعل القمر نوراً لأهل الأرض، وجعل الشمس سراجاً لهم، وفي كلٍ نفع، وفي ذلك تنبيه على عظم خلق اللّه تعالى لهذه الأشياء، وعلى كثرة المنافع في الشمس والقمر الدالة على رحمة اللّه تعالى وسعة إحسانه، فالعظيم الرحيم يستحق أن يعظّم ويجب ويخاف ويرجى.

كما ذكرهم كذلك بما حباهم من خيرات في هذه البيئة ربطاً بين استمرار هذه الخيرات وإقبالهم على اللّه بالاستغفار، حيث جعل لهم الأرض مبسوطة ومهيأة للانتفاع بها، ولولا أنه بسطها لما أمكن ذلك، ولا أمكنهم حرثها وغرسها وزرعها، ولا البناء والسكن على ظهرها، ولكنهم مكروا مكراً كبّاراً، فدعا عليهم نبي اللّه نوح (عليه السلام) مجازاة على كفرهم وضلالهم [١].

ثم إن اللّه تعالى قد ربط من جانب آخر بركة وزيادة الرزق من

---

(١) السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، ج٥، مرجع سبق ذكره، ص ٣١٣.

خيرات الدنيا ربطاً إيمانياً من جانب آخر بالتوكل على الله تعالى ربطاً إيمانياً متكاملاً يتقرر من خلال أن الأمور سواء ارتبطت بمسبباتها أم لم ترتبط فهي بمشيئة الله تعالى، ويقرر ذلك الحديث الذي يرويه عمر (رضي الله عنه) قال: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً »[١].

ومن جانب آخر ووفقا لاعتبارات ربط الأسباب بالمسببات بقدرة الله تعالى، فإن ذلك وإن جعل الله تعالى تقواه والتوكل عليه سبباً في سعة الرزق وتحقيق الأمن الغذائي للإنسان، إلا أنه تعالى لم يقرر هذا الربط على الدوام، بل جعل لتحقيق ذلك جانباً كبيراً من مشيئته وتقدير حكمته، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ﴾[٢].

ففي هذه الآية الكريمة يخبر الله تعالى عن كمال اقتداره وسعة جوده أنه يرسل الرياح التي تحرك السحاب فيسوق الله تعالى هذه السحاب إلى بلد ميت فينزل عليها المطر بقدرته فحييت البلاد والعباد،

---

(١) رواه الترمذي وقال حديث حسن (٢٣٤٥)، وأخرجه أحمد (١ / ٣٠) وابن ماجه (٤١٦٤)، وصححه الحاكم (٤ / ٣١٨) وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٥٥.

(٢) فاطر ٩.

وارتزقت الحيوانات ورتعت من تلك الخيرات، وفي ذلك دلالة يتفكر بها الإنسان على البعث والنشور والقيام بين يدي الله تعالى للجزاء على الأعمال.

بل إن الله سبحانه وتعالى نظراً لارتباط ناموس الكون بإرادته سواء أجرى بارتباط بين السبب والمسبب أو لم يجر، فإنه جل في علاه جعل ذلك مرتبطاً في غالبه في التعلق به جل في علاه؛ لذلك فإن مما شرع تحقيقاً لذلك صلاة الاستسقاء، وهي كما ذكر صاحب (الملخص الفقهي) عبارة عن طلب السقي من الله تعالى؛ حيث أن النفوس مجبولة على الطلب ممن يغيثها وهو الله وحده، كما ذكر بأن ذلك كان معروفاً في الأمم الماضية، وهو من سنن الأنبياء، وأن قد استسقى النبي (صلى الله عليه وسلم) لأمته مرات متعددة وعلى كيفيات متنوعة، وأجمع المسلمون على مشروعيته.

كما ذكر بأن مشروعية الاستسقاء إنما تكون إذا أجدبت الأرض، وانحبس المطر، وأضر ذلك بمصالح الناس ومنافعهم، فعندئذ لا مناص لهم أن يتضرّعوا إلى ربهم ويستسقوه ويستغيثوه بأنواع من التضرع: تارة بالصلاة جماعة أو فرادى، وتارة بالدعاء في خطبة الجمعة، وتارة بالدعاء عقب الصلوات وفي الخلوات بلا صلاة ولا خطبة، وكل ذلك وارد عن النبي (صلى الله عليه وسلم) [(١)].

---

(١) آل فوزان – صالح بن فوزان بن عبد الله، الملخص الفقهي، ج: ١، ط: ١، ربيع الأول ١٤١٥ – ١٩٩٤، دار ابن الجوزي، الرياض – السعودية، ص ١٩٨.

وبذلك فإن تحقيق الأمن الغذائي للإنسان يرتبط بإرادة الله تعلق السبب بالمسبب، أو اتصل ذلك بالتضرع والاستغاثة بالله جل في علاه، أو كان ذلك باعتبار ما سخر وفق ما يتقرر في حكمته وإرادته، فخلاصة القول في ذلك أن تحقيق الأمن الغذائي يرتبط بإرادة الله تعالى في الجملة والتفصيل، وإن تقرر له من الربط بين الأسباب والمسببات ما تقرر ضمن ناموس الكون المتصل بتفاعل العناصر وترابطها.

إن الله سبحانه وتعالى بما خلق في الأرض من خيرات، وبما حبا الإنسان من قدرات تتفاوت ما بين المجتمعات، قد جعل للإنسان يحقق أمنه الغذائي، ولكن عندما تجد الدول العظمى تحرق جزءاً من المحاصيل حتى تحافظ على سعره في السوق العالمية، وبالمقابل هناك من لا يجد شيئاً يقتات عليه، فاعلم أنه ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، والله جل في علاه منزه عن كل عيب ونقيصة في ذلك، فالفساد في الأرض قد ظهر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم الله تعالى بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون كما أخبر القرآن الكريم عن ذلك.

لما كان التنظير لا يمكن أن يثمر دون التفعيل، فقد جاءت الضرورة الملحة لاستعراض الجوانب التي تتعلق بفلسفة الإسلام في حماية البيئة كما قررته النصوص وورد حوله التطبيقات الفقهية، هذا فضلاً عن تناول ما يتصل بالتربية البيئية من منظور الإسلام، والتي تنطلق من اعتبار الرعاية للبيئة عبادة من العبادات، وتقوم بدورٍ ذي بعد أخلاقي في رعاية البيئة من خلال تهذيب السلوكيات والممارسات الفردية والجماعية في

المسائل التي لا تشكل خطورة محدقة، ولكن من شأن تهذيب السلوك فيها أن يحفظ البيئة من الكثير من الأخطار.

ولما كان تهذيب الجوانب الأخلاقية وتوظيفها لرعاية البيئة لا يحقق في جانب آخر رعاية البيئة وحمايتها، فإن الحماية التشريعية بتجريم الاعتداء على البيئة وانتهاك حرمتها ومعاقبة مرتكب الجناية بحقها بعقوبة رادعة تفوق حجم الضرر الذي أحدثته جنايته، أصبح ضرورة ملحة لا غنى عنه تفعيلها، لا سيما في ظل الانتهاكات التي أضحت في تزايد لحساب مصالح فردية على حساب مصلحة الجماعة محلياً وإقليمياً وعالمياً، وهو ما نتعرض له في الباب اللاحق بمشيئة الله تعالى وتوفيقه.

الباب الثالث

واجب الحماية للبيئة من منظور الإسلام

الباب الثالث

واجب الحماية للبيئة من منظور الإسلام

كما خلق الله تعالى البيئة بكامل عناصرها متوازنة في تفاعلاتها وفي دورتها الحيوية، وسخرها لخدمة الإنسان ولممارسة حقه في الانتفاع من خيراتها التي تعينه على حياته وقضاء حوائجه واستمتاعه، فإنه افترض عليه في المقابل واجب الحماية الذي يتعين عليه مقابلة للحق الممنوح له انتفاعاً.

إن الدلائل الشرعية توضح هذا التوازن في الأخذ والرد، والإفادة والاستفادة، والتفاعل والاندماج؛ لذلك كان واجب حماية البيئة واجباً شرعياً لا يقل مقاماً ومنزلة عن غيره من الواجبات، بل هو ضرورة يعتبر انتهاكها أمراً لا يغتفر نظراً لارتباطه بمصالح الإنسانية جمعاء في تعاقبها جيلاً بعد جيل.

ومن أجل ذلك فإنه ليس لأحد حق في انتفاع بالبيئة مالم يلتزم بضوابط هذا الانتفاع بأن يجعل انتفاعه استنزافاً لمقدرات الأرض بانتفاع ومن دون انتفاع، وبلهو دون ابتغاء غرض الإشباع، فاستحق بذلك الحرمان للكفران بسلوكه بنعمة الله تعالى، واستحق بذلك أن يذيقه الله لباس الجوع والخوف جزاء لما صنع.

لقد أخبر الله تعالى عن ظهور الفساد في الأرض بما كسبت أيدي الناس، ولا شك أن واجب الحماية يعد ابتلاء من الابتلاءات التي يختبر الله تعالى من خلالها قدرتها على تعميم المثالية والامتثال لأحكام الدين في حياته، والانطلاق في علاقته بالبيئة من خلال ما قررته قنوات فلسفته في حمايته، وهو يحتاج لأجل ذلك أن يتعرف على مضامين النصوص وما قررته من أبعاد من شأن معرفتها الارتقاء بصورة ومضمون علاقته مع المحيط الذي يحيط حوله، فهو المستخلف الراعي المسؤول في أن يبقي هذا الكيان الحيوي صالحاً لحياته وحياة الكائنات التي تشاركه حق الانتفاع به.

وإذا كان الإنسان وما حوله من كائنات حية يشتركون في حق الانتفاع بخيرات الله تعالى في أرضه، فإن الله تعالى وإن كان قد جعل ما فطر به الحيوان سبيلاً لحماية النطاق الحيوي للبيئة ممارسة، إلا أن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي بإرادته يعكس التأثير الأكبر على جودة تفاعل العناصر والمكونات البيئية، فبوعية يمكن أن يجعل تفاعلها متناسقاً مقارباً للهيئة التي خلقه الله تعالى عليها، وبتغييبه لوعيه يستطيع أن يكون عنصراً مدمراً لها ولنفسه كونه الجزء الأبرز فيه؛ لذلك تعين عليه أن يتعرف على القنوات الشرعية التي تبينها الأدلة الشرعية التي يمكن من خلالها بناء علاقته ببيئته، ولا بد أن يكون مدركاً تحقيقاً لذلك للحقائق والفلسفات والارتباطات التي من أجلها تقرر هذا المنظور لحماية ورعاية البيئة.

ففي منظور الإسلام فلسفة راقية لرعاية البيئة وحمايتها، كما أن نصوص القرآن تحوي أجمل استعراض لما يجب أن يكون عليه التوازن بين عناصر ومكونات البيئة في تناسق منسجم، وفي المنهج النبوي نصوص تربي المسلم على النظافة وتربطه فيما تقرره من سلوكيات بأبعاد إيمانية تجعل ممارسته لهذه السلوكيات عبادة من أرقى العبادة التي ارتقت إلى مرتبة شعب الإيمان وفق ما قررت النصوص، كما أن الإنسان يجد ضالته فيما يعينه على معرفة التعاطي مع المسائل والمستجدات من خلال التطبيقات والاجتهادات الفقهية التي تفقهه بمضمون المادة الخام المتمثلة بالكتاب والسنة، والذي تبنى عليه اجتهادات الفقهاء فيما يتعلق بمسائل رعاية البيئة وضوابط حق الانتفاع بعناصرها ومكوناتها وما يتصل بواجب الحماية والرعاية لها.

وإذا كان لا بد من استقراء المبادئ والتأصيلات والتطبيقات التي تقررت في منظومة الرؤية الإسلامية لرعاية البيئة، فإنه لا بد من معرفة وسيلتي تحقيق هذا الواجب، حيث تتمثل الوسيلة الأولى في التربية البيئية التي يتحقق من خلالها تربية الذات وتهذيبها على التعود على الارتقاء بالممارسات والسلوكيات التي ينبغي أن تنعكس على واقع علاقة الإنسان ببيئته، والحماية التشريعية التي تعكس تهذيباً لما عدا ذلك من جوانب لا يمكن تحقيق الحماية لها من خلال صناعة منظومة التربية البيئية، وهو ما يأخذ مساحة أكبر ارتباطاً بدرجة تمدن المجتمع، فكلما زاد تمدن المجتمع كلما احتاج إلى تنظيم العلاقات فيه إلى قوانين وتشريعات، وينكمش حيز ذلك كلما ضعف جانب التمدن في المجتمع بما تمثل عليه

ذلك من حياة تقليدية بسيطة، وكلا الأمرين يتعلقان ويتصلان تحقيقاً بالالتزام بما تقرر في نصوص الدين من معايير فيما يتصل بممارسة حق الانتفاع.

وبذلك فإن كلا العنصرين يتكاملان لتفعيل واجب الحماية للبيئة، ولا يمكن أن يكون وجود أحدهما على حساب وجود الآخر، وكلما زاد تمدن المجتمع كلما اتسع جانب الحماية التشريعية على جانب التربية البيئية والعكس بالعكس.

الفصل الأول

التأصيل الشرعي لواجب الحماية

الفصل الأول

التأصيل الشرعي لواجب الحماية

يعتبر واجب حماية البيئة في المنظور الإسلامي فريضة من الفرائض لا تقل شأناً عن غيرها من فرائض الدين، فكما أن الإسلام قد حرّم أن يضر المسلم بجسمه وأعضاءه، فإنه قد حرّم عليه كذلك ما يؤدي إلى الإضرار بما يحفظ لهذا الجسم حياته وغذاءه، حيث تعتمد حياة الإنسان بشكل مباشر على البيئة بمختلف مكوناتها وعناصرها، والتي تعتبر أمانة استودعها اللّه الإنسانية جميعها جيلاً بعد جيل.

لقد اشتملت الشريعة السمحاء على الكثير من التوجيهات التي تقوّم سلوكيات وأفعال الإنسان الذي عزم على الالتزام بها، وعلى هذا الملتزم أن يسعى جاهداً نحو فهم صحيح ينطلق من الواقع، ويبرز واضحاً وناصعاً من فهم متغيراته ومستجداته، ومن دون مراعاة ذلك يصعب التفعيل الصحيح لهذه التوجيهات السامية الرشيدة.

إن للإسلام فلسفة راقية في نظرته لهذه البيئة، فيها من المسائل ما يتحتّم تفعيلها ضمن هذا المضمار. كما أن التأصيل القرآني للتوازن البيئي قد قرر الكثير من القواعد التي من شأنها أن تكفل بيئة متوازنة يمكن للإنسان أن يتعايش معها كي يعيش فيها من غير إفراط ولا تفريط، ومن غير انحراف ولا تحريف، وإنما باعتدال ووسطية في التعامل مع مختلف المعطيات والمتغيرات.

ومما لا شك فيه أن التوجيهات النبوية في ذلك ما هي إلا معزّزة ومكمّلة لما أصّلته النصوص القرآنية، حيث تقوم بدور تربوي لبناء منهجية لحسن التعامل مع هذه البيئة، كما أنها تغرس فيه غرساً من شأنه أن يثمر منهجية يانعة راقية يتقن الإنسان من خلالها بناء علاقته بالبيئة كضرورة حياتية ملحّة.

وإذا كان للنصوص القرآنية وللتوجيهات النبوية الدور الأساس في ذلك، فإن التطبيقات الفقهية التي أصّلها الفقهاء من خلال نظرتهم واستقرائهم وتحليلهم لهذه النصوص ما هو جدير بالتناول والوقوف عليه؛ وذلك حتى تكتمل الرؤية في بناء هذه العلاقة على نحو أكثر إيجابية وعقلانية.

المبحث الأول

فلسفة الإسلام في حماية البيئة

إن من المبادئ العامة والهامّة التي تقوم عليها شريعة الإسلام الطهارة معنوية كانت أم حسية، ومن خلال مبدأ الدعوة إلى الطهارة وما يتفرّع عنها من قيم ومرتكزات ينعكس هذا المفهوم بصورة راقية يتضح من خلالها أن العلاقة بين الإنسان بالبيئة قد أصّلها الإسلام من خلال فلسفة راقية تستوعب وتتناول هذه العلاقة بصورة مميزة، وتجعل منها علاقة متوازنة ونافعة تنطلق تعزيزاً للقيم العظيمة التي ترسم للإنسانية خطاً متوازناً في بناء العلاقات.

لقد ارتكزت المبادئ الإسلامية السمحاء في دعمها لحماية البيئة ورعايتها على الكثير من القواعد والتوجيهات، فما من جانب لطهارة ورفق وصيانة للبيئة إلا واعتنت به وحضّت عليه، ودعمته نصا وتوجيها، وفقها وتربية، وذلك حتى أضحى هذا المبدأ وهذه القيمة فلسفة تقوم عليها دعائم الإسلام وقواعده الشرعية.

أولاً - حرمة البيئة في الإسلام :

تعتبر البيئة في الإسلام ذات حرمة من شأنها تقيها من العبث والتلوث والاستنزاف، وهذه الحرمة تستمد من النصوص الشرعية التي

نهت عن الإفساد في الأرض والإسراف في التعامل مع الموارد الطبيعية، كما أن أمن البيئة يستمد قوته وتأثيره من قواعد الإسلام الأساسية التي دعت إلى احترام البيئة والعناية بها، ومن ذلك قاعدة التحليل والتحريم التي تقتضي من المسلم الامتثال للأحكام الشرعية التي نهت عن الفساد في الأرض.

ولذلك دعا الإسلام إلى استصلاح البيئة والحفاظ عليها مظهراً خصائصها لتكون محل اهتمام الإنسان وعنايته، وليدرك ارتباطه بها وضرورة حمايته لها. كما حثت الشريعة الإسلامية على العناية بالزراعة والثروة الحيوانية، ودعت إلى احترام البيئة وصيانتها، ورهّبت من إهدارها أو إتلافها عبثاً. وفي المقابل شرع الإسلام الجزاء الدنيوي والأخروي الذي يحمي البيئة من الفساد ويصونها من التدوير والعبث.

يعد تحريم الإسلام للإفساد بكل مظاهره والإسراف بكل أنواعه قاعدة للأمن البيئي التي ينطلق منها في المحافظة على فطرة البيئة من مظاهر الفساد التي قد تتعاظم وتؤثر في حياة الناس من كسب الإنسان، وتراثنا الإسلامي يزخر بالكثير من الأحكام والتنظيمات التي تختص بتنظيم الشوارع والطرق تنظيماً يوفر لها الأمن، ويمنع عنها الضرر، ويحقق لها منفعة الارتفاق بها.

كما تناولت كتب الفقهاء والحسبة كثيراً من الأمور المتعلقة بآداب الطريق وأمنه، فلا يجوز فعل كل ما فيه أذى وإضرار على السالكين في الطرق. وقد كانت أسواق المسلمين تخضع لنوع من الرقابة حتى يتوافر

لها الأمن البيئي. وكان المحتسب مسؤول عن الأمن في الأسواق، والمسؤول عن نظافتها ومنع الغش والتسعير والاحتكارات فيها.

وهكذا يتكامل الأمن البيئي في مفهومه الشامل في تراثنا الإسلامي، بحيث لا يقتصر على الأمن من تلوث البيئة المادي كالنفايات والغازات والأدخنة والضجيج، بل يشمل الأمن الخلقي والأمن الفكري والأمن الثقافي [1].

ثانياً - نظرة الإسلام للمحافظة على البيئة:

تتسم نظرة الإسلام إلى البيئة وعناصرها بالعمق والواقعية والشمول، ويبين الإسلام أن المحافظة على البيئة بعد الإفساد فيها وبعدما أصلحها الله، من شأنه أن يعود بالنفع والخير على الإنسان نفسه في المقام الأول.

وقد طالب الإسلام المسلمين وعمّار الأرض وخلفاء الله فيها أن يستثمروا أعمارهم - باعتبارها بعدا زمنيا - في ازدهار بيئته وتنميتها ورعايتها وعدم الإسراف في مواردها. فكيف يذهب الناس في مواجهة هذه الآيات والحقائق إلى تحكيم غير الله في شأن الزروع والأنعام والأموال، وهي الموارد الطبيعية والبيولوجية التي خلقها الله من أجل الإنسان في البيئة؟، ثم يأتي بعد ذلك النهي عن الإسراف حتى في الحلال.

---

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص٤٧.

لقد خلق الله مكونات النظم البيئية خلقاً مقدراً كماً وكيفاً، بحيث يكفل توفير سبل الحياة الملائمة للإنسان وغيره من الكائنات الحية الأخرى التي تشاركه الحياة على الأرض.

وفي مساهمة لتجلية النظرة الإسلامية إلى البيئة وإصلاحها والمحافظة عليها فكراً وتطبيقًا، جاء كتاب «رعاية البيئة في شريعة الإسلام» ليوسف القرضاوي ليوضح الموقف الإسلامي الأصيل القديم من القضية البيئية، حيث احتوى الكتاب على حشد كبير من النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والآراء الفقهية في شأن رعاية البيئة، وقد كان الكتاب في حقيقته بحث تقدم به الكاتب إلى « المنتدى العالمي للبيئة من منظور إسلامي».

ومما تناوله معالجة في الكتاب ما قرره من أن الناظر إلى الإسلام عقيدة وشريعة يجد أن رعاية البيئة تتصل بعدد من العلوم الإسلامية، وفي مقدمتها علم أصول الدين والذي تقرر من خلال ما تأصّل فيه من قواعد أن البيئة مخلوقة مثل الإنسان، وأنها مكلفة بالسجود لله تعالي وتسبيحه ولكن بطريقة يعلمها الله تعالى، فالإنسان ليس إلها في الكون ولكنه مخلوق مثل بقية الأشياء المحيطة به، إلا أن الإنسان مميّز عليها بالعقل وبالإرادة.

ومن جانب آخر أكد بأن رعاية البيئة ترتبط أيضاً بعلم السلوك في الإسلام، وذلك باعتبار أن الدين في حقيقته هو السلوك والخلق؛ ولذلك أعلنت النصوص الإسلامية الصريحة أن امرأة دخلت النار في

قطة حبستها، وأن رجلاً دخل الجنة في كلب سقاه بعدما رأى ما فيه من شدة العطش.

بل إن الإسلام نظر إلى الأمور البيئية نظر ود وحب، فجعل القرآن الكريم الحيوانات والطيور أمما مثل أمة الإنسان، ونص القرآن الكريم أن الشجر والدواب والجبال والنجوم تسجد لله تعالى مثل الإنسان المؤمن، كما ذكر أنها تسبح ربها جل في علاه في كل لحظة وحين.

ويرى علماء الأخلاق الكون (البيئة) على أنه آية من آيات الله تستوجب من الإنسان التفكر فيها، وأنه نعمة تستوجب الشكر والمحافظة عليه والاستمتاع بعنصر الجمال فيه وتنمية هذا الجمال؛ وذلك لأن كل شيء في البيئة من الضروري أن يظهر فيه بديع صنع الخالق سبحانه.

أما علم الفقه وأصوله فقد ارتبطا بالشأن البيئي ارتباطا كبيرا في حالة السلم والحرب على حد سواء، ووضع الفقهاء عدداً من القواعد التي تنظم هذا الأمر، مثل: قاعدة « لا ضرر ولا ضرار »، وأن الشرع أتاح لولي الأمر فرض بعض العقوبات التعزيرية التي من الممكن اللجوء إليها في العصر الحالي لمن يسيئون إلى البيئة بالإفساد.

وأشار القرضاوي كذلك إلى أن المحافظة على البيئة داخلة في مقاصد الشريعة الخمسة، وهي: (حفظ الدين، وحفظ النفس، وحفظ النسل، وحفظ العقل، وحفظ المال)، فإفساد البيئة إضاعة لمقاصد الشريعة الإسلامية.

ولتوصيف رؤية الإسلام للبيئة يقول يوسف القرضاوي: (إن البيئة خلقت مهيأة لتحقيق مصلحة الإنسان وتوفير حاجاته، وإن الله تعالى خلقها بطريقة تفرض عليها أن تتكامل وتتعاون مع بعضها البعض، ومن ثم فالحفاظ على أن يؤدي كلٌّ من مكونات البيئة دوره المنوط به يعتبر أمراً شرعياً، وذلك حتى لا يحدث خلل في الكون) [(١)].

ثالثاً - مقاصد الشريعة الإسلامية في الحفاظ على البيئة:

إن أساس الشريعة الإسلامية هو درء المفاسد وجلب المصالح، ومقصود الشارع من تشريعه للأحكام هو تحقيق المصلحة لعباده، وكذلك جلب وتحصيل المنافع لهم ودفع وإبعاد الضرر عنهم. وكما أن الشريعة الإسلامية نهت عن الإفساد بكل صوره، فالإفساد لا يقتصر على ما يحدثه الإنسان في الجانب الأخلاقي أو الاجتماعي، بل يتناول الإفساد البيئي أيضا، فالله تعالى خلق الكون في غاية الإصلاح والإتقان، والبيئة هي الميراث المشترك لجميع الأفراد خلقها الله كذلك للبشر جميعاً، ولا يجوز لأي فرد أن يحدث فيها إفساداً أو يبدل صالحاً بفاسد، أو يجور فيأخذ أكثر من نصيبه.

ومن جانب آخر أرست الشريعة الإسلامية كذلك مجموعة من المبادئ التي تعتبر من أهم الإجراءات الوقائية للحفاظ على البيئة البشرية، ويتمثل ذلك في عناية الإسلام بطهارة الإنسان ونظافته من خلال الدعوة إلي تنظيف الجسد والثياب.

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١٩.

كذلك فإن الإسلام الحنيف ينهى عن تلويث البيئة وإفسادها، فقد نادى بتنظيف الأرض وتنقيتها من كل أنواع الأذى، ودعا إلى الاقتصاد ونبذ الإسراف والمحافظة على الأنواع الحيوانية والنباتية من الانقراض لما لها من دور في حفظ توازن الدورة البيئية الحيوية.

إن الشريعة الإسلامية يتكامل فيها الفهم الشامل لكل ما يحقق للإنسان السعادة على الأرض وللأجيال المتعاقبة، وذلك إذا ما سار على هدى الله في التعامل مع هذه البيئة التي أنعم الله بها عليه بما فيها من خيرات، وحافظ عليها حتى لا تتلوث مادياً بالنفايات والغازات والأدخنة التي تؤثر على طبقة الأوزون، وإذا لم يلتزم هدى الله في المحافظة عليها وأسرف في استغلال مواردها وأخل بتوازنها في جميع جوانبه، فإنه يكون قد جلب على نفسه الضرر والفساد، وعرّض الحياة الإنسانية إلى مالا تحمد عقباه.

وقد أرشد الإسلام الإنسان إلى المحافظة على البيئة التي يعيش فيها، وحذر من سوء استغلالها بالتلوث ونحوه، وذلك من خلال مقاصد الشريعة الإسلامية. كما أن الشريعة الإسلامية تنفرد عن القوانين الوضعية بخاصية العموم والشمول في كل زمان ومكان أو في جميع جوانب الحياة المختلفة، مما يجعلها قادرة على معالجة قضايا البيئة بكافة مشاكلها الصعبة وحمايتها والحفاظ عليها، فما من نازلة في الحياة البشرية إلا وللإسلام فيها حكم شرعي.

ومن جانب آخر يتحقق من خلال حفظ البيئة المحافظة على

النفس، والمتمثلة بالحياة البشرية، وعلى سلامة البشر وصحتهم، ولا شك أنه بات معلوماً اليوم أن فساد البيئة وتلوثها، واستنزاف مواردها، والإخلال بتوازنها أصبح يهدد حياة الإنسان اليوم، وكلما استمر تعدي الإنسان على البيئة ازداد الخطر على الإنسان وحياته يوماً بعد يوم.

وإذا كان الإسلام يصون حياة الحيوان الأعجم ويحرم قتله بغير حق، إما مباشرة أو بحبسه وتجويعه أو غير ذلك، فلا غرو أن يحرم ويجرّم بشدة الاعتداء على حياة الإنسان بتهديد حياته بالخطر بتلويث البيئة وانتهاك حرمتها مما يجعلها غير صالحة لمعيشة الإنسان فيها.

أما من جانب حفظ النسل كأحد المصالح الضرورية التي دعا الإسلام إلى حفظها مما يحقق مقاصد الدين، فإن ذلك جاء النص عليه نظراً إلى أن الجناية على البيئة تهدد الأجيال المستقبلة بما تحمله في طياتها من أسباب الهلاك والدمار، والتي قد ينجو منها – إلى حد ما – أجيال اليوم، ولكن الخطر يتفاقم ويتكاثر ويتركز بالنسبة للأجيال القادمة، فالجيل الحالي يستنزف الموارد المذخورة التي هي من حقهم، لنسرف في استهلاكها، ونحن نورّثهم آفات لا يملكون لها دفعاً مما تلوث به من حولهم، ونحن نخل بالتوازن البيئي الذي يضر إخلاله بهم.

أما دور المحافظة على البيئة في صيانة العقل فإن حفظ البيئة – بمعناه العام – فإنه يقتضي المحافظة على الإنسان بكيانه كله – الجسدي والعقلي والنفسي –، ولا معنى للمحافظة على الإنسان إذا لم يحافظ على عقله الذي ميزه الله تعالى به عن الحيوان.

فمن حفظ البيئة فإن عليه أن يحافظ على التفكير السوي في الإنسان الذي يوازن بين اليوم والغد، وبين المصالح والمفاسد، وبين المتعة والواجب، وبين القوم والحق، ولا يتعامل مع البيئة تعامل المخمور السكران أو المخدر التائه الذي ألغى عقله باختياره، فلم يعد يعرف ما ينفعه مما يضره.

أما حفظ المال كضرورة من الضرورات ومقصداً من المقاصد فإن حفظ البيئة يوجب أن نحافظ على المال بكل أجناسه وأنواعه، فنحافظ على موارده فلا نتلفها بالسفة، ولا نستنزفها بلا ضرورة أو حاجة معتبرة، ولا نحسن تنميتها ولا صيانتها، فنتعرض للهلاك والضياع، ولا نسرف في استخدامها فنضيعها قبل الأوان.

ولما كان من إحدى المشاكل البيئية الكبرى في عالمنا اليوم ما يتمثل في استنزاف الموارد، وهو ما يهدد البشرية في مستقبلها القريب، فقد كان من المقاصد الشرعية والمصالح الضرورية المحافظة على المال، بحيث نحافظ على موارده، وننمي إنتاجه، ونرشّد استهلاكه، ونحس توزيعه وإنفاقه.

وإذا كانت رعاية البيئة والحفاظ عليها وإصلاحها يحقق المقاصد الشرعية المرعية والضرورات الخمس، فإن إفساد البيئة وتلويثها واستنزاف مواردها والإخلال بتوازنها بالإفساد فيها يضيّع تحقيق وحفظ هذه المقاصد، ويجني على هذه الضروريات كلها، وهو ما نهى عنه الشرع وزجر [1].

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٤٧.

رابعاً - دعوة الإسلام للحفاظ على بالبيئة:

يعد تلويث البيئة مهلكاً كالقتل، بل أكثر منه خطراً؛ وذلك لأن القتل إزهاق أرواح محدودة، بينما التلوث يعرض الآلاف للقتل. وعلى الرغم من أن التلوث في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) وأهل بيته كان محدوداً، وأن الطبيعة كانت تنقي نفسها بنفسها، فلم يكن هناك نمو سكاني كيومنا هذا، ولا مصانع ومحطات كهرباء ووسائل نقل متطورة وأسلحة دمار شامل مثل عصرنا الحالي، فقد وصل اهتمام المسلمين القدامى بالبيئة إلى حد كان يُمنع أن ينصب المالك تنوراً في داره يؤذي جاره بالدخان.

كما دعا الإسلام إلى عدم استخدام السم حتى في بلاد العدو، وأسس أول محميات طبيعية على وجه الأرض في مكة والمدينة، وذلك للمحافظة على ثروتها النباتية والحيوانية من الانقراض، فمن أحرم بالحج أو العمرة عليه أن يحترم حيوانات البيئة ونباتها، فلا يحل له قتل الحيوانات أو قطع الشجر.

خامساً - الأسس الإسلامية لرعاية البيئة:

تعرض يوسف القرضاوي في محاضرة له حول الركائز التي أقرها الإسلام في الحفاظ على البيئة إلى معالجة مجموعة من المحاور اهتم الإسلام بها، من عناية بالصحة إلى العناية بموارد البيئة، وصنفها كالتالي:

- **النظافة والتطهير**: وذلك على اعتبار أن الطهارة من شروط بعض العبادات - خاصة الصلاة-؛ ولذا شاعت بين المسلمين مقولة (النظافة من الإيمان)، وأوردت السنة النبوية آداباً كثيرة في النظافة والاغتسال والتطيب وحسن الهندام، خاصة في المناسبات العامة كصلاة الجمعة والعيدين، وحثت على إماطة الأذى عن الطريق.

- **الحفاظ على صحة الإنسان**: هناك حشد كبير من النصوص الإسلامية من قرآن وسنة يدعو إلى الحفاظ على الصحة، بدءاً من الدعاء بطلب العافية، ومروراً بالوسائل التي تجلب العافية، وتحافظ على سلامة البدن وحتى التعامل الإيجابي مع المرض في حالة وقوعه، والمحافظة على البيئة حتى لا تنتقل عدوى المرض إلى الآخرين.

- **التشجير والتخضير**: فهناك آيات وأحاديث كثيرة تحض على الغرس والزرع؛ وذلك لما للتشجير والتخضير من دور في حفظ الدورة البيئية على نحو يكفل بيئة آمنة لحياة الإنسان.

- **العمارة والتثمير**: يأتي في مقدمتها إحياء الأرض الموات، وتثمير الثروات وتنمية الموارد، ولذا اعتبر الراغب الأصفهاني في كتابه (الذريعة إلى مكارم الشريعة) أن عمارة الأرض أحد مقاصد خلق الإنسان.

- **المحافظة على الموارد:** ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾[1]. والإفساد يكون بالإتلاف وتفويت المنافع أو التلويث والإسراف، أو بإشاعة الظلم والباطل والشر.

- **الإحسان إلى البيئة:** إن الإحسان كلمة تتضمن الإتقان والشفقة والإكرام، فقد كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يُميل للقطة الإناء حتى تشرب ثم يتوضأ بفضلها، وكان بعض الخلفاء مثل عمر بن عبد العزيز يكتب إلى عماله ألا يُحمّلوا الإبل فوق ما لا تطيق وألا يضربوها بالحديد.

ومن روائع حديث فقهاء المسلمين في الإحسان إلى الطير ما كتبه العلامة المغربي أبو علي بن رحال من ضرورة أن يتفقد الإنسان الطير الذي يحبسه كما يتفقد أولاده، وأن يضع لهذا الطير خشبة ليركب عليها الطائر حتى لا يضر الوقوف على الأرض بالطائر (لاحظ هنا مراعاة البعد النفسي والبيئي للطائر في شريعة الإسلام.

- **المحافظة على البيئة من الإتلاف:** حيث نهى الإسلام عن الإتلاف البيئي للأحياء والنباتات والعمران، سواء كان ذلك بدافع القسوة أو الغضب، أو العبث أو الإهمال أو في العمليات الحربية؛ لذا كان المؤرخ الفرنسي «جوستاف لوبون» يقول: (ما عرف التاريخ فاتحاً أعدل ولا أرحم من العرب). ومن يتابع

---

(١) الأعراف ٥٦.

الجرائم الأمريكية في فيتنام والعراق يتأكد من رحمة المسلمين بغيرهم وبالبيئة أثناء العمليات العسكرية والحروب.

سابعاً - عبر لحماية البيئة من قصص الأنبياء:

ظهر اهتمام الإسلام جلياً بالبيئة في القرآن الكريم وفي السنة، ومن قصص الأنبياء في القرآن الكريم نستخلص ضرورة العناية بالبيئة، لا سيما أن رعايتها والحفاظ عليها اعتراف بفضل الله ونعمته، وبالمقابل فإن إفسادها وتخريبها معصية للخالق وخروج عن طاعته. فكان قتل قابيل لهابيل أول جريمة بيئية على وجه الأرض بسبب تلوث أفكاره والحقد والكراهية. كما كان عقر ناقة صالح (عليه السلام) وإنزال العذاب بهم لعقرهم الناقة لكي لا تزاحمهم شرب الماء دليلٌ على الاهتمام بالحيوان وحقه كالبشر في التمتع بالنعم الإلهية، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ﴾(1). وفي قصة نبي الله نوح (عليه السلام) العبد الصبور والشكور، والذي دعا قومه ليلاً ونهاراً لعبادة الله فكذبوه وعصوه، فأمره الله تعالى ببناء سفينة بطول وعرض معين قبل الطوفان يحمل عليها من كل زوجين اثنين من الحيوانات والطيور والوحوش من حيوانات البيوت الأليفة، إضافة إلى المؤمنين به؛ وذلك لضمان بقاء الحيوانات والطيور على الأرض بعد الطوفان، وفيها دعوة للبشر لإنشاء محميات طبيعية للمحافظة على الحيوانات من الانقراض وحمايتها من العوامل المناخية

---

(1) هود ٦٤.

الصعبة. ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾(١).

كما أن قصة أصحاب السبت – وهم من اليهود – بعد أن منعهم الله من صيد الأسماك والحيتان يوم السبت، فاحتالوا على شرع الله عز وجل بإدخالهم السمك في أحواض في يوم السبت واصطياده يوم الأحد، دليل آخر على ضرورة تنظيم الصيد وفق قوانين وتشريعات بيئية للمحافظة على الحيوانات من الانقراض، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾(٢).

فالإسلام أولى اهتمامه بالبيئة البحرية هي الأخرى، كما أن رؤيا الملك في قصة سيدنا يوسف (عليه السلام) بالبقرات السمان والعجاف والسنابل الخضر واليابسات ما هي إلا دعوة من رب العالمين إلى الاستزراع والادخار والترشيد، مع ضمان حق الأجيال القادمة في موارد الثروات الطبيعية، وهي إشارة إلى دور التنمية المستدامة في الحفاظ على التنوع النباتي، ويقرر ذلك قول الله تعالى السابق الإشارة إليه: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ

(١) المؤمنون ٢٧.

(٢) الأعراف ١٦٣.

﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تُحْصِنُونَ ۞ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾(١).

وأخيراً نلاحظ إلمام الإسلام بكل جوانب الطبيعة من الإنسان كعنصر فاعل إلى الحيوان وحقه في المأكل والمشرب والمعاملة الحسنة، وحق الأرض في ضرورة الاعتناء بها بخدمتها حسن استغلال الثروات الطبيعية.كما قدم الإسلام حلولاً جاهزة تضمن استمرار التنوع البيئي وضمان العيش بمواجهة الكوارث الطبيعية، كالجفاف والطوفان من خلال المحميات والادخار وترشيد استهلاك الثروات الطبيعية.

ثامناً - الإسلام وخدمة البيئة:

تعتبر المستوطنة البشرية هي مجتمع محلي أو مجموعة من السكان تعيش في مكان واحد، ويتطلب تنمية مجتمع متنوع من الهياكل الأساسية والمؤسسات المختصة لتلبية احتياجات المجتمع ا لمحلي. ومن ثم يصبح لها وضع طبيعي لمصادر الطاقة والإسكان والنقل والحياة والخدمات، وبيئة أساسية اجتماعية من الخدمات السياسية والتعليمية والتعاونية.

ويشير القرآن إلى أن أول مستوطنة بشرية في الإسلام قامت بمكة، ومكة أرض قفر لا توجد فيها مقومات الحياة، واد غير ذي زرع

(١) يوسف ٤٦ – ٤٩.

وغير ذي سكن لا يقصده أحد ولا يأوي فيه أي إنسان، بل تمر من جواره القبائل مرور الكرام لعلمهم بواقعه وحقيقته، ولكن إرادة الله قضت أن يقام البيت في هذا المكان ليصبح مكانا عامرا بالناس مقصوداً من أمم الأرض وأصقاعها.

لقد دعا إبراهيم (عليه السلام) ربه كما قال الله في كتابه العزيز: ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾[1]. حيث دعا إبراهيم (عليه السلام) الناس إلى الحج فتوافدت الناس إلى هذا المكان، وتحولت هذه البيئة القفر إلى بيئة من صنع الإنسان تشمل مجموعة من الهياكل الأساسية والأنشطة المتخصصة لتلبية احتياج المجتمع المحلي، وحملت الأرزاق والثمرات إلى هذا البلد من كل مكان، وبذلك تم إنشاء بيئة صالحة للعيش متميزة ذاتِ طابع فريد، والتي تعدُ أول مستوطنة بشرية دينية من نوعها في العالم.

وإذا كانت التجارة قد أدت دوراً كبيراً في انتعاش بيئة مكة، حيث قامت فيها الأنشطة التي تلبي حاجات المجتمع المتعددة، فإن العمل الزراعي له دورٌ رئيسيٌ في البيئات التي تتوافر فيها الأراضي الخصبة والمياه الوفيرة. وعلى هذا فإن الإسلام نظم شؤون الحياة، وبخاصة فيما يتعلق بإيجاد مقومات البيئة وعناصر قيام المجتمعات، كما شرع أن يتوسع الناس في العمران وينتشروا في الأرض ويحيوا مواتها فتكثر

---

(١) إبراهيم ٣٧.

ثرواتهم وتعمر مجتمعاتهم، وهو لذلك يحبب إلى أهله أن يعمدوا إلى الأرض الميتة ليحيوا مواتها ويستثمروا خيراتها وينتفعوا بإنتاجها.

وإحياء الموات يدخل تحت باب استصلاح البيئة المهملة واستثمارها أو بالأحرى عدم تركها دون استصلاح؛ لأنه إهمال لا يجوز الركون إليه في الإسلام. ثم إن إحياء الموات معناه إعداد الأرض الميتة التي لم يسبق تعميرها وتهيئتها وجعلها صالحة للانتفاع بها في السكنى والزرع ونحو ذلك، وقد حض الإسلام على إحياء الموات ورغب فيه [١].

تاسعاً - البيئة وضبط الإنجاب من منظور إسلامي:

تعتبر قضية ضبط الإنجاب لتخفيف الضغط السكاني عن البيئة بما يحد من تدهور واستنزاف مواردها من القضايا الحرجة التي تواجه الكثير من الدول الإسلامية، وذلك بعد أن بدأ حجم السكان الحالي يضغط بشدة على موارد البيئة، وأمام هذه القضية يثور سؤال حيوي حول مدى سماح الإسلام بضبط الإنجاب من عدمه.

إن قضية ضبط الإنجاب قضية تثير الكثير من الحرج والحساسية، وهي قضية لم تحسم بعد بشكل نهائي، حيث يثور من حولها الجدل ويختلف علماء المسلمين فيما بينهم بين مؤيد ومعارض، بين من يصل بها إلى حد التحريم أو الإباحة .

---

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص٤٧.

ومما يسترعي الانتباه أنه ليس من الضروري أن يكون ضبط الإنجاب عملية ملزمة لجميع الدول والشعوب الإسلامية، وإنما هي عملية اختيارية بحتة تفرضها ظروف المجتمع المسلم، فعلي سبيل المثال هناك دولاً إسلامية تسمح ظروفها وإمكاناتها البيئية بالإنجاب غير المقنن، بل قد تري ضرورة في تشجيع الإنجاب، في حين أن هناك دولاً أخرى أصبح تقنين الإنجاب وضبطه ضرورة حتمية، ومعني هذا أن قضية ضبط الإنجاب قضية نسبية وليست مطلقة، فإذا كان هناك ثمة ضرورة لضبط الإنجاب كأن يكون وسيلة لحل مشكلة ما، أو إنقاذ المسلمين من ضرر أو تهلكة ما، فلا ضير ولا غضاضة في الدعوة إليه وتشجيعه.

ويؤيد فكرة ضبط الإنجاب عن الحاجة سواء كانت لاعتبارات مرتبطة بالفرد أو بالدولة القواعد الإسلامية الفقهية التالية:

- (الضرورات تبيح المحظورات).
- (لا ضرر ولا ضرار).
- (ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب).
- (تحمّل الضرر الخاص لدفع الضرر العام).

إن ضبط الإنجاب له دور في تخفيف الضغط على موارد البيئة بما يساعد على صيانتها والمحافظة عليها، وليس ثمة شك أن صيانة البيئة والمحافظة عليها- وهي ميراث الأجيال المتعاقبة - دعوة إسلامية لتستمر في تأدية دورها في إعالة الحياة.

إن ما يستقر عليه من رأي في مسألة ضبط الإنجاب أنه أمر لم يحرمه الإسلام صراحة، بل يتماشى مع دعوة الاعتدال التي يحض عليها الإسلام، فضبط الإنجاب يعني النمو السكاني المعتدل الراشد الذي يتفادى به ومن خلاله الإفراط السكاني من ناحية، والتفريط السكاني من ناحية أخري، فكلاهما له خطورته، فالإفراط يؤدي إلى زيادة السكان زيادة سريعة، وبالتالي الإسراف في استخدام موارد البيئة واستنزافها، والتفريط يهدد مستقبل النمو السكاني نتيجة التناقص المطرد في حجم السكان، وذلك كما يحدث الآن في بعض الدول الأوربية التي غالت في ضبط النسل إلى حد التفريط، حيث بدأت تسود موضة الأسرة العذراء « الأسرة غير المنجبة »، وأصبح النمو السكاني فيها سلبياً، وذلك كما حدث في ألمانيا الاتحادية ولكسمبورج والنمسا والدانمرك والمجر، مما دفع حكومات هذه الدول إلى الدعوة لتشجيع الإنجاب المعتدل لتفادي مخاطر التفريط السكاني أو ما يمكن تسميته « الردة السكانية ».

ومن هنا تتضح لنا عظمة الإسلام في دعوته إلى الاعتدال، وذلك حتى نتفادى مخاطر كل من الإفراط والتفريط، كما أن ضبط الإنجاب عملية نسبية يحكمها بالدرجة الأولى مقدار حجم المنفعة التي يمكن أن تتحقق من ذلك، أو مقدار الضرر الذي يمكن أن نتجنبه، فإذا كان ضبط الإنجاب وسيلة لدرء ضرر أو جلب منفعة فإنه يصبح أمراً مباحاً وضرورياً، وذلك أخذا من القاعدتين الفقهيتين :

- (درء المفسدة مقدم على جلب المنفعة).
- (يجب دفع الضرر قبل وقوعه).

ومما يستدعي الإشارة إليه أن ضبط السكان لا يعني أنه الحل الأوحد لمشكلاتنا وحماية بيئتنا من خطر التدهور والاستنزاف، وإنما هو حل أو وسيلة من ضمن مجموعة وسائل لحل مشكلاتنا وحماية بيئتنا، حيث يجب أن يرافقه بذل كل جهد ممكن في تنمية الموارد البيئية وحسن استغلالها، واستخدام أفضل الوسائل لصيانتها حتى نحقق في النهاية علاقة طيبة إيجابية متوازنة بين الإنسان وبيئته، لتكون علاقة تصون البيئة وتحافظ عليها كي تظل قادرة على العطاء الجيد إلى ما شاء الله، وهذا ما أمرنا به الله سبحانه وتعالى في علاقتنا مع البيئة [١].

عاشراً - القيمة الجمالية للبيئة في الإسلام :

تكتسب القيمة الجمالية للبيئة في الإسلام جانباً آخر من جوانب استيعاب البيئة والاعتناء بها في فلسفة الإسلام، وهي بذلك تحقق مفهوماً راقياً آخر في النظرة إلى البيئة من خلال هذه القيمة؛ إذ تكتسب القيمة الجمالية كجزء من القيم الجمالية في الإسلام مكانة عظيمة في فلسفة الإسلام.

فكما أن للبيئة حرمة ومكانة للإسلام، ولها من التوازن ما لها في عملية التعاون، كما لها من الاتساع والشمولية والنظرة مالها في فلسفة الإسلام، فإن لها بالإضافة إلى ذلك في الفلسفة الإسلامية اعتناء كبيراً بالقيمة الجمالية لهذه البيئة، والتي تعتبر من أجل نعم الله سبحانه

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص١٠٩.

وتعالى على الإنسان، إذ أنها مبعث رزق وراحة نفسية له عندما يرى نضارتها وحلاوتها، ومنبعاً للأجر والثواب عندما يتفكّر فيها كمخلوقات لله جل وعلى.

يعتبر الجانب الجمالي للبيئة من قبيل المنافع المادية المتنوعة التي يجنيها الإنسان من هذه النعمة العظيمة، فهي منفعة ذات بعد نفسي وجمالي وفني يتحقق من خلال النظر إلى النباتات، ومما يقرر ذلك في كتاب الله عز وجل الآيات التالية:

- قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾[1].
- قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ﴾[2].
- قال تعالى: ﴿ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾[3].
- قال تعالى: ﴿فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ﴾[4].

---

(١) سورة ق ٧.

(٢) النمل ٦٠.

(٣) الأنعام ٩٩.

(٤) سورة ق ٧.

فالله سبحانه وتعالى من خلال هذه الآيات يدعو الناس إلى النظر والاتعاظ من هذه الثمرة البسيطة منذ خروجها إلى الدنيا وفطورها من باطن الأرض، ثم تحوّلها من لون إلى لون، ومن شكل على شكل، ومن طعم إلى طعم، ومن رائحة إلى رائحة، ومن حجم إلى حجم، وذلك حتى تصبح ناضجة مستساغة المذاق والطعم والرائحة.

لقد خلق الله سبحانه وتعالى هذه البيئة وهي ذات حسن وجمال، مبهجة للنفس والخاطر، ومرخية للأعصاب، وتسر بها العين، ويفرح بالنظر إليها القلب [(١)].

إن جوانب وصف القيمة الجمالية للبيئة كثيرة ومتعددة في الكتاب المبين، والله جل وعلى أمرنا أن نحمده على هذه النعمة، وأن نحفظ هذه الأمانة التي استودعنا إيّاها؛ لأننا سنسأل عن كل انتهاك في حقها إذا كان دون مسوّغ شرعي.

إن ما يتضح من خلال ما أسلفنا فيه القول في بيان عدد من الأبعاد التي تنطلق من خلالها النظرة الإسلامية إلى البيئة رعاية وحماية واستمتاعاً يقرر لنا وبوضوح عدداً من الحقائق تتمثل فيما يلي:

- أن نظرة الإسلام للبيئة تعد نظرة راقية لا تبلغ سموّها أي نظرة أخرى، وبذلك فإن نظرة الإسلام إلى البيئة والتعامل معها وفق الفلسفة الإسلامية يغني عن التطلّع إلى أي نظرة غيرها.

---

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص١٨٩.

- ضرورة العمل على نشر وتعميم المنطلقات الإيجابية التي يمكن أن نستوعبها من خلال ما استعرضناه من نقاط.

- أن العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة صداقة، فكل من طرفي العلاقة يأنس بالآخر ولا يستطيع العيش دونه. كما أنها علاقة حاجة تجعل كل طرف فيها غير مستغن عن الآخر.

- أن انتهاك حرمة البيئة عليه من الإثم ما لا يقل عن غير ذلك من الانتهاكات والمعاصي المنصوص عليها في شريعة الإسلام؛ إذ يعتبر انتهاكها من قبيل الإفساد في الأرض، بل ومن قبيل انتهاك حرمة الغير.

لقد أصّل الإسلام في فلسفته التي تدعو إلى حماية البيئة والذود عنها عدداً من القيم والمبادئ الراقية التي لا يمكن أن ينكرها إلا جاحد معاند، وهذه القيم والمبادئ الراقية تنطلق ومن دون شك من النصوص الشرعية المتمثلة في القرآن الكريم والسنة المطهّرة، وبعدها تأتي استنباطات الفقهاء التي تستقرأ الأبعاد السامية من وراء هذا النصوص، لتخرج لنا دلالتها المنشودة ومفاهيمها المرصودة في حلّة يدركها كل عاقل حصيف، وينكرها كل جاحد كافر بالحقائق.

وحتى نقرّب الحقيقة ونصوغها بوضوح ينطلق من النص، وحتى نكون أقرب في تحقيق وتأصيل الرؤية الشرعية في نظرتها للبيئة، ننطلق من خلال المبحث القادم لنستعرض رؤية القرآن للتوازن ولهندسة

النظام البيئي؛ إذ يتحقق لنا من خلال هذا الاستعراض وضوح أكثر لرؤية الإسلام لعلاقة الإنسان بالبيئة، وما عرضته النصوص الشرعية من حقائق علمية مدروسة وتاريخية ثابتة في استعراض جميل حواه المصحف الشريف بين دفتيه من حقائق.

نستعرض في بداية المقام نظرة القرآن لتلوث البيئة، ثم نتبع بعد ذلك القول في استعراض لرؤية القرآن لهندسة النظام البيئي، لنختم هذا المبحث باستعراض للأدلة الشرعية التي تبيّن وبوضوح حرمة الاعتداء على البيئة.

المبحث الثاني

التوازن البيئي في القرآن الكريم

كما تناول القرآن الكريم الكثير من الحقائق حول الكثير من المواضيع ذات العلاقة بالإنسان؛ ويرجع ذلك إلى اعتبار كتاب الله خطاب من الله جل وعلى إلى العالمين، فما من شاردة ولا واردة تتصل بالإنسان من قريب أو بعيد إلا تناولها إما بالجملة وإما بالتفصيل.

ومن أعظم ما تناوله القرآن الكريم موضوع البيئة وعلاقة الإنسان بها، حيث خاطبه بكثير من النصوص التي ترشده وتوجهه نحو تعامل أكثر إيجابية مع البيئة نظراً لكون اتصاله بها ضرورة لا يمكن أن ينفك أبداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد كان النهي في آيات المصحف الشريف في معرض توجيه الإنسان للحفاظ على البيئة تنهاه عن الفساد في الأرض، وذلك في كثير من النصوص القرآنية، حيث جاء التعبير عن الفساد في الأرض في آيات كثيرة، وشمل ما يفسد به الإنسان بيئته، وما يفسد به العلاقات الإنسانية بشتى أبعادها، وفي ذلك يقول الله تعالى في سورة الروم: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[1].

---

(١) الروم ٤١.

فالفساد بشتى أنواعه ويشمل ما يتمثل من اعتداءات على البيئة إنما يتحقق في غالب الحالات بما تجنيه يد الإنسان في البر والبحر، بل امتد في هذا الزمان ليشمل الهواء، وهو من أخطر أنواع التلوث التي تهدد الأرض في الواقع الراهن.

ولكن القرآن الكريم عندما أشار إلى ما سيتأتى على الأرض من فساد كانت له توجيهات سديدة من خالق البيئة، والتي وجه فيها الحق جل وعلى في الكثير من الآيات عدة توجيهات تحفظ لهندسة النظام البيئي اتزانه الذي خلقه الله عليه، حيث يجني في النهاية الإنسان ما اقترفته يداه، فيكون بذلك هو الجاني على نفسه، وعليه أن يتحمّل سائر المتغيرات البيئية الناجمة عما يحدثه الإنسان في البيئة من مفاسد في البر والبحر والجو، جعل من الضرورة بمكان ضرورة أن يتدارك هذا الإنسان المسرف المبذّر المنتهك لحرمة البيئة أخطاءه الفادحة كي يعيد للبيئة توازنها فيما يمكن تداركه من جديد.

أولاً - رؤية القرآن لهندسة النظام البيئي :

إذا كان القرآن الكريم خطاب الله سبحانه وتعالى للإنسان، فذلك إنما يرجع إلى كونه يخاطب أنفس شيء يستوعب فيه وهو العقل، فأصحاب العقول هم وحدهم من يستطيع أن يستوعب القرآن وصور الإعجاز فيه، ويقرر ذلك قول الله تعالى:

- ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾(١).

- وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢).

- وقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾(٣).

فهذه الآية الأخيرة تلخص ظاهرة التلوث، وتكشف كيف أن للناس ارتباطاً بأحوال الحياة والتوازن البيئي في البر والبحر، وإذا كان القرطبي قد فسّر الفساد في الأرض بأنه (ارتكاب المعاصي، أو انتشار الظلم، أو قلة المطر وتأثير ذلك على النباتات والأحياء)، إلا أن عظمة القرآن وإعجازه تبين أن المدلول لكلمة فساد يمكن أن يستوعب الفساد، ويكون بذلك شاملاً لكل صور الإخلال بالتوازن البيئي بسبب سوء استخدام الإنسان لموارد الأرض الصخرية والمائية والهوائية والنباتية والحيوانية.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ * وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا

(١) الرعد ١٩.

(٢) آل عمران ١٩٠.

(٣) الروم ٤١.

مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾(١).

ففي هاتين الآيتين الكريمتين إشارة إلى إعداد الأرض للحياة ولمنفعة الإنسان؛ لتكون له سكناً مريحاً وملجأ واقياً، ولكن الإنسان ينسى ذلك التوافق الذي جعله الله في الأرض ليمهّد له وسائل العيش، وما سخّره الله فيها من وسائل الراحة والمتاع، ولولا هذا التوافق لما قامت للبشرية حياة على هذا الكوكب في مثل هذه السهولة واليسر والطمأنينة؛ إذ لو فقد هذا التوافق عنصراً واحداً من عناصره ما أقام هؤلاء البشر في بيئة متوازنة تكفل لهم الحياة، فكلمة (لكم) في الآية (٢٩) ذات مدلول عميق يقرر أن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الإنسان لأمر عظيم، وهو أن يكون مستخلفاً في الأرض، وليكون فاعلاً مؤثّراً فيها بالعمران وليس بالدمار والتخريب.

وهكذا يحثنا المنهج القرآني في سبيل تعزيزه على حسن استخدام العقل والموارد والعلم على أساس أن ما في الأرض مسخر كله لإشباع غرائز الجسم، والمحافظة على الجنس البشري، فيزرع ويستنبت ويتفنن لصنع ما يشرب، ويعالج أمراضه فيستطب، ويتعلم ويخترع ويبني حضارة راقية تعبّر عن أحقيته بالخلافة في الأرض براً وبحراً وجواً. ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾(٢).

---

(١) البقرة ٢٩ – ٣٠.

(٢) هود ٦١.

ومن خلال النظرة القرآنية يتضح أنها كما تدعو إلى الصلاة والحج والصيام، فإنها تدعو إلى الحفاظ على التوازن البيئي سواء بسواء، وكما يترتب على ترك الصيام والصلاة والزكاة الإثم، فهو مترتب ومتحقق كذلك في حق من ينتهك حرمة التوازن البيئي بالاعتداء عليها ظلماً وعدواناً.

فلا بد إذاً من العودة إلى المنهج القرآني لتأصيل علاقتنا كأمة مسلمة مع البيئة، ولنعمل معا حتى نعيد الأمور على ما كانت عليه، ونرجع إلى البيئة توازنها، فلا خلاص للبشرية من الدمار المرتقب بسبب التلوث مالم تعد إلى منهجها القرآني والذي حوى الضوابط التي تحقق التوازن للبيئة المحيطة بالإنسان، مما يعيد الأرض ذلولاً، معطاءة، نظيفة، صالحة لسكنى البشر.

إن تأثير الإنسان على البيئة بدأ منذ ظهوره عليها، وقد أخذ هذا التأثير في الازدياد حتى صارت حالة البيئة سيئة للغاية، ولو أن الإنسان لم يكن له وجود على الأرض لظل محيطها الحيوي متوازناً يسير في انسجام وتكامل [(١)].

لقد كان تسلّم الإنسان للأرض ليتولى مهمة الخلافة فيها، وذلك بعد أن هيئها له وجعلها متوازنة في كل شيء، نظيفة في كل شيء، معطاءة في كل شيء. كما كان كل شيء موجود على هذه الأرض محسوب وبعناية،

---

(١) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص٢٠٢.

ولم يكن بنسب عشوائية، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾[(١)].

ومن هذا الماء يشرب الإنسان والحيوان والنبات، وفي الماء كذلك تعيش كل الكائنات البحرية، ومعظمهما مخلوق لغذاء الإنسان. كما أن الهواء مهيأ بما خلق فيه من الأكسجين، ولو قل التوازن في الهواء بحيث يقل الأكسجين كما يحدث في طبقات الجو العليا التي لا يعيش فيها الإنسان فإنه يختنق ويهلك، ويقرر هذه الحقيقة قول الله تعالى: ﴿ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾[(٢)].

وباختصار شديد .. لقد تسلّم الإنسان الأرض جاهزة للحياة، متوازنة في كل عناصرها بأغلفتها الصخرية، والمائية، والهوائية، والحيوية. ومنذ ظهور الإنسان على الأرض، وهو يعمل على تدمير هذا التوازن في البيئة الأرضية بمياهها ونباتاتها وهوائها وأرضها [(٣)].

لقد حوت آيات القرآن تنظيما بديعا لهندسة التوازن البيئي، فالله سبحانه وتعالى قد وضع الكثير من القواعد التي سبق ذكرها لبناء علاقة التوازن مع هذه البيئة التي خلقها وصوّرها لخدمة الإنسان باعتباره خليفة بأمره في الأرض، ولكن تنبأ الملائكة بفساد وإفساد الإنسان في البيئة قد صدقته معطيات الواقع.

---

(١) المؤمنون ١٨. (٢) الأنعام ١٢٥.

(٣) زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان (رؤية إسلامية)، مرجع سبق ذكره، ص٢٤٣.

وقد ذكر أبو محمد عبد الحق الأندلسي في كتابه (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز في تفسير قول الله تعالى: ﴿ قَالَ إني أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وذلك فيما يرويه ابن عباس (رضي الله عنه) بأن المراد بها أنه لما قالت الملائكة ﴿ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾[1]. وعند ذلك قال الله لهم: ﴿ قَالَ إني أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ويعني ما في نفس إبليس.

كما نقل ابن عطية تفسير قتادة في ذلك والذي قال: (لما قالت الملائكة: ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾، وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم: ﴿ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، ويعني أفعال الفضلاء من بني آدم.

وقد ذكر ابن عطية في الحاشية في تفسير هذه الآية بأن علم الله من كفر إبليس وكبره وحسده مالم تعلمه الملائكة، فلما أمر الله بالسجود ظهرت طاعة الملائكة، وظهر كفر إبليس وحسده، فأبى واستكبر وكان من الكافرين.

كما ذكر كذلك ما يقرر بأن علم الله الذي سبق علم الملائكة يؤكد بأن هناك في ذرية آدم من الأنبياء والعلماء والأصفياء، والخير يغلب الشر، والنور يطفئ الظلام، وأن الله قد أبلغ بأن أمة محمد خير أمة أخرجت للناس وهي من ذرية آدم (عليه السلام)، فالله يعلم ما لا يعلمون، مما كان ومما يكون، ومما هو كائن[1].

---

(١) البقرة ٢٩ – ٣٠.

(٢) أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة، سلسلة المعارف البيئية، ط: ١، يناير ١٩٩١، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ص ١٨٠.

ومما يستلزم التنبيه إليه أن الله سبحانه وتعالى وإن كان قد خلق البيئة في توازن معين، وجعلها صالحة لحياة الإنسان وغيره من الكائنات، وكان الإنسان وما يزال أداة لخراب هذا التوازن في البيئة وفي غيرها من الأمور الحياتية، إلا أن أهل الله والمسلمون في الأرض لا محالة سيكون لهم أثر في إحداث تغيير في سبيل القضاء على البيئة الفاسدة في مختلف الأمور الحياتية على الأرض، ولا سيما ما يتعلق بالانتهاكات والاعتداءات على مخلوقات الله التي تحتضنها البيئة التي خلقها الله من أجل الإنسان.

إن هذه هي سنة الله في أرضه، فهو لم يفضّل الإنسانية على الملائكية من فراغ، بل فضّلها لحقيقة ما تبذله من جهد في سبيل مكافحة الفساد بكافة صورة، والوقوف أمامه أو الهلاك دونه، وكل ميسّر لم خلق له، والله يختص بفضله ورحمته من يشاء.

إن هناك انتهاكات لا تحصى من الإنسان والإنسانية في حق خلق الله تعالى، وفي حق هذه الأرض، فالأطماع البشرية ليس لها حدود، فهي مقررة ومنطلقة من حقيقة ما قرره القرآن الكريم من خلال اعتبار الإنسان مخلوقا من عجل، وخلق عجولا. وإذا كان منهج القرآن قد حوى من التوجيهات ما يمكن الاستعانة به للتقليل من هياج هوى النفس، فإن أهل الصلاح والإصلاح تناط بهم المسؤولية في إقرار حكم الله في أرضه في كل شيء، حتى ما يكاد أمر في الأرض إلا وينطلق بأمر الله وبحكم الله الذي استأمننا عليه وذلك بأن نحفظها قدر طاقتنا وقدر استطاعتنا.

ولعل المنهج القرآني يقرر وبوضوح حرمة انتهاك البيئة والإخلال بالتوازن البيئي، وذلك بما أسماه بالإفساد في الأرض، حيث قرر هذه الحقيقة في عدد من نصوصه التي نستعرضها ضمن المحور اللاحق.

ثانياً - التأصيل القرآني لحرمة الاعتداء على البيئة:

إن الناظر في آيات القرآن الكريم يرى أنها تتضمن نهيا جازما عن الإفساد في الأرض، وقد وردت مادة (فسد) في القرآن الكريم (٥٠) مرة، مما يدل على تحريم الفساد (الإضرار) في الأرض، ومن هذه الآيات:

• قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾[١].

يقول القرطبي: قوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ نهي، والفساد ضد الصلاح، وحقيقته العدول عن الاستقامة إلى ضدها، فسد الشيء يفسد فسودا، وهو فاسد وفسيد.

ويقول الإمام الرازي في هذه الآية: (الفساد خروج الشيء عن كونه منتفعا به، ونقيضه الصلاح، فأما كونه فساداً في الأرض فإنه يفيد أمراً زائداً).

• قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾[٢].

---

(١) البقرة ١١ – ١٢.   (٢) البقرة ٦٠.

يقول القرطبي: ﴿ وَلا تَعْثَوْا ﴾ أي تفسدوا، والعيث شدة الفساد، حيث نهاهم عن ذلك). ويقول الإمام الرازي: أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾، فالعثي هو أشد الفساد، فقيل لهم: (لا تتمادوا في الفساد في حالة إفسادكم؛ لأنهم كانوا متمادين فيه).

• قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾[1].

يقول الإمام القرطبي في تفسير هذه الآية: (والآية بعمومها تعم كل فساد كان في أرض أو مال أو دين وهو الصحيح إن شاء الله، ومعنى ﴿وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾... أي لا يحبه من أهل الصلاح، أو لا يحبه لدينه ، ويحتمل أن يكون المعنى لا يأمر).

ويقول الإمام الرازي: (قوله تعالى ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى﴾ فيه قولان: أحدهما معناه: وإذا انصرف من عندك ويقول الإمام القاسمي: (إن هلاك الحرث والنسل كناية عن الإيذاء الشديد، ﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ أي لا يرضى فعله).

• قال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

يقول الإمام الرازي في تفسيره هذه الآية: (أراد به المنع من كل ما

---

(١) البقرة ٢٠٥.
(٢) الأعراف ٨٥.

كان فساداً حملاً للفظ على عمومه. ويقول الإمام القرطبي في تفسيرها: وهو لفظ يعم دقيق الفساد وجليله).

• قال تعالى: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾[1].

• قال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[2].

يقول الإمام القاسمي في تفسير هذه الآية: (أي كثرة المضار والمعاصي على وجه الأرض، وعلى ظهر السفن في لجج البحر. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.... أي من الآثام والموبقات ففشا الفساد وانتشرت عداوة توارثه جيلاً بعد جيل أينما حلوا وحيثما ساروا، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[3]. فاللام للعاقبة، أي ظهور الشرور بسببهم، مما استوجبوا به أن يذيقهم الله وبال أعمالهم.

والمتأمل في الآية الكريمة يجد أنه جمعت ثلاثة عناصر هي:

١. حدوث تغيير بالبيئة: وقد عبّرت عنه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ﴾... أي ظهر التلوث والخلل

---

(١) الأنعام ١٢٥. (٢) الروم ٤١.

(٣) الروم ٤١.

بالموارد والنعم، فجفت التربة ولم تعد مستعدة للإنبات، وتعرّض للخطر نباتها وثمارها، فدب القحط والجدب، وتغير الماء وصار فاسداً آسناً، وتغيرت خواصه وأصبحت الكائنات البحرية فيه في خطر أكيد.

٢. انتساب ذلك التغيير إلى الإنسان بأفعاله: وقد عبرت عنه الآية بقوله تعالى: ﴿ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ ... أي أن أعمال الإنسان هي المسؤولة عن الفساد والتدمير والاضطراب الذي أصاب ثروات البيئة ومواردها.

٣. إلحاق الضرر أو احتماله بالموارد البيئية بفسادها وصيرورتها غير صالحة لما خلقت له: وقد عبرت عنه الآية بقول الله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا﴾، والمراد: أن لحوق المعاناة وذوق الضرر قد نتج عن عمل الإنسان.

ثم أشارت الآية في نهايتها إلى حل هذه المشكلة فقال سبحانه تعالى: ﴿ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ ... أي لعلهم يرجعون عن الممارسات التي تؤدي إلى الإفساد في الأرض [١].

إن النصوص القرآنية صريحة في الحكم على الإفساد في الأرض، والذي يندرج تحته ومن دون شك الاعتداء على حرمة البيئة بالتحريم متى كان الاعتداء يتسم بالتعمد والقصد، وأدى إلى إحداث ضرر محض

---

(١) دنيا أحمد شوقي، التنمية والبيئة (دراسة مقارنة)، مرجع سبق ذكره، ص ٩٢.

أدى إلى إلحاق التلوث بالبيئة، وعلى هذا النهي والزجر سار الهدي النبوي المحمدي، فالأقوال والأفعال والتقريرات كلها تدعّم ما ورد في النصوص القرآنية، سواء أكان في السلم أو الحرب، وهو ما سنتعرض له في المبحث القادم بمشيئة الله تعالى.

المبحث الثالث

المنهج النبوي وحماية البيئة

إذا كانت النصوص القرآنية قد عالجت بنصوصها ظاهرة الفساد البيئي وما تلحِقه يد الإنسان بحق حرمة هذه البيئة، فإن المنهج النبوي لم يكن إلا معززاً لهذه النصوص داعما لها، وعاكساً لما يتصل من تطبيق عملي على أرض الواقع في أسمى وأقدس صور، فالأحاديث النبوية التي توجه وتبني علاقة الإنسان نحو بيئته كثيرة ومتنوعة، كما أن فيها توجيهاً لحفظ البيئة بمختلف صورها إما بالتصريح وإما بالتعريض، سواء في وقت السلم أو في وقت الحرب، وما يتصل بحكم الإضرار بالبيئة كما قررتها الأحاديث النبوية الشريفة أقوالاً وأفعالاً وتقريرات.

أولاً - في وقت السلم :

لقد احتوى المنهج النبوي على الكثير من الأحاديث التي يدلل مضمونها على الحث على الاعتناء بالبيئة والمحافظة عليها، حتى أصبح بعضها مما يشتهر على ألسنة الناس، وهذه الأحاديث قد حوت الكثير من الدلالات التي تقرر الحاجة التكافلية التي ينبغي أن تنعكس عليها نظرة الإنسان في بناء علاقته مع البيئة، وتفقهه في آلية التعامل معها على الوجه الذي يرضي الله سبحانه وتعالى.

• **التوجيهات الإيجابية المثمرة:** إن من أهم الأبواب التي بوّب له أهل الحديث ما بوّب به النووي في كتابه المشهور (رياض الصالحين)، والذي ذكر فيه باباً من التزم بما فيه من توجيهات عظيمة كان في ذلك عمل عظيم من شأنه الحفاظ على البيئة، لا سيّما عندما يقرأه المسرفون من الناس، والذين يحققون بإسرافهم أذى كبيراً للبيئة ولعناصرها الحيوية، ونذكر في هذا المقام حديثين من الأحاديث التي ذكرها النووي في هذا الباب.

• عن عبد اللّه بن عمرو (رضي اللّه عنهما): أن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم) قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً، وقنّعه اللّه بما آتاه» (١).

• عن حكيم بن حزام (رضي اللّه عنه)، أن النبي (صلى اللّه عليه وسلم) قال: «اليد العليا خير من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول، وخير الصدقة عن ظهر غنى، ومن يستعفف يعفه اللّه، ومن يستغن يغنه اللّه» (٢).

إن هذين الحديثين الشريفين يقرران التوجيه نحو ضرورة أن يغرس المسلم في نفسه القناعة وأن يربي نفسه على هذا الأدب الذي

---

(١) رواه مسلم (١٠٥٤)، وأخرجه الترمذي (٢٣٤٩). وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٤.

(٢) متفق عليه، رواه البخاري (٣٩ / ٢٣٤) ومسلم (١٠٣٤. وقد أورد هذا الحديث النووي – أبي زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، مرجع سبق ذكره، ص ٢٠٦.

يكسب الصحة في نفسه، والصحة لغيره؛ ذلك أنه عندما يرزق كفافاً، ويكون في قناعة بما آتاه الله تعالى، ولا يسأل الناس شيئاً، ويستغني عنهم، إنه يكون له بذلك دور في القضاء على الإسراف الذي هو سبيل لاستنزاف البيئة دون حاجة.

كما أنه من الأبواب التي بوّب بها صاحب كتاب (اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (باب فضل الغرس والزرع)، وقد ذكر فيه جامعه حديثاً أخرجه البخاري في كتاب المزارعة في باب فضل الزرع والغرس إذا أكل منه، وذلك من حديث أنس (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «ما من مسلم يغرس غرساً أو يزرع زرعاً، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة» [١].

ففي هذا الحديث صريح عبارة تقرر التوجيه نحو ضرورة استشعار الإنسان لحقيقة خلافته، وأن هذه الخلافة تجعله معمّراً لها لا عنصراً هداماً، عنصر صلاح لا عنصر فساد، وأن يستهدف وهو يتعامل مع البيئة والنعمة التي أوجده الله فيها بطريقة تنم عن استشعار الانتفاع

(١) متفق عليه، حيث أورده البخاري في كتاب المزارعة – باب فضل الغرس والزرع إذا أكل منه، وهو حديث يحمل الرقم (١٠٠١)، ووارد ضمن كتاب وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ج ٢، ط.١، كتاب صادر ضمن مشروع طالب العلم، جمعية إحياء التراث الإسلامي، إدارة بناء المساجد والمشاريع الإسلامية، الضاحية – الكويت، مكتبة دار الفيحاء، دمشق – سوريا، ومكتبة دار السلام، الرياض – السعودية، ص ٤٥٠. والغرس هنا بمعنى المغروس، أي شجراً، وزرعاً أي مزروعاً، وأو للتنويع؛ لأن الزرع غير الغرس.

العام بهذه البيئة، وألا يجعل همّه هو تحصيل النفع لنفسه على حساب الآخرين، بل يسعى جاهداً لكي تكون مساهمته تحقيقا لإعمار الأرض وبنائها ليس من أجل مصلحة بني جنسه فحسب، بل من أجل مصلحة كل من ينتفع بهذه البيئة ممن يعيش فيها من طير أو إنسان أو بهيمة.

إن هذا الحديث يبرز جانب التكافلية في رعاية البيئة، وهو خطاب للمسلم الذي يتعامل مع البيئة بما يتوافق مع التوجيهات القرآنية التي استعرضتها فيما سبق، وبالإرشادات النبوية التي تعكس واقعاً عملياً نموذجياً للتعامل الإيجابي المثمر مع هذه البيئة، وهو ما يقرره هذا الحديث الشريف، وبالتعامل السلبي المثمر أيضاً من جانب آخر، والتي أذكر من الأحاديث ما يقررها فيما بعد.

ثم إنه من المعروف أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد اهتم بغرس الأشجار ورعاية الأشجار الموجودة بالفعل، وبتكوين الحدائق ورعاية الحدائق الموجودة بالفعل، والنصوص التي تحض على ذلك كثيرة ومتنوعة.

ومن جانب آخر فإن ما يلفت النظر في الحقيقة هو الدقة والتأنق في العاملة التي أبداها الرسول (صلى الله عليه وسلم) في هذا الشأن وفي صور متعددة من الشفقة على الحيوانات وحمايتها وعدم إيذائها أو الحط من شأنها، وفي هذا الإطار أمر بالرحمة لكل كائن حي، كما أمر بعدم هدم أعشاش الطيور وعدم أخذ بيضها وأفراخها، وباختصار أمر بعدم إيذاء الحيوانات وبالقيام بتنظيفها ورعايتها واستخدامها في أمور

تناسب خلقها وعدم تحميلها بأحمال زائدة على طاقتها، وعدم صيدها لمجرد المتعة والتسلية [1].

• **التوجيهات السلبية المثمرة:** هناك من التوجيهات العملية والتطبيقية ما يندرج تحت النهي والزجر بما يحقق حفاظا على البيئة من أجل حمايتها وصونها، وجعلها صالحة لاستخدام المنتفعين بها، وعدم استنزافها بما يلحق الأذى والضرر فيها.

عن أنس بن مالك (رضي الله عنه)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) نهى عن بيع الثمار حتى تُزهي، فقيل له: وما تزهي؟ قال: حتى تحمرّ، فقال: «أرأيت إذا منع الثمرة بما يأخذ أحدكم مال أخيه؟»[2].

(١) ازدمير – إبراهيم، البيئة في الإسلام، ط: ١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨، بلنسية للنشر والتوزيع، المنوفية – القاهرة، ص ٥٨.

(٢) متفق عليه، حيث أورده البخاري ٣٤ – كتاب البيوع، و ٨٧ – باب إذا باع الزرع قبل أن يبدو صلاحه وهو حديث يحمل الرقم (١٠٠٢)، ووارد ضمن كتاب وضعه محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، مرجع سبق ذكره، ص ٤٥٠. ومعنى تزهى: من أزهى إذا أحمر واصفر. أرأيت: أي أخبرني، وهو من باب الكناية حتى استفهم، وأراد الأمر إذا منع الله الثمرة: بأن تلفت. بم يأخذ أحدكم مال أخيه: المعنى هنا أنه لا ينبغي أن يأخذ أحدكم مال أخيه باطلا؛ لأنه إذا تلفت الثمرة لا يبقى للمشتري في مقابلة ما دفعه شيء، وفيه إجراء الحكم على الغالب؛ لأن تطرّق التلف إلى ما بدا صلاحه ممكن، وعدم تطرقه إلى مالم يبد صلاحه ممكن، فنيط الحكم في الغالب في الحالين.

فهذا الحديث وإن كان يشتمل على حكم يتعلق بالنهي عن بيع الثمار قبل بدو صلاحها، إلا أن فيه في ذات الوقت توجيهاً وإرشاداً نبوي من أجل الحفاظ على البيئة وعدم استنزافها دون حاجة؛ إذ لا ينتفع الإنسان بالثمر قبل بدو صلاحه لاستهلاكه، وهو ما يؤدي إلى ضياع المنفعة منه، وهو ضرب من الإسراف والاستنزاف الذي لا حاجة للإنسان به.

كما أن من الأحاديث التي حوت توجيهات سلبية مثمرة النهي عن بيع الماء الذي يشترك فيه الناس، والذي ذكره ابن القيم في كتابه (زاد المعاد في هدي خير العباد)، حيث ذكر عدة أحاديث تقرر ذلك منها:

• عن جابر (رضي الله عنه) قال: «نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن بيع فضل الماء» (١).

• في الصحيحين عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال: «لا يمنع فضل الماء ليمنع به الكلأ»، وفي لفظ آخر: «لا تمنعوا فضل الماء ليمنع به الكلأ». وقال البخاري في بعض طرقه: »لا تمنعوا فضل الماء لتمنعوا به فضل الكلأ» (٢).

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٦٥ – ٣٥). وقد أورد هذا الحديث الجوزية – ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد،ج ٥، ط: ٣، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان، ص ٦٨٦.

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري (٢٣٥٣) ومسلم (١٥٦٦). وقد أورد هذا الحديث الجوزية – ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد،ج ٥، مرجع سبق ذكره، بيروت – لبنان، ص ٦٨٦.

• وفي سننه أيضاً، عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «ثلاث لا يمنعن: الماء والنار والكلأ، وثمنه حرام»[(١)].

إن أحاديث اشتراك الناس في الماء دليل ظاهر على المنع من بيعه، وهذه المسألة التي سأل عنها الإمام أحمد، حيث أجاب عندما سأل بأن الناس في الشام قد ابتلوا، حيث يؤجّر الماء هناك، فقد توقّف أحمد أولا، ثم أجاب بأن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد نهى عن بيع الماء، فلما قيل له بأن هذه إجارة، قال بأن هذه التسمية حيلة، وهي تحسين اللفظ وحقيقة العقد البيع، وقواعد الشريعة تقتضي المنع من بيع هذا الماء[(٢)].

والخلاصة من هذا أن هناك أحاديث نبوية كثيرة يستفاد منها ضمناً عدم جواز استغلال أهم شيء خلقه الله في هذه البيئة من أجل حفظ حياة الإنسان ومن معه من الكائنات التي تعتمد على الماء لأي شيء مهما كان، وهذا ومن دون شك فيه حماية للبيئة، ودلالة على أنه ليس لأحد ملك عليها حتى يمنع بهذا الملك ضروريات الحياة عن خلق الله تعالى، وهناك أحاديث كثيرة تقرر من التوجيهات ما يحفظ جانب الانتفاع بالبيئة لبين الإنسان، وقد سبقت الإشارة إليها في الفصول السابقة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٢ / ٢١٧٩)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة (١٤٢٢). وقد أورد هذا الحديث الجوزية — ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٥، مرجع سبق ذكره، بيروت — لبنان، ص ٦٨٧.

(١) الجوزية — ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ج ٥، مرجع سبق ذكره، بيروت — لبنان، ص ٦٩٠.

ثانياً - في وقت الحرب :

إذا كانت تلك الآداب النبوية قد قررها النبي (صلى اللّه عليه وسلم) في حياتهم وممارساتهم اليومية في وقت السلم، فهي توجيهات تؤكد بشكل عام النهي عن كل ما يؤدي إلى الإضرار بالبيئة دون حاجة ملحّة، وأنه متى وجدت هذه الحاجة لهذا الإنسان من البيئة، فإنه يأخذ منها ما يستعين به على الحياة، ويمتنع عن استنزافها دون وجه حق أياً كانت الظروف.

ومما لا شك فيه أن هذه التوجيهات النبوية لا تحول دون التقدم والتطور في الصناعة والتجارة، بل هي مقررة في التوجيهات القرآنية وفي الإرشادات النبوية من أجل تحقيق مزيد من التوازن بين البيئة وتنمية حياة الإنسان، فلا إفراط ولا تفريط، بل سير في توازن يستعين به الإنسان على تحقيق احتياجاته الضرورية على قدرها، والابتعاد عن كل ما من شأنه الإضرار بالبيئة دون غرض أو حاجة، أو بما يعود بالنفع على حساب الآخرين بصورة تشكل خطراً فادحاً على مصالحهم واحتياجاتهم.

وحتى في وقت الحرب كان النبي (صلى اللّه عليه وسلم) ينهى عن الاعتداء على البيئة، فكان من ضمن وصاياه عدم قطع الأشجار إلا في حالة واحدة قطع فيها نخل يهود بني النضير وأمر بإحراقها.

لقد أتلف الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) هذا النخيل وترك

الباقي، وقد أنزل القرآن تصويباً لما أقدم عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) من ذلك قطعاً وإبقاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾[1].

وقد استدل العلماء بذلك على أن الحكم الشرعي في أشجار العدو وإتلافها منوط بما يراه الإمام أو القائد من مصلحة النكاية بأعدائهم، فالمسألة إذاً من قبيل ما يدخل تحت اسم السياسة الشرعية. قال العلماء: (وإنما كان قصد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بتصرّفه هذا في النخيل – قطعاً أو كفاً – تحقيق المصلحة وتلمّس السبيل إليها، إرشاداً وتعليماً للأئمة من بعده)[2].

إن ما قام به النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذه الحالة دون غيرها، وهي حالة فريدة في سيرته إنما لجأ إليها لحاجة، ولم يلجأ إليها إلا بعد أن اضطرّته الظروف إلى ذلك، ويقرر ذلك أنه كان ينهى عن قطع الأشجار في حروب أخرى.

إن الآية الكريمة السابقة كما يذكر ابن كثير في كتابه (السيرة النبوية) ذكر فيها الله تعالى حكمة ما وقع من تحريق نخلهم وترك ما بقي لهم، وأن ذلك كان كله سائغ، وأن الجميع قد أذن فيه الله تعالى شرعاً

---

(١) الحشر ٥.

(١) البوطي – محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، ط: ١١، ١٩٩١، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق – سوريه، ص ١٩٢.

وقَدَراً، فلا حرج على المؤمنين فيه، ولنعم ما رأوا، وليس هو بفساد كما قاله شرار العباد، وإنما هو إظهار للقوّة وإخزاء للكفرة والفجرة [١].

إن الجهاد يعتبر من قبيل حفظ الدين، كما أن به يتحقق الحفظ للنفس من الاعتداء، ومما لا شك فيه أن ما حرّق من نخيل إنما هو من قبيل المال، وكان إحراقه من أجل إعلاء كلمة اللّه تعالى ولضرورة وحاجة، فلا مانع في ذلك، حيث تتوازن المصالح حسب ضرورتها في الشريعة الإسلامية.

يقول محمد بكر إسماعيل حبيب في كتابه (مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً): (إذا كان مقصد (حفظ الدين) هو الأصل والغاية من الخلق وأفعالهم وتعبدهم، كان بيان وسائل الحفاظ عليه هو الأصل، وما عداه تبع له) [٢]. ويتضح من كلامه أن حفظ الدين تنتهك دونه المصالح، وفي هذه المعركة انتهكت حرمة حفظ المال لحساب مصلحة تعلوها وهي مصلحة حفظ الدين، بالإضافة إلى مصلحة حفظ النفس كذلك.

وهناك الكثير من الدلائل النبوية والتوجيهات المحمدية التي تقرر فيها تربية للنفس للمحافظة وحماية البيئة من أي انتهاك أو اعتداء أو

---

(١) ابن كثير – أبي الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، ج ٣، ت: مصطفى عبد الواحد، ط:١، ١٤٠٣ – ١٩٨٣، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ص ١٤٩.

(١) محمد بكر إسماعيل حبيب، مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً، سلسلة دعوة الحق، وهو كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة (٢٢)، ١٤٢٧، العدد ٢١٣، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية، ص ٣٠٥.

استنزاف، مما يجعل الأحاديث النبوية محرّمة لأي اعتداء على البيئة يؤدي إلى الإضرار بها دون حاجة ملحّة تتولّد من ذلك، وذلك على نحو المثال الذي ذكرناه مما اتخذه الرسول (صلى اللّه عليه وسلم) في غزوة بني النضير، وأنه متى كان إحداث التغيير في البيئة فيه منفعة تتحقق للإنسان تعلو المفسدة التي ستترتب فلا مانع منه، وعلى سبيل المثال لو أن أمة من الناس رأوا أن يبنوا جسراً في مكان ما، وأن ذلك يستدعي بعض الضرر في البيئة البحرية، فإنه لا مانع شرعاً من إقامته وإن سبب ضرراً للبيئة تغليباً للحاجة والضرورة، كما يجب أثناء القيام بهذا العمل مراعاة اتخاذ كافة الإجراءات الكفيلة بحماية البيئة أثناء تنفيذ العمل.

ثالثاً - التأصيل النبوي لحرمة الاعتداء على البيئة:

هناك الكثير من الدلائل في الأحاديث النبوية التي يمكن من خلال استقرائها استيضاح عددٍ من المحاور التي تقرر جانب الحرمة في الاعتداء على البيئة، وهي تشكل قواعد يمكن من خلالها بناء قاعدة التأصيل لحرمة الاعتداء على البيئة في المنهج النبوي، وفيما يلي ذكر وتحليل لأبرز ثلاثة أحاديث فيها.

١. ما روي عن أبي سعيد الخدري (رضي اللّه عنه): عن رسول اللّه (صلى اللّه عليه وسلم أنه قال: (لا ضرر ولا ضرار) [١].

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ في (كتاب الأقضية)، في المرفق (٤٦٤)، وأحمد في المسند ج ٣ ص ٤٥٣، وأبو داود في السنن (كتاب الأقضية – أبواب القضاء) ج ٣ ص ٣١٥، والترمذي في السنن في كتاب البر والصلحة – باب ما جاء في الخيانة والغش ج ٤ ص ٣٣٢، والدار قطني في السنن في كتاب الأقضية والأحكام ج ٣ ص ٢٨٨، وغير

وقد روي هذا الحديث بطرق متعددة وألفاظه مختلفة، وقد ورد في بعض رواياته: «ومن ضارّ صرّه الله، ومن شاقّ شقّ الله عليه» [(١)]. وفي بعضها: «ملعون من ضارّ أخاه المسلم أو ما كره» [(٢)].

وهذا الحديث له شواهد ينتهي مجموعها إلى درجة الصحة أو الحسن المعتد به. وقال أبو الفتوح الطائي في الأربعين له: إن الفقه يدور على خمسة أحاديث هذا أحدها. كما أن الحديث فيه تحريم جميع أنواع الضرر [(٣)]. ولم يرد في الشرع ما يبين المراد بالضرر الذي يوجب المسئولية من عدمه؛ لأن القاعدة الشرعية تقول: (كل ما ورد به الشرع مطلقا، ولا ضابط له فيه، ولا في اللغة يرجع فيه إلى العرف) [(٤)].

ذلك. وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام؟، ط: ١، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، العاصمة – الكويت، ص ٢٥.

(١) رواه البيهقي في السنن ج ٦ ص ٦٩ – ٧٠، والحاكم في المستدرك في كتاب البيوع ج ٢ ص ٧٥ و ٨٥. وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

(٢) رواه البيهقي في السنن ج ٦ ص ٦٩ – ٧٠، والحاكم في المستدرك في كتاب البيوع ج٢ ص ٧٥ و ٨٥. وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٥.

(٣) رواه الزرقاني في الموطأ ج ٤ ص ٣٢. وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

(٤) يراجع في ذلك الأشباه والنظائر للسيوطي ص ٦٩، وتبصرة الحكام ج ٢ ص ٦٦. وقد أورد هذا النقل زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

وقد اختلف اللغويون وشرّاح الحديث والفقهاء في المعنى المراد من اللفظين (الضرر والضرار)، فقال البعض: إنهما لفظان بمعنى واحد، وتكرارهما للتأكيد، والمشهور أن بينهما فرقا، ولكن اختلف في هذا الفرق على عدّة أقوال منها:

- قيل الضرر هو الاسم، والضرار هو الفعل، فالمعنى: أن الضرر نفسه منتف في الشرع، وإدخال بغير حق كذلك.
- وقيل: الضرر فعل الواحد، والضرار فعل الاثنين.
- وقيل: الضرر أن تضرّه وتنتفع أنت، والضرار أن تضرّه بغير أن تنتفع.
- وقيل: الضرر ابتداء الفعل، والضرار الجزاء على الفعل.

وقيل غير ذلك.

فهذا الحديث يعتبر قانونا عاما تقوم عليه فكرة عدم الإضرار بالآخرين في أي صورة من الصور، وفي كل الأحوال إلا ما استثني بدليله[1].

---

(١) . يراجع ما تقدم في ابن عبد البر في التمهيد ج ٨ ص ٢٣٩، طبعة دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤١٩ – ١٩٩٩، والباجي في المنتقي شرح الموطأ ج ٧، ص ٤٠٢، طبعة دار الكتب العلمية، ط: ١، ١٤٢٠ – ١٩٩٩، وابن العربي في كتاب القبس في شرح موطأ مالك ج ٣ ص ٩٢٨، طبعة دار الغرب الإسلامي، وابن الأثير، النهاية ج ٣ ص ١٨، وابن فارس في معجم مقاييس اللغة ج ٣ ص ٣٦٠، وابن منظور في لسان العرب ج ٦، ص ١٥٣، وابن رجب في جوامع العلوم والحكم ص ٣٨٢. وقد أورد هذه المراجعات زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

٢. ما روي عن أبي ذر : عن النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إني حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّما فلا تظالموا» [١].

يقول ابن عبد البر: (أصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، وأخذه من غير وجهه، ومن أضر بأخيه المسلم أو بمن له ذمّة فقد ظلمه، و (الظلم ظلمات يوم القيامة) كما ثبت في الحديث الصحيح [٢].

ويقول ابن رجب الحنبلي: (وقد فسّر كثير من العلماء الظلم بأنه: وضع الأشياء في غير مواضعها)، ومن هذا نعلم بأن الإضرار بالبيئة من قبيل الظلم والظلم حرام، ومن ثم لا يجوز فعل أي شيء يؤدي إلى الإضرار بالبيئة المائية أو الجوية أو البرية [٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، (باب تحريم الظلم، مسلم بشرح النووي ج ١٦، ص ١٣٢ . وقد أورد هذه الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٦.

(٢) يراجع في ذلك التمهيد لابن عبد البر، ج ٨ ص ٢٤٠، وهذا الحديث أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب المظالم، باب الظلم ظلمات يوم القيامة، وذلك من حديث عبد الله بن عمر (رضي الله عنه)، وأخرجه مسلم في صحيحه في كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، وذلك من حديث جابر بن عبد الله (رضي الله عنه)، (مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٣٤)، وأخرجه الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الظلم من حديث ابن عمر (سنن الترمذي في كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الظلم من حديث ابن عمر ج ٤، ص ٣٣١)، وأحمد (٢ / ١٣٢). وقد أورد هذه الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

(١) زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٨.

٣. ما روي عن ابن عباس (رضي الله عنه) قال: قال رسول (صلى عليه وسلم): (المسلمون شركاء في ثلاث: الماء والكلأ والنار، وثمنه حرام»[(١)].

فهذا الحديث يبين أن الناس شركاء في الانتفاع بالماء والكلأ والنار، فلا يجوز فعل أي شيء يؤدي إلى الإضرار بالماء، سواء عن طريق إلقاء المخلّفات أو النفايات، أو ما شاكل ذلك، ولا يجوز تلويث البيئة بحرق الكلأ – وهو العشب -؛ لأنه يؤدي إلى تلويث الهواء بالروائح الكريهة التي تضر بصحّة الإنسان، كما لا يجوز منع الانتفاع بالنار على حد سواء[(٢)].

إن الأدلة النبوية صريحة في تحريم أي اعتداء وأي إضرار على أي شيء بما فيها البيئة، وما تم تناوله من أحاديث نبوية شريفة تقرر ضرورة أن يحافظ المسلم على ما جعله الله تعالى تحت يده حتى يستعين

(١) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب البيوع – باب في منع الماء ج ٣ ص ٢٧، وابن ماجه في سننه في كتاب الرهون – باب المسلمون شركاء في ثلاث ج ٢ ص ٨٢٦ واللفظ له، وأحمد في مسنده ج ٥ ص ٣٦٤. قال ابن حجر: رجاله ثقات وذلك في كتابه (بلوغ المرام) ج ٣ ص ٨٦، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح، وذلك في كتابه (الخراج ليحي بن آدم) ج ٢ ص ١٠١. وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

(١) زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٩.

به فيما يكفل له معيشته، وأن لا يكون مستنزفا للخيرات الموجودة في البيئة لأنها ملك له وللأجيال التي بعده.

والجدير بالذكر أن هناك توجيهات نبوية تقتضي سلوكيات إيجابية مثمرة تجاه البيئة، والتي تقتضي كل ما من شأنه بناء وتحسين أوضاع البيئة، وهناك توجيهات نبوية سلوكيات سلبية مثمرة تجاه البيئة، والتي تقتضي الامتناع عن كل ما من شأنه الإضرار بالبيئة سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ومن هنا فإننا يمكن أن نعتبر التوجيهات النبوية في الحفاظ على البيئة توجيهات تقوم على تحسين السلوكيات والممارسات التي يمارسها الإنسان في علاقته مع البيئة، وذلك بما يجعل هذه العلاقة علاقة راقية يحترم فيها كل طرف حقوق الآخر وواجباته، وبما يكفل تحقيق هندسة التوازن البيئي التي نص عليها القرآن الكريم، والتي تدعو إلى التعامل بتوازن مع العناصر الحيوية في البيئة، وذلك بما يبعد عن الإفراط والتفريط، والإسراف والتقتير، وبما يكفل في النهاية تحقيق العلاقة المنشودة بين الإنسان والبيئة.

المبحث الرابع

التطبيقات الفقهية لحماية البيئة

إذا كانت النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التي ذكرنا شيئا مما تقرره دلالاتها منها فيما سبق تقرر وبوضوح منهجية متكاملة لحماية البيئة والمحافظة عليها، فإن التطبيقات الفقهية جاءت انعكاساً وتقريراً لما قررته النصوص الشرعية، ومن هنا فإن كتب الفقه في مختلف المذاهب قد قررت الكثير من التطبيقات الفقهية التي تعكس دعماً وتأييداً لما قررته النصوص الشرعية.

فها هو أبو حامد الغزالي يحث على تربية الطفل منذ نعومة أظفاره على الاعتدال في المأكل والمشرب فيقول: (وأول ما يغلب عليه – يعني الطفل – من الصفات شره الطعام، فينبغي أن يؤدّب فيه).

كما يحث في مقام آخر من الكتاب على الاعتدال في ملبس الطفل، والتحذير من تعويده على الإسراف والترف فيقول: (ولا يعوّده التنعّم، ولا يحبب إليه الزينة والرفاهية، فيضيّع عمره في طلبها إذا كبر، فيهلك هلاك الأبد) [1].

(١) نقلا عن الغزالي – أبي حامد من كتابه إحياء علوم الدين، ج ٣، ص ٧٢. وقد أورد هذا النقل عمر أحمد عمر، الإسلام ومشكلات العصر، ط:١، ١٤٢٠ – ١٩٩٩، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سوريا، ص ٦٨.

لقد قرر فقهاء الإسلام أن الشريعة الإسلامية حاكمة على جميع أفعال المكلفين، بحيث لا يخلو فعل من الأفعال عن حكم من هذه الأحكام الشرعية، فلا غرو أن تستوعب شؤون الدنيا والآخرة، وتضم العبادات والمعاملات، وتشمل العلاقة بالخالق والعلاقة بالخلق، وتضم في رحابها الاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية والثقافة، وكل ما يتصل بالحياة الإنساني.

يؤكد عبد المجيد طريباق في دراسته التي بعنوان: (منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة) بأن البعد البيئي في الفقه الإسلامي يتجلى في أحكام الطهارة من وضوء وغيره، وأحكام الصلاة وأوقاتها وصلتها بالبيئة، والزكاة وصلتها بالرصيد البيئي وتدبيره الإلهي، والصدقات والأوقاف وبعدها في البيئة الاجتماعية. ويتضح البعد البيئي بجلاء في أحكام الحج وتحريم الصيد فيه، وفي فرض حمى الحرمين، وفي حكم إحياء الأرض الموات، وأحكام المزارعة والمساقاة، وأحكام الحرب والسلم والجهاد وسائر المعاملات. وكما أن القوانين المتعلقة بالبيئة موزعة بين القطاعات التنموية والقوانين المرتبطة بها في الهندسة المدنية والصحة والزراعة وغيرها، فإن الأحكام الفقهية أيضا تنساب فيها الإشارات البيئية في العبادات والمعاملات على السواء.

ويؤكد من جانب آخر على أن المتتبع لأحكام الشريعة الإسلامية يمكنه العثور على الكثير من القرائن والأحكام التي تدل بالتلميح والتصريح على حماية البيئة والمحافظة عليها، وهي لو جمعت ونظمت

لأصبحت باباً فقهياً كسائر أبواب الفقه، كباب الطهارات والعبادات وأمثالها، وبين القواعد الكلية والجزئية في الفقه الإسلامي تجد البيئة نفسها محتضنة في أروع حصون الاجتهاد الفقهي المستوعب لأي تطور مادي أو معنوي لأنواع الضرر اللاحق بها وفي أي عصر تكنولوجي.

ويقرر في نهاية كلامه بأنه حيثما عاش وتوالد البشر فهناك نظام بيئي بشري قابل للالتزام بشريعة الله تعالى الذي خلق وسخّر، وهو ما يعني الانطلاق من وحدة النظام البيئي لبني الإنسان، وأن ما يصلحه في الشرق لا بد وأن يصلحه في الغرب، وما يحقق رخاءه في الجنوب لا يمكن أن يضيق على معايشه وحرياته في الشمال [1].

إن عناية الفقه بمختلف الجوانب التي تنظم انتفاع الإنسان بالبيئة انطلقت من اعتبار أن الشريعة الإسلامية حاكمةٌ على جميع أفعال المكلفين، بحيث لا يخلو فعل من الأفعال عن حكم من هذه الأحكام الشرعية، فرعاية البيئة ترتبط في الجملة والتفصيل بالأحكام الشرعية المرعية، فمختلف أبواب الفقه تتصل في جانب منها بتنظيم العلاقة بين البيئة والإنسان، على أن الفقه لا يتصل بالبيئة بوصفه (أحكاماً) فحسب، بل يتصل بالبيئة اتصالاً وثيقاً بوصفه (قواعد كلية) كذلك. ومما لا يرتاب فيه فقيه أن القواعد الفقهية الشهيرة التي ألفت فيها كتب كثيرة قديمة وحديثة يدخل كثيرٌ منها في أمر البيئة وينظمها ويحميها، وهذه القواعد الكلية يتفرع عنه قواعد جزئية شتى قررها الفقهاء منها:

---

(١) طريباق – عبد المجيد، منظور الإسلام إلى المحافظة على البيئة، مرجع سبق ذكره.

- الضرر يزال بقدر الإمكان، ولا سيما الضرر الفاحش.
- الضرر لا يزال بضرر مثله، بل بما هو أكبر منه.
- الضرر يدفع بقدر الإمكان.
- يتحمل الضرر الأدنى لدفع الضرر الأعلى.
- يتحمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام.
- الضرر الأشد يزال بالضرر الأخف.
- إذا تعارضت مفسدتان روعي أعظمهما ضرراً بارتكاب أخفهما.
- يختار أهون الشرّ
- درء المفاسد أولى من جلب المنافع.

إن هذه من القواعد الشرعية التي اعتمدتها (مجلة الأحكام العدلية) وجعلتها في مقدمة موادها التي قننت بها جوانب المعاملات في الفقه الحنفي، ورتبت عليها أحكام شتى. ومثل ذلك قاعدة (الضرورات تبيح المحظورات)، وقاعدة (الضرورات تقدر بقدرها)، وكذلك قاعدة (الإبطال لا يبطل حق الغير)، وقاعدة (الحاجة تنزل منزلة الضرورة خاصة كانت أو عامة)، وقاعدة (ما جاز لعذر بطل بزواله)، وقاعدة (إذا زال المانع عاد الممنوع).

وهذا كلها أيضاً من قواعد المجلة، وهي منصوص عليها في كتب الأشباه والنظائر للسيوطي الشافعي وابن نجيم الحنفي. كما أن هذه

القواعد وأمثالها هي كثيرة ومعروفة لها وزنها وأهميتها التي يمكن أن تفيد عند العمل على تقنين الأحكام المتعلقة برعاية البيئة والحفاظ عليها.

ثم إن هناك جانباً كبيراً من القواعد المقررة في الأحكام الفقهية التي تنظم علاقة الإنسان بالبيئة على نحو ما سنستعرضها تقرر وتوجب حماية المجموع من تجاوزات الأفراد، وإن كان ذلك حجر على حياتهم الفردية، فإن حريتهم ليست مطلقة، بل هي مقيدة بألا تضر بالآخرين (١).

وأصل ذلك الحديث الصحيح الذي رواه البخاري وغيره عن النعمان بن بشير (رضي الله عنه): أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم فقالو: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجو ونجوا جميعاً» (٢).

ومن الجدير بالذكر أن هناك جوانب متعددة بوّب لها الفقهاء (رحمهم الله)، والتي تعبّر عن مدى عناية المنهجية الإسلامية نظرة وتطبيقاً بالبيئة وبالحفاظ عليها من مختلف الجوانب التي قررت مدى أهمية الاعتناء بالبيئة والاهتمام بها، والتي منها أفضلية العمل بالزراعة

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٣٨.

(٢) المرجع السابق نفسه.

على العمل بالتجارة والصناعة، وما يتصل بإحياء الموات، وما قررته التطبيقات الفقهية في ذلك في العديد من المسائل.

أولا: أفضلية العمل في الزراعة على العمل في التجارة والصناعة

اتجه الفقهاء بناء على تحليلهم للنصوص الشرعية إلى أفضلية العمل في الزراعة على العمل في التجارة والصناعة، بل اعتبروا بناء على تحليلهم لدلالات النص على أن العمل في الزراعة يعد من قبيل فرض الكفاية؛ وذلك لشحذ الهمم نحو الانطلاق لآفاق واسعة رحبة في استصلاح أراضٍ جديدة وإعمارها بإخراج مائها ومرعاها، وقد كان اعتبار العمل بالزراعة من قبيل فرض الكفاية، وأفضلية العمل في الزراعة على العمل في الصناعة تحفيزاً لهمّة خلفاء المسلمين، وإجماع كلمتهم إلى العناية بكل ما يعود على الاستغلال الزراعي بالخير والنفع.

• **العمل بالزراعة من قبيل فرض الكفاية:** تعتبر الزراعة في أعلى مصاف فروض الكفاية من الصنائع والحرف، حيث بها قوام الحياة وقوت النفوس، وذلك بأن يقوم الزارع بها على نية إسقاط الفرض عنه وعن إخوانه المسلمين برفع الكلفة عنهم في تحصيل ما يقوم به.

ولقد أمعن فقهاء الشريعة الإسلامية النظر في نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية الدالة على مشروعية العمل بالزراعة، ووضعوا نصب أعينهم حاجة الأمة الإسلامية إلى هذا النوع من الحرف، فقرروا أن العمل بالزراعة فرض كفاية، فيجب على بعض المسلمين القيام به، وإلا تعرّضوا جميعاً لعقاب الله سبحانه وتعالى.

فنجد ابن الحاج المالكي قد بدأ بالفلاحة – أي عمل الزراعة – على رأس الصنائع أو الحرف، مبيّنا أنها أعظم بركة وأجراً ونجاحاً إذا كانت على وجهها الشرعي بقوله: (اعلم وفقنا الله تعالى وإيّاك أن جميع الصنائع فرض على الكفاية في الغالب، لكن بعضها آكد من بعض، فوقعت البراءة بما الغالب عليه التعبّد، فإذا فعل المكلّف ذلك فينبغي أن يقوم به عن نفسه وعن إخوانه المسلمين بنية فرض الكفاية).

كما ذهب أبو عبد الله الحبيشي الشافعي إلى أن الحاجة إلى الزراعة داعية، وأن درجتها رتبة عالية، ولا ينكر ذلك إلا من أنكر الوجود فيقول: (وقد عد العلماء الزراعة من فروض الكفايات في كثير من المصنّفات؛ لأنه لا يقوم أمر الدين والدنيا والمعايش كلها إلا بها، وما سبيله سبيلها كالنخل والعنب وغيرها، فإن تركها كل الناس أثموا كلهم، وإن فعلها من تحصل الكفاية بفعله سقط الحرج – الإثم – عن الباقين).

ويرى ابن قيّم الجوزية أن من حق ولي الأمر أن يلزم أرباب بعض الصناعات كالفلاحة وغيرها على القيام بأعمالهم إذا احتاج الناس بأجرة مثلهم، فإنه لا تتم مصلحة الناس إلا بذلك. ونقل عن بعض علماء الشافعية والحنابلة القول بأن تعلّم الفلاحة فرض على الكفاية لحاجة الناس إليها.

وبناء على القول بأن العمل في الزراعة فرض كفاية، فقد كره بعض العلماء تعطيل الأرض عن الزراعة مع الإمكان، وذلك كأن يترك الغراس دون ري أو خدمة؛ لأن في هذا التعطيل إضاعة للمال الذي يعتبر أحد المصالح الضرورية التي تتحقق برعايتها مقاصد الشريعة.

• **دلائل الأفضلية وعلته:** هناك من العلماء من فضّل العمل في الزراعة على العمل في التجارة والصناعة، ومن الأقوال المختارة لعلماء الشريعة الإسلامية في ذلك:

- ذكر ابن الحاج في كتابه المدخل إلى تنمية الأعمال بتحسين النيات قوله: (تعتبر الفلاحة في أعلى مصافّ الصنائع والحرف؛ لأن بها قوام الحياة وقوت النفوس).

- ذكر الكرماني في شرحه لصحيح البخاري تحت باب (فضل الغرس الزرع) عند شرحه لأحد الأحاديث ما نصه: (وفي الحديث فضيلة الزراعة والغرس، واختلفوا في أفضل المكاسب، فقيل التجارة، وقيل الصناعة،، وقيل الزراعة، وهذا هو الصحيح).

- ذكر النووي في شرحه لصحيح مسلم تحت باب (فضل الغرس والزرع) ما نصّه: (وقد اختلف العلماء في أطيب المكاسب وأفضلها، فقيل التجارة، وقيل الصنعة باليد، وقيل الزراعة وهو الصحيح).

- ذكر السرخسي في المبسوط عند بيانه لحديث في فضل الغرس والزرع ما نصّه: (وفيه دليل أن المسلم مندوب إلى الاكتساب بطريقة الزراعة والغراسة، ولهذا قدّم بعض مشايخنا – رحمهم الله – الزراعة على التجارة؛ لأنها أعم نفعا وأكثر صدقة).

وعندما نفتّش عن العلّة من تفضيل العمل بالزراعة على التجارة والصناعة، فإننا نجدها متمثّلة في عدّة نقاط هي:

- أن الزراعة أعم الحرف نفعا؛ إذ لا يقتصر نفعها وخيرها على الزارع وحده، وإنما هو متعد للزارع وإلى إخوانه من المسلمين ولعامة البشر، ولغيرهم من الطيور والبهائم بل وحتى الحشرات، فالزراعة أفضل لعموم النفع بها للآدمي وغيره، ولعموم الحاجة إليها، فهي مادة أهل الحضر وسكان الأمصار والمدن في الحصول على الأقوات.

- أنه بالغراس والزراعة تجري الصدقات، ويدّخر الأجر وثواب ذلك إلى يوم القيامة، ويؤيد ذلك الحديث الذي أخرجه مسلم عن جابر بن عبد اللّه (رضي اللّه عنه) بهذا الشأن في روايات مختلفة، منها قوله (صلى اللّه عليه وسلم): «ما من مسلم يغرس غرساً إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يرزؤه [(١)]. أحد إلا كان له صدقة» [(٢)].

- بالزراعة يحدث العمل والاحتراف من عمل اليد، والذي يتحرى فيه الإنسان الكسب الحلال لسلامة القوت الذي به صلاح القلب، وبه يصفو الباطن ويكثر الخشوع، فالزراعة من أحل وأطيب المكاسب بشرط اجتناب الظلم والاعتداء، وأي تعد لحدود الشريعة [(٣)].

---

(١) أي ينقصه ويأخذ منه.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، ج ١٠، ص ٢٣١. وقد أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة (١٤)، ١٤١٦، العدد (١٦٤)، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية، ص ٤١.

(٣) . عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٣٥.

- وهناك فائدة رابعة أضيفها إلى ما سبق، وهي تتمثل في أن العمل في الزراعة من شأنه أن يحفظ الأمن الغذائي للأمة وللإنسانية جميعا، كما أنه يزيد الرقعة الخضراء في الأرض، والتي بدأت تأخذ بالانكماش ما أدى إلى الاختلال في التوازن البيئي.

فهذه الأحاديث تقرر في توجيهاتها التأكيد على كل ما من شأنه حفظ كيان البيئة وحرمتها، والحث على كل ما من شأنه تعزيز الحماية للبيئة من الأضرار البيئية التي تؤدي إلى الاختلال البيئي، والذي من شأنه تهديد الإنسان بما جنته يده، وهذه الفائدة من الفوائد التي تستفاد ضمناً من هذه الأحاديث، فهي ذات دلالة واضحة على تأكيد التكافل البيئي في التعامل وبناء العلاقة مع البيئة، واحتساب الأجر في ذلك عند الله سبحانه وتعالى.

ثانياً - إحياء الأراضي الموات في الإسلام:

لم تقف حدود التوجيهات الشرعية عند الحث على الزراعة، وكراهة عدم استغلال الأرض الصالحة لذلك لغرض الزراعة فحسب، بل حثّت على أمر هام نص عليه جميع الفقهاء على اختلاف مذاهبهم، وهو إحياء الأراضي الموات، وذلك بزراعة الأرض الجدباء وتعميرها، ورتّب على ذلك أحكام تنظم المسألة بما يعود بالنفع على الأمة والبشرية جمعاء.

لقد جاءت تعاليم الإسلام الحميدة تنادي وتدعو إلى العمل وإتقانه وإخلاصه، وتشجّع على الإنتاج وزيادته وصولا وتحقيق لمجتمع الكفاية والعدل. ومن أحكام الإسلام التي تقرر ذلك ما يتصل بالأدلة الصريحة التي تثبت مشروعية إحياء الموات، ولعل أهمها:

- عن سعيد بن زيد وجابر بن عبد الله (رضي الله عنهما)، أن رسول الله قال: «من أحيا أرضا ميتة فهي له»[١]. وزاد سعيد بن زيد: «وليس لعرق ظالم حق». وهذا الحديث أخرجه الترمذي[٢]. في سننه عنهما، وأخرجه أبو داود في سننه عن سعيد وحده.

- عن عروة بن الزبير عن عائشة (رضي الله عنها)، عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «من عمّر[٣]. أرضا ليست لأحد فهو أحق بها». قال عروة بن الزبير: قضى به عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في خلافته.

---

(١) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. وقد نقل هذا الحديث عن الترمذي في الهامش قوله في هذا الحديث الذي روى عن جابر: (هذا حديث حسن صحيح)، بينما في الحديث الذي روي عن سعيد قال: (هذا حديث حسن غريب)، وذلك نقلا عن ابن العربي المالكي في عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي، دار الوحي المحمدي بشبرا، القاهرة – مصر، ج ٦، ص ١٤٦ – ٤٩.

(٢) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. وقد نقل هذا الحديث عن سنن أبي داود، ج ٢، ص ١٥٨، مصطفى الحلبي، القاهرة – مصر، وابن القيم الجوزية في عون المعبود شرح سنن أبي داود، ت: عبد الرحمن محمد عثمان، ط: ٣، ١٩٧٩، دار الفكر، بيروت – لبنان، ص ٣٢٦ – ٢٧.

(٣) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٥٩. والحديث في رواية البخاري وله: (من أعمر) بفتح الهمزة والميم من الرباعي، وقد علق على ذلك = الحافظ بن حجر في مرجعه فتح الباري ج ٥ ص ٢٠ بقوله: (قال عياض: كذا وقع الصواب (عَمَرَ) ثلاثيا، كما في وقول الله تعالى: (وعمروها أكثر مما عمروها).

وهذا الحديث أخرجه البخاري [١]. في صحيحه، كما أخرجه أحمد في مسنده [٢]. برواية شبيهة بالرواية السابقة بقوله: عن عائشة (رضي الله عنها) قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من عمّر أرضا ليست لأحد فهو أحق بها».

- عن جابر بن عبد الله (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): «من أحيا أرضا ميتة فهي له، وما أكلت العافية [٣]. منها فهو له صدقة». والحديث روي بروايات كثيرة، وقد أخرجه أحمد [٤]. في مسنده، وابن حبّان [٥]. في

(١) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. وقد قال في الهامش أنه من صحيح البخاري (بيروت: دار الفكر)، ج ٣، ص ٧٠، كتاب الحرث والمزارعة، تحت رقم (١٥).

(٢) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. وذلك نقلا عن مسند أحمد بن حنبل (الطبعة الثانية، دار الفكر، بيروت)، ج ٦، ص ١٢٠.

(٣) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. والعافية: كل طالب رزق من إنسان أو بهيمة أو طائر، ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، ص ٢١٩.

(٤) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥. وذلك نقلا عن ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر، ج ٣، ص ٣٠٤ – ٣٢٧ – ٣٣٨ – ٣٥٦ – ٣٨١، وذلك في عدة روايات.

(٥) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠. وذلك نقلا عن كتاب الإحسان بترتيب صحيح ابن حبان، ط: ١، ١٩٨٧، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ص ٣١٩ – ٢٠.

صحيحه، والدارمي في سننه [(١)].

فهذه الأحاديث التي ذكرها عاطف أبو زيد سليمان في كتابه (إحياء الأراضي الموات في الإسلام) صريحة وواضحة في الحث على إحياء الأراضي الموات، وابتغاء الأجر والثواب في ذلك من عند اللّه تعالى، هذا بالإضافة إلى تحقيق النفع للبيئة بما فيها من مخلوقات، كما أن في إحياء الموات منافع ترتجى منها ما يتصل مباشرة بنفع التوازن البيئة والتنمية السكانية السليمة في البلاد، ومن هذه الفوائد:

- **إضافة موارد اقتصادية جديدة:** لا شك أن إحياء الأراضي الموات يؤدي إلى زيادة الرقعة المستغلّة زراعيا، وهذا ما يعكس تلبية لاحتياجات المجتمع الذي تحيا فيه هذه الفضيلة، مما يدفع عجلة التنمية في الاقتصاد نحو تحقيق الرفاهية الاقتصادية للمواطنين.

- **إعادة توزيع السكان جغرافيا:** إن انتهاج الدولة لسياسة حكيمة للتوسّع الزراعي الأفقي مستنيرة في ذلك بهدي وشرع الإسلام الحنيف في إحياء الأراضي الموات سوف يفسح المجال لتخفيف التركيز السكاني الحادث في مناطق محددة بعينها دون غيرها، والعمل على تشجيع السكّان على الانتقال إلى المناطق الصحراوية لتعميرها وإقامة مجتمعات عمرانية جديدة بها.

(١) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٦٠. وذلك نقلا عن سنن الدارمي، السيد عبد اللّه هاشم، سلسلة مطبوعات كتب السنة النبوية (٧)، ١٩٦٦، ج ٢، ص ١٨١، الرياض – السعودية.

- **تحقيق النفع للتوازن البيئي:** مما لا شك فيه أنه إذا كانت زراعة الأراضي الصالحة للزراعة، وعدم إهمال الاعتناء والاهتمام بها إذا كان يؤدي إلى تعزيز التوازن البيئي، فإنه ومن دون شك يؤدي إحياء الأراضي الموات إلى تعزيز ذلك؛ إذ تؤدي عملية إحياء الموات إلى زيادة الرقعة الزراعية، ولذلك فائدتان، فأما الأولى فتتمثل بما ذكرته في النقطة الثانية، وهي التخفيف من تكدّس السكان في مكان واحد، ولذلك نفع بيئي كبير، هذا فضلا عن أن زيادة الرقعة الخضراء تزيد من إعادة هندسة التوازن البيئي في أجمل صورها [(١)].

ثالثاً - حماية البيئة كما قررتها التطبيقات الفقهية

تتنوع صور الأضرار البيئية التي تقع على الإنسان نتيجة إفساد البيئة التي يعيش فيها، وقد بيّن الفقهاء صوراً عديدة من هذه الأضرار في ثنايا مؤلفاتهم، فهناك بعض النقول عنهم تعكس جانبا من المعاني السامية للحفاظ على البيئة في المنهج والمنظور الإسلامي، وذلك في معالجة الأضرار البيئية بمختلف تشعباتها، والمتمثلة في:

- أضرار البيئة الجوية.
- أضرار البيئة الأرضية.
- أضرار البيئة المائية.

---

(١) أورد هذا الحديث عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥.

ونجمل في هذا المقام القول في هذه الأنواع من الأضرار وذلك على النحو التالي:

• **أضرار البيئة الجوية:**

هناك صورٌ متعددةٌ للإضرار بالبيئة الجوية ذكرها الفقهاء، ومنها:

١. **ضرر الروائح والغازات المؤذية:** وهي أضرار تفسد الهواء وتعرض صحة الإنسان للخطر. وقد اتجه الفقهاء إلى وجوب المنع من هذه الأضرار، وذلك حتى لو فعل الإنسان ذلك في ملكه الخاص، وذلك متى فعله على غير المعتاد، ومن النصوص التي تقرر ذلك في مختلف المذاهب الفقهية.

• **من الفقه الحنفي:** حيث جاء في الفتاوى الخائية أنه (يمنع من يريد أن يمارس الدباغة في داره إن كان يحصل من ذلك أذى للجيران على الدوام). كما جاء في جامع الفصولين أنه: (لو اتخذ داره حمّاما ويتأذى الجيران من دخانه فلهم منعه، إلا أن يكون الحمّام مثل دخّان الجيران). وجاء أيضا: (منع المالك من هدم داره إذا ترتب عليه ضرر بالجيران)، وذلك بأن يترتب ضرراً غير معتاد، فعلى المالك أن يتبع الوسائل التي تدفع الضرر عن الجيران، وإلا منع من استخدام حقه. وتقول المادة (١٢٠٠) من مجلة الأحكام العدلية، والتي قننت على المذهب الحنفي: (يدفع الضرر الفاحش بأي وجه كان، مثلاً لو اتخذ في اتصال دار وكان حداداً أو طاحون، وكان يحصل من طرق الحديد ودوران الطاحون وهن لبناء تلك الدار، أو حدث فرناً أو معصرة بحيث

لا يستطيع صاحب الدار السكنى فيها لتأذيه من الدخان أو الرائحة الكريهة، فهذا كله ضرر فاحش).

• **من الفقه المالكي:** يرى المالكية منع كل ذي رائحة كريهة إذا تضرر بها الجيران، وهذا ما بينتهم كتبهم، حيث جاء في المدوّنة الكبرى في باب ما جاء في اتخاذ الحمامات والأفران والأرحية: (قلت: أرأيت إن كان لي عرصة إلى جانب دور قوم فأردت أن أحدث في تلك العرصة حمّاماً أو فرناً أو موضعاً لرحا فأبى علي الجيران ذلك، أيكون لهم أن يمنعوني في قول مالك. قال: إن كان ما يحدث ضراراً على الجيران من الدخان وما أشبهه، فلهم أن يمنعوك من ذلك؛ لأن مالكاً قال: يمنع من ضرر جاره، فإن كان هذا ضرر منع من ذلك). وقال الفقيه أحمد الونشريسي: (لا يجوز إحداث اصطبل إذا أضر بالجار). ويقول بعد ذلك: (ليس لصاحب بيت أن يزيد على آخر إذا أضر الدخان بالجيران). وقال العلامة الكشناوي: (لا يجوز لشخص أن يحدث شيئا يضر بجاره، وذلك كالمسبكة والحمّام والمدبغة والمجزرة وغيرها مما يتأذى به الجار).

• **من الفقه الشافعي:** جاء في كتب الشافعية ما يفيد منع كل ذي رائحة كريهة، وذلك إذا تضرر به الآخرون، حيث جاء في كتبهم: (يحرم على الشخص إحداث فرن أو رحى أو معصرة، لوجود الضرر بالدخان وصوت الرحى وما أشبه ذلك). وجاء أيضا: (يمنع الشخص أن يتخذ داره المحفوفة بمساكن مدبغة، وكذا الجلود مما يؤذي حيث كان ثم من

يتأذى به). وقد أفتى فقهاء الشافعية بتضمين من جعل داره بين الناس معمل نشادر وشمّه فماتوا بسبب ذلك.

• **من الفقه الحنبلي:** حيث جاء في كتب الحنابلة: (يمنع ما كان يضر بالسكان كما لو كانت رائحته خبيثة، ومن ذلك أن يجعل داره مدبغة، أو أن يلقى في ساحته الحيوانات الميتة، أو أن يحدث كنيفاً يتأذى جيرانه برائحته). وبيّن شيخ الإسلام ابن تيمية كيفية المنع بقوله: (ومن كانت له ساحة تلقى فيها التراب والحيوانات ويتضرر الجيران بذلك، فإنه يجب على صاحبها أن يدفع ضرر الجيران، إما بعمارتها أو إعطائها لمن يعمرها أو يمنع أن يلقى فيها ما يضر بالجيران).

وخلاصة المسألة في ذلك أن مختلف النصوص من مختلف المذاهب تبين بأن التصرفات الضارة ممنوعة باتفاق الفقهاء، ولو حصلت وترتب عليها الضرر كان المتسبب ضامناً لما الحق بالآخرين من ضرر. كما أن استعمال الحق ليس مطلقا، بل هو مقيّد بعدم الإضرار بالآخرين، فقد يستعمل الإنسان حقه استعمالاً صحيحاً ولكن يترتب على فعله الإضرار بالآخرين.

ويتبين كذلك أن كل ما يمنع الحوائج الأصلية للسكنى يعد ضرراً فاحشاً يجب رفعه، ومن الحوائج الأصلية للساكن أن يكون هواؤه الذي يستنشقه هو وأسرته خالياً مما يفسده، خصوصاً إذا اتسم بالاستمرارية.

٢. **ضرر الأصوات المزعجة:** وهي الأصوات العالية الناجمة عن

ممارسة أرباب الصناعات لحرفهم، وقد صرح كثير من الفقهاء بمنع الأصوات التي تعيق الراحة والاستقرار وقت الهدوء؛ وذلك لأنها تسبب إزعاجاً للجيران، ومما ذكروه في ذلك:

• **من الفقه الحنفي**: حيث جاء في الفتاوى الهندية: (وللجيران منع دقّاق الذهب من دقّه بعد العشاء إلى طلوع الفجر). وجاء في شرح فتح القدير: (وفي الذخيرة حكى بعض مشايخنا رحمهم الله أن الدار إذا كانت مجاورة لدور فأراد صاحب الدار أن يبني فيها تنوراً للخبز الدائم، أو رحى للطحن، أو مدقّة للقصّارين يمنع منه؛ لأنه يتضرر به جيرانه ضراراً فاحشاً، قيل وأجمعوا على منع الدق الذي يهدم الحيطان ويوهنها، ودوران الرحى من ذلك). ثم يقول: (وأما التوسّع إلى منع كل ضرر ما يفسد باب الانتفاع بملك الإنسان).

• **من الفقه المالكي**: جاء في البيان والتحصيل: (ما يحدثه الرجل في ملكه مما يضر بغيره ينقسم إلى ثلاثة أقسام، : منه ما يمنع باتفاق، ومنه مالا يمنع باتفاق، ومنه ما يختلف في حكمه). ثم قال: (ومما لا يمنع باتفاق من ذلك ضرر الأصوات كالحدّاد والكما والنداف، حكى ابن حبيب أنه لا يمنع. وذهب بعض الفقهاء المتأخرين إلى أنه يمنع من ضرر الأصوات). ونقل هذا النص ابن عبد الرفيع. ويبين صاحب التاج والإكليل الصوت الذي لا يمنع فيقول: (والصوت لا يخرق الأسماع، ولا يضر بالأجسام فلا يمنع إلا أن يضر بالجدران فيمنع). ويتبين من هذه النصوص أن ضرر الأصوات مختلف فيه بين فقهاء المالكية، وقد جمع

ابن فرحون والتسولي هذه الآراء فقالا: (ضرر الأصوات حكى ابن ناجي فيه أربعة أقوال: قيل منعوه مطلقا، وبه العمل عندنا، وقيل يمنع مطلقا. قاله ابن عتّاب، وبه أفتى شيوخ طليطلة، وقيل إن عمل بالنهار فالأول وبالليل فالثاني، وقيل يجوز إن خف ولم يكن فيه كبير مضرة).

• **من الفقه الشافعي:** جاء في حاشية البجيرمي: (يحرم على الشخص ... وصوت الرحى وما أشبه ذلك). وجاء في شرح جلال الدين المحلي على منهاج الطالبين: (ويتصرف كل واحد من الملاك في ملكه على العادة ولا ضمان عليه إن أفضى إلى تلف، فإن تعدى العادة ضمن ما تعدى فيه. والأصح: أنه يجوز أن يتخذ داره المحفوفة بمساكن حماماً واصطبلاً وطاحونة وحانوته في البزارين حانوت حداد أو قصّار، إذا احتاط واحكم الجدران بما يليق بمقصوده، والثاني: يمنع ذلك لما فيه من الضرر، وعورض بأن في منعه إضرارا به).

• **من الفقه الحنبلي:** جاء في الإنصاف: (الصحيح من المذهب أن الجار يمنع من التصرف في ملكه بما يضر جاره، وعمل دكان قصارة يتأذى بكثرة دقه، أو رحى يتأذى بها جاره، ونحو ذلك، وعليه جماهير الأصحاب). وجاء في كشّاف القناع: (ويحرم على الجار إحداثه في ملكه ما يضر بجاره، وجعله دكان قصارة أو حدادة يتأذى بكثرة دقّه، ويتأذّى بهزّ الجدران من ذلك، وبنصب الرحى يتأذى بها جارة ونحو ذلك).

إن الفقهاء تحدثوا أن الشخص إذا تصرف في ملكه على وجه العادة، وبيّنوا بأنه يجوز أن يتصرف في ملكه ولو ترتب على ذلك ضرر

بالآخرين، وذلك طالما تصرف فيه على الوجه المعتاد، واتخذ من الوسائل اللازمة ما يمنع إلحاق الضرر بالآخرين، أما إذا كان تصرفه في ملكه على غير الوجه المعتاد، وترتب على ذلك الإضرار بالآخرين، فقد اختلف الفقهاء في ذلك:

- منهم من منع مطلقا؛ لأنه يترتب عليه ضرر بيّن بالآخرين.
- منهم من لم يمنع مطلقا؛ لأنه يتصرف في ملكه، ومنعه من ذلك إضرار به.
- منهم من جعل المنع في بعض الأوقات دون البعض الآخر، فجعلوه بالنهار ومنعوه بالليل.
- لا يمنع إن خف العمل، ولم يكن فيه مضرّة كبيرة.

ويستقر زكي زكي زيدان على أن الصوت إذا كان فيه ضرر كبير ويستدام يمنع؛ لأنه يؤدي إلى إلحاق الضرر البيّن بالآخرين، أما إذا كان في بعض الأوقات وليس فيه مضرّة فلا يمنع؛ لأن في منعه سيكون إلحاق الضرر بالمالك، فمنعه يجعله لا يستطيع التصرف في ملكه.

ومما تجدر الإشارة إليه أن الأصوات المزعجة من غير المالك ممنوعة باتفاق الفقهاء، إذ أن من يفعل ذلك ليس له الحق فيما يفعل إلا إذا كانت له حاجة، بل يجب أن يعاقب إذا تلاعب بهذه الوسيلة لغير غايتها.

• أضرار البيئة الأرضية:

يعد زكي زكي زيدان أضرار الطرق العامة من أبرز الأضرار على البيئة الأرضية، ويسرد في ذلك خمسة أصناف من الأضرار تتمثل في:

١. **ملكية الطرق العامة:** حيث يصرّح الفقهاء بملكية الطرق العامة، فهي حق مشترك بين العامة، وليست ملكاً لأحد من الناس. وقد بيّن القرافي في الفرق بين قاعدة الملك وقاعدة التصرف إذ يقول: (إن المساجد والربط والخوانق ومواضع المطاف والسكك ومقاعد الأسواق لا ملك فيها مع المكنة الشرعية من التصرف). وورد أيضا في كشاف القناع أن الطريق النافذ ملك للمسلمين كلهم، وهذا لا يمنع من اعتبار تلك المرافق من أملاك الدولة العامة التي ينتفع بها الأفراد بحكم تخصيصها المباشر على سبيل إباحة الانتفاع.

٢. **الوقوف في الطرق العامة:** فقد صرح الفقهاء بجواز الوقوف والجلوس في الطرق العامة بشرط ألا يضيق على المارة، وفي ذلك يقول جلال الدين المحلي من الشافعية: (منفعة الشارع الأصلية المرور فيه، ويجوز الجلوس فيه لاستراحة ومعاملة ونحوهما إذا لم يضيّق على المارة، ولا يشترط إذاً الإمام في ذلك لاتفاق الناس عليه على تلاحق الأعصار من غير نكير، وله تظليل مقعده فيه ببارية وغيرها مما لا يضرّ بالمارّة).

٣. **ما يحدث الإنسان في الطرق العامة:** إذ قد يفعل الإنسان بعض الأشياء التي تؤدي إلى تضييق الطرق العامة، وذلك كبناء دكان أو بلكونة أو كنيف، أو يخرج ميزابا على الطريق العام، أو ما شاكل ذلك، وللفقهاء في ذلك خلاف في المسألة.

- في المذهب الحنفي: يجيز الفقهاء الأحناف ذلك، ويشترطون ألا يحول بين أهل الطريق وبين المرور فيه، وإن كان لا يضر بأحد لسعة الطريق جاز له إحداث ذلك ما لم يمنع منه.

- في المذهب المالكي: قال محمد بن رشد: (اتفق مالك وأصحابه فيما علمت أنه لا يجوز لأحد أن يقتطع من طريق المسلمين شيئًا فيزيدوه ويدخله في بنيانه، وغن كان الطريق واسعاً جداً لا يضره ما اقتطع منه، ولم ير مالك بأسا في المسجد، وحكى ابن وهب عن ربيعة في المجموعة أنه لا يجوز لمن بنى مسجداً في طائفة من داره أن يتزيد فيه من الطريق).

- في المذهب الشافعي: قال الإمام الشيرازي: (وإن أخرج جناحاً إلى طريق لم يخل، إما أن يكون الطريق نافذاً أو غير نافذ، فإن كان الطريق نافذاً نظرت، فإن كان الجناح لا يضر بالمارة جاز، ولم يعترض عليه). وقال سليمان البجيرمي: (يجوز للإنسان أن يشرع بشروط ثلاثة: أن يكون مسلماً، وألا يضر المارة، وألا يظلم الموضع إظلاماً مخالفاً للعادة، ويضر ضرراً لا يحتمل العادة).

- من المذهب الحنبلي: قال علاء الدين المرداوي: (ولا يجوز أن يشرع إلى طريق نافذ جناحاً ولا ساباطاً، وكذلك لا يجوز أن يخرج دكّة، وهذا المذهب مطلقاً نص عليه في رواية أبي طالب وابن منصور ومهنا وغيرهم، وعليه جماهير الأصحاب، وقطع

به كثير منهم، وهو من مفردات المذهب، وحكى عن الإمام أحمد (رحمه اللّه) جوازه بلا ضرر).

وخلاصة المسألة في ذلك أنه إن كان الإحداث سيضر بأهل الطريق ويحول بينه وبين المرور فيه فإنه يمنع باتفاق الفقهاء، وإن كان لا يضر بأهل الطريق ففيه أربعة أقوال:

- يجوز له ذلك أذن له الإمام أم لم يأذن، وسواء منعه الناس أم لم يمنعوه.
- يجوز إن لم يمنع الإمام أو الناس، فإن منعوا لم يجز.
- يجوز له ذلك إن أذن له الإمام أو نائبه.
- لا يجوز له ذلك إن لم يأذن له الإمام أو نائبه.

٤. من له حق الاعتراض على هذا الإحداث: قال الإمام أبو حنيفة النعمان: (لكل أحد من عرض الناس مسلماً كان أو ذمياً أن يمنعه من الوضع، سواء كان فيه ضرر أو لم يكن إذا أراد الوضع بغير إذن الإمام؛ لأن فيه الافتيات على رأي الإمام فيما إليه تدبيره، فلكل أحد أن ينكر عليه، وبه قال أبو يوسف، وقال محمد: ليس لأحد حق المنع إذا لم يكن فيه ضرر؛ لأنه مأذون في إحداثه شرعاً، فهو كما لو أذن له الإمام). وقال شمس الدين السرخسي: (لا يقضى عليه بالهدم بخصومة العبيد والصبيان والمهجورين).

٥. **تقادم ما يحدثه الإنسان في الطريق:** بيّن الفقهاء أن الأشياء الضارة بالمارين ضرر فاحشا ترفع ولو كانت قديمة، وذلك كالغرفة والبروز والدانيين، فإنه يجب رفعهما؛ لأنهما بوضعهما المذكور يصطدمان بالمارين وبدوابهم وأحمالهم، فيحصل الضرر لهم، والضرر يجب أن يزال ولو كان قديما. فقد قال ابن عابدين: (الضرر البيّن يزال ولو قديماً). وقال القاضي عبد الرحمن بن قاسم الشعب: (سئل سحنون عن رجل يدخل من زقاق المسلمين شيئاً في داره، والزقاق نافذ فلا يرفع الجيران ذلك إلى الحاكم، ولا يشهدون به إلا بعد عشرين سنة، فقال: (يهدم بناؤه، ويرد إلى الزقاق إذا صحّت البيّنة، ولا تملك الأزقّة ولا تحاز فيها حيازة) [(١)].

• أضرار البيئة المائية:

لقد ورد في كتب الفقهاء أن الإضرار بالماء أياً كان نوعه أمر لا يجوز، وأن من يفعل ذلك يمنع؛ وذلك لأن قطع الضرر واجب، كما بين الفقهاء أن لكل إنسان أن ينتفع بهذه المياه، وذلك بشرط عدم الضرر بها.

ففي الفقه الحنفي قال ابن شحنة في المياه العامة: (ولكل أحد نصب الطاحون والساقية والدالية واتخاذ المشرعة واتخاذ النهر إلى أرضه بشرط ألا يضر بالعامة فإن ضر يمنع من ذلك، وإن أضر وفعل فلكل واحد من أهل الدار مسلماً أو ذمياً أو امرأة أو مكاتب منعه).

---

(١) . زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٤٠.

وفي الفقه المالكي قال القاضي عياض عندما سئل عن إحداث المراحيض على المياه، فكان جوابه الحكم بأن قطع الضرر واجب، والقضاء به لازم، قام بذلك أهل الجنات ومن سواهم بالحسبة، وعلى الحاكم أن ينظر في ذلك إذا اتصل به الأمر، وإن لم يقم عنده قائم فليبعث إليه العدول، فإذا شهدوا عنده به قضى بتغيره لما في ذلك من الحق لجماعة المسلمين خارج الجنات.

وفي الفقه الحنبلي قال ابن قدامة المقدسي: (وإن أراد أن يسقي أرضاً، وكان الماء في نهر عظيم لا يستضر أحد بسقيه، جاز أن يسقي كيف شاء؛ لأنه لا ضرر فيه على أحد).

وخلاصة القول في ذلك أن الفقهاء اشترطوا في الانتفاع بالمياه من البحار والمحيطات والأنهار عدم الإضرار بأحد، وقد تكلم الفقهاء عن صور الإضرار في زمانهم، وينبغي أن نقيس على هذه الصور كل ما يؤدي إلى الإضرار بالمياه في عصرنا الحاضر [1].

ومن خلال ما سبق استعراضه يتضح أن الفقهاء قد فرّعوا تطبيقاتهم الفقهية ومسائلهم التفصيلية على ما قررته النصوص الشرعية المتمثلة في الكتاب والسنة، وما كانوا قد اختلفوا فيه فإنه كان ناجماً عن اختلاف في فهم النص ليس إلا وفقاً لمقتضيات الواقع ومعطياته. كما تجد من خلال أحكامهم أنها بطبيعتها تنظم علاقة

---

(١) . المرجع السابق، ص ٧٧.

الإنسان بالبيئة، وتحاول أن توازن بين حرية الشخص فيما يملك، وما قررته الشريعة السمحاء من منع للضرر والضرار، والتحرز عن كل سلوك أو فعل يضر مستخدماً آخر للبيئة.

ومن هنا نجد أن الفقهاء من خلال مسائلهم وتفريعاتهم وتناولهم قد نظّموا علاقة الإنسان بالبيئة، وعلاقة الإنسان بالإنسان أثناء التعامل مع البيئة، وأن هذه العلاقة ينبغي أن تنطلق من خلال فهم يغرس أن استهداف عدم الإضرار بالآخرين، والتحرز عنه سبيل لكسب الكثير من الثواب والأجر، وأن الإنسان متى كان ضرره متعمداً للبيئة ودون حاجة لذلك، فإن ولي الأمر عليه أن يحاسبه، أما عن كان يتصرف وفقاً لنظام البلد الذي يعيش فيه فإن عليه أن يتحرز عن ارتكاب أي ضرر قد يلحق ممن يستفيد من البيئة ويحتاج إليها.

إن النصوص القرآنية توجه وبوضوح إلى تجنّب الإضرار بالبيئة، وتتكلم عنها وكأنها أمانة في يد الإنسان، وأن عليه أن يحفظ عليها، وأن الإضرار بهذه البيئة يغضب الله سبحانه وتعالى عليه ويبعده عن دائرة المحبة الإلهية. كما أن السنة النبوية من جانب آخر تربي وتوجه النفس نحو امتثال كل سلوك موجب يفيد هذه البيئة، وينهى عن كل فعل قد يضر بها، وعلى غرار ذلك كانت التطبيقات الفقهية، والتي عكست فلسفة وحقيقة التوجيه في هذه النصوص على أرض الواقع، فكان فيها الالتزام والتوجيه والتنظيم لعلاقة الإنسان بالبيئة، وأن عليه ألا يضر بها دون حاجة، كما كان فيها الالتزام والتوجيه والتنظيم في علاقة كل مستفيد

ومستخدم بهذه البيئة، وذلك على نحو لا يضر بمصالح الآخرين، ونادت من أجل ذلك بضرورة أن يمارس المجتمع ويعتاد ويتأدب بسلوكيات لا تمنع الشخص من الاستفادة من ملكه، وفي ذات الوقت تصب في المصلحة العامة، والتي تتمثل باجتناب كل ما يحقق ضرر محضاً بالآخرين، فيكون بسببه ذلك الآخر في إشكال من أمره، فتتعرقل ممارسته لفعاليات حياته، وتتهز عنده أخوته بأخيه.

ومن خلال هذه النصوص القرآنية التي تحوي التوجيهات السامية التي تكفل حماية البيئة التي يعيش فيها الإنسان، وحماية الإنسان الذي يعيش فيها، وذلك في توازن جميل مبدع، ومن خلال التوجيهات النبوية الراقية التي حثت عليها أقوال وأفعال وتقريرات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم)، ومن خلال التطبيقات الفقهية التي كانت ترجمة لتنظيم الحياة على أرض الواقع من خلال التأصيلات النصية؛ وذلك من أجل حفظ العلاقة بين الإنسان والبيئة، بما يكفل حفظ حقوق البيئة أولا، وحفظ الحقوق العامة في الاستفادة والاستخدام الأمثل للبيئة.

ومما لا شك فيه أنه إذا كانت هذه التطبيقات الفقهية تعالج فترة وواقعاً مغايراً لواقعنا المعاصر، فإن التطبيقات الفقهية تسير على غرارها في معالجة ما استجد في هذه العلاقة، وذلك على نحو يلبي الجادة في عدم إعاقة الممارسات الحياتية في هذه العلاقة، وهي تطبيقات ما زالت تحرّم الإضرار المتعمّد بالبيئة، وذلك بالنسبة للأفعال التي يمكن التحرّز عنها، ويبرز فيها التعمّد بصورة واضحة، وفي ذات

الوقت توسّع نطاق ممارسة المالك لحقه على ملكه استجابة لمتغيرات الواقع، إلا أنها في ذات الوقت تحرّم كل فعل قد يتمكّن المالك من التحرّز عنه، إلا أنه بسبب عدم تحرّزه قد يلحق الضرر بالآخرين.

وحقيقة فإن هذه النصوص القرآنية، وهذه التوجيهات النبوية، وهذه التطبيقات الفقهية لا يكون لها أثر على أرض الواقع خاصة في ظل غياب الوعي البيئي الذي ينطلق من منظور الإسلام في ذلك؛ إذ النفس إن لم تضع لها برنامجاً متكاملاً ومؤثراً تستخدم فيه هذه الأدوات، وتكون لهذا البرنامج صفة الاستمرارية والجودة ومسايرة الواقع، فإنه لا محالة ستصبح هذه النصوص القرآنية، وهذه التوجيهات النبوية، وهذه التطبيقات الفقهية محض شعارات مدفونة في الكتب، وتراث عتيد لا يتعدى زمانه ليجد نفسه في ساحة الواقع في تناغم جديد، إلا أن تجاوز هذه الأزمة يكون بتفعيل التربية البيئية التي تنطلق من منظور ديننا الحنيف، وهو ما نتعرض له في الفصل اللاحق.

الفصل الثاني

التربيــة البيئيــة

الفصل الثاني

التربيـة البيئيـة

تعتبر التربية البيئية هي الأداة التي يمكن من خلالها تفعيل جانب كبير من التنظير الذي قررته الرؤية الإسلامية في المحافظة على البيئة، فهي وسيلة من وسائل تحقيق تلك الغاية والذي عبرت عنه الآيات القرآنية والتوجيهات النبوية والتطبيقات الفقهية التي سبق تناولها فيما سبق. فمما لا شك فيه أن المنهج أياً كان لا بد من تفعيل ما يمكن أن يتحقق بفضله واقعاً في الحياة والممارسات اليومية؛ إذ النصوص دون تفعيلها لا تحقق قيمة في توجيهاتها في واقع حياة الإنسان، فهي لم توجه إلى لتعكس واقعاً عملياً في حياة الإنسان المسلم.

ومن هنا فإن التربية البيئية من خلال المنظور الإسلامي مفهوم تعبر عنه أهداف سامية، وينطلق في منهجية تفعيله من خلال استراتيجية تستمد فعاليتها من خلال الإطار العام للمبادئ الإسلامية للدين الحنيف، والتي تدور في فلكه الكثير من الرؤى والنظريات التي يمكن أن تحقق للنظرية انعكاساً إيجابياً يستطيع المرء أن يلمس آثاره كما تنعكس على سلوكيات الناس وتصرفاتهم.

أولاً : الخلفية التاريخية وأهمية المفهوم :

يشير محمد سعيد الصباريني ورشيد حمد الحمد في كتابهما (الإنسان والبيئة – التربية البيئية) إلى أن التربية البيئية كمفهوم ليست حديثة العهد، ولها أصولها القديمة، إلا أنها اكتسبت أهمية أكبر في العقد السابع والثامن من القرن الماضي نتيجة انبثاق الوعي بالمشكلات البيئية الكبرى، والتي بدأت تؤثر بعمق في نوعية الحياة البشرية، وتهدد مستقبل الأجيال، مثل: التفجر السكاني، التلوث، التصحر، وتدهور النظم البيئية السائدة وما إلى ذلك [١]. كما يرصد الكاتبان المحطات الرئيسة التي مر بها تطور التربية البيئية في تاريخها المعاصر فيما يلي:

- **مؤتمر ستوكهولم ١٩٧٢**: اعترف بدور التربية البيئية في حماية البيئة.
- **ميثاق بلغراد ١٩٧٥**: وضع إطاراً شاملا للتربية البيئية، وحدد أسس العمل في مجالها.
- **مؤتمر تبليسي ١٩٧٧**: وضع مبادئ وتوجهات للتربية البيئية.
- **مؤتمر موسكو ١٩٨٧**: وضع استراتيجية عالمية للتربية البيئة.

(١) الصباريني – محمد سعيد و الحمد – رشيد حمد، الإنسان والبيئة – التربية البيئية، ط: ١، ١٩٩٤، غير معلوم جهة الطباعة والنشر، ص ٢١١.

- **مؤتمر ريودي جانيروا ١٩٢٢**: أكد على إعادة تكييف التربية البيئية من ناحية التنمية المستدامة، وزيادة الوعي العام، وتعزيز التدريب البيئي [١].

وتأتي أهمية مفهوم التربية البيئية الذي نشأ في ظل تفاقم المشكلات البيئية في محيط الإنسان من خلال تطور علاقة الإنسان بالبيئة، حيث كان أثر الإنسان على البيئة في فجر وجوده على الأرض هيناً ولا يتعدى أثر غيره من آكلات الأعشاب، حيث كان هدفه البقاء.

ثم إنه بعد أن تحول إلى مرحلة الصيد والقنص فقد أصبح أثره البيئي يجاوز أثر آكلات العشب إلى آكلات اللحوم، حيث تعلم الإنسان أساسيات التخطيط للصيد، واستحدث (تكنولوجيا) الصيد وطورها، واكتشف النار، وبها أصبحت له قدرة على التأثير البيئي تزيد بكثير من قدرته العضلية.

وفي مرحلة الزراعة والاستقرار استكمل الإنسان سيادته على الأحوال البيئية، حيث أحدث الإنسان في تلك المرحلة تغييرات بيئية بارزة المعالم، ولكنه لم ينشئ في عمله مواد كيماوية غريبة عن الأنظمة البيئية (المبيدات)، وكانت مخلفات العمل والحياة الإنسانية مما تستطيع الدورات الطبيعية أن تستوعبه وتجريه في سلاسل تحولاتها بفعل الكائنات الحية التي تقوم بعمليات التحلل الطبيعي.

وذلك حتى جاء عصر الصناعة الذي تمكن فيه الإنسان من أن يعيش في بيئة من صنعه، وأصبح يستعمل المواد بتكنولوجيا مستحدثة

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١٦.

ومحسنة نتج عنها مخلفات تفوق قدرة دورات البيئة وسلاسلها الطبيعية على استيعابها، وأنتج مواد غريبة عن الأنظمة البيئية لم يسبق أن كانت ضمن مكوناتها (المبيدات الكيميائية والبلاستك والألياف الصناعية).

وبسبب جميع ذلك ظهرت مشكلات بيئية خطيرة على صحة الإنسان وممتلكاته، وهذه تطلبت من الإنسان مواجهتها ليس بالعلم والتشريع فحسب، بل وبالتربية العملية أيضاً التي تدعو إلى التغيير من أجل البيئة وليس استمرار تغييرها فقط، والتغير من أجل البيئة معناه التعايش معها باكتساب المعارف والمهارات والقيم التي تساعد على التعامل العقلاني الرشيد مع مكونات البيئة أو الموارد الطبيعية [١].

لقد أصبحت دراسة التربية البيئية من الموضوعات الهامة التي تحظى الآن أكثر من أي وقت مضى باهتمام متزايد من قبل التربويين في العالم أجمع، وقد زاد الإدراك بأهميتها لعلاقتها الوطيدة بالتنمية الاجتماعية لأي بلد. وقد أخذت البرامج التعليمية في إدخال هذا الموضوع ضمن مناهجها وكتبها الدراسية بشكل أو بآخر، والهدف من ذلك هو الكيفية التي يعد من خلالها الأفراد لينشئوا نشأة بيئية سليمة والمساهمة في الحفاظ على بيئتهم؛ وذلك بهدف إعداد الفرد الواعي بالمشكلات التي تعاني منها البيئة، وكيفية العمل على إيجاد حلول لها، والتعامل مع هذه المشكلات بطريقة صحيحة [٢].

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٠٠.

(٢) العجمي – ضاري ناصر وعبد المنعم مصطفى مصطفى، الإنسان وقضايا البيئة، ط: ١، ١٤١٥ – ١٩٩٥، حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين، ص ٣٣.

ثانياً : مفهوم التربية البيئية وفلسفتها وقيمها ومنهجها

لعل الواقع الذي نحياه يملى علينا من المشكلات البيئية بأبعادها (المادية والمعنوية) ما يجعل المؤسسات التربوية عاجزة عن القيام بمهامها، وقد يرجع السبب في رأينا إلى عدم وجود منهج واضح وخطة واضحة ذات أهداف يسهل تحقيقها، وكذلك غياب مفهوم التربية البيئية لدى تلك المؤسسات.

ويمكن تعريف التربية البيئية في الإسلام بأنها: (النشاط الإنساني الذي يقوم بتوعية الأفراد بالبيئة وبالعلاقات القائمة بين مكوناتها، وبتكوين القيم والمهارات البيئية وتنميتها على أساس من مبادئ الإسلام وتصوراته عن الغاية التي من أجلها خلق الإنسان، ومطالب التقدم الإنساني المتوازن).

وفى ضوء هذا التعريف للتربية البيئية من منظور إسلامي فإنه يجب أن يكون هناك تفاعل إيجابي بين الإنسان والبيئة، وأن يكون ذلك التفاعل شاملاً ولا يقتصر على زمان معين أو مكان معين، وليصبح جهد الإنسان موحداً وموظفاً توظيفاً حضارياً وتاريخياً في ضوء العقيدة الإسلامية.

تأتى أهمية حتمية وجود أهداف للتربية البيئية من منظور إسلامي لتؤكد للجميع أن الإسلام دين يؤكد على احترام وتقدير البيئة انطلاقاً من أهداف عدة منها:

١. تنمية الوعي البيئي لدى الإنسان المسلم عن طريق تزويده

بالرؤية الصحيحة عن البيئة ومكوناتها، وذلك بما يحقق دوره المطلوب في الأرض باعتباره خليفة بأمر الله تعالى فيها.

٢. تنمية وتكوين القيم والاتجاهات والمهارات البيئية الإسلامية لدى الإنسان المسلم، وذلك حتى يستطيع على ضوئها مواجهة مختلف صعابها بإرادة قوية، ومن ثم استغلالها بصورة نافعة بما يحقق أهداف الإسلام.

٣. تنمية قدرة الإنسان المسلم على تقويم إجراءات وبرامج التربية والتعليم المتصلة بالبيئة من أجل تحقيق تربية بيئية أفضل.

٤. إيجاد التوازن وتعزيزه بين العناصر الاجتماعية والاقتصادية والبيولوجية المتفاعلة في البيئة لما فيه صالح الإنسان المسلم.

٥. فهم الأنظمة الاجتماعية والاقتصادية والتكنولوجية والطبيعية وعلاقة الإنسان المسلم بالقضايا والتلوث.

وإذا أردنا تعريف القيم البيئية الإسلامية فإننا نجدها متمثلة في مجموعة الأحكام المعيارية المنبثقة من الأصول الإسلامية، والتي تكون بمثابة موجهات لسلوك الإنسان تجاه البيئة، والتي تمكنه من تحقيق وظيفة الخلافة في الأرض، والتي تندرج تحتها عدة أقسام منها:

• **قيم المحافظة:** وتختص بتوجيه سلوك الأفراد نحو المحافظة على مكونات البيئة وتشمل:

- المحافظة على نقاوة الغلاف الجوى.
- المحافظة على نظافة الثروة المائية.
- المحافظة على رعاية الثروات النباتية.
- المحافظة على رعاية الثروات الحيوانية.
- المحافظة على استخدام الثروات المعدنية واللامعدنية.
- المحافظة على نظافة الطرقات.
- المحافظة على نظافة بيوت الله والبيوت العامة.
- المحافظة على الصحة البدنية.
- المحافظة على الهدوء وتوفيره.

• **قيم الاستغلال:** هي تلك القيم التي تختص بتوجيه سلوك الأفراد نحو الاستغلال الجيد لمكونات البيئة، وتتضمن عدم الإسراف، وعدم التبذير، والبعد عن الترف والاعتدال والتوازن في كل شيء. حيث يدعو الإسلام إلى الاعتدال في استهلاك موارده البيئية بحيث تكفى ضروراته وحاجاته، وذلك بدون إفراط ولا تفريط.

• **قيم التكيف والاعتقاد:** هي تلك القيم التي تختص بتوجيه سلوك الأفراد نحو التكيف مع بيئتهم ، ونحو تصحيح معتقداتهم السلبية تجاهها وتشمل الآتي:

- التكيف مع التغيرات الطبيعية مثل: (قسوة الظروف المناخية ، طبيعة الأرض).
- الابتعاد عن المعتقدات الخرافية مثل: (التعاويذ والتمائم والتبرك بالشجر، والكهانة، والتشاؤم .. الخ).

• **قيم جمالية:** وهى تلك القيم التي تختص بتوجيه سلوك الإنسان نحو التذوق الجمالي لمكونات البيئة [١].

لقد أحيا الإسلام الضمير في وجدان المؤمنين، وعمّق في نفوسهم أهمية المسؤولية، ومنها حماية البيئة ما أمكن إلى ذلك سبيلاً، وحثهم على النظافة والطهارة، وأحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث. وفي ظل هذه التوجيهات الحكيمة كانت تربة الإسلام خصبة للتربية البيئية السليمة؛ لينشأ المسلم نشأة صحيحة ويحيا في بيئة صحية حياة كريمة سعيدة.

إن الله عز وجل خلق الإنسان في أحسن تقويم وأودع فيه قدرات عقلية ونفسية وجسدية تؤهله إلى التكيف وتحمل المسؤولية في تعمير الأرض باعتباره مستخلفاً فيها. وقد حض الإسلام المسلمين دائماً وأبداً على السلوك البيئي الأمثل بدءاً من طلب العلم، وإعمال العقل فتحمل المسؤولية وحماية البيئة، فالعلم النافع هو المدخل الصحيح للتربية البيئية السليمة.

---

(١) صلاح عبد السميع عبد الرزاق، دراسة حول قيم التربية البيئية من منظور الدين منشورة على الموقع الإلكتروني: www.khayama.com، وتاريخ دخول الموقع هو : ١١ سبتمبر ٢٠٠٧.

ومن جانب آخر نهى الإسلام عن الإفساد في الأرض، وحرم التخريب في البيئة بكل أشكاله؛ وذلك نظراً لكونه يشكل خطراً كبيراً عليها، وليس من شك في أن تدهور النظام البيئي فيه تهديد مباشر لمستقبل البشرية جمعاء، فأحيا هذا الدين القيّم الضمير الإنساني، ودعا إلى تهذيب النفس الجالب للفلاح والصلاح.

فالإنسان لا يعيش في هذه الدنيا وحده يفعل ما يشاء وما يحلو له ولو كان فيه ضرر على الآخرين، وهو يرفض هذه الحرية المطلقة غير المسئولة، كما نهى الدين الإسلامي الحنيف عن الإسراف والتبذير، ومنه الإسراف في الموارد، ووصف المبذرين بأسوء الصفات؛ لأن الإسراف وهدر الموارد يؤدي إلى أفدح المشاكل، والتي يأتي على رأسها التدهور البيئي عن طريق التدخل السلبي للإنسان. كما وضع الدين الإسلامي الحنيف الضوابط المنظمة للإنفاق، والقواعد التي تمنع الهدر والسرف، فلا ينبغي لمسلم أن يتجاوز حدود الاعتدال في هذا الأمر، بل عليه الاقتصاد في الإنفاق والانتفاع بموارد البيئة وثرواتها ما أمكن إلى ذلك سبيلاً. ومن المعلوم أن الإسراف سبب رئيس من أسباب تدهور البيئة واستنزاف مواردها.

لقد دعا الإسلام ذويه إلى حماية البيئة والمحافظة عليها نظيفة، وأحاط ذلك بسلسلة من الإرشادات القويمة في هذا المضمار، فجعل إماطة الأذى عن الطرق شعبة من شعب الإيمان؛ وذلك لما فيها من تأكيد على صحة البيئة وحماية الناس من الأذى أو التلوث.

ولاشك في أن إتيان مثل هذه السلوكيات الدنيئة يلوث البيئة ويضر بصحة الإنسان أيما ضرر؛ فالبول في الماء بعامة والراكد بخاصة يؤدي إلى انتشار الأوبئة والأمراض المتوطنة، والعدوى عن طريق انتشار الديدان الخطيرة كالبلهارسيا والأنكستوما والميكروبات المسببة للتيفوئيد والكوليرا.

لذلك يجب على الإنسان المسلم أن يحيا حياة إسلامية خالصة متخلقاً بأخلاقيات هذا الدين العظيم فيكون ذا دور إيجابي نحو بيئته دائماً؛ وذلك حتى ينفع نفسه ومجتمعه، ويعمّر في الأرض إلى ما شاء الله عز وجل.

ومن هذه التوجيهات الإسلامية الحكيمة تتضح لنا عناية الإسلام بالصحة العامة وحماية البيئة، وبالتالي المحافظة على صحة الإنسان محور هذه البيئة، وهي جميعاً توجيهات جديرة بالاعتبار والتطبيق ففيها أمن البيئة وحمايتها من كل عبث وسوء [(١)].

إن حقيقة الأمر فيما يقوم عليه مفهوم التربية البيئية من منظور الإسلام هو استهداف تهذيب العلاقة التي تنشأ لدى الإنسان منذ نعومة أظفاره، وذلك حتى يبلغ متعوداً عليها، ومدركاً لها كثقافة راقية قد استمدها من التراث الإسلامي الذي يزخر بالكثير من النصوص والتوجيهات الداعمة لبناء تربية ووعي بيئي إيجابي مثمر.

---

(١) الطنطاوي – ممدوح إبراهيم، دراسة حول فلسفة التربية في الإسلام منشورة على الموقع الإلكتروني: www.jmuslim.naseej.com، وتاريخ دخول الموقع هو : ١١ سبتمبر ٢٠٠٧.

وإذا لم يكن القائمون على ميادين التربية – من آباء وأمهات ومربين - قد ترعرعوا في أحضان تربية بيئية إيجابية مثمرة، فكيف يمنحون شيئاً يفقدونه، ومن هنا فلا بد أن تكون البداية من هنا، حيث نقطة الانطلاق، وذلك بتنمية ضرورة غرس التربية البيئية لدى الأبناء بعد تهذيب الآباء والأمهات والمربين على منهجها وفلسفتها، وعلى مفهومها وخصائصها، وعلى حقيقتها وجوهرها، وهذا يحتاج إلى خطة بعيدة المدى للوصول بالوعي البيئي في المجتمع المسلم من منظور الإسلام إلى درجات راقية، ولكن الأمل يبقى حقيقة لمن يدرك ضرورة التغيير.

ثالثاً : أهداف التربية البيئية

يمكن تحديد هذه الأهداف وتصنيفها تبعا لجوانب الشخصية الإنسانية كما يلي:

• **الأهداف المعرفية:** تهدف منهجية التربية البيئية في الإسلام إلى توثيق صلة الإنسان بعناصر البيئة الطبيعية المحيطة به، وذلك من خلال:

- الكشف عن سنن الله في مخلوقاته وفي عناصر الكون المحيطة بالإنسان.
- التعريف الشامل بعناصر البيئة الطبيعية الحية وغير الحية.
- إعطاء حقائق ومعلومات عن مفهوم البيئة والنظام البيئي والنظام البيئي وتفاعلاته، وأثره على الكائنات الحية وغير الحيّة، والتغييرات التي أحدثها الإنسان في الأنظمة البيئية، وتوضيح ما هو ضار منها وما هو نافع للبشرية.

- توضيح أبعاد مسؤولية الإنسان في الإسلام عن كل ما حوته البيئة الطبيعية التي نعيش فيها من عناصر حية وغير حية.
- إعطاء حقائق ومعلومات عن المشكلات البيئية التي تعانيها العناصر الطبيعية التي نعيش فيها من عناصر حية وغير حية.
- إعطاء حقائق ومعلومات عن المشكلات البيئية التي تعانيها العناصر الطبيعية والأضرار المترتبة عليها، وبالعناصر الطبيعية نفسها.
- تعميق فكرة ارتباط الثواب بالعمل الصالح في مجال البيئة الطبيعية، وجزاء الإساءة إلى عناصرها والإفساد فيها.
- تحفيز روح المسؤولية والالتزام تجاه الطبيعة؛ وذلك لأن الإيمان بالله هو إيمان بالرقابة على الإنسان وعلى كل حركة من حركاته.

• **الأهداف الوجدانية:** ويمكن تحديد الأهداف الوجدانية للتربية البيئية كما يلي:

- تنمية اتجاهات إيجابية وقيم بيئية إسلامية تسهم في إقامة علاقة سوية بين الإنسان وعناصر بيئته الطبيعية، والتي تكون خاضعة للتنظيم الذي وضعه الإسلام لهذه العلاقة.
- تنمية التفكّر في عظمة الله في خلق هذا الكون، والتأمل في مخلوقاته.

- إثارة مشاعر الاهتمام بالبيئة، وتنمية القيم الجمالية نحو الجمال البيئي الطبيعي.

- تكوين اتجاهات إيجابية نحو الذات الإنسانية باعتبارها أهم عناصر البيئة الطبيعية، وذلك بالعناية بالصحة والتداوي من الأمراض، والنظافة لكل جسم الإنسان، وكل ما يحيط به.

- تنمية اتجاهات إيجابية نحو الاعتدال في استخدام الموارد الطبيعية المتاحة، وترشيد استهلاكها، وحماية البيئة من استنزاف تلك الموارد وسوء استخدامها.

- تنمية الاتجاه نحو الرؤية المستقبلية للآثار البيئية المترتبة على الاعتدال والإصلاح في مجال البيئة الطبيعية، وللأضرار البيئية الناجمة عن الاستنزاف والفساد فيه.

- ترسيخ قيمة المسؤولية الذاتية تجاه البيئة الطبيعية وعناصرها، وارتباط الثواب والعقاب بمدى تحمل تبعات هذه المسؤولية.

- تنمية الضمير البيئي الذي يعتبر رقابياً على أفعال الإنسان مع بيئته الطبيعية.

• **الأهداف المهارية:** تهدف منهجية التربية البيئية في الإسلام إلى إكساب المهارات التالية:

- مهارة الحرص على البيئة وحماية مواردها.

- مهارة الاستخدام المعتدل والمنظم للعناصر الطبيعية.
- مهارة تعرّف المشكلات البيئية على اختلاف صورها ومسبباتها.
- مهارة اتخاذ القرار الواعي نحو حل المشكلات البيئية.
- المهارات الخاصة بجمع الحلول الناجحة للمشكلات البيئية، والمبادرة بوضع خطة العمل وتنفيذها.
- الممارسة العملية لمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مجال علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية وعناصرها، وتجنب اتخاذ موقف سلبي إزاء الإفساد والإضرار بعناصر البيئة الطبيعية.
- المهارات الجماعية اللازمة للعمل الجماعي التعاوني في مواجهة مشكلات البيئة وحلها [1].

رابعاً: معالم تربية الأطفال بيئياً

عندما نرغب في تربية الأطفال تربية بيئية تتوافق مع الأنظمة الطبيعية فإنه يجب أن تتماشى مع المنهج الإسلامي في تربية الفرد؛ لذلك كان لا بد من الاهتمام بالمنهج التطبيقي الذي يعتمد على القدوة الحسنة المتمثلة بالسلوك الإيماني، ولا بد أن تنعكس التوجيهات الإسلامية على ممارسات الحياة اليومية، ولا شك أن تنشئة الأطفال

---

(١) آل خليفة – فاطمة عبد الله، التربية البيئية في الإسلام – منهج الكون ومنهج الإنسان، ط: ١، ١٤٢٤ – ٢٠٠٤، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر، ص ١٣٠.

على أسلوب الترغيب والترهيب جدير بأن يهذب ويقوّم سلوك الطفل في مختلف مراحله العمرية بالمنهج الإسلامي الذي يعتبر من أروع المناهج التي تدعو إلى الأخلاق الحسنة، لا سيما وأن قرين الإسلام النظافة، ولا بد من ربط التربية البيئية بالدين.

ومن أفضل الأساليب التربوية التي تعين على تقويم سلوك الطفل رواية القصص البيئية التي يتعلم الطفل من خلالها ممارسات وسلوكيات إيجابية في التعامل مع البيئة، هذا مع مراعاة التبسيط في التوجيهات حتى تستقر التوجيهات قناعة الطفل وممارساته. هذا فضلا أن استخدام الأسلوب التجريبي الذي كان النبي (صلى الله عليه وسلم) يمارسه في تربية وتعليم أصحابه حتى يكون ذلك أدعى وآكد للتوجيهات المرجو تحقيقها، وهو ما يحقق الإرساء والاستقرار للمعلومة المراد التوجيه حولها.

ومن معالم التربية البيئية للأطفال في بناء العلاقة مع البيئة ضرورة التعريف بما يشكل الإنسان من حقيقة باعتباره مستخلفاً عن الله تعالى في أرضه، كما لا بد من التعريف كيف أن الإنسان مستأمنٌ على مختلف عناصر ومكونات البيئة فلا يسرف فيها ولا يستعملها دون انتفاع أو فائدة ترتجى، وذلك لا يتحقق إلا من خلال التربية وتنمية الرقابة الذاتية التي من شأنها أن تحفظ السلوك من الانحراف في كل حال ومقام [١].

---

(١) زكريا خنجي، المرأة والبيئة والتنمية المستدامة – دليل المرأة نحو منزل بيئي، ط: ١، ٢٠٠٦، الهيئة العامة لحماية الثروة البحرية والبيئة والحياة الفطرية، مدينة عيسى – البحرين، ص ٢٣٨.

ولا يمكن تربية النشء على تقدير نعمة الله تعالى إلا بالتربية على السلوكيات التي تتصل بتوقير نعمة الله تعالى على الإنسان الذي سخر له الله تعالى البيئة بمختلف عناصرها ومكوناتها، فلا بد من تربيته على البدء باسم الله، والاختتام بحمد الله، هذا فضلا عن تعليمه السلوكيات المحمدية التي تتصل بأدب الطعام، ومتابعته في ذلك حتى تستقر في ممارساته السلوكية على سبيل التعبد لا الاعتياد، وهذا الجانب له أهميته، فلا بد من الانطلاق في تثقيف الأولاد فيما يتصل بممارسات العلاقة مع البيئة على أن الإحسان والرعاية والحماية والصيانة عبادة، وأن الإساءة والتعدي والإسراف والاستنزاف ظلم وإثم وعدوان يجر الإنسان إلى مالا تحمد عقباه [(١)].

تقع المسؤولية الأولى في ذلك على الأسرة كمؤسسة تربوية يترعرع فيها الإنسان، ثم تتأتى المسؤولية على المجتمع ممثلا بمؤسساته من مؤسسات تعليمية أو مؤسسات تعبدية، وإلا فإنه دون تضافر الجهود بين هذه المؤسسات لا يمكن أن تتحقق أهداف التربية البيئية المثمرة التي تنشئ جيلاً يؤمن بالبيئة كقضية تتصل بحياته وتتعلق بوجدانه، ويستشعر أن إحسانه إليها إحسان إلى نفسه كونه جزءاً منها، وأن إساءته إليها إساءة إلى نفسه كونه جزءا منها.

إن خير تربية بيئية يمكن أن تقوّم سلوك الفرد ينبغي أن تنطلق من خلال المنهج الإيماني الذي تتصل الرعاية من خلاله بمنهج الثواب

---

(١) القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٢٣٤.

والعقاب، الثواب على الإحسان، والعقاب على الإساءة، وهذه التربية تستلزم أن يكون الفرد على دراية علمية بما يتصل بالممارسات السلوكية في العلاقة مع البيئة، ليكون إنساناً واعياً يدرك بوعي وخوف من الله كيف يبني علاقته مع المحيط الحيوي الذي سخر الله تعالى لخدمته في الحياة الدنيا.

خامساً : التربية البيئية ومناهج التعليم

في العام ١٩٩٧ عقدت المنظمة الإسلامية للتربية والثقافة (الإيسسكو) في العاصمة المنامة ورشة العمل كانت بعنوان (إدماج مفاهيم التربية البيئية من منظور إسلامي في مناهج التعليم الأساسي)، والتي كانت لقاء بين رجال الدين والمربين، وذلك من أجل تحقيق الأهداف التالية:

١. تأهيل مكونين في التربية البيئية تربوياً وأخلاقياً.

٢. تدريب المكونين على طرائق وأساليب إدماج المفاهيم البيئية في المناهج التعليمية.

٣. تبادل الخبرات للاستفادة من التجارب الوطنية الرائدة في مجال التربية البيئية.

٤. تبادل الرأي حول صياغة منظور للتربية البيئية من وجهة نظر إسلامية.

وعلى ضوء البحوث والمناقشات التي جرت في هذه الدورة التكوينية للمكونين في مجال التربية البيئية، فقد انتهى هذا اللقاء بالخروج بتوصيات من أبرزها مما يتصل بالموضوع محل النقاش:

١. مراجعة مضمون الكتب المدرسية بقصد تضمينها بعداً بيئياً وفق مرجعية دينية؛ لما لذلك من أثر في تكوين السلوك الصحيح نحو موارد البيئة استخداماً وحماية، وفي المرجعية الإسلامية ثروة كبيرة تساعد على تحقيق هذه الغاية.

٢. التنسيق بين الجامعات ووزارات التربية والتعليم في مجال تطوير المناهج، وتدريب المعلمين بحيث تساهم فيه الكفاءات العلمية المتخصصة في التربية البيئية، والعلوم البيئية والثقافة الإسلامية.

٣. إعداد دليل توجيهي في مجال التربية البيئية وفق المرجعية الدينية [1].

وهناك توصيات أخرى تتعلق بالتربية البيئية من منظور آخر تم الخروج بها من هذا المؤتمر، إلا أن ما نخرج به من هذه الأهداف وهذه التوصيات التي أبرزنا عدداً منها أن المناهج الدراسية وما تغرسه في

(١) التقرير الختامي للدورة التدريبية لتكوين المكونين في مجال التربية البيئية من منظور إسلامي، والذي عقد تحت إشراف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة – المكتب الإقليمي لغرب آسيا (يونيب)، وذلك في الفترة ١٢ – ١٩ أكتوبر ١٩٩٧، المنامة – البحرين.

الطالب من توجيه له دور في بناء شخصية وسلوك الطالب، إلا أن البحث لا يقع على قنوات التأثير البارزة لاستغلالها، إنما يقع في إبراز السبل الكفيلة باستغلال هذه القنوات من أجل تربية بيئية إسلامية تبني في الفرد علاقة إيجابية بالبيئة، وتجعل من هذا الإنسان بدلاً من أن يكون عنصر فساد وإفساد في هذه البيئة وإضرار بأطراف العلاقة معه فيها ممن يشاركه في استخدامها وتنميتها، وذلك بأن يكون عنصر صلاح وإصلاح يحترم ذاته وحاجته في بناء علاقته بما لا يمكن له الاستغناء عنه، وما أقوى أن تكون هذه التربية المراد تحقيقها في أفراد المجتمع المسلم نابعة من خلال نظرة التراث الإسلامي بما حوته النصوص القرآنية والتوجيهات النبوية والتطبيقات الفقهية التي تبرز عظمة هذا الدين، إلا أن هذا لا يمكن أن يتحقق بالوقوف على عقد المؤتمرات والندوات وورش العمل فحسب، ولا يكون بوضع تصور ومنهجية لتدريس منهجية التربية البيئية كما منهجها التراث الإسلامي، إنما يحتاج ذلك إلى العمل على وضع استراتيجية عملية تحقق تربية ووعياً بيئياً مستديماً ومرتبطاً بعقوبات تقام على من ينتهك نظام العلاقة بالبيئة.

ومن جانب آخر تضع فاطمة آل خليفة في كتابها (التربية البيئية في الإسلام – منهج الكون ومنهج الإنسان) تصوراً مقترحاً لتدريس منهجية التربية البيئية في الإسلام، وتؤكد على أن التربية البيئية ليست مجرد تدريس المعلومات والحقائق والمعارف عن بعض المشكلات البيئية، كالتلوث وتدهور المحيط الحيوي أو استنزاف الموارد، ولكنها تواجد طموحا أكثر من ذلك يتمثل في جانبين:

١. إيقاظ الوعي الناقد للعوامل الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية والسياسية والأخلاقية فيه الكامنة في جذور المشكلات.

٢. تنمية القيم الأخلاقية التي تحسّن من طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة. تلك العلاقات التي تطورت على نحو غير سوي، وسببت كل ما يواجه البيئة من المشكلات [١].

وتضع فاطمة آل خليفة ضمن تصورها لتدريس منهجية التربية البيئية في الإسلام عدداً من المرتكزات التي تمثلت بالتالي:

• **لنتعلم أولا كيف نتغير**: فحماية البيئة لا بد أن تبدأ بالإنسان، فهو المسؤول عن هذه المشكلات، فلا بد من تنظيم علاقة الإنسان بالبيئة، وذلك بما يكفل حمايتها والمحافظة عليها، والعمل على التوافق بين الإنسان والبيئة وتكييف البيئة من أجله. ومن هنا يأتي التأكيد على أن حماية البيئة مسألة تربوية بالدرجة الأولى؛ لأنها تدفع الأفراد وتوجههم للتعامل الناجح مع بيئتهم.

كما أن تنمية القيم الأخلاقية تحسّن من طبيعة العلاقة بين الإنسان والبيئة، والتركيز في المناهج على القيم البيئية والأخلاقية

---

(١) آل خليفة – فاطمة عبد الله، التربية البيئية في الإسلام – منهج الكون ومنهج الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠. وذلك نقلاً عن محمد صابر سليم، برنامج مقترح لتطوير التربية البيئية في مناهج التعليم الجامعي، الندوة الإقليمية حول إدماج التربية البيئية العامة في مناهج التعليم العالي في المنطقة العربية، ١٩٨٥، الدوحة – قطر.

البيئية، والضمير البيئي يمكن من الوصول إلى السلوك الإيجابي تجاه البيئة، والاستعداد للدفاع عنها وحمايتها.

ومن هنا فإنه وإن كانت التربية البيئية تنصب المسؤولية فيها على بعض المعلمين بحكم تخصصهم، إلا أن المعلمين جميعاً مسؤولون عن تنفيذ برامج التربية البيئية بنجاح، وذلك بغض النظر عن مجالات تخصصهم.

• **إيجابية التشريع الإسلامي:** إن عبادات الإنسان للّه سبحانه وتعالى لم يقصرها اللّه سبحانه وتعالى على أفعاله التعبدية، بل جعل كل تصرفات ابن آدم عبادة. ومما لا شك فيه أن المحافظة على الموارد البيئية كالماء والكهرباء عبادة، كما أن عدم قطع الأشجار النافعة عبادة، وإماطة الأذى عن الطريق عبادة، والرفق بالحيوان عبادة. هذا فضلاً عن أن جميع التشريعات والتعاليم الإسلامية قائمة على الأخلاقيات المتميزة بفيض إنسانيتها والقيم الاجتماعية التي ترسي دعائم الخير والسعادة الحقيقية، والرفاهية البشرية بكل ما تحمل من سمو معنى.

• تطوير وظيفة كليات التربية ضرورة ملحّة: فعلى كليات التربية أن تعي التلوث البيئي حق وعيه، ولا بد أن يكون المعلم عالماً بتشريع اللّه السليم لكونه، وعلى معلم التربية الإسلامية أن يتعرض في دراسته وإعداده لمقررات دينية مطوّرة تجلي له الحق والصدق في تشريعات اللّه كلها، فلا تقتصر مناهج التربية الدينية على القضايا الفقهية من صلاة وحج وزكاة، ولكن تمتد بتخطيط حكيم إلى تحليل سلوكيات

التلوث وموقف الإسلام منها بما يطبع المتعلم على التمسك بحقيقة دينه والدفاع عن بيئته.

• أهمية المدخل الديني في تكوين الاتجاهات والقيم نحو البيئة:

يمتلك الإسلام أسساً راسخة مستمدة من مبادئ ومنهج التربية البيئية كما أرادها الله سبحانه وتعالى. ولقد تبين أن القوانين والتشريعات قد عجزت عن أن تقوم وحدها بخلق أنماط جديدة من السلوك تجاه الطبيعة لدى الأفراد والجماعات، وإرساء قيم أخلاقية جديدة تقوم على احترام الطبيعة وصون عناصرها، والاتجاه إلى المشاركة على تنميتها وحل مشكلاتهما، وذلك مالم تساندها المبادئ الدينية والخلقية التي تربي الضمير الإنساني، وتوقظ الوازع الديني في النفس. فالقوانين والتشريعات غالباً ما تمس سطح الوعي والسلوك لا أعماقه؛ لأنه مالم تؤثر قوة الوازع الديني أو الرقابة النفسية أو الضمير، فلن يكون لقانون الأرض أي تأثير، وليس هناك أقوى من المدخل الروحي في بث المبادئ وتكوين القيم والاتجاهات في نفس الإنسان، والتربية الإسلامية لم تهمل هذا الجانب من جوانب الشخصية الإنسانية.

إن التربية الإسلامية تضع لنا منهجية متكاملة شاملة لتنظيم علاقة الإنسان بالبيئة الطبيعية، لها أهدافها ووسائلها وسبل تطبيقها، كما أن الدين الإسلامي ليس عقيدة تعمر القلب فحسب، ولكنها عقيدة تترجم إلى سلوك تغير من نظرة الإنسان نحو نفسه ومجتمعه، ونحو الكون وخالقه، فالتربية الإسلامية الشاملة تهتم بتوثيق صلة الإنسان

بالبيئة الطبيعية، وتعميق معرفته بعناصرها، وتعمل على تنظيم علاقة الإنسان بهذه البيئة تنظيماً دقيقاً يعتمد على المبادئ المستمدة من المصادر الإسلامية.

ومن جانب آخر وضعت فاطمة آل خليفة منهجاً لتكوين معلمي المستقبل، وذلك بإعدادهم بتوفير الكفايات الأساسية في علوم البيئة، وهي عبارة عن عدد من الأسس التي يجب مراعاتها:

• **الأساس الأيكولوجي:** وفيه ينمي الطالب المعلم بالمبادئ الأيكولوجية وعلاقتها بمكونات البيئة، والاضطرابات التي تؤثر في النظم البيئية، وتكوّن محتويات هذا الجزء من البرنامج نابعة بالدرجة الأولى من وحدة العقيدة الإسلامية.

فالعقيدة الإسلامية تقدم للطالب تصوراً واضحاً عن الكون وعن الإنسان والحياة، وعلاقة الإنسان بالكون، حيث يجعل دور الطالب إزاء البيئة جزءاً من عقيدته الإسلامية، ودور النظام التربوي الإسلامي هو ترجمة هذا التصور في إطار سلوكي متكامل من شأنه أن يعمل على إعداد الطالب وتوجيه سلوكه وفق ما حددته العقيدة الإسلامية في إدراج مفاهيم التربية البيئية في أثناء التدريس.

• **الأساس الاقتصادي:** ويهتم بفهم النظريات الاقتصادية المرتبطة بالتنمية، وبعض المشكلات الاقتصادية الناجمة عن عدم الاستخدام الأمثل لمكونات البيئة، وهنا يمكن أن تأتي موضوعات النظام

الاقتصادي في الإسلام، وذلك كالتكافل الاجتماعي وكل ما يتصل به من نظام الزكاة ومصارفها.

• **الأساس المرتبط بالنظام البيئي البشري:** وفيه تنمى كفايات العلاقات بين الإنسان ومحيطه الحيوي، مع التعرض لبعض النماذج المهمة التي توضح سلامة العلاقات، وما يترتب عليها من آثار، وربما تعالج هنا قضايا السياسات البيئية في المجتمعات، ودور المواطن في هذه العملية.

كما أوضحت في تصورها الكفايات التربوية، والتي تقوم – حسب وجهة نظرها – على عدد من الأسس وهي:

• **تكامل الشخصية الإنسانية في منهجية التربية البيئية في الإسلام:** لقد حظيت التربية بالجانب الأعظم من الاهتمام في المنهج الإسلامي، وكان هذا الاهتمام مرتكزاً على مسلّمة وحدة الشخصية الإنسانية، وذلك بعيداً عن كل الاتجاهات ذات الطبيعة المصطنعة في صياغة العلاقة بين الشخصية بمظاهرها الثلاثية: (المعرفة والوجدان والممارسة)، والتي كانت تفرض على تابعي كل اتجاه منها تناول كل مظهر من المظاهر الثلاثينية منفصلا عن الآخرين.

لقد خاطب القرآن الكريم الشخصية الإنسانية كوحدة متكاملة متنقلاً بين جوانبها تنقلاً متصلاً يؤدي كل جانب منها على الذي يليه، وذلك حتى يتم الموقف التربوي، حيث شمل كل الجوانب التي تؤلف الشخصية الإنسانية، والتي تنشط معا في نفس هذا الموقف.

إن تفاعل الجانب الوجداني للشخصية الإنسانية يتم الانتقال التلقائي إلى الجانب السلوكي بالشخصية الإسلامية، حيث يترجم هذا التفاعل إلى حركة وممارسة، فيتحقق الجانب الثاني في العبادة وهو العمل الصالح.

وبتفاعل الجانب الوجداني يتم الانتقال إلى الجانب الثالث للشخصية الإنسانية، حيث يترجم هذا التفاعل إلى حركة وممارسة، فالدعوة إلى العمل الصالح، وإلى حمد الله وشكره لتحقيق العبادة يعتبر هدف الحياة في الإسلام بجانبيها الإيمان الخالص والعمل الصالح.

• **الجانب المعرفي في التربية البيئية في المنهج الإسلامي:** إن الآيات القرآنية عندما اهتمت بالمعرفة فإنها اهتمت بالجوانب الثلاثية للمعرفة، مؤكدة على التوازن المعرفي في الإسلام، حيث لا يتم الاهتمام بجانب على حساب الآخر، فهي تهتم بالحياة الشخصية للإنسان.

لقد حرصت التربية الإسلامية على توثيق علاقة الإنسان بعامله المادي في البيئة الطبيعية المحيطة، واستخدمت في هذا عدة وسائل كان منها:

- التعريف بعناصر البيئة الطبيعية الحية وغير الحية.
- تعميق الإدراك بعناصر البيئة الطبيعية والإحساس بها، وذلك من خلال ضرب الأمثال والتشبيه بعناصر البيئة والطبيعة، ومن خلال الوصف القرآني، ووضوح دور العناصر الطبيعية فيه.

والتربية الإسلامية تخاطب جانب المعرفة في الشخصية الإنسانية مؤكدة مبدأ المسئولية في العامل الشخصي للإنسان، إلا أن هذا المبدأ ينسحب على النظام الاجتماعي، حيث تتضمن المعرفة في هذا المجال أبعاد مسؤولية الإنسان على تحقيق الصورة المثلى، والتي ينبغي أن تكون عليها علاقته بعناصر الطبيعة الحية وغير الحية، وتلك العلاقة التي ترتكز على أسس عامة هي:

- النظافة الشاملة فيما يختص بالإنسان نفسه وبكل ما يحيط به في الكون.
- الاعتدال دون الإسراف في استخدام عناصر البيئة الطبيعية.
- الإصلاح دون الإفساد في البيئة الطبيعية بكل عناصرها.
- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في علاقة الإنسان بكل العناصر الحية وغير الحية في البيئة الطبيعية، وذلك انطلاقاً من أن الأضرار بعناصر البيئة الطبيعية لا يقتصر أثره على الفرد بعينه، وإنما يمتد ليشمل عالمه الاجتماعي، وعناصر عالمه المادي أيضا.

• وسائل المعرفة في مجال منهجية التربية البيئة في الإسلام:

يعتبر الإحساس من ضمن الوسائل المباشرة لتحقيق معرفة الإنسان بعناصر البيئة الطبيعية، والتي يتكون منها الكون المحيط، فالإنسان يولد وهو لا يعلم شيئاً، ثم لا تلبث الحواس أن تقوم بأداء وظائفها كأدوات

المعرفة، كما أن المعرفة بعناصر البيئة الطبيعية تعتمد عليها أكثر من غيرها من الحواس.

إن الدعوة إلى التفكير وحل المشكلات البيئية كانت واضحة فيما تمثل في التربية الإسلامية في مبدأ الإصلاح دون الفساد، وهو أحد مبادئ التربية البيئية في الإسلام، وأحد الأسس القوية التي ارتكز عليها تنظيم علاقة الإنسان بعناصر بيئته الطبيعية، بل تأمر الإنسان بالتدخل في مسار النظم البيئية بالإصلاح الذي يعود عليه وعلى العنصر الطبيعي موضع التدخل بالنفع والفائدة. كما وتحث التربية البيئية في الإسلام على الدراسة على الدراسة المتأنية الوثيقة، والفاتحة لأسلوب التفكير العلمي الذي دعت التربية الإسلامية إلى استخدامه في حل المشكلات البيئية القائمة بالفعل، وفي القضاء على الأضرار المترتبة عليها، وتجنّب وقوع غيرها في المستقبل. فالدعوة صريحة إلى النظر والملاحظة والتفكير والبحث العلمي في السماوات والأرض، وفي المخلوقات والظواهر جميعها، كما أن القرآن الكريم يوجه العقل والمنطق السليم وتفسير الظواهر الطبيعية والاجتماعية والبيولوجية والنفسية [1].

سادساً - التربية البيئية وسياسة الثواب والعقاب:

تعليقا على التصور الذي طرحته فاطمة آل خليفة، وذلك بالنسبة لتفعيل التربية البيئية من منظور إسلامي في المقررات الدراسية

(١) آل خليفة – فاطمة عبد الله، التربية البيئية في الإسلام – منهج الكون ومنهج الإنسان، مرجع سبق ذكره، ص ١٣٠.

والمدارس، والذي حوى الكثير من النقاط الإيجابية، وذلك كان واضحاً من خلال طرحها لضرورة إظهار الجانب التربوي التي تستمد من النصوص الشرعية، وإسباغ أثر هذه النصوص كعناصر تأثير في قنوات التأثير التي منها ما طرحته بالنسبة للمقرات الدراسية والمؤسسة التعليمية كقناة تأثير بارزة.

ولكني أرى تصوراً آخر لتعزيز التربية البيئية من منظور الإسلام يستوعب مختلف قنوات التأثير التي يجد الإنسان نفسه في الغالب موجوداً فيها، وذلك من خلال تفعيل سياسة الثواب والعقاب، والتي تعتبر سياسة تربوية راقية تهذّب النفس بشكل واضح على تحقيق التوجيه نحو السلوك التربوي المراد التوجيه إليه، وتهذيب النفس على ممارسته، وذلك من أجل مواجهة العادات السيئة التي يمارسها الإنسان من خلال ممارسة حياته في جوانبها المتعددة، أو العمل على وأدها في مولدها قبل أن يصعب تغييرها.

إن أول قناة للتأثير في بناء شخصية إسلامية تتربى على حماية البيئة، وذلك من خلال تفعيل سياسة الثواب والعقاب هي الأسرة، فرب الأسرة ينبغي أن يؤصل فيمن ولاه الله المسؤولية عليهم التوجيهات القرآنية والتقريرات النبوية التي تربي النفس على حفظ البيئة وحمايتها، وليعتبر أن أول بيئة يربي فيها من يقع تحت مسؤوليته ممثلة بالمنزل، فمن يعتني بنظافة نفسه ونظافة مكانه ويمارس سلوكيات بيئية يجعلها نابعة من وازع ديني يمارس معه سياسة الثواب، وذلك حتى وإن مارس هذه السلوكيات الإيجابية خارج نطاق المنزل، وكان قد رآه، كما أن على الأب أن يضع ضمن ما يحقق الثواب عدداً من البرامج التي من شأنها

تعزيز الوعي البيئي لدى أبناءه، وذلك كأن يأخذهم في يوم من الأيام من أجل تنظيف الساحل، وأن يغرس فيهم أن ذلك نابع من خلال ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

كما يقع بعد ذلك في المحطة التربوية التالية على وزارة التربية والتعليم ممثلة بمؤسساتها التعليمية أن تفعّل مثل هذه السياسة؛ وذلك من خلال سن عدد من القوانين التي تعرّض كل من يعتدي على البيئة، سواء برمي المهملات، أو بممارسة أي سلوكيات تؤدي على الإضرار بالبيئة إلى عقوبات صارمة ورادعة، وبالمقابل فإن من يمارس سلوكيات من شأنها تعزيز حماية البيئة والمحافظة عليها ينال ثواباً وأجراً على ذلك. هذا بالإضافة إلى تبني الوزارة المشرفة على المؤسسات التعليمية لبرامج متنوعة ومتعددة في سبيل تعزيز الحماية البيئية، وأن تسعى في سبيل جميع ذلك إلى غرس الانطلاق نحو هذا التوجه ابتغاء لمرضاة الله تعالى.

ومما لا شك فيه أنه لا ينبغي إهمال دور الوعظ الديني من خلال المسجد كمؤسسة دينية في تعزيز قنوات التربية البيئية، وهذا يستلزم من رجال الدين وعياً ومعرفة بمختلف الدلالات الترشيدية المتصلة بعلم البيئة؛ ليرتبط العلم بالدين في طرح متكامل من شأنه أن يعزز الخطاب المطروح تحقيقاً لحماية البيئة بتربية الإنسان من خلال إحياء الوازع الديني، وذلك باعتبار أن رعاية البيئة وصيانتها تعتبر عبادة من العبادات التي لا تقل عن أي عبادة أخرى يمارسها الإنسان في يومه وليلته.

أما في نطاق المجتمع فيقع الدور في ذلك على الدولة ممثلة بالهيئة

التي تعنى بالمحافظة على البيئة وحمايتها من اعتداءات الإنسان، وذلك بالتعاون مع وزارة البلديات، هذا بالإضافة إلى تعاون مثمر مع وزارة الشئون الإسلامية من أجل دعمها ببرنامج متكامل لبناء الوعي البيئي من منظور الإسلام؛ وذلك من أجل بناء جيل قد تربى على سلوكيات وممارسات من شأنها تعزيز الحماية والمحافظة على البيئة بصورة مباشرة وغير مباشرة، وأن تتبع في ذلك سياسة الثواب بالحسنى على الإحسان، وتأكيد الحقيقة التي تقرر أن الذي يعتدي على البيئة متعمداً مخالفاً في ذلك الأنظمة، فإنه بالإضافة إلى العقوبة التي ينالها وفقاً للأنظمة، فإنه سينال عقوبة ربانية في الآخر، والعكس بالعكس.

ومن جانب آخر لا بد أن تضمّن الدولة تشريعاتها مختلف التوجيهات والإرشادات التي من شأنها تعزيز الحماية للبيئة، كما عليها أن تضمن تشريعاتها بيان مختلف الممارسات التي من شأنها انتهاك حرمة البيئة، وأن تعزز ذلك ضمانا لتفعيل هذه التوجيهات والإرشادات بعقوبات لكل من يخالف ذلك، وأن تجعل هذه العقوبات عامة تنال كل من يعتدي في المجتمع على البيئة بصورة واضحة ودون غرض أياً كان.

سابعاً - الوعي البيئي من منطلق عقائدي:

لقد نجحت العقيدة عموماً في تغيير حياة الإنسان، ولا شك في أن أقوى العقائد جميعا هو العقيدة الدينية؛ وذلك لأنها ترتبط بالحياة الدنيا، والحياة الآخرة والإسلام أصدق وأقوى مثل على التأثير العقائدي في حياة الشعوب والأفراد فكراً وتطبيقاً، وشريعة وتنفيذاً، وديناً ودولة في وقت واحد.

لقد وضع الإسلام تعاليم واضحة وصريحة في كل مشكلة من مشاكل البيئة من أول نظافة جسم الإنسان حتى نظافة منزله ونظافة شارعه، ونظافة المياه، كما أن أقوى مبادئ علم مكافحة الأوبئة بدأ بعدم السخط والانزعاج عند حدوث وباء، والاستعانة بالطبيب للتداوي، وعزل المريض، وعمل حجر صحي على البلاد أو المناطق التي بها الأمراض.

ومن خلال هذه المنطلق، وتعزيزا لحماية البيئة، فإن على الجهة التي تقوم على توجيه الوعي بالدين ضمن نطاق الدولة، وعلى المنظمات التي يناط إليها وضع الاستراتيجيات التي من شأن اتباع الدول الخاضعة لها تحسين الاهتمام بالبيئة، كما أن على كل منهما ترسيخ العقيدة الدينية وربطها بالبيئة، وتوضيح أن اللّه قد جعل الإنسان مستخلفاً في الأرض، وله حق الاستثمار والانتفاع والتسخير بما يخدم التفكر والعبادة، والمتعة والتذوق، على ألا ينسى أنه مطالب أيضاً بالمحافظة على البيئة، حيث يجب أن يكون استعماله للبيئة بطريقة رشيدة، ولا يفسد فيها، ولا يعرض مواردها للفساد والتشويه، وان حق الاستثمار والانتفاع ملك له وللأجيال القادمة، كما يجب على كل إنسان أن يحمي البيئة ومواردها، وأن يحافظ عليها، حيث أنه مسؤول أمام اللّه عن نفسه وعن أسرته وعن مجتمعه الذي يعيش فيه [١].

لا بد أن تكون التوعية الدينية بأن اللّه قد جعل الإنسان مستخلفا

---

(١) أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٥.

في الأرض، وعليه أن ينتفع بما في البيئة ويسخّر مواردها لصالحه، وذلك بشرط المحافظة عليها وعلى مواردها من الفساد والتشويه، وأن يحافظ عليها ليس فقط من أجله، ولكن من أجل الأجيال القادمة.

وهناك قنوات للتوعية من أجل حماية البيئة، وهي مقررة من خلال النصوص الشرعية كما استعرضناها سابقا وهي:

- يجب توعية المواطنين دينياً بالالتزام بالتعاليم الدينية في عدم التبذير في استهلاك المياه من أجل تقليل مياه الصرف الصحي التي أصبحت تشكل مشكلة كبيرة.
- يجب التوعية بعدم قطع الأشجار والنباتات الخضراء لأن ذلك يقلل من خصوبة هذه الأرض.
- يجب التوعية بعدم البناء في الأرض الزراعية، حيث أن المسلمين في أشد الحاجة إلى أرض منتجة.
- يجب عدم إلقاء القمامة في الطرقات أو الشوارع منعا لإيذاء الناس؛ وذلك لما في إلقاءها من آثار سلبية.
- يجب حث المسلمين على الاقتصاد في استخدام موارد البيئة استخدامها الاستخدام الأمثل، فلا داعي أن يقذف المسلمون بأكثر من ٢٥ ٪ من الخبز في القمامة، وهو يعلم أن الدولة تستورد القمح، وفي الوقت نفسه تدعمه بضعف ثمنه، أو يستهلك كميات زائدة من الكهرباء والماء دون داع.

- حث المسلمين على استخدام المخلفات من أجل التنمية، وذلك مثل تحويل روث المواشي أو مخلفات الإنسان في إنتاج البيرجاز، أو استخدام نفايات المزرعة كسماد عضوي، أو استخدام بقايا المواد الغذائية في تربية الدواجن [١].

إن المنظور الإسلامي حيال طرق وأساليب حماية البيئة لا يغاير على طول الخط المنظور الوضعي، بل هو حقيقة يتفق معه في الكثير مما ينادي به حاليا، لكنه يتفوق عليه وذلك لتعامله مع عناصر جديدة تكسب الجهود مزيداً من الكفاءة والفعالية.

---

(١) دنيا أحمد شوقي، التنمية والبيئة (دراسة مقارنة)، مرجع سبق ذكره، ص ٩٢.

الفصل الثالث

الحماية التشريعية

الفصل الثالث

الحماية التشريعية

إن التربية البيئية والتوعية بضرورة التعامل مع البيئة بسبيل الرفق والصيانة والرعاية لها لا يكون وسيلة تحقق الحماية المرجوة للبيئة من إفساد الإنسان، وذلك إما لفقدان التربية كسبيل لتحقيق الرعاية سبيلاً في علاقة الإنسان ببيئته، وإما نظراً لكون المجتمع بحاجة إلى حماية قانونية حيث لم تحقق الحماية التربوية غايتها في تهذيب سلوك الفرد، مما ولد الحاجة إلى ضرورة تحقيق الحماية التشريعية بفرض عقوبات على من ينتهك حرمة البيئة أو يعتدي عليها، بحيث تكون هذه العقوبات رادعة ومهذبة لسلوكيات الإفراد المنحرفة في علاقتهم مع البيئة، ولا شك أن هذه المنظومات التشريعية تختلف باختلاف المعطيات البيئية ما بين دولة وأخرى، هذا فضلاً عن دور درجة التمدن في مثل ذلك، فكلما ازداد التعقد في علاقاته، وبالتالي يحتاج هذا المجتمع إلى تنظيم قانوني أكثر فاعلية لتهذيب السلوكيات وضبط الممارسات.

وحقيقة فإن شريعة الإسلام وإن احتوت على معالجات شرعية للسلوكيات البيئية في مختلف محاورها، إلا أنها لم تحتوِ على أي نص تشريعي يرتب عقوبة على الاعتداء على البيئة، وذلك على الرغم من النص على شدة تحريم الاعتداء على البيئة دون غرض أو حاجة. ومن

هنا فإنه يقع على ولي الأمر المسؤولية في ذلك، فلا بد عليه أن يصدر تشريعاً لحماية البيئة والمحافظة عليها، وأن يضمّن هذا القانون تنظيماً متكاملاً لحماية البيئة بصورة عامة، وأن يضع ضرورة تعزيزاً لسياسة الثواب والعقاب عقوبات رادعة لكل من تسوّل له نفسه الاعتداء على البيئة، ومن هنا فلا بد أن يكون القانون شاملاً لمختلف صور الاعتداء على البيئة، وأن يكون منظماً لمختلف العمليات التي من شأن الإساءة في استخدامها الإضرار بصورة واضحة وشديدة على البيئة.

إن الحماية البيئية من خلال النظم المؤسسية ينبغي أن ترتكز على منطلقات من شأنها أن تحقق الحماية المنظمة والمدروسة للبيئة، والتي تتطلب مؤسسات تقوم على أنظمة واستراتيجيات من شأنها أن تحقق الفعالية للحماية البيئية، ولا شك أن خير استثمار في ذلك يتمثل في استقراء مبادئ الدين وتفعيلها في الاستراتيجيات البيئية، والتي تقوم على استقراء الواقع لتحسين صورة المستقبل.

أولاً - محاور ومرتكزات البعد التشريعي :

لا بد من أجل صناعة منظومة تشريعية تحتوي على نظم وقواعد من شأنها أن تحقق الردع لكل من ينتهك حرمة البيئة بالاعتداء عليها والإضرار بها، وبالتالي العمل على حفظ البيئة بعناصرها ومكوناتها، من أجل تحقيق ذلك لا بد من استقراء عدد من المعطيات تحقيقاً للجودة في النتائج، وفيما يلي استعراض أبرز محاور هذه المعطيات التي من شأنها أن تحقق الأهداف والغايات.

١. الاعتماد على مدخلي الوقاية والعلاج معاً: وذلك بالتعامل مع المشاكل البيئية على مستويين: مستوى الجذور العميقة والقريبة، ومستوى ما ينجم عنها وينتج، ومن ثم نجده يحرص كل الحرص على جعل العامل العقدي والثقافي بحيث يباعدان بين الإنسان والاعتداء على البيئة، وأسس ذلك منثورة في الأصول الشرعية، ويبقى تحقيق التربية على السلوك البيئي الصحيح. كذلك نجد الإسلام لا يقف عند حد هذا التأهيل والتربية، وإنما يتجاوزها إلى سن التشريعات الملزمة التي تحول دون ذلك العدوان، وتتعامل معه بفاعلية وكفاءة إذا وقع.

٢. التعامل مع الإسراف بكفاءة وفعالية: لم يعد يغيب عن بال أحد مدى ما بين الإسراف والحفاظ على البيئة من أشد أنواع العداوات، بحيث يمكن القول بأن الإسراف وراء معظم مشكلات البيئة من حيث وجودها ومن حيث استفحالها [١].

٣. التأكد الجازم من نظافة البيئة وعدم تلوثها: فهناك أحاديث عديدة تؤكد على أهمية النظافة سواء للإنسان أو للبيئة، وتحظر أي عمل من شأنه أن يحدث تلوثاً بيئياً. كما أن من أهم مسؤوليات المحتسب وصلاحياته المنع من كل ما يؤدي إلى تلوث البيئة وعدم نظافتها، سواء في ذلك الهواء أو الماء أو الأماكن أو المواد والمنتجات [٢].

---

(١) دنيا أحمد شوقي، التنمية والبيئة (دراسة مقارنة)، مرجع سبق ذكره، ص ٩٢.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٩٧.

٤. التحذير الصارم من أن الإنسان هو المتحمل في النهاية نتيجة عدوانه على البيئة: لقد حرص الإسلام كل الحرص أن يبين لنا أن هناك ارتباطاً قوياً طردياً بين حال الإنسان وحال سلوكه حيال بيئته، ويمكن أن يرد ذلك في ديباجة المنظومة التشريعية لحماية البيئة.

٥. التعامل الفعال مع قضية المسؤولية والإدارة عن حماية البيئة: لقد اهتم الفكر الإسلامي بهذه القضية اهتماماً متزايداً مقدماً لها من الأساليب العملية بما يكفل القيام بها. ولضمان القيام بذلك عملياً حمّل الإسلام الأمة كلها مسؤولية المحافظة على البيئة، فكما أن الحاكم مسؤول فإن كل فرد مسؤول، وإذا كان كل فرد مأمور بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإن حماية البيئة من أهم الأمور التي يجب الأمر بها، والاعتداء عليها من المنكرات التي يجب منعها.

ثم إن المسؤولية عن ذلك كاملة وتضامنية في فروض الكفاية، وهي كل ما يحتاج إليه المجتمع، ويدخل ضمن ذلك الحفاظ على البيئة، حيث يحتاج المجتمع إلى نوعية بيئية جيدة، والجميع مسؤولون عن توفير ذلك، وإذا لم يتحقق أثم المجتمع كله، ويمكن إيراد هذه الأبعاد في ديباجة المنظومة القانونية لحماية البيئة أيضاً باعتبارها من المنطلقات التي ترتكز عليها منظومة القانون.

إن الأمر في حاجة ملحّة إلى الأخذ على أيدي العابثين بالبيئة،

وإلا فالهلاك للجميع، والأخذ على أيديهم مسؤولية الجميع؛ لأنه من باب إزالة المنكر والعمل على عدم وقوعه، وهذا يعتبر من أعظم أبواب القربات عند الله تعالى.

٦. الوعي الكافي بأهمية مراعاة كل من التنمية والبيئة على حد سواء: فنظرة الإسلام في ذلك نظرة متوازنة، وكان منطلقه في هذا الصدد ضرورة تخيّر أهداف وسياسات وأدوات للتنمية بحيث لا تمثل عدواناً على البيئة، كذلك اتخاذ سياسات بيئية غير متنافية مع متطلبات هذا النمط من التنمية.

وعموماً يمكن القول بأن الإسلام تغلّب على هذه المشكلة من خلال تشريع بعض المبادئ والسياسات، وأهمها كون المشروع الخاص محترماً لكنه محاط بقدر واضح من الضوابط، وكون المشروع العام مراقباً ومسؤولاً من جهة، وغير متسعٍ ومتمددٍ من جهة أخرى، وأخيراً إمكانية فرض رسوم أو أثمانٍ على معظم الخدمات العامة بهدف ترشيد استخدامها من جهةٍ توفير التمويل اللازم من جهة أخرى، وفي ضوء هذه المسائل الكلية الكبرى للدولة، بل عليها أن تتخذ ما تراه من أساليب وإجراءات تحقق أكبر قدر ممكن من المصلحة العامة.

٧. إقامة نظام عقابي رادع: إذ لا تكفي العناصر والعوامل المختلفة للعمل على حماية البيئة، وهنا تأتي الحاجة لفرض نظام عقابي رادع بحيث يوجع المعتدي ويزجره عن ممارساته، ويكون نظاماً يعم الجميع ويخضع له الكل كفالة لاحترامه، والحد الأدنى

للعقوبة الذي لا جدال حوله من الناحية الشرعية هو تحميل وتضمين المعتدي قيمة ما أفسده، وهي مسألة نتناولها ضمن المسؤولية عن المشاكل البيئية من منظور الإسلام .

٨. النظرة الإقليمية – الإسلامية – لمشكلات البيئة والتنمية: ومن هذا المنطلق يمكن للعالم الإسلامي أن يتعامل بكفاءة وسهولة مع مشكلات البيئة والتنمية، وذلك من خلال توفير أكبر قدر ممكن من التوازن بين متطلبات كل منهما، عكس ما لو تحملت كل دولة بمفردها كل عبء حماية البيئة وإنجاز التنمية، ففي ذلك من العسر والمشقة ما فيه لغالبية الدول عامة، والدول الإسلامية خاصة [1]. وهذه النقطة سيكون تناولها ضمن المحور الأخير من هذا الفصل بمشيئة الله تعالى.

ثانياً - المسؤولية عن المشاكل البيئية :

تنطلق المسؤولية عن الأضرار البيئية من مبدأ يقرر أنه أمام كل حق واجب يتعين على الممارس لهذا الحق أن يلتزم به، وتنطلق هذه المسؤولية من خلال محورين هما: الإثبات والجزاء على الأضرار البيئية، واللذان نتناولها فيما يلي:

- إثبات الأضرار البيئية: ينصب الإثبات في الأضرار البيئية على واقعة الضرر، وما أدت إليه من أضرار، ويتحقق مجال

(١) دنيا أحمد شوقي، التنمية والبيئة (دراسة مقارنة)، مرجع سبق ذكره، ص ٩٢.

إثبات المسؤولية عن الأضرار البيئية إما بتحريك الدعوى الشخصية، وهذه يتبع فيها وسائل الإثبات المعروفة من كتابة، وشهادة شهود وقرائن ويمين ونحو ذلك، وإما أن يكون بدعوى حسبة إذا كان الضرر عاماً، وهذا لا يقبل فيها إلا الإقرار أو البيّنة، ونتناول هذين النوعين بالتفصيل كالتالي:

١. **إثبات الأضرار البيئية بالدعوى الشخصية:** وهي دعوى شخصية لا تقبل إلا من المتضرر أو من ينيبه، فبدون رفعه للدعوى لا تنظر أمام القضاء. ويشترط في الضرر الذي ترفع بسببه الدعوى أن يكون الضرر محققاً، والضرر المحقق شامل لمحقق الوقوع في الحال أو في المستقبل، أما احتمال حدوث الضرر فإنه لا يكفي لرفع الدعوى.

فإذا تحقق الضرر جاز إثباته بكل وسائل الإثبات المعروفة وأهمها: الإقرار، والشهادة، والشاهد واليمين، والقضاء بالنكول، والقرائن وغيرها.

- **الإقـرار:** فأما الإقرار فهو من أقوى الأدلة في الإثبات، ويقرر ذلك قول الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾[1]. ولذا يقول الفقهاء: (الإقرار حجة ملزمة لصاحبها).

(١) النساء ١٣٥.

فإذا رفع المضرور أو من ينيبه دعوى أمام القضاء يدّعي فيها أنه وقع عليه ضرر من شخص معين، فأتى المدعى عليه واعترف بذلك ثبت حق المضرور في جبر هذا الضرر.

- **الشهادة**: والأصل فيها قول الله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾[1]. وفي الحديث عن ابن عباس (رضي الله عنهما): «لو يعطى الناس بدعواهم لادعى قوم دماء قوم، لكن البيّنة على من ادعى، واليمين على من أنكر»[2].

- **الشاهد واليمين**: بمعنى إذا لم يجد المدعي سوى شاهد واحد، فإنه يجوز سماع هذه الدعوى بهذا الشاهد مع يمين المدعي.

- **اليمين**: فإذا لم يجد المدعي ما يثبت به دعواه فإن الدعوى تقبل شكلاً، وعلى القاضي أن يوجه اليمين إلى المدعى عليه، فإن حلف ردت الدعوى موضوعا، وإن لم يحلف حكم القاضي عليه في موضوع النزاع؛ لأن اليمين لرفع التهمة ورفع النزاع بين المتخاصمين، ويعرف هذا بالقضاء بالنكول.

- **القرائن**: وهي تختلف من حالة إلى أخرى، فلكل واقعة

(١) البقرة ٢٨٢.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الأقضية، حديث رقم (١٧١١). وقد أورد هذا الحديث زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٨.

مظاهرها الخارجية، ودوافعها الجدية، وملابساتها المحيطة بها، وكذلك الوسائل التي اتبعت فيها، وكل هذه وتلك يمكن أن توصل إلى معرفة حقيقة الأمر [١].

٢. **إثبات الأضرار البيئية بدعوى الحسبة:** لقد عرفت الحسبة بعدة تعريفات في الاصطلاح، ومن أدق هذه التعاريف وأكثرها إحاطة تعريف علي القرني بقوله: (الحسبة عمل يقوم به المسلم لتغيير منكر ظاهر، أو أمر بمعروف دائر، من خلال ولاية رسمية، أو جهود تطوعية، وعلى المكلف بها ما ليس على المتطوع). فهذا التعريف يبين أنواع الحسبة، وبأنها قد تكون من خلال ولاية رسمية، أو من خلال جهود تطوعية، بالإضافة إلى أن التعريف قد بيّن مهمة المحتسب في كلا النوعين، ثم بيّن بأن على المكلّف بها ما ليس على المتطوّع [٢].

ويحق لكل من المحتسب المكلّف والمتطوّع رفع دعوى الحسبة، وإن كان المكلّف معنياً بها أكثر بحكم سلطته وصلته داخل الحكومة الإسلامية.

يقول الكتّاني مبيناً فضل الحسبة: (اعلم أن الحسبة من أعظم الخطط الدينية، فلعموم مصلحتها وعظيم منفعتها تولّى أمرها الخلفاء

---

(١) . زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٨٥.

(١) .المرجع السابق نفسه، ص ٩٣.

الراشدون، ولم يكلوا أمرها على غيرهم مع ما كانوا فيه من شغل الجهاد وتجهيز الجيوش للمكافحة والجلاء). وقد بيّن أبو حنيفة في أضرار الطريق بأن لكل واحد من الناس أن يطالب برفع هذه الأضرار، وذلك في نص عبارته: (لكل أحد من عرض الناس مسلماً كان أو ذمياً أن يمنعه).

ويمكن القول بأن مشاكل البيئة المعاصرة لو وجدت في زمان تطبيق الحسبة في الدولة الإسلامية، لكانت قد ذكرت من جانب الفقهاء بمسمياتها المعروفة، وإذا كان قد سبق التأكيد بأن رفع الأضرار البيئية يتحقق برفع دعوى شخصية بالنسبة لمن وقع عليه الضرر شخصياً، فإن دعوى الحسبة هي السبيل على الوصول إلى حماية الممتلكات العامة التي لا تقع ملك أحد، سواء ما تعلق منها بالمصلحة العامة، أو ما تعلق بحق الله تعالى.

ويمكن للمحتسب أن يثبت هذه الأضرار البيئية وما شاكلها بالإقرار أو البيّنة، ويمكن أن يرفعها شخص وقع عليه الضرر أم لم يقع، وإذا رفعت المسألة إلى القضاء وثبت الضرر فإن المحتسب لا يملك التنازل عنها، فالحقوق العامة لا تقبل العفو.

- **جزاء الأضرار البيئية**: يترتب على الأضرار البيئية في الشريعة الإسلامية جزاء دنيوي وجزاء أخروي، والجزاء الدنيوي قد يكون عينياً وقد يكون ماليا، وقد يكون عقوبة تعزيرية، وهي متروكة لولي الأمر في أن يتخذ ما يردع في ذلك، فشأنه ودوره أن يسعى للقضاء على كل مفسدة، ومما لا شك فيه أن الاعتداء على البيئة يمثل أعظم المفاسد في واقعنا المعاصر.

١. **الجزاء الدنيوي للأضرار البيئية:** وهو جزاء يتنوع إلى ثلاث صور (الجزاء العيني – الجزاء المالي – الجزاء التعزيري).

- **الجزاء العيني:** ويقصد بالجزاء العيني إزالة السبب الذي ينجم عنه الضرر، وهذا الجزاء لا يكون بصورة واحدة في جميع الحالات، بل هو على أشكال مختلفة تبعاً لاختلاف حالات الإضرار.

فقد يكون المنع قبل مباشرة الفعل الضار، وذلك إذا كان ما يؤدي إليه هو من الضرر المحقق، كالمنع من إلقاء القاذورات في الشوارع أو الأفنية، أو في المياه العامة أو الخاصة، قد يكون بإزالة الضرر بعد وقوعه، كرفع القاذورات بعد وضعها، أو هدم ما بناه في الطرق العامة، أو هدم ما حفره في الطرقات أو ما شاكل ذلك.

- **الجزاء المالي:** فإذا لم يكن منع الأضرار أو إزالتها بعد وقوعها من الناحية الواقعية، فإن السبيل الوحيد في هذه الحالة لجبر الضرر هو اللجوء إلى التعويض، وفي ذلك تقول القاعدة الفقهية: (إذا تعذّر الأصل يصار إلى البدل) [(١)].

ومن الجدير بالإشارة أن تقرير المسؤولية على محدث الضرر دون إثبات ركن الخطأ، إنما هو تقدم فقهي يتفق وحاجات الحضارة

(١) زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ٩٨.

المعاصرة من تطور صناعي وتكنولوجي، وما صاحب ذلك من تزايد المخاطر في التعامل مع تلك الأجهزة والمعدات، حيث يمكن أن تلحق الضرر بالأشخاص دون أن يتمكن هؤلاء من إثبات أي خطأ في جانب رب العمل أو صاحب المنشأة.

ومن الجدير بالإشارة أيضاً أن الفقه القانوني في العصر الحاضر بدأ يأخذ بما نادى به فقهاء الشريعة من مئات السنين، مما يدل على عظمة الفقه الإسلامي وتطوره وصلاحيته للتطبيق، فبدأ الفقه القانوني يأخذ بما سماه (نظرية المسئولية البيئية المطلقة)، ومؤداها: (أن من يستغل منشأة أو مشروعا ويصاحب هذا الاستغلال مخاطر، فعليه أن يتحمل ما يصيب الغير من ضرر، حتى ولو لم يتوفر أي خطأ يمكن إسناده إلى مستغل أو صاحب المشروع ... وكذلك من يستخدم أو يشغل سفينة أو يمارس نشاطاً استكشافياً أو استغلالياً لمياه البحر أو النهر، يكون ملزماً بتعويض الأضرار التي نتجت عن ذلك الاستخدام أو التشغيل الذي أدى إلى تلويث البيئة البحرية أو النهرية بالنفايات أو إغراق المركبات، هذا في الأنظمة الداخلية وكذلك الدولية).

- **الجزاء التعزيري:** وهو عبارة عن العقوبة بما ليس له حد مقدر في الشريعة الإسلامي، سواء أكانت تلك المعصية تتعلق بحقوق الله أم بحقوق العباد.

وتختلف صفة التعزير بحسب الأفعال والأشخاص والملابسات، وهي تبدأ بالتنبيه والإعلام، وتنتهي بالقتل؛ لأن من الناس من يرتدع

بمجرد التنبيه، ومنهم من لا يرتدع إلا بالتغليظ عليه بالحبس والضرب والغرامة المالية، وقد تصل إلى النفي والقتل.

٢. **الجزاء الأخروي للأضرار البيئية:** وهو أمر تمتاز به الشريعة الإسلامية عن الشرائع الوضعية، وهذا الجزاء تقتصر عليه عندما يصعب إثبات الجزاء في القضاء، وهذا الجزاء له اثر بالغ في توجيه النفوس إلى ضرورة العمل بأحكام الدين، واتباع أوامره، واجتناب نواهيه [١]. فمن اعتدى على البيئة ولم يجد من يردعه في الدنيا، فليعلم أن عقابه لن يضيع في العالم السرمدي.

ثالثاً - أبعاد ومقتضيات الحماية التشريعية :

إن الأحكام المتعلقة بحماية البيئة في الفقه والتشريع الإسلاميين لتؤكد بجلاء أن الشريعة الإسلامية لها القدرة الفائقة على استيعاب مستجدات الحياة، وذلك من خلال الأصول والأهداف الثابتة في التشريع الإسلامي، وبفضل مرونة وسائل التشريع، حيث كفلت الشريعة الإسلامية حماية البيئة – مدنياً وجنائياً –، حيث يشترط للحماية المدنية أن يحدث المساس بالمصلحة المشمولة بالحماية ضرراً، أما الحماية الجنائية فهي تتحرك في مواجهة كل من يعتدي على البيئة، سواء ترتب على اعتدائه ضرر أو تهديد بإحداث ضرر.

---

(١) . زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام، مرجع سبق ذكره، ص ١٠٢.

إن للحماية التشريعية في الشريعة الإسلامية أبعادٌ ومقتضيات تكسب منظومة التشريع البيئي التي تراعيها وتقوم عليها تحقيقاً للحماية البيئية على نحو أكثر مرونة واستيعاباً للمتغيرات، وفيما يلي استعراض لعدد منها كما طرحها محمد صالح العادلي في كتابه (الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية البيئة).

١. إذا كانت الشريعة الإسلامية تعترف بحق الملكية للإنسان فإن ذلك لا يعني بأي حال من الأحوال إهدار حق الإنسان في بيئة ملائمة ؛ وذلك نظراً إلى أن ممارسة الحقوق في الشريعة الإسلامية تتم في إطار الموازنة بين المصالح المتعارضة بغية تفادي التعسف في هذه الممارسة.

٢. إن السياسة الشرعية تسمح بتنظيم حماية البيئة في الدولة الإسلامية على نحو مركزي وغير مركزي، وتعني المركزية أن يتم التنظيم بمعرفة وليِّ الأمر أو الحاكم وأعوانه من أهل الحل والعقد، ويراد باللامركزية أن يتولى هذا التنظيم أصحاب الولايات الأدنى – بناء على تفويض ولي الأمر – كحاكم الإقليم في نطاق إقليمه.

٣. إن التجريم لأفعال الانتهاكات في حق البيئة قد تكون إيجابية أو سلبية، ويمكن أن ترتكب الجرائم الإيجابية البيئية بطريق الامتناع. كما يشترط لمجازاة الممتنع لارتكابه جريمة بيئية سلبية أن يكون الممتنع مخالفاً لواجب (شرعي أو عقدي أو أخلاقي).

٤. ومن جانب آخر فإنه يمكن أن ترتكب الجرائم البيئية بطريق العمد بدرجاته، والخطأ بأنواعه، كما تخضع الجرائم البيئية لذات الضوابط التي يقررها التشريع والفقه الإسلاميان للسببية في الجرائم بوجه عام.

٥. إن الأصل العام هو ارتكاب الجرائم البيئية بطريق العمد بمختلف درجاته، أما ارتكابها عن طريق الخطأ أو الإهمال الجسيم فلا يلجأ ولي الأمر أو من في حكمه إلى تجريمه إلا في أضيق نطاق، وعلى سبيل الاستثناء، ومن أجل تحقيق مصلحة المجتمع. أما مسؤولية غير المخطئ (الناسي) لا تكون إلا في حدود ضيقة للغاية، ويجازى بجزاءات مخففة لا يمكن أن تصل بأي حال من الأحوال إلى مرتبة الحدود.

٦. لا يمكن إسناد المسؤولية الجنائية مالم يكن السلوك – فعلا كان أو امتناعا إجراميا – قد حدث نتيجة مساسٍ بإحدى المصالح المشمولة بحماية التشريع الجنائي الإسلامي. كما أن من الممكن إسناد المسؤولية الجنائية في الجرائم البيئية – طبقا للتشريع والفقه الإسلاميين – إلى الشريك والمحرّض ومرتكب أفعال تعد شروعاً، والمتآمر كذلك.

٧. يلتزم لصحة التكليف المتضمن حماية جنائية للبيئة أن يعلم المكلف بالحكم الشرعي وبالواقع، وينتفي التكليف متى جعل المكلف السبب الذي يقتضي الحظر كالجهل بكون المواد الكيماوية التي استعملت في الاعتداء على البيئة سامة.

٨. إن نظرية الضرورة في الفقه الإسلامي محددة بحالة الاستعمال، فلا يجوز الاحتماء بالضرورة لدفع المسؤولية الجنائية عن الجرائم – بوجه عام –، وهو يسري على الجرائم البيئية – متى لم تتوفر خشية من فوات الوقت على النفس أو الأعضاء.

٩. يلتزم بالمتسبب بالضرر سواء أكان شخصية عامة – الدولة أو أحد ممثليها – أو شخصا خاصة بالتعويض للمتضرر عن الجريمة البيئية، وإذا كان التعويض بسبب تعدٍ من الموظف فإن الدولة تلتزم بتعويض المتضرر، ولها أن ترجع عليه بعد ذلك.

١٠. يكون تقرير واعتماد كافة مصادر التشريع الإسلامي بواسطة أهل الاجتهاد كولي الأمر والقاضي، أما الموظفون العامون فعليهم طاعتهم فيما يقررونه من قواعد وأحكام شرعية تحكم ممارسة السلطة التشريعية، شريطة عدم مخالفة هذه القواعد للنصوص الشرعية والاعتمادات الفقهية.

١١. تسري على الجرائم البيئية سائر موانع المسؤولية الجنائية المقررة في التشريع الجنائي الإسلامي، وبذات الضوابط المحددة لها، كمانع السكر نتيجة إكراه أو ضرورة أو بغير علم.

١٢. تطبق الجزاءات المقررة لجرائم الحدود أو القصاص والدية إذا نتج عن الاعتداء على البيئة جريمة من الجرائم التي رتب عليها الشارع الحكيم ذلك.

١٣. يجوز لولي الأمر – أو من يفوضه – الحكم على مرتكبي

الجرائم البيئة تعزيراً بعقوبة: السجن المؤبد أو المؤقت، أو العمل الإصلاحي أو الغرامة، أو توجيه لوم إليهم [1].

إن ما طرحه محمد صالح العادلي في كتابه (الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية الشريعة) يعكس الأبعاد والمقتضيات التي قررها الشارع الحكيم في الكتاب والسنة، وأصلته وخرجتها الاجتهادات الفقهية، فكانت تعتمد في ذلك على القواعد العامة المقررة في النظرة للإنسان ولعلاقات الإنسان كما تقررت في نصوص البيان التشريعي، ومن خلال نقطة الانطلاق والارتكاز لبناء التصورات والتوجيهات تأتى البون الشاسع بين الأحكام الشرعية الربانية المصدر، السرمدية الصلاحية، وبين الأحكام الوضعية الإنسانية المصدر، الوقتية الصلاحية.

إن الاختلاف بين ما هو رباني المصدر وما هو وضعي المصدر يختلف من ناحية كمال الأول وقصور الثاني، ومرونة الأول وجمود الثاني، واستيعاب الأول وقصور الثاني؛ ولذلك يقرر عبد القادر عوده في كتابه (التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي) بأنه لا مماثلة بين الشريعة والقانون، وأنه لا يصح أن تقاس الشريعة بالقانون، وأن طبيعة الشريعة تختلف عن طبيعة القانون، وأنه لو كانت طبيعة الشريعة من طبيعة القانون الوضعي لما جاءت على الشكل الذي جاءت به، ولوجب أن تأتي شريعة أولوية ثم تأخذ طريق القانون في التطور مع الجماعة، وما

---

(١) . العادلي – محمد صالح، الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية البيئة، ط: ١، ١٤١٥ – ١٩٩٥، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر، ص ٩١.

كان يمكن أن تأتي بالنظريات الحديثة التي لم تعرفها القوانين الوضعية إلا أخيراً، بل ما كان يمكن أن تصل إلى مثل هذه النظريات إلا بعد أن تعرفها القوانين، وبعد مرور آلاف من السنين [١].

وبذلك يتضح أن قاعدة الارتكاز تختلف ما بين التشريعات الربانية والقوانين الوضعية، وأبعاد ومقتضيات الأولى تتلف جذرياً عن أبعاد ومقتضيات الثانية، وذلك بدليل أن الثانية ما تلبث أن تتغير بسبب ارتكازها على قواعد قاصرة وهشة، أما الأولى فنظرا لكونها من إبداع الصانع الذي أبدع مصنوعاته وامتن عليهم بما يكفل لهم تنظيم علاقتهم فيما بينهم ومع ما حولهم من محيط يشتمل على عناصر البيئة ومكوناتها، فمن بناء النظرة حتى تشكيل العلاقة تستوعب التشريعات الربانية حياة الإنسان في الجملة والتفصيل في مرونة واستجابة للمتغيرات على نحو يكفل لها أن تحكم عليها وتستوعبها.

إن الحماية التشريعية لعلاقة الإنسان ببيئته ضرورة ملحة لاكتمال عناصر الحماية للبيئة بمختلف عناصرها ومكوناتها، ومالم ترتكز هذه الحماية على أبعاد ومقتضيات الشريعة الغراء، فإنها تظل عاجزة عن تحقيق أهدافها وغاياتها في الارتقاء بنظرة وعلاقة الإنسان ببيئته ومحيطه.

---

(١) عبد القادر عوده، التشريع الجنائي الإسلامي مقارنا بالقانون الوضعي، ج ١، ط:١٤، ١٤١٨ – ١٩٩٧، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان، ص ١٧.

رابعاً - حماية البيئة بين التشريعات الإقليمية والدولية :

إن حماية البيئة في ظل التحديات العالمية نتيجة تقدم الصناعة والتكنولوجيا وتعقد الدورة البيئية لم تعد حماية إقليمية، بل أصبحت حماية دولية تستدعي تضافر الجهود الدولية من أجل العمل على تحقيق الحماية للبيئة ضمن النطاق الإقليمي والدولي. وإذا كانت الدول تستطيع تعزيز قنوات الحماية للبيئة ضمن إطارها الإقليمي بتبني تشريعات من شأنها أن تحقق الحماية لعناصر ومكونات البيئة، إلا أن الحاجة كانت وما زالت إلى ضرورة تبني استراتيجيات تشريعية تحقق التواؤم والتكامل بين التشريعات الداخلية والدولية على حد سواء.

يشير صلاح الدين عامر في كتابه (مقدمة في القانون الدولي العام) إلى أن النظرة القانونية المستقرة إلى الفضاء الخارجي باعتباره تراثا مشتركاً للإنسانية لا يجوز الادعاء بفرض السيادة الوطنية على أي جزء منه، ويريد بذلك أن يقرر المسؤولية المشتركة في الحماية بين مختلف الأطراف التي تنتفع من هذا الفضاء، كما يؤكد بأنه من ناحية ثانية فإن هناك عناصر تشكل أجزاء من البيئة الإقليمية في دولة معينة لا تعد مرتبطة بالبيئة الدولية، أو بعناصر البيئة في أقاليم أخرى.

إن السبب في ضرورة تحقيق التواؤم والتكامل بين التشريعات الإقليمية والتشريعات الدولية يرجع إلى ما تكتسبه أجزاء من البيئة من طابع دولي، هذا فضلاً عن أن مشاكل التصحر والجفاف لا يمكن الاقتصار في تناولها ومعالجة آثارها على النطاق الإقليمي المحدود الذي

تقع فيه لما لها من آثار ممتدة عبر أقاليم الدول المجاورة وغير المجاورة في الغالب الأعم.

ومن أجل ذلك أصبحت الحماية الدولية لبيئة الإنسان ضرورة ملحّة لا يمكن تحقيقها إلا بتضافر جهود المجتمع الإنساني؛ وذلك نظراً لتراكم المشاكل البيئية عبر الدولية وعدم إمكانية حلها إلا بجهود جماعية باعتبار أن تراكمها كان أيضا بجهود جماعية تتفاوت فيها الأدوار.

لقد أبدت النظم القانونية الداخلية اهتماماً يتفاوت قدره من نظام إلى آخر بالبيئة التي يحيا فيها الإنسان، وعندما قامت الثورة الصناعية فقد عرفت الدول الصناعية تشريعات تستهدف حماية جوانب أخرى للبيئة، ولكنها في النهاية تتفادى الأضرار التي تنجم عن استخدام الأساليب الصناعية، والتي تصيب البيئة التي يحيا فيها الإنسان [١].

ومن خلال الأبعاد والمقتضيات الآنفة الذكر فإن التشريعات الرامية إلى رعاية البيئة في الدول الإسلامية يمكن أن ترتكز على ما قررته من قواعد، وذلك نظراً لكون المنظومة القانونية التي ترتكز على ما أصلته قواعد الدين جديرة بتحقيق مكاسب أكثر لبيئة الإنسان.

وإذا كان توجه إدراك الإنسان مجرداً قد تأتى لعلاقته العضوية للبيئة، واشتداد وبروز الإحساس بوحدة تلك البيئة التي يعيش فيها

---

(١) صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة القانون الدولي العام، ٢٠٠٧، مطبعة جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر، ص ٩٠٦.

الإنسان، فإن ذلك كان له الفضل في المسارعة إلى الحديث عن قانون دولي للبيئة، ثم المبادرة إلى وضع قواعده.

إن التحرك الجدي من مختلف تكتلات العالم من أجل إنقاذ البيئة من وضع التردي الذي وصلت إليه لم ينجم من فراغ، بل كان ناجماً عن مشاكل بيئياً تسبب فيها وما زال العديد من دول العالم والتي يأتي على رأسها الدول الصناعية، فالجميع مساهم في الجريمة بنسب متفاوتة، والجميع يرغب في مزيد من الانتفاع بعناصرها؛ لذلك كان واجب الحماية متعيناً على الجميع.

ومن أجل ذلك فلا بد من تنسيق التشريعات الوطنية في مجال البيئة، حيث أنه وإن كان قد بدأ العمل في مجال البيئة على أساس وطني في نطاق التشريعات الداخلية لكل دولة من الدول - خاصة الدول المتقدمة -، إلا أنه سرعان ما أدرك الجميع مسلمين وغير مسلمين أنهم جزء من كل أعم، ومن ثم فإن حماية البيئة في دولة أو دول معينة لن تؤتي ثمارها وفوائدها إلا من خلال الاهتمام بحماية البيئة ككل، وبذلك فإن التشريعات الوطنية والتشريعات الدولية تتكامل أدوارها في حماية البيئة وحفظها من الانتهاكات التي أقضّت مضجعها.

إن مما يدعو إلى هذا التنسيق ما تتمثل به الاعتبارات العملية البالغة الأهمية، وهو ما يدعو إلى وجوب التنسيق بين التشريعات الوطنية في مجال الحماية؛ وذلك لتجنب حدوث ما يعرف بظاهرة تصدير التلوث، حيث يجري العمل على نقل المنشآت التي يصدر عنها التلوث إلى

دول أخرى يكون التشريع فيها أقل قسوة وتشدداً من التشريع في الدولة الأولى، وهو ما يعرف أيضا بظاهرة تصدير الصناعات القذرة، الأمر الذي يصدر عادة من الدول الصناعية المتقدمة ويتجه صوب الدول النامية التي غالبيتها من الدول الإسلامية (١).

وتأكيداً على مبدأ حماية البيئة فقد قررت بعض النصوص والوثائق القانونية التي عرضت لحق الإنسان في البيئة إلى إشارات واضحة تقرر للإنسان بوصفه كذلك حقاً في بيئة سليمة خالية مما يضر به. ومن أبرز النماذج التي تشير إليها الاتفاقية الدولية بشأن الحقوق الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لعام ١٩٦٦، والتي جاء بمادتها (١٢) بأن من الخطوات التي تقر الدول الأطراف في الاتفاقية الحالية بحق كل فرد فيها تحسين شتى الجوانب البيئية والصحية، حيث ربط هذا القانون بين صحة الإنسان والبيئة، وألزم الدول بالعمل على تحسين البيئة ورعايتها على نحو يهيء للإنسان التمتع بأعلى مستوى من الصحة البدنية والعقلية، وهو ما يعد نوعاً من الاعتراف ببيئة سليمة لا تؤثر تأثيراً ضاراً على صحته البدنية والعقلية.

ونظراً لارتباط حق الإنسان في الحياة كأبرز حقوق الإنسان بحقه في بيئة سليمة فإن ثمة دساتير أشرت إليها فيما سبق بالإضافة إلى الدستور البرتغالي قد نص صراحة وبصورة قاطعة على تقرير حق

---

(١) صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة القانون الدولي العام، مرجع سبق ذكره، ص٩١٥.

الإنسان في بيئة سليمة غير مهددة، حيث أشار هذا الدستور الصادر في ٢ أبريل ١٩٧٦ بأن لكل شخص الحق في بيئة سليمة ومتوازنة، كما أن عليه واجباً في الدفاع عنها. وقد أضافت الفقرة الثانية من المادة واجبات محددة ألقتها على عاتق الدولة في مجال حماية البيئة الطبيعية، بينما أكدت الفقرة الثالثة من تلك المادة ذاتها على حق الأفراد وفقاً للقانون في المطالبة بمنع أي مساس بالبيئة حال وقوعه، وحقهم في الحصول على تعويضات ملائمة. كما نص الدستور الأسباني الجديد على مبادئ مشابهة [(١)]. ولعل هذه المبادئ تتشابه في جانب كبير منها مع نظام الحسبة كنظام إسلامي موجود منذ فجر التاريخ تقرر جانبٌ كبير منه لحماية البيئة كما سبق وأن استعرضنا.

وقد جاء إعلان (ريو) بشأن البيئة والتنمية حاسماً وقاطعاً في التأكيد على حق الإنسان في بيئة سلمية، حيث نص المبدأ الأول من مبادئ الإعلان على أن (يدخل الجنس البشري في صميم الاهتمامات المتعلقة بالتنمية المستدامة، وله الحق في أن يحيا حياة صحية ومنتجة بما ينسجم مع الطبيعة) [(٢)].

وباعتبار أن الدول الإسلامية تعد مجتمعاتها جزءاً لا يتجزأ من دول العالم، وانطلاقاً من ضرورة التأسيس لما يطرحه المجتمع المسلم على الآخر من تصورات لعلاج مختلف المشاكل البيئية، فإن من

---

(١) صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة القانون الدولي العام، مرجع سبق ذكره، ص ٩١٨.

(٢) المرجع السابق نفسه، ص ٩٢١.

الضرورة إبراز معالم دور التصورات والنظريات الإسلامية المستنبطة من الأصول الشرعية في حماية البيئة، وإنه وإن كانت الدول الصناعية الكبرى هي صاحبة السيطرة على تحريك مقدرات العالم، وهي السبب الأكبر لما تتعرض له البيئة من مشكلات تتفاقم يوماً بعد يوم، وهي صاحبة الدور الفعّال في تأصيل ووضع النصوص التي تحمي البيئة، فإن ممثلي الكيانات المسلمة عليهم بذل جهدهم على قدر طاقتهم، والله تعالى يأمر الأمة بتقواه قدر الاستطاعة، وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾[1].

فنحن كأمة دعوة لا مانع من أن نعرض التصورات الإسلامية في علاج المشاكل البيئية في مختلف الجوانب – خاصة الجوانب التشريعية – ذات التأثيرات الأكبر، ففي المؤتمرات العالمية التي تُعنى بالبيئة يمكن أن تقدم الدول الإسلامية تصوراتهم في النظرة إلى البيئة وتأصيل تنظيم العلاقة بين الإنسان وعناصرها ومكوناتها من منظور الإسلام.

ومن الفعاليات الإقليمية التي عقدت من أجل مناقشة منظور الإسلام في حماية البيئة والعمل على إيصال ما يتصل به من حقائق لمختلف الجهات المعنية بالمسألة، حيث رفع ما تم التوصل إليه من مبادئ تعكس منظور الإسلام في رعاية وحماية البيئة إلى الجهات التالية:

- **منتدى ٩٧**: وهو المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي، والذي عقد في جدة في رجب ١٤٢١، الموافق أكتوبر

---

(١) التغابن ١٨.

٢٠٠٠، حيث أشار فيما صدر عنه في إعلانه بأن برنامج الأمم المتحدة للبيئة بما له من دور رئيسي في حماية البيئة ينبغي أن يعزز على المستويات الإقليمية والعالمية، وأن من واجبه التحقق من دمج الجانب البيئي في خطط ومشاريع التنمية عند الإعداد لقمة الأرض ٢٠٠٢، كما أكد ضرورة أخذ احتياجات الدول الإسلامية في الاعتبار.

- **المنتدى العالمي الأول للبيئة من منظور إسلامي**: والذي عقد بمدينة جدة في رجب ١٤٢١، الموافق أكتوبر ٢٠٠٠، وذلك بناءً على دعوة من مصلحة الأرصاد وحماية البيئة بالمملكة العربية السعودية، وشاركها في الدعوة وزارة الخارجية السعودية ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة والمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسسكو)، والهيئة الإقليمية للمحافظة على بيئة البحر الأحمر وخليج عدن، والبنك الإسلامي للتنمية.

وقد نص الإعلان الصادر عن المؤتمر الأول لوزراء البيئة في الدول الإسلامية بجدة استذكار القرار رقم (١١ /٩- أ.ق) الصادر عن مؤتمر القمة الإسلامي التاسع بشأن البيئة من منظور إسلامي، والذي كلف بموجبه المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة "إيسيسكو" بالتنسيق مع برنامج الأمم المتحدة للبيئة والهيئات والمنظمات الدولية والإقليمية المعنية بإعداد برنامج عمل يقدم إلى مؤتمر القمة العالمي

للتنمية المستدامة القادم في جوهانسبرج عام ٢٠٠٢ يمثل وجهة النظر الإسلامية تجاه البيئة والتنمية [١].

إن تضافر الجهود بتحقيق التعاون بين الأطراف الدولية على اختلاف انتماءاتها تحقيقاً لحماية البيئية التي تقع ضمن النطاق الدولي واجب شرعي يتعين على ممثلي الدول الإسلامية التعاون من أجل تحقيقه وتفعيله، فالانضمام إلى الاتفاقيات الدولية التي من شأنها أن تحقق الحماية والرعاية للبيئة وتحفظها من التلوث لا بد من المبادرة إلى تحقيقه فضلاً عن المساهمة فيه من مختلف الأصعدة. ثم إن تحقق الفعالية والتأثير في هذه المشاركات ينطلق من إبراز الذات بما تمثله من مبادئ ورؤى لا بد من عرضها من أجل إيصال منظور الإسلام لعلاقة الإنسان بهذه البيئة التي سخرها الله تعالى لحق انتفاع الإنسان، وأوجب عليه حمايتها بالالتزام الضوابط الشرعية المرعية، وقرر ضمن تأصيله لعلاقة الإنسان بالبيئة للعديد من المبادئ السامية الراقية التي يجب أن يتعرف عليها العالم متمثلة في سلوك الذات وفي الممارسات؛ ليرى سمو ورفعة التشريع الرباني في تنظيم لعلاقة الإنسان بالبيئة التي تحيط به من كل جانب.

وبذلك فإنه لا بد من استثمار منظور الإسلام في حماية البيئة فيما يقر إقليمياً من تشريعات واستراتيجيات لحماية ورعاية البيئة،

---

(١) تقرير منشور على موقع المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو) www.isesco.com، وتاريخ دخول الموقع هو ١ أكتوبر ٢٠٠٧.

ولابد من تضافر الجهود وتكاتفها من أجل تفعيل منظور الحماية تربية وتشريعاً في مختلف المؤتمرات والقمم الدولية التي تعقد للحماية البيئة ورعايتها وإعادة توزانها إلى حيزه الطبيعي بما يحفظ على الإنسان حياته ووجوده تلبية لمختلف الاحتياجات وعلى رأسها العبادة لله الواحد القهار ما تعاقب الليل والنهار.

الخاتمة

الخاتمة

يذكر عبد الحكيم الصعيدي في كتابه (البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني) أن من أهم ما تميزت به العقيدة الإسلامية عن غيرها من الشرائع أنها جاءت ضمن منظورها بتصور كامل عن الحياة والإنسان والكون، وأرست لذلك سنناً كونية ثابتة لا تتغير؛ وذلك لأن قوى التحكم من حيث الوجود والعدم ليست بشرية، في حين أسندت كثيراً من الظواهر الكونية المتعلقة بالإنسان إلى الإنسان نفسه.

ثم يقرر من جانب آخر بأن وجود الظواهر العلمية التي تفرض وجودها منذ بدء الخلق وإلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها حفي بأن ندرك بأن الكون لا يمكن أن يعجز بقدرة الله تعالى الذي خلقه عن تلبية حاجات الإنسانية مهما كانت صفتها، أو اتسعت رقعتها، أو ازداد عدد أفرادها، حيث يكاد يتفق أنه لا البيئة وحدها ولا المادة وحدها ولا أي اتفاق أو اتحاد كيماوي آخر بين عناصر الطبيعة يمكن له أن يأتي مصادفة، أو أن يوجد الحياة الإنسانية على شكلها الطبيعي الذي يقرره العلماء، ويعترف به المؤمن والكافر، وذلك بغض النظر عن الصورة التي يرسمها كل منهم لطريقة التطور أو الزمن الذي استغرقه حتى وصلت الأمور إلى ما نحن عليه اليوم.

ثم يؤكد على أن البيئة من المنظور الإسلامي ليست أمراً طارئاً، وإنما هي جزء لا يتجزأ من عقيدة المسلم وإيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله وقضائه وقدره، ولا يمكن لها أن تكون يوماً بحاجة إلى دراسات مستفيضة تزيد على التذكير الذي أمرنا به الشرع لمن ألقى السمع وهو شهيد، فالنظافة وجمال المنظر، وسلامة الزمان والمكان، والحذر من الدنس والرجس والخبث، والبعد عن مواطن الداء ومسبباته كلها أمور تضمنتها نصوص الشريعة بصورة لا يحتاج معها المسلم إلى مزيد [١].

وبذلك فإن الدراسات التي أصّلت ما يتصل بتسخير البيئة بين حق الانتفاع وواجب الحماية من منظور الإسلام دراسات تناقش مسلمات تستقرئها لعلها من خلال مستجدات العصر، وهي امتداد لما بذله المسلمون الأوائل من استقراء وتحليل لمختلف الأبعاد التي تتصل بذلك، وقد كان الاستقراء لهذه الأبعاد وتحليلها ضرورة فرضتها المساحة الشاسعة لمعالجة هذه النصوص التي تتصل بإرساء حقيقة علاقة الإنسان ببيئه تفاعلاً وانسجاماً.

إن العلاقة بين البيئة والإنسان بآلياتها وأدواتها ترتبط ارتباطاً لا ينفك بالنظرة إليها وبمفهومها الذي يستقر في الوجدان، ومالم يتأت الالتزام بضوابط الانتفاع وفق ما قررته النصوص والاجتهادات الفقهية، فإنه لا يمكن أن يتقرر واجب الحماية الذي يستعين بها المنتفع

---

(١) الصعيدي – عبد الحكيم عبد اللطيف، البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، مرجع سبق ذكره، ص ١٧٧.

لإبقاء عناصر ومكونات البيئة صالحة للتسخير لنفع الإنسان وغيره من الكائنات في مقومات حياته.

وبذلك فإن الدراسات التي تعالج منظور الإسلام للبيئة وعلاقة الإنسان بها، وما يتصل بحق الانتفاع وفق الضوابط المقررة، وواجب الحماية وفق الأدوات المتاحة لا تعدو دراسات تظهر على سبيل التفصيل والتحليل المعمّق الأبعاد والاستراتيجيات التي احتواها منظور الإسلام في معالجته لقضايا البيئة، وهو ما تحقق في هذه الدراسة وفي الدراسات السابقة للموضوع.

لكن القضية لا تتمثل في التنظير، بل لا بد من العمل على استيعاب مختلف الرؤى والاستراتيجيات ضمن برنامج عملي فعّال يحيي هذه المبادئ والتوجيهات، ويعمل على تفعيلها تربوياً وتشريعياً، وهي مسألة يُعنى بها التربويون وأهل القانون في تضافر للجهود مع المستوعبين لمنظور الإسلام تجاه البيئة، مما يستلزم من التربويين برامج عملية لإحياء الجوانب التربوية التي من شأنها أن تحيي قواعد الشريعة في رعاية البيئة، ويكون لها دور في أن تربي الإنسان عليها من منطلق كونها عبادة من أقدس العبادات، كما يستلزم من خلال النطاق الإقليمي والعالمي من جانب أهل القانون العمل على وضع منظومات قانونية من شأنها أن تحمي البيئة من ظلم واستغلال الإنسان، حيث لا يمكن تحقيق الحماية بأحدهما دون الآخر، فالتربية البيئية والحماية التشريعية عنصران يتكاملان لتعزيز واجب الحماية للبيئة بآلة السلوك وآلة التشريع.

لقد ركز هذا البحث على التحليل المعمّق لعدد من المسائل التي تتصل بموضوع تسخير البيئة بين حق الانتفاع وواجب الحماية من منظور الإسلام. ولئن كانت نتائج البحث قد ضمنتها ثنايا البحث، إلا أن النتائج الأخيرة تعبر بطريقة أوضح عن ثمرة هذا البحث الذي بذل فيه الباحث الجهد من أجل بلوغها وتحقيقها وعرضها بمعالجة منهجية وواقعية، هذا فضلا عن أن هناك عدداً من التوصيات والتوقعات التي ترتبط بتحصيل هذه النتائج نستعرضها فيما يلي:

أولاً - النتائج :

من خلال ما تم استعراضه من محاور في هذه الدراسة التي تتصل بمعالجة منظور الإسلام في تسخير البيئة بين حق الانتفاع وواجب الحماية للبيئة، فإن ما أمكن التوصل إليه من نتائج من خلال تحليل المحاور التي تم استعراضها في هذه الدراسة يتمثل أبرزه فما يلي:

لما كان تصور الأشياء والنظرة إليها يحكم بناء وتأصيل العلاقة بها، فإنه ما لم يقم ذلك على أحكام شريعة الله تعالى فإنه سيكون ضربا من الانحراف عن الفطرة السوية التي كرّم الله تعالى بها الإنسان.

١. لا يمكن بأي حال من الأحوال أن ننطلق في نظرتنا الاستكشافية للعلوم وتحصيلها وتطويرها من القاعدة التي أصّل على وفقها الغربيون استكشافهم للعلوم وتحصيلها وتطويرها، فنظرتهم للأشياء انطلقت بسبب خلفيات علاقتهم بالكنيسة من العداء

للدين والتملّص من قيوده، لا سيما وأن قواعد دينهم لا تشتمل على ما يحرّك فيهم نزعة العلم والبحث.

٢. هناك قصور كبير في عرض حقائق الدين التي تتصل بالاستكشافات، لا سيما وأن ذلك يعد ضرباً هاماً من ضروب الدعوة ذات التأثير المجدي والنافع لإقناع المجتمعات غير المسلمة بربانية المصدر.

٣. إن البيئة بما اشتملت عليه من مكونات وعناصر تعتبر في مجموعها نعماً من نعم الله تعالى على الإنسان، حيث يتعين عليه الشكر للمنعم على هذه النعم، وذلك مما يميز نظرة الإسلام للبيئة عن نظرة غيره من المذاهب الفلسفية والوضعية، ولا شك أن أعظم تعبير بالشكر لهذه النعم يتمثل في المحافظة عليها وصيانتها.

٤. إن تسخير البيئة لخدمة الإنسان إنما تقرر من عند الله تعالى في علم الغيب حتى يكون خليفة لله في أرضه، فهو محاسب على كل تقصير في حقها، وكل إفراط أو تفريط في الانتفاع من خيراتها، كما أنه مسؤول عن حمايتها وصيانتها حتى تحفظ توازنها ليكون خليفة بحق لله في أرضه.

٥. إن ميزة التكليف تعتبر محور التمييز للإنسان على سائر المخلوقات، حيث لا يشاركه أحد في هذه المزية، فهو منفرد بها ومكلّف بالعبادة بناء عليها، والتي منها رعاية البيئة والرفق بها.

٦. إن معالجة قضايا البيئة التي فجرتها الأزمة الراهنة التي تعيشها من منظور إسلامي، ووفقًا لما قرره في دراسته القيّمة من أن هذه الأزمة هي في جوهرها أزمة ثقافية، وبناء على ذلك فإن علاجها يكون بالأساس علاج ثقافي. ومن أبرز أبعاد هذا العلاج اعتبار رعاية البيئة عبادة والتزاماً ينجم عن مخالفتها منكر يرتكبه المرء في حق ما استأمنه الله تعالى عليه.

٧. إن الحضارة الإسلامية تعاملت مع البيئة تعاملاً يكون فيه للاستنفاع الروحي نصيبٌ وافرٌ يوازي الاستنفاع المادي، وذلك سواء كان استنفاعًا معرفيًا بحقيقة البيئة في ذاتها أو في دلالاتها العقدية، أو استنفاعًا جماليًا بما هُيِّئت عليه من مشاهد الجمال، ولكن الحضارة الغربية كان التوجيه الثقافي العملي فيها يخلو فيما يتعلق بارتفاق البيئة من معنى الاستنفاع الروحي، ويتمحض للاستنفاع المادي، فسلكت هذه الحضارة في البيئة مسلك الاستنزاف المرهق، فيما سلكت الحضارة الإسلامية فيها مسلكاً عدلاً تحقق فيه الحفظ والصيانة لمقدرات البيئة، وهو ما أدى إلى الأزمة البيئية الراهنة التي يعاني منها العالم بسبب سيطرة الغرب على مقدراته.

٨. عندما يكون الانتفاع المادي بمرافق البيئة وسيلة لا غاية، فإن الإنسان سيأخذ منه بحظوظ مقدرة بأقدار الغاية التي تتمثل في الحاجة في مختلف أبعادها، وهو ما يكون له الأثر الإيجابي على البيئة، بخلاف ما إذا كان ذلك الانتفاع غاية في حد ذاته، فإنه

سينتهي لا محالة إلى إرهاق البيئة والإخلال بتوازنها بالاستهلاك المفرط لمقدراتها، وذلك في سبيل تحقيق الرفاه المادي إذ هو الغاية التي ليس وراءها غاية، وتلك هي حال الحضارة الغربية فيما انتهت إليه من أزمة بيئية حينما جعلت المنفعة المادية من العطاء البيئي الغاية العليا في الحياة التي ليس وراءها غاية.

٩. لقد قرر الله سبحانه وتعالى للانتفاع بالبيئة قوانين وضوابط مالم يلتزم بها الإنسان فإن ذلك سيؤدي إلى الإضرار به في المقام الأول، وما الأمراض والأوبئة التي تتجدد عقداً بعد عقد إلا دليلٌ على هذه الحقيقة، حيث تنبع من تلك البيئة التي يخرق فيها قانون الانتفاع بما يجر الإنسان إلى ما لا تحمد عقباه.

١٠. لما كانت البيئة المحيطة بالإنسان بخيراتها قد سخرها الله تعالى وجعلها فتنة للإنسان قد تلهيه عن الغرض الأساسي من خلقه والمتمثل بعبادة الله تعالى والقرب منه، فإن منظور الإسلام في دلالته على التمتع بخيرات الله ونعمه جاء ليبين للإنسان فضل الزهد في الدنيا، كما حثه على التقلل منها، شاكراً المنعم جل في علاه.

١١. إذا كانت البيئة قد سخرها الله تعالى مادةً وروحاً لخدمة الإنسان باعتباره الوصي والقيم عليها، فإنه عندما يزول عنه هذا الوصف فإن حالها المسخّر الذي كانت عليه يزول إعلاماً بانتهاء صلاحيتها لحياته واقتراب الساعة، كما أن الله تعالى قد يجري البيئة على خلاف العادة تحقيقاً لجانب الإعجاز والكرامة، أو للاختصاص

بعد الابتلاء، كما يكون كذلك تعذيباً على ما اقترف الإنسان من المعاصي والآثام، مما يستلزم النظر في ذلك للعبرة والاتعاظ، هذا فضلا عن أن يكون ذلك بغرض إظهار لقدرة الله تعالى في تسخير مكونات البيئة وعناصرها.

١٢. إن الذات الإنسانية نظراً لكونها تشكل العنصر الأهم من عناصر البيئة، فقد جاء الاهتمام بنظافتها على نحو يجعلها أكثر تميزاً عن غيرها من المخلوقات، ولا شك أن رعاية الطهارة والنظافة للذات ترتبط بصورة مباشرة بطهارة المحيط الذي تمارس فيه هذه الذات مختلف أمورها الحياتية.

١٣. إن مفهوم الإسراف يتسع ضمن المنظور الإسلامي ليستوعب كل تسخير للمنافع دون الالتزام بضوابط الدين، فهو يرتبط في ذلك بمجرد التسخير بما يخالف مبادئ الدين وضوابطه، ولا يرتبط بالتبذير والاستنزاف فحسب.

١٤. إن أسلوب الترشيد كسلوك يحفظ الإنسان من الوقوع في مهلكة الإسراف والتقتير يحتاج إلى تربية بيئية إيمانية تنطلق من خلال بناء منظومة سلوكية تربوية من شأنها أن تحمي البيئة من استهتار الإنسان وضعف وعيه وإدراكه لخطورة تصرفاته على نفسه وعلى ما يحيط به من عناصر تقررت مسؤوليته عنها.

١٥. إن الإسلام لا يقر بمسألة الندرة في الموارد البيئية الطبيعية لما في ذلك من مخالفة لما يقرره البعد العقدي في علاقة الإنسان بالله، وهو

بذلك يتناقض جملة وموضوعاً مع ما تقره المذاهب الوضعية التي تقوم على فكرة الاختلال، ومؤداها أن الحياة بطبيعتها تقوم على سلسلة من التناقضات والصراعات. وبذلك تكمن المشكلة الحقيقية في سوء توزيع الدخول والثروات التي أنعم الله تعالى بها على عباده بالقسطاس وبحساب موزون بحيث لا يطغى جانب على آخر.

١٦. إن تحقيق الأمن الغذائي يرتبط بإرادة الله تعالى في الجملة والتفصيل ارتباط السبب بالمسبب وفق العادة أو لم يرتبط، فالأمر منه وإليه، والتوكل لا يصح إلا عليه.

١٧. إن العلاقة بين الإنسان والبيئة علاقة صداقة فكل من طرفي العلاقة يأنس بالآخر ولا يستطيع العيش دونه. كما أنها علاقة حاجة تجعل كل طرف فيها غير مستغن عن الآخر.

١٨. لم تعد التربية البيئية قائمة على النظم السلوكية التي تنبع من قواعد وتوجيهات الدين والأخلاق فحسب، بل أصبحت تتطلب اكتساباً للمعارف والمهارات والقيم التي تساعد على الوعي العقلاني الرشيد مع مكونات البيئة أو الموارد الطبيعية.

١٩. لا بد من استثمار منظور الإسلام في حماية البيئة فيما يقر إقليمياً من تشريعات واستراتيجيات لحماية ورعاية البيئة، ولا بد من تضافر الجهود من أجل تفعيل منظور الحماية للبيئة تربية وتشريعاً في مختلف المؤتمرات والقمم الدولية التي تعقد لحماية البيئة.

٢٠. لا يمكن تحقيق واجب الحماية التزاماً بضوابط الانتفاع مالم يتكامل بناء الأدوار بين عنصري الحماية – التربية البيئية والحماية التشريعية –، حيث يعتبر كل منهما معالجة لجانب من سلوكيات المجتمع وضبطاً لممارساته، وكلما زاد تمدن المجتمع احتاج لضبط سلوكياته وفق منظومة قانونية أكثر من إمكانية تحقق ذلك وفق منظومة وبرنامج تربوي.

ثانياً - التوصـيات :

من خلال ما تم التوصل إليه من نتائج فإن ما يمكن الخروج به من توصيات بعد هذا التحليل المعمق لموضوع الدراسة يتمثل أبرزه فيما يلي:

١. استثمار منظور الإسلام فيما يتصل بربطه بالاستكشافات العلمية كسبيل ناجع للدعوة إلى دين الله تعالى.

٢. التصدي لمختلف ما يتعارض مع أصول الدين وقواعده في تحصيل الاستكشافات العلمية التي تم التوصل إليها من خلال الأبحاث الغربية التي لا تضع في اعتبارها قواعد الدين ومرتكزاته، والانتفاع بما تم التوصل إليه من علوم استكشافية، مع الوضع في الاعتبار ضوابط الدين ومرتكزاته في تحصيل ذلك.

٣. الربط بين التربية البيئية والوعي البيئي باعتبار تكامل كلا العنصرين، وبذلك فإنه لا يمكن تعزيز أحدهما بمنأى عن

الآخر، لا سيما في ظل تعقد العملية الحيوية للدورة البيئية في ظل معطيات الواقع المعاصر.

٤. المبادرة إلى تعميم المفاهيم والسلوكيات البيئية من منظور الإسلام في المناهج الدراسية، والبرامج الإعلامية، ومختلف قنوات التواصل والاتصال بالجمهور، وذلك من خلال تفعيل برامج توعوية وتربوية تهدف إلى خلق توجهات نحو حماية البيئة لدى الأفراد من خلال منظور الإسلام، بالإضافة إلى إقامة الندوات وورش العمل من أجل تعزيز إيجاد آلية للالتزام بضوابط الانتفاع إلى جانب سلوكيات وبرامج تحقيق واجب الحماية على حد سواء.

٥. العمل على وضع تشريع بيئي إسلامي ينبع من تعاليم الدين الحنيف ومرتكزاته يلتزم به المخططون وصناع القرار عند وضع خطط التنمية لموارد البيئة بما يكفل صيانتها وتنميتها.

٦. تضافر الجهود الإقليمية والدولية على دعم استثمار رعاية البيئة وحمايتها وفق منظور الإسلام.

٧. حصر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية والتطبيقات الفقهية في مختلف المذاهب، والعمل على استنباط القواعد والتخريجات لمختلف ما يتصل بمنظور الإسلام في رعاية البيئة، وذلك بمعالجة يُراعى فيها المستجدات والمتغيرات، وإبراز المحاور المثارة ضمن ذلك في دراسات أكثر تعمقاً وأكاديمية نظراً لأهمية الموضوع وشدة صلته بواقع الإنسان ومستقبله.

ثالثاً - التوقعـــات :

إن من شأن البحوث العلمية المنهجية أن تساعد الباحث على تبين الأنساق الكامنة في مساقات الأحداث وسنن التغيير، وتكوين رؤية حدسية استشفافية عن المآلات؛ وذلك انطلاقا من النتائج المستحصدة من العمل البحثي، وذلك في حدود ما يتاح من العلم لبني الإنسان، ولا يعلم الغيب إلا الله، وانطلاقاً من هذه النتائج، وبناء على ما تم التوصل إليه من توصيات فإن توقع الباحث يتمثل فيما يلي:

١. مزيداً من الكوارث والأزمات البيئية التي ستعصف بالعالم نتيجة اختلال التوازن بين عناصر البيئة ومكوناتها بسبب تراكم انتهاكات الإنسان وعدم التزامه بتعهداته والتزاماته نتيجة لأطماعه.

٢. ضعفٌ في تأثير الوعي البيئي والتربية البيئية من منظور الإسلام نتيجة غياب الاستراتيجيات البيئية الكفيلة بإحياء ذلك تنظيراً وتفعيلاً.

٣. نظراً لتفاقم خطورة الأزمات والكوارث وتزايد تهديدها لحياة الإنسان تتعاظم جهود المهتمين بالبيئة، ولكن دون تحقيق الأثر المرجو.

ومن جانب آخر يطرح عصام الحناوي عدداً من السيناريوهات للوضع المستقبلي أو المحتمل، ويقرر بأن استطلاع حالة البيئة يعتبر من

أعقد العمليات، حيث أن ذلك يتوقف على عناصر وأمور كثير ترتبط بتفاعلات البيئة والتأثير المتصل بهذه التفاعلات [١].

ومن السيناريوهات التي ذكرها الحناوي مما يهم طرحه في هذه الدراسة ما يتصل بسيناريو الدولة الإسلامية التي تمثل مجموع الكيانات الإسلامية، وما يتصل بالتوقعات حول العوامل المؤثرة في أوضاع البيئة المستقبلية لهذه الكيانات، ومما أورده في ذلك.

١. رفض الحضارة والأساليب الغربية وعدم الاندماج في العولمة.

١. عدم تبني سياسات للحد من النمو السكاني، ومن ثم فقد تتراجع جهود تنظيم الأسرة بعض الشيء.

٢. الدعوة إلى مراعاة العدالة الاجتماعية من خلال إعطاء أولوية خاصة لإشباع الحاجات الأساسية.

٣. بذل جهد كبير في استخلاص دروس من التراث ومن الممارسات الإسلامية لتوجيه البحث العلمي والتطوير إلى مجالات مشجعة على الاقتصاد في استخدام الموارد والعناية بالبيئة، وحفظ حق الأجيال القادمة في الموارد الطبيعية (أي الاتجاه نحو تحقيق التنمية المستدامة) [٢].

---

(١) الحناوي – عصام، قضايا البيئة والتنمية في مصر – الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية حتى عام ٢٠٢٠، منتدى العالم الثالث، مكتبة مصر ٢٠٢٠، ط: ١، ١٤٢٢ – ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة – مصر، ص ١٠٦.

(١) الحناوي – عصام، قضايا البيئة والتنمية في مصر – الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية حتى عام ٢٠٢٠، مرجع سبق ذكره، ص ١٤٧.

٤. من الناحية التشريعية يتوقع إعادة النظر في تشريعات حماية البيئة وجعلها أكثر واقعية للتعامل مع المشكلات المحلية، مع تشديد العقوبات على المخالفين، وتحديد آليات أفضل للتنفيذ [١].

وبذلك فإن مستقبل الاستثمار لمنظور الإسلام في تنمية البيئة ورعايتها يعتبر مستقبلاً غامضاً، حيث إنه وإن كان الحناوي يتوقع مزيداً من التنظير لاستخراج مختلف ما يتصل بدروس التراث والممارسات الإسلامية لدعم قضايا البيئة، إلا أني أرى أنه ليس هناك ثمة قاعدة صلبة تتمثل بالوعي بالدين وإدراك بعده المستوعب لمصلحة الإنسان يمكن أن ترتكز عليها هذه الجهود.

ولكن رغم ما تتصل به القريحة والتكهنات من توقعات، إلا أن الأمل معقود بحول الله تعالى وقوته على تغيير هذه الحقيقة للمجتمعات الإسلامية من خلال تصحيح النظرات والتعاقدات مع مختلف المستجدات والمتغيرات لتكون عناصر مؤثرة لا متأثرة، وفاعلة لا مفتعلة، ومنتجة لا مستهلكه، فلا تكون كغثاء السيل الذي يحركه الموج، بل تكون موجاً يحرك المنظومات الفكرية والتوجهات السلوكية بخير أداة لإصلاح الإنسان متمثلة بما شرعه الله تعالى للإنسان انتفاعاً بخيري الدنيا والآخرة على حد سواء.

(١) الحناوي – عصام، قضايا البيئة والتنمية في مصر – الأوضاع الراهنة وسيناريوهات مستقبلية حتى عام ٢٠٢٠، مرجع سبق ذكره، ص ١٥٣.

وفي الختام نسألك اللهم أن تبارك لنا في أرضنا، وأن تسقينا ماء طهوراً مباركاً، وأن تجعل رزقنا رغداً، وأن تغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا، وأن تجعلنا هادين مهديين غير ضالين ولا مضلين يا ولي المتقين.

ربنا آتنا في الدنيا حسنة، وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار ... نسألك قبول أعمالنا خالصة لوجهك الكريم، وأن تجعل صوابها نفعاً، وأن تجعل خطئها مغفرة من عندك لما أصابنا من زلل، إنك أنت نعم المولى ونعم النصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

قائمة المراجع

قائمة المراجع

القرآن الكريم

أولاً - كتب التفسير :

١. ابن عطية – أبو محمد عبد الحق الأندلسي، تفسير ابن عطية – المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ت: الرحالة فاروق، الأنصاري – عبد الله بن إبراهيم، السيد عبد العال السيد إبراهيم، و العناني – محمد الشافعي الصادق، ط: ٢، ١٤٢٨ – ٢٠٠٧، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة – قطر.

٢. السعدي – عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، تصحيح: البسام – محمد سليمان، ط: ١، ١٤٠٨ – ١٩٨٨، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، القاهرة – مصر.

٣. المحلي – جلال الدين محمد بن أحمد و السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، تفسير الجلالين، ت: صبري محمد موسى ومحمد فايز كامل بإشراف أبو الخير – علي، ط: ٣، ١٤٢٣ – ٢٠٠٢، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

ثانياً - كتب الحديث والسيرة :

١. النووي – أبو زكريا يحي بن شرف، رياض الصالحين، حققه وأخرج أحاديثه رباح – عبد العزيز، والدقاق – أحمد يوسف، وبمراجعة الأرنؤوط – شعيب، ط: ١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، دار السلام للنشر والتوزيع، الرياض – السعودية.

٢. الجوزية – ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، ط: ٣، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٣. محمد فؤاد عبد الباقي، اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان، ط: ١، كتاب صادر ضمن مشروع طالب العلم، جمعية إحياء التراث الإسلامي، إدارة بناء المساجد والمشاريع الإسلامية، الضاحية – الكويت، مكتبة دار الفيحاء، دمشق – سوريا، ومكتبة دار السلام، الرياض – السعودية.

٤. ابن كثير – أبو الفداء إسماعيل، السيرة النبوية، ت: مصطفى عبد الواحد، ط: ١، ١٤٠٣ – ١٩٨٣، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

٥. البوطي – محمد سعيد رمضان، فقه السيرة النبوية مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، ط: ١١، ١٩٩١، دار الفكر المعاصر، بيروت – لبنان، دار الفكر، دمشق - سوريه.

ثالثاً - الكتب العامة :

٢. أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، المنهج الإسلامي لعلاج تلوث البيئة، سلسلة المعارف البيئية، ط: ١، يناير ١٩٩١، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٣. أحمد عبد الوهاب عبد الجواد، التشريعات البيئية، ط: ١، يناير ١٩٩٥، الدار العربية للنشر والتوزيع، القاهرة – مصر.

٤. ازدمير – إبراهيم، البيئة في الإسلام، ط: ١، ١٤٢٩ – ٢٠٠٨، بلنسية للنشر والتوزيع، المنوفية – القاهرة.

٥. الحناوي – عصام، قضايا البيئة والتنمية في مصر – الأوضاع الراهنة وسناريوهات مستقبلية حتى عام ٢٠٢٠، منتدى العالم الثالث، مكتبة مصر ٢٠٢٠، ط: ١، ١٤٢٢ – ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة – مصر.

٦. آل خليفة – فاطمة عبد الله، التربية البيئية في الإسلام – منهج الكون ومنهج الإنسان، ط: ١، ١٤٢٤ – ٢٠٠٤، دار الفكر العربي، القاهرة – مصر.

٧. السرياني – محمد محمود، المنظور الإسلامي لقضايا البيئة – دراسة مقارنة، ط:١، ١٤٢٧- ٢٠٠٦، الرياض – السعودية.

٨. الصافي – صفاء الدين محمد عبد الحكيم، حق الإنسان في التنمية الاقتصادية وحمايته دوليا، ط: ١، ٢٠٠٥، من منشورات الحلبي الحقوقية، بيروت – لبنان.

٩. الصباريني – محمد سعيد والحمد – رشيد حمد، الإنسان والبيئة – التربية البيئية، ط: ١، ١٩٩٤، غير معلوم جهة الطباعة والنشر.

١٠. الصعيدي – عبد الحكيم عبد اللطيف، البيئة في الفكر الإنساني والواقع الإيماني، ط: ٢، ١٤١٦ – ١٩٩٦، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة – مصر.

١١. العادلي – محمد صالح، الجواهر المضيئة في الإسلام وحماية البيئة، ط: ١، ١٤١٥ – ١٩٩٥، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر.

١٢. العجمي – ضاري ناصر وعبد المنعم مصطفى مصطفى، الإنسان وقضايا البيئة، ط: ١، ١٤١٥ – ١٩٩٥، حقوق الطبع محفوظة للمؤلفين.

١٣. آل فوزان – صالح بن فوزان بن عبد الله، الملخص الفقهي، ط: ١، ربيع الأول ١٤١٥ – ١٩٩٤، دار ابن الجوزي، الرياض – السعودية.

١٤. القرضاوي – يوسف، رعاية البيئة في شريعة الإسلام، ط: ٢، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، دار الشروق، القاهرة – مصر.

١٥. الكندري – عبد الله رمضان عبد الله، البيئة والتنمية المستدامة، ط: ١، ١٩٩٢، مطبعة جامعة الكويت، العاصمة - الكويت.

١٦. جيرة – عبد الرحمن، الإسلام والبيئة، ط: ١، ١٤٢٠ – ٢٠٠٠، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، مصر.

١٧. خليل رزق، الإسلام والبيئة – دراسة تسلّط الضوء على موقف الإسلام وتشريعاته في مجال الحفاظ على البيئة، ط: ١، ١٤٢٧ – ٢٠٠٦، دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان.

١٨. دنيا – شوقي أحمد، التنمية والبيئة – دراسة مقارنة، سلسلة دعوة الحق، وهو كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة (١٢)، جمادى الأولى ١٤١٤، العدد ١٣٧، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية.

١٩. زقزوق – سالم مصباح، الإسلام وقضايا البيئة، سلسلة كتاب البيئة – الكتاب الثالث، المجلس الأعلى للبيئة والمحميات الطبيعية، الدوحة – قطر.

٢٠. زيدان – زكي زكي حسين، الأضرار البيئية وأثرها على الإنسان، وكيف عالجها الإسلام ؟ ط: ١، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، العاصمة – الكويت.

٢١. زكريا خنجي، المرأة والبيئة والتنمية المستدامة – دليل المرأة نحو منزل بيئي، ط: ١، ٢٠٠٦، الهيئة العامة لحماية الثروة البحرية والبيئة والحياة الفطرية، مدينة عيسى – البحرين.

٢٢. زين الدين عبد المقصود، البيئة والإنسان – رؤية إسلامية، ط: ١، ١٤٠٦ – ١٩٨٦، دار البحوث العلمية للنشر والتوزيع، العاصمة – الكويت.

٢٣. شحاته – عبد الله، رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة، ط: ١، ١٤٢١ – ٢٠٠١، دار الشروق، القاهرة – مصر.

٢٤. صلاح الدين عامر، مقدمة لدراسة القانون الدولي العام، ٢٠٠٧، مطبعة جامعة القاهرة، دار النهضة العربية، القاهرة – مصر.

٢٥. عاطف أبو زيد سليمان علي، إحياء الأرض الموات في الإسلام، سلسلة دعوة الحق، كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم الإسلامي، السنة (١٤)، ١٤١٦، العدد (١٦٤)، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية.

٢٦. عبد القادر عوده، التشريع الجنائي الإسلامي مقارناً بالقانون الوضعي، ط: ١٤، ١٤١٨ – ١٩٩٧، مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان.

٢٧. عمر أحمد عمر، الإسلام ومشكلات العصر، ط:١، ١٤٢٠ – ١٩٩٩، دار المكتبي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سوريا.

٢٨. محمد السيد عبد السلام، الأمن الغذائي للوطن العربي، شوال ١٤١٨ – فبراير ١٩٩٨، سلسلة عالم المعرفة الشهرية التي يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، مطابع الرسالة، العاصمة – الكويت.

٢٩. محمد بكر إسماعيل حبيب، مقاصد الشريعة تأصيلاً وتفعيلاً، سلسلة دعوة الحق، وهو كتاب شهري يصدر عن رابطة العالم

الإسلامي، السنة (٢٢)، ١٤٢٧، العدد ٢١٣، مطابع رابطة العالم الإسلامي، مكة المكرمة – السعودية.

رابعاً - معاجم اللغة وكتب أخرى :

١. الرازي – محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، ط: ١٩٩٣، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان، بيروت – لبنان.

٢. الزبيدي – محب الدين أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسيني الواسطي الحنفي، شرح تاج العروس من جواهر القاموس، ط:١، دار إحياء التراث العربي، المطبعة الخيرية، القاهرة – مصر.

٣. كتيب مطبوع بمناسبة الأربعون عاماً الأولى، ١٩٤٥ – ١٩٨٥، منظمة الأغذية والزراعة للأمم المتحدة، ١٩٨٥، روما – إيطاليا.

٤. التقرير الختامي للدورة التدريبية لتكوين المكونين في مجال التربية البيئية من منظور إسلامي، والذي عقد تحت إشراف المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (إيسسكو)، وبرنامج الأمم المتحدة للبيئة – المكتب الإقليمي لغرب آسيا (يونيب)، وذلك في الفترة ١٢ – ١٩ أكتوبر ١٩٩٧، المنامة – البحرين.

خامساً - الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت)

1. www.sheikhali-waqfia.org.qa.

2. www.islamset.com.

3. www.fikr.com.

4. www.beeaty.com.

5. www.e-cfr.org.

6. www.khayama.com.

7. www.jmuslim.naseej.com.

8. www.isesco.com.

9. www.habous.gov.ma.

تم بحمد الله تعالى ،،،

المحتويات

المحتويات

٥ تقديم مؤسسة جائزة زايد الدولية للبيئة

٩ تقديم السلسلة

١٣ المقدمة

١٦ حدود البحث

١٨ الصعوبات التي واجهت الباحث والجهد المبذول

١٩ مصادر البحث وتوثيقه

٢٢ منهجية البحث

٢٣ مشكلة البحث

٢٤ الدراسات السابقة والإضافة العلمية

٢٦ المسلمات الأساسية في البحث

٢٧ ترتيب الفصول والمباحث والمطالب

٣٣ الباب الأول: مدخل لدراسة البيئة من منظور إسلامي

٤١ الفصل الأول: مفهوم البيئة ومكوناتها وعناصرها

المحتويات

٤٣ المبحث الأول: مفهوم البيئة

٤٤ البعد اللغوي والاصطلاحي

٤٨ البعد الفلسفي والعقدي

٦٥ البعد الجمالي والتأملي

٧٤ البعد القانوني والتشريعي

٧٩ المبحث الثاني: مكونات البيئة وعناصرها

٨٠ الطبيعة الجامدة

٨٣ القوى الطبيعية

٨٦ الطبيعة الحية

٩٠ البيئة المشيدة

٩٢ النظام البيئي

١٠١ الفصل الثاني: الإنسان كعنصر متفاعل مع البيئة

١٠١ تسخير البيئة لخدمة الإنسان

١٠٨ خلافة الإنسان ووصايته على البيئة

المحتويات

١١٣ تقييم تفاعل الإنسان كعنصر مؤثر مع البيئة

١١٩ الفصل الثالث: العلاقة بين الإنسان والبيئة

١٢٢ المبحث الأول: طبيعة العلاقة

١٢٤ عنصر الوحدة

١٤٦ التسخير

١٧٧ المبحث الثاني: بناء علاقة الإنسان بالبيئة

١٧٨ علاقة المسلم وغير المسلم بالبيئة

١٨٣ مقارنة ببعض الثقافات

١٩٩ المبحث الثالث: أبعاد ومقتضيات العلاقة

٢٠١ أخلاقية التصرف البيئي

٢٠٦ القوامة على البيئة

٢١٧ الباب الثاني: حق الانتفاع بالبيئة من منظور الإسلام

٢٢٣ الفصل الأول: دلائل الانتفاع ومواطنه وآدابه

٢٢٤ اعتبارات الانتفاع وضرورته

المحتويات

٢٢٦ دلائل الانتفاع ومواطنه
٢٥٥ آداب وسلوكيات تتصل بحق الانتفاع
٢٧٩ الفصل الثاني: ضابطا الانتفاع بالبيئة
٢٨١ المبحث الأول: نظافة البيئة البشرية ووقايتها من التلوث
٢٨٢ مكانة النظافة
٢٨٩ نظافة الذات
٢٩٣ نظافة المحيط
٢٩٩ قراءة مقارنة
٣٠٢ المبحث الثاني: مشكلة الإسراف وأبعادها
٣٠٣ المطلب الأول: مشكلة الإسراف
٣٠٥ مفهوم الإسراف من منظور الإسلام
٣٠٧ فلسفة الإسلام في زجره ونهيه عن الإسراف
٣١١ مواطن الإسراف
٣١٧ منهجية الترشيد

المحتويات

٣٢١ قراءة مقارنة
٣٢٥ جوانب مشرقة
٣٣٠ المطلب الثاني: مسألة ندرة العناصر البيئية، وما يتصل بتحقيق الأمن الغذائي
٣٣٠ مسألة ندرة العناصر البيئية
٣٣٦ تحقيق الأمن الغذائي
٣٤٣ تعقيب
٣٥٧ الباب الثالث: واجب الحماية للبيئة من منظور الإسلام
٣٦٣ الفصل الأول: التأصيل الشرعي لواجب الحماية
٣٦٥ المبحث الأول: فلسفة الإسلام في حماية البيئة
٣٦٥ حرمة البيئة في الإسلام
٣٦٧ نظرة الإسلام للمحافظة على البيئة
٣٧٠ مقاصد الشريعة الإسلامية في الحفاظ على البيئة
٣٧٤ دعوة الإسلام للحفاظ على بالبيئة

المحتويات

٣٧٤ الأسس الإسلامية لرعاية البيئة

٣٧٧ عبر لحماية البيئة من قصص الأنبياء

٣٧٩ الإسلام وخدمة البيئة

٣٨١ البيئة وضبط الإنجاب من منظور إسلامي

٣٨٤ القيمة الجمالية للبيئة في الإسلام

٣٨٩ المبحث الثاني: التوازن البيئي في القرآن الكريم

٣٩٠ رؤية القرآن لهندسة النظام البيئي

٣٩٧ التأصيل القرآني لحرمة الاعتداء على البيئة

٤٠٢ المبحث الثالث: المنهج النبوي وحماية البيئة

٤٠٢ في وقت السلم

٤٠٩ في وقت الحرب

٤١٢ التأصيل النبوي لحرمة الاعتداء على البيئة

٤١٨ المبحث الرابع: التطبيقات الفقهية لحماية البيئة

٤٢٣ أفضلية العمل في الزراعة على العمل في التجارة والصناعة

المحتويات

٤٢٧ إحياء الأراضي الموات في الإسلام

٤٣١ حماية البيئة كما قررتها التطبيقات الفقهية

٤٤٩ الفصل الثاني: التربية البيئة

٤٥٠ الخلفية التاريخية وأهمية المفهوم

٤٥٣ مفهوم التربية البيئية وفلسفتها وقيمها ومنهجها

٥٩ أهداف التربية البيئية

٤٦٢ معالم تربية الأطفال بيئياً

٤٦٥ التربية البيئية ومناهج التعليم

٤٧٥ التربية البيئية وسياسة الثواب والعقاب

٤٧٨ الوعي البيئي من منطلق عقائدي

٤٨٥ الفصل الثالث: الحماية التشريعية

٤٨٦ محاور ومرتكزات البعد التشريعي

٤٩٠ المسؤولية عن المشاكل البيئية

٤٩٧ أبعاد ومقتضيات الحماية التشريعية

المحتويات

٥٠٣ حماية البيئة بين التشريعات الإقليمية والدولية
٥١٥ الخاتمة
٥١٨ النتائج
٥٢٤ التوصيات
٥٢٦ التوقعات
٥٣٣ قائمة المراجع
٥٣٣ كتب التفسير
٥٣٤ كتب الحديث والسيرة
٥٣٥ الكتب العامة
٥٣٩ معاجم اللغة وكتب أخرى
٥٤٠ الشبكة العالمية للمعلومات (الإنترنت)
٥٤٣ المحتويات
٥٥١ قواعد النشر

قواعد النشر

قواعد النشر

ترحب سلسلة عالم البيئة باقتراحات التأليف أو الترجمة في المجالات المحددة أدناه وفقاً للشروط التالية :

١ - تكون الأولوية للقضايا الملحة بالمنطقة العربية، والأفكار القابلة للتطبيق.

٢ - أن يكون الحجم في حدود ٢٠٠ - ٣٠٠ صفحة من القطع المتوسط.

٣ - أن لا يكون قد تم نشر الكتاب كاملاً أو في أجزاء من قبل.

٤ - أن لا يكون هناك نسخ لنصوص من كتاب أو بحث آخر باستثناء ما يشار إليه كإقتباس مع تسجيل كل المراجع التي استخدمت في التأليف.

٥ - في حالة الترجمة يُشار إلى صفحات الكتاب الأصلي، المقابلة للنص المترجم، وترفق نسخة باللغة الأصلية للكتاب المُترجم وموافقة المؤلف.

٦ - الهيئة الإستشارية غير ملزمة بقبول كل الاقتراحات التي تقدم لها.

٧ - يكون نشر الكتاب المقترح حسب الأولويات التي تحددها الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير.

٨ - لاتُرد المسودات والكتب الأجنبية في حالة الإعتذار عن نشرها.

٩ - أن ترسل أولاً مذكرة بالفكرة العامة للكتاب وموضوعاته وأهميته على الإستمارة المرفقة لإقتراح كتاب للنشر مصحوبة بالسيرة الذاتية للمؤلف.

١٠ - يرسل الكتاب إلى محكمين متخصصين في موضوعه لإبداء الرأي حول صلاحيته للنشر.

١١ - في حالة إجازته من المحكمين والموافقة عليه من هيئة التحرير، يستحق المؤلف مبلغ ١٥,٠٠٠ درهم إماراتي، أو ما يعادلها يتم تحويلها للمؤلف بعد إكمال كل التعديلات المطلوبة، وتقديم نسخة مطبوعة على الورق، وأخرى على قرص مدمج CD،

١٢ - في حالة قبول الترجمة والتعاقد يستحق المترجم مبلغ ١٠,٠٠٠ درهم إماراتي أو ما يعادلها، يتم تحويلها بعد إكمال كل التعديلات المطلوبة وتقديم نسخة مطبوعة على الورق، وأخرى على قرص مدمج CD،

١٣ - المترجم مسؤول عن حق الملكية الفكرية بالنسبة للمؤلف.

١٤ - مؤسسة جائزة زايد الدولية للبيئة غير مسؤولة عن محتويات الكتاب والفكرة المنشورة تعبر عن رأي الكاتب.

١٥ - لايحق للمؤلف أو المترجم إعادة الطبع،إلا بموافقة خطية من «جائزة زايد الدولية للبيئة»، التي تحتفظ بحقوق النشر.

مجالات السلسلة :

تدور مجالات السلسلة في فلك الإطار الشامل، لصون البيئة والموارد الطبيعية، وفقاً لأسس التنمية المستدامة التي تحقق التوازن بين التنمية الاقتصادية والتنمية الاجتماعية، وحماية البيئة، وتشمل المجالات الآتية:

١ – التنمية المستدامة وما يتعلق بتحقيقها من آليات اقتصادية واجتماعية وبيئية.

٢ – إدارة النظم الايكولوجية.

٣ – المياه العذبة .

٤ – صون التنوع الحيوي وحماية الحياة الفطرية وتنميتها.

٥ – البيئة البحرية والإدارة البيئية المتكاملة للمناطق الساحلية.

٦ – التنمية المستدامة للمناطق الزراعية ومناطق الرحل.

٧ – مكافحة التلوث.

٨ – التقنيات السليمة بيئياً وإدخالها في عمليات الإنتاج وإدارة الموارد.

٩ - صحة البيئة.

١٠ - نشر وتعزيز الوعي البيئي والمشاركة الشعبية.

١١ - التربية البيئية، والإعلام البيئي.

١٢ - التشريع البيئي وآليات تطبيق القوانين واللوائح.

١٣ - تعزيز دور المرأة والبيئة والتنمية.

١٤ - الأمن البيئي .

استمارة «اقتراح كتاب للنشر»

تهدي «جائزة زايد الدولية للبيئة تحياتها لكل العلماء والخبراء والباحثين العرب في مجالات البيئة والتنمية المختلفة وتدعوهم للمشاركة في هذه السلسلة بالتأليف والترجمة مساهمة منهم في توجيه التنمية في بلادنا العربية نحو الإستدامة وحفظ حقوق الأجيال القادمة في بيئة سليمة معافاة.

ولمن يرغب في المشاركة، الرجاء الإطلاع على قواعد النشر أعلاه، وملأ الاستمارة أدناه، وإرسالها بالفاكس، أو البريد، أو البريد الإلكتروني إلى «*هيئة تحرير سلسلة عالم البيئة*»:

«مؤسسة جائزة زايد الدولية للبيئة»

رقم ٥٠٤ - برج العلي - شارع الشيخ زايد

ص. ب : ٢٨٣٩٩ دبـــــي

الإمارات العربية المتحدة

هاتف : ٣٣٢٦٦٦٦ - ٠٤ (٩٧١+)

فاكس : ٣٣٢٦٧٧٧ - ٠٤ (٩٧١+)

بريد إلكتروني : zayedprz@emirates.net.ae

الاســم : ______________________

الدرجة العلمية : ______________________

الوظيفة : ______________________

العنوان : ______________________

____

الهاتف : ____________ الفاكس: ____________

البريد الإلكتروني : ______________________

عنوان الكتاب المقترح : ______________________

انظر خلفه

نبذة مختصرة عن أهمية الكتاب ومحتواه

✍ ____________________

____

____

____

____

____

____

____

____

إقـــرار

أقر أنا الموقع أدناه بأني قد اطلعت على قواعد النشر في سلسلة «عالم البيئة»، وأوافق على حفظ حقوق النشر وإعادة الطبع لمؤسسة «جائزة زايد الدولية للبيئة»، حسب الشروط الموضحة في آخر كل كتاب من السلسلة.

التوقيع : ____________________

التاريخ : ____________________

❖ الرجاء التكرم بإرفاق السيرة الذاتية للمؤلف ومختصر قائمة المحتويات..

قسيمة اشتراك في سلسلة « عالم البيئة »

الاسم : ______________________

المهنة : ______________________

العنوان البريدي : ______________________

____

الهاتف : ____________ الفاكس : ____________

البريد الإلكتروني: ______________________

____

اشتراك لمدة: ☐ سنة (٦٠ درهم) ☐ سنتين (١٠٠ درهم)

☐ نقداً ☐ مرفق شيك مصدق ☐ بطاقة إئتمان

نوع البطاقة : ☐ Visa ☐ Master Card ☐ Am Express

رقم البطاقة : ____________ المبلغ : ____________

تاريخ انتهاء البطاقة : ______________________

التاريخ : ____________ التوقيع : ____________

قسيمة شراء سلسلة «عالم البيئة»

الاسم : ______

المهنة : ______

العنوان البريدي : ______

______

الهاتف : ______ الفاكس : ______

البريد الإلكتروني: ______

شراء عدد: ______ من الكتاب رقم: ______ (١٥ درهماً للنسخة)

☐ الرجاء إرسالها إلى العنوان أعلاه.

☐ الرجاء إرسالها كهدية إلى :

الاسم : ______

المهنة : ______

العنوان البريدي : ______

______

الهاتف : ______ الفاكس : ______

البريد الإلكتروني: ______

☐ نقداً ☐ مرفق شيك مصدق ☐ بطاقة إئتمان

نوع البطاقة : Visa ☐ Master Card ☐ Am Express ☐

رقم البطاقة : ______ المبلغ : ______

تاريخ انتهاء البطاقة : ______

التاريخ : ______ التوقيع : ______

تم بحمد الله

مطبعة بن دسمال
دبي
هاتف: ٠٤/٢٨٢٣٩٨٥

العنــوان : **البيئة من منظور إسلامي**
المؤلـف : أحمد مبارك سالم سعيد عبدالله
الموضوع : بيئـي
الرقم الدولي للسلسلة : ISBN 978 - 9948 - 16 - 095 - 3
الرقــم المـوضـوعـي : 095/3
الصف التصويري : مطبعة بن دسمال
التنفيذ الطباعـي : مطبعة بن دسمال
التجليـد الفــنـي : مطبعة بن دسمال
عـدد الصفحـــات : 564 صفحة
قــياس الصفحـة : 15 سم × 21 سم
عـدد النســــــخ : 2000 نسخة

الطبعة الأولى
1431 هـ - 2011 م
(ط) 2011 م

جميع الحقوق محفوظة
يمنع نسخ هذا الإصدار أو أجزائه بكل الطرق، كالطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والإلكتروني، إلا بإذن خطي من : «مؤسسة جائزة زايد الدولية للبيئة».

رقم (504) - برج العلي - شارع الشيخ زايد
ص. ب : 28399 دبي - الإمارات العربية المتحدة
هاتـف : 3326666 4 971 +
فاكـس : 3326777 4 971 +
البريد الإلكترونـي : zayedprz@emirates.net.ae
الموقع الإلكتروني : www.zayedprize.org.ae